

مَجْمُوعَةُ فَتَاوَايَ

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

« قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ »

جَمَعَ وَتَرْتِيبُ

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم « رَحِمَهُ اللَّهُ »

وَسَاعَدَهُ ابْنُهُ مُحَمَّدٌ « وَفَّقَهُ اللَّهُ »

— المجلد الحادي عشر —

طُبِعَ بِأَمْرِ

خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود

أَجَزَلَ اللَّهُ مَثُوبَتَهُ

طبعت هذه الفتاوى في

مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

في المدينة المنورة

نحت إشراف

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

بالمملكة العربية السعودية

عام ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

② مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، ١٤١٥ هـ .

لهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

ابن تيمية ، أحمد بن عبدالحليم

فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية .

٧٢٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك ٦-٢٠-٧٧٠-١٩٦٠ (مجموعة)

١-٣١-٧٧٠-١٩٦٠ (ج ١١)

١- الفتاوى الإسلامية ٢- الفقه الحنبلي ١- العنوان

١٥/٢٠٠٩

ديوي ٢٥٨.٤

رقم الإيداع : ١٥/٢٠٠٩

ردمك : ٦-٢٠-٧٧٠-١٩٦٠ (مجموعة)

١-٣١-٧٧٠-١٩٦٠ (ج ١١)

كتاب

التصوف في علم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده . والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

مثل يبيع الإسلام

قدس الله روحه

عن « الصوفية » وأنهم أقسام « والفقراء » أقسام ، فما صفة كل قسم ؟ وما يجب عليه ؟ ويستحب له أن يسلكه (١) ؟

فأجاب : الحمد لله . أما لفظ « الصوفية » فإنه لم يكن مشهوراً في القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ : كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبي سليمان الداراني ، وغيرها . وقد روى عن سفيان الثوري أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصري ، وتنازعوا في « المعنى » الذي

(١) تسمى : الصوفية والفقراء .

أضيف إليه الصوفي — فإنه من أسماء النسب : كالقرشي ، والمدني ،
وأمثال ذلك .

ف قيل : إنه نسبة إلى « أهل الصفة » وهو غلط ؛ لأنه لو كان
كذلك لقيل : صُفِّي . وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله ،
وهو أيضاً غلط ؛ فإنه لو كان كذلك لقيل : صَفِّي . وقيل نسبة إلى
الصفوة من خلق الله وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صفوي ،
وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة ، قبيلة من العرب
كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسك ، وهذا
وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ ، فإنه ضعيف أيضاً ؛ لأن
هؤلاء غير مشهورين ، ولا معروفين عند أكثر الناس ، ولأنه لو
نسب النسك إلى هؤلاء لكان هذا النسب في زمن الصحابة والتابعين
وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم « الصوفي » لا يعرف
هذه القبيلة ، ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة في الجاهلية لا وجود
لها في الإسلام .

وقيل : — وهو المعروف — إنه نسبة إلى لبس الصوف ؛ فإنه
أول ما ظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى ديرة الصوفية
بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد وعبد الواحد من أصحاب الحسن ،
وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ،

ما لم يكن في سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفي ، وعبادة بصرية . وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف ، فقال : إن قوماً يتخيرون الصوف ، يقولون : إنهم متشبهون بالمسيح بن مريم ، وهدى نبينا أحب إلينا ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره ، أو كلاماً نحوه من هذا .

ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة في هذا الباب إنما هو عن عبادة أهل البصرة ، مثل حكاية من مات أو غشي عليه في سماع القرآن ، ونحوه . كقصة زرارة بن أوفى قاضي البصرة فإنه قرأ في صلاة الفجر : (فَإِذَا نَفَرْنَا نَقُورُ) فخرميتنا ، وكقصة أبي جهير الأعمى الذي قرأ عليه صالح المري فمات ، وكذلك غيره ممن روي أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ، ولم يكن في الصحابة من هذا حاله ؛ فلما ظهر ذلك أنكر ذلك طائفة من الصحابة والتابعين : كأسماء بنت أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن سيرين ، ونحوهم .

والمنكرون لهم مأخذان :

منهم من ظن ذلك تكلفاً وتضعفاً . يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بيننا وبين هؤلاء الذين يصعقون عند سماع القرآن إلا أن يقرأ

على أحدهم وهو على حائط فإن خر فهو صادق .

ومنهم من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدي الصحابة ، كما نقل عن أسماء ، وابنها عبد الله .

والذي عليه جمهور العلماء أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه ، وإن كان حال الثابت أكمل منه ؛ ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا . فقال : قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشي عليه ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد ، فما رأيت أعقل منه ، ونحو هذا . وقد نقل عن الشافعي أنه أصابه ذلك ، وعلي بن الفضيل بن عياض قصته مشهورة ، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب في صدقه .

لكن الأحوال التي كانت في الصحابة هي المذكورة في القرآن ، وهي وجل القلوب ، ودموع العين ، واقتشعار الجلود ، كما قال تعالى :
(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) وقال تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) وقال تعالى : (إِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) وقال : (وَإِذْ أَسْمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ

الَّذِينَ مَعَافَرُوا مِنْ الْحَقِّ) وقال : (وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) .

وقد يذم حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرين عليها ،
والجفاء عن الدين ، ماهو مذموم ، وقد فعلوا ، ومنهم من يظن أن حالهم هذا
أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها ، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

بل المراتب ثلاث :

(أحدها) حال الظالم لنفسه الذي هو قاسي القلب ،
لا يلبس للسمع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود .
قال الله تعالى : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ
كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ
فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)
وقال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ
مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
فَسِقُونَ) .

و (الثانية) حال المؤمن التقي الذي فيه ضعف عن حمل ما يرد
على قلبه ، فهذا الذي يصعق صعق موت ، أو صعق غشى ، فإن ذلك

إنما يكون لقوة الوارد ، وضعف القلب عن حمله ، وقد يوجد مثل هذا في من يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية ، يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله .. ومن عباد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه ، وكذلك في غيره ، ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه ، بمنزلة ما يرد على البدن من الأسباب التي تمرضه أو تقتله ، أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك .

فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان ، لم يكن فيه ذنب فيما أصابه ، فلا وجه للريبة . كمن سمع القرآن السماع الشرعي ، ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك ، وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ، ونحو ذلك من الأمور التي تغيب العقل بغير اختيار صاحبها ؛ فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً ، بل معذوراً فإن السكران بلا تمييز ، وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين ، ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر ، وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة

ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم ، لأن سببه محذور ، وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التي تورث مثل هذا السكر ، وهذا أيضاً مذموم ، فإنه ليس للرجل أن يسمع من الأصوات التي لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله ، إذ إزالة العقل محرم ، ومتى أفضى إليه سبب غير شرعي كان محرماً ، وما يحصل في ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ، ولو بأمور فيها نوع من الإيمان ، فهي مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل ، ولم يأذن لنا الله أن نمتع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها بما يوجب زوال عقولنا ؛ بخلاف من زال عقله بسبب مشروع ، أو بأمر صادفه لا حيلة له في دفعه .

وقد يحصل السكر بسبب لافعل للبعد فيه ، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ، ويحرك ساكنه ، ونحو ذلك . وهذا لاملام عليه فيه ، وما صدر عنه في حال زوال عقله فهو فيه معذور ؛ لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم ، كالغنى عليه والمجنون ونحوهما .

ومن زال عقله بالخر . فهل هو مكلف حال زوال عقله ؟ فيه قولان مشهوران ، وفي طلاق من هذه حاله نزاع مشهور ، ومن زال عقله بالبنج يلحق به ، كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعي وأحمد ، وقيل يفرق بينه وبين الخمر ؛ لأن هذا يشتهي ، وهذا لا يشتهي ؛ ولهذا

أوجب الحد في هذا دون هذا ، وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبي حنيفة .

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً ، إما بسبب خلط يغلب عليه ، وإما بغير ذلك ، ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون في النساك ، وقد يسمون المولحين . قال فيهم بعض العلماء : هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا وأحوالا ؛ فسلب عقولهم ، وأسقط ما فرض بما سلب .

فهذه الأحوال التي يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك ، إذا كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقا عاجزاً عن دفعها كان محموداً على ما فعله من الخير وما ناله من الإيمان ، معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم وقسوة قلوبهم ونحو ذلك من الأسباب التي تتضمن ترك ما يحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم أو مثله أو أكمل منه فهو أفضل منهم . وهذه حال الصحابة رضي الله عنهم ، وهو حال نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه أسري به إلى السماء وأراه الله ما أراه وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من

حال موسى صلى الله عليه وسلم الذي خر صعقاً لما تجلى ربه للجبل
وحال موسى حال جليلة عليه فاضلة : لكن حال محمد صلى الله عليه وسلم
أكمل وأعلى وأفضل .

والمقصود : أن هذه الأمور التي فيها زيادة في العبادة والأحوال
خرجت من البصرة ، وذلك لشدة الخوف ، فإن الذي يذكرونه من خوف
عتبة الغلام وعطاء السليمي وأمثالهما أمر عظيم . ولا ريب أن حالهم
أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم .
ومن خاف الله خوفاً مقتصداً يدعو إلى فعل ما يحبه الله وترك ما يكرهه
الله من غير هذه الزيادة فحاله أكمل وأفضل من حال هؤلاء ، وهو حال
الصحابة رضي الله عنهم وقد روي : أن عطاء السليمي — رضي الله
عنه — روي بعد موته ف قيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لي :
يعطاء ! أما استحييت مني أن تخافني كل هذا ؟ ! أما بلغك أنني
غفور رحيم ؟ ! .

وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع
والعبادة وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضي
الله عنهم وعلى ماسنه الرسول أمور توجب أن يصير الناس طرفين .

قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا في ذلك .

وقوم يغفلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها .

والتحقيق أنهم في هذه العبادات والأحوال مجتهدون كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين في مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك . وخرج فيهم الرأي الذي فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس .

وخيار الناس من « أهل الفقه والرأي » في أولئك الكوفيين على طرفين .

قوم يذمونهم ويسرفون في ذمهم .

وقوم يغفلون في تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم وربما فضلوهم على الصحابة . كما أن الغلاة في أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة ، وهذا باب يفترق فيه الناس .

والصواب : للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخير القرون القرن الذي بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو وأصحابه ، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم ، كما قال الله تعالى : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وقال صلى الله عليه وسلم :

« إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » وقال : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) . وإن كثيراً من المؤمنين — المتقين أولياء الله — قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ما حصل للصحابة فيتي الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده فلا بد أن يصدر منه خطأ إما في علومه وأقواله وإما في أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم ؛ فإن الله تعالى قال : (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَأَنْفَرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ — إلى قوله — رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله تعالى : قد فعلت .

فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء أو طريق أحد من العباد والنسك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ، ضال مبتدع ، ومن جعل كل مجتهد في طاعة أخطأ في بعض الأمور مذموماً معيماً ممقوتاً ، فهو مخطئ ضال مبتدع .

ثم الناس في الحب والبغض والموالات والمعاداة هم أيضاً مجتهدون ، يصيبون تارة ، ويخطئون تارة ، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه ، أحب الرجل مطلقاً ، وأعرض عن سيئاته ، وإذا علم منه ما يبغضه أبغضه مطلقاً ، وأعرض عن حسناته ، محاط (؟) وحال من

يقول بالتحافظ (؟) وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج
والمعتزلة والمرجئة .

وأهل السنة والجماعة يقولون ما دل عليه الكتاب والسنة والإجماع
وهو أن المؤمن يستحق وعد الله وفضله الثواب على حسناته ، ويستحق
العقاب على سيئاته ، وإن الشخص الواحد يجتمع فيه ما يثاب عليه ،
وما يعاقب عليه ، وما يحمد عليه وما يذم عليه ، وما يحب منه وما يبغض
منه ، فهذا هذا .

وإذا عرف أن منشأ «التصوف» كان من البصرة ، وأنه كان فيها من
يسلك طريق العبادة والزهد ، مما له فيه اجتهاد ، كما كان في الكوفة
من يسلك من طريق الفقه والعلم ماله فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا إلى
اللبسة الظاهرة ، وهي لباس الصوف . فقليل في أحدهم : «صوفي»
وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا
الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

ثم «التصوف» عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في
حدوده وسيرته وأخلاقه ، كقول بعضهم : «الصوفي» من صفا من
الكدر ، وامتلاً من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر . التصوف
كتمان المعاني ، وترك الدعاوي . وأشبه ذلك : وهم يسرون بالصوفي إلى

معنى الصديق ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون . كما قال الله تعالى :
(فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفى ؛
لكن هو فى الحقيقة نوع من الصديقين ، فهو الصديق الذى اختص
بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه ، فكان الصديق من أهل
هذه الطريق ، كما يقال : صديقو العلماء ، وصديقو الأمراء ، فهو
أخص من الصديق المطلق ، ودون الصديق الكامل الصديقة من
الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فاذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين : إنهم صديقون
فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضاً ،
كل بحسب الطريق الذى سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده
وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقي
زمانهم ، والصديق فى العصر الأول أكمل منهم ، والصديقون درجات
 وأنواع ؛ ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات ،
حققه وأحكمه وغلب عليه ، وإن كان غيره فى غير ذلك الصنف أكمل
منه وأفضل منه .

ولأجل ما وقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع
الناس فى طريقهم ؛ فطائفة ذمت « الصوفية والتصوف » . وقالوا : إنهم

مبتدعون ، خارجون عن السنة ، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق ، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم .

و « الصواب » أنهم مجتهدون في طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين ، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب .

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه ، عاص لربه .

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم : كالحلاج مثلا ؛ فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن الطريق . مثل : الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره . كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي ؛ في « طبقات الصوفية » وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد .

فهذا أصل التصوف . ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع ، وصارت

الصوفية « ثلاثة أصناف » صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق
وصوفية الرسم .

فأما « صوفية الحقائق » : فهم الذين وصفناهم .

وأما « صوفية الأرزاق » فهم الذين وقفت عليهم الوقوف .
كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق . فإن هذا
عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك ؛ ولكن يشترط
فيهم ثلاثة شروط :

(أحدها) العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحجبون المحارم .

و (الثاني) التأدب بآداب أهل الطريق ، وهي الآداب
الشرعية في غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا
يلتفت إليها .

و (الثالث) أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما
من كان جماعا للمال ، أو كان غير متخلق بالأخلاق الحمودة ، ولا
يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك .

وأما « صوفية الرسم » فهم المقتصرون على النسبة ، فهمهم في اللباس

والآداب الوضعية ، ونحو ذلك فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على
زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن
الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم .

وأما اسم « الفقير » فإنه موجود في كتاب الله وسنة رسوله صلى
الله عليه وسلم ، لكن المراد به في الكتاب والسنة الفقير المضاد للغني .
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (؟) « والفقراء والفقير » أنواع : فمنه
المسوغ لأخذ الزكاة . وضده الغني المانع لأخذ الزكاة ، كما قال النبي صلى
الله عليه وسلم : « لا تحل الصدقة لغني ولا لقوي مكتسب » والغني
الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء . كمالك والشافعي
وأحمد .

وهو ملك النصاب وعندما قد تجب على الرجل الزكاة ، ويباح
له أخذ الزكاة خلافا لأبي حنيفة .

والله سبحانه قد ذكر الفقراء في مواضع ؛ لكن ذكر الله الفقراء
المستحقين للزكاة في آية والفقراء المستحقين للنفقة في آية . فقال في
الأولى : (إِن بُدُوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ
فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا) . وقال في الثانية :
(مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى - الآية إلى قوله - لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ
الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

وهؤلاء « الفقراء » قد يكون فيهم من هو أفضل من
كثير من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من
كثير منهم .

وقد تنازع الناس أيما أفضل : الفقير الصابر ، أو الغني الشاكر ؟
والصحيح : أن أفضلهما أتقاهما ؛ فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة
كما قد بيناه في غير هذا الموضع ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة
[لأنه] لا حساب عليهم . ثم الأغنياء يحاسبون ، فمن كانت حسناته
أرجح من حسنات فقير ، كانت درجته في الجنة أعلى ، وإن تأخر عنه
في الدخول . ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه ؛
لكن لما كان جنس الزهد في الفقراء أغلب صار الفقر في اصطلاح كثير
من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف .

فإذا قيل : هذا فيه فقر أو ما فيه فقر لم يرد به عدم المال ،

ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفي من المعارف والأحوال والأخلاق ، والآداب ونحو ذلك .

وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا أيما أفضل : الفقير ، أو الصوفي ؟ فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفي ، كأبي جعفر السهروردي ونحوه ، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير ، — كطوائف كثيرين — وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ونحو ذلك ، وأكثر الناس قد رجحوا الفقير .

والتحقيق أن أفضلها ألقاها ، فإن كان الصوفي أنقى لله كان أفضل منه ، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله ، وأترك لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير ، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه ، فإن استويا في فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا في الدرجة .

و « أولياء الله » هم المؤمنون المتقون ، سواء سمي أحدهم فقيراً أو صوفياً أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكماً أو غير ذلك .

قال الله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه ، وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين ، أصحاب اليمين والمقربين السابقين .

فالصنف الأول : الذين تقربوا إلى الله بالفرائض . والصنف الثاني الذي تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم ، كما قال تعالى .

وهذان الصنفان قد ذكروا في غير موضع من كتابه كما قال :
 (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ)
 وكما قال الله تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْمُومٍ * خِتَمُهُمُ مِن مَّسْكٍ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِنْ أَرْجَائِهِمْ * عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) قال ابن عباس : يشرب

بها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجا . وقال تعالى : (وَيُسْقَوْنَ
 فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَجْجًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا) وقال تعالى :
 (فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الشَّئْمَةِ مَا أَصْحَابُ
 الشَّئْمَةِ * وَالسَّيِّقُونَ الشَّيْقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ) وقال تعالى :
 (فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ
 الْيَمِينِ * فَسَلْمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ)

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا
 الموضع . والله أعلم .

وسئل

ما تقول الفقهاء - رضي الله عنهم - في رجل يقول : إن الفقر لم تعبده به ، ولم تؤمر به ، ولا جسم له ، ولا معنى ، وأنه غير سبيل موصل إلى رضا الله تعالى وإلى رضا رسوله ، وإنما تعبدنا بمتابعة أمر الله واجتناب نهيه من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن أصل كل شيء العلم والتعبد به والعمل به ، والتقوى والورع عن المحارم ، « والفقر » المسمى على لسان الطائفة والأكابر هو الزهد في الدنيا ، والزهد في الدنيا يفيد العلم الشرعي فيكون الزهد في الدنيا العمل بالعلم ، وهذا هو الفقر ، فإذا الفقر فرع من فروع العلم ، والأمر على هذا . وما ثم طريق أوصل من العلم والعمل بالعلم ، على ما صح وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ويقول : إن الفقر المسمى المعروف عند أكثر أهل الزي المشروع في هذه الأعصار من الزي والألفاظ والاصطلاحات المعتادة غير مرضي لله ولا لرسوله ، فهل الأمر كما قال ، أو غير ذلك ؟ أفتونا مأجورين . (١)

(١) مسألة في الفقر والتصوف .

فأجاب الشيخ تقي الدين ابن تيمية — رضي الله عنه —

الحمد لله . أصل هذه « المسألة » أن الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه ، مثل لفظ الإيمان ، والبر ، والتقوى ، والصدق ، والعدل ، والإحسان ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والخوف والرجاء ، والحب لله ، والطاعة لله وللرسول ، وبر الوالدين ، والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن . فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله ، مع ترك ما نهى الله عنه ورسوله : كالكفر ، والنفاق والكذب ، والإثم والعدوان ، والظلم والجزع والهلوع ، والشرك والبخل والجبن ، وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك . فعلى كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله ، وما نهى الله عنه ورسوله فيتركه . هذا هو طريق الله وسبيله ودينه الصراط المستقيم . صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وهذا « الصراط المستقيم » يشتمل على علم وعمل : علم شرعي ، وعمل شرعي ، فمن علم ولم يعمل بعلمه كان فاجراً ، ومن عمل بغير علم كان ضالاً ، وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى

ضالون » وذلك أن اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به ، والنصارى عبدوا الله بغير علم .

ولهذا كان السلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتها فتنة لكل مفتون . وكانوا يقولون : من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ، ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى فمن دعا إلى العلم دون العمل المأمور به كان مضلاً ، ومن دعا إلى العمل دون العلم كان مضلاً ، وأضل منها من سلك في العلم طريق أهل البدع ؛ فيتبع أموراً تخالف الكتاب والسنة يظنها علوماً وهي جهالات . وكذلك من سلك في العبادة طريق أهل البدع . فيعمل أفعالاً تخالف الأعمال المشروعة يظنها عبادات وهي ضلالات . فهذا وهذا كثير في المنحرف المنتسب إلى فقه أو فخر . يجتمع فيه أنه يدعو إلى العلم دون العمل ، والعمل دون العلم ، ويكون ما يدعو إليه فيه بدع تخالف الشريعة . وطريق الله لا تتم إلا بعلم وعمل ، يكون كلاهما موافقاً للشريعة .

فالسالك طريق « الفقر والتصوف والزهد والعبادة » ، إن لم يسلك بعلم يوافق الشريعة ، وإلا كان ضالاً عن الطريق ، وكان ما يفسده أكثر مما يصلحه . والسالك من « الفقه والعلم والنظر والكلام » ، إن لم يتابع الشريعة ويعمل بعلمه وإلا كان فاجراً ضالاً عن الطريق . فهذا هو

الأصل الذي يجب اعتباره على كل مسلم .

وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله فهو من عمل الجاهلية . (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) .

ولا ريب أن لفظ « الفقر » في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين وتابعيهم لم يكونوا يريدون به نفس طريق الله ، وفعل ما أمر به . وترك ما نهى عنه ، والأخلاق الحمودة ولا نحو ذلك ؛ بل الفقر عندهم ضد الغنى . و « الفقراء » هم الذين ذكرهم الله في قوله : (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) وفي قوله : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وفي قوله : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) و « الغني » هو الذي لا يحل له أخذ الزكاة ، أو الذي تجب عليه الزكاة ، أو ما يشبه ذلك ؛ لكن لما كان الفقر مظنة الزهد طوعاً أو كرهاً ؛ إذ من العصمة أن لا تقدر ، وصار المتأخرون كثيراً ما يقرنون بالفقر معنى الزهد ، والزهد قد يكون مع الغنى ، وقد يكون مع الفقر . ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير .

و « الزهد » المشروع ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة ، وأما كل ما يستعين به العبد على طاعة الله فليس تركه من الزهد المشروع

بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع . وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ « الصوفي » ؛ لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد ، ومن قال إن الصوفي نسبة إلى الصفة ، أو الصفا أو الصف الأول ، أو صوفة بن بشر بن أد بن طابخة ، أو صوفة القفا ؛ فهؤلاء أكفر من اليهود والنصارى ؛ لكن من الناس من قد لحوا الفرق في بعض الأمور دون بعض ، بحيث يفرق بين المؤمن والكافر ولا يفرق بين البر والفاجر ، أو يفرق بين بعض الأبرار وبين بعض الفجار ، ولا يفرق بين آخرين اتباعاً لظنه وما يهواه ، فيكون ناقص الإيمان بحسب ما سوى بين الأبرار والفجار ، ويكون معه من الإيمان بدين الله تعالى الفارق بحسب ما فرق به بين أوليائه وأعدائه .

ومن أقر بالأمر والنهي الدينيين دون القضاء والقدر ، وكان من القدريّة كالمعتزلة ونحوهم ، الذين هم مجوس هذه الأمة ، فهؤلاء يشبهون المجوس ، وأولئك يشبهون المشركين الذين هم شر من المجوس ، ومن أقر بهما وجعل الرب متناقضاً فهو من أتباع إبليس الذي اعترض على الرب سبحانه وخاصمه ، كما نقل ذلك عنه . فهذا التقسيم في القول والاعتقاد .

وكذلك هم في « الأحوال ، والأفعال » فالصواب منها حالة المؤمن الذي يتقي الله فيفعل المأمور ، ويترك المحظور ، ويصبر على ما يصبه

من المقدور ، فهو عند الأمر والدين والشريعة ، ويستعين بالله على ذلك ، كما قال تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وإذا أذنب استغفر وتاب لا يحتاج بالقدر على ما يفعله من السيئات ، ولا يرى المخلوق حجة على رب الكائنات : بل يؤمن بالقدر ولا يحتاج به ، كما في الحديث الصحيح الذي فيه سيد الاستغفار أن يقول العبد : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فيقر بنعمة الله عليه في الحسنات . ويعلم أنه هو هداه ويسره لليسرى . ويقر بذنوبه من السيئات ويتوب منها . كما قال بعضهم : أطعتك بفضلك ، والمنة لك . وعصيتك بعلمك ، والحجة لك . فأسألك بوجوب حجتك علي ، وانقطاع حجتى إلا غفرت لي .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وهذا له تحقيق مبسوط في غير هذا الموضع .

وآخرون قد يشهدون « الأمر » فقط ، فتجدهم يجتهدون في الطاعة حسب الاستطاعة ، لكن ليس عندهم من مشاهدة القدر ما يوجب

لهم حقيقة الاستعانة والتوكل والصبر . وآخرون يشهدون « القدر » فقط ، فيكون عندهم من الاستعانة والتوكل والصبر ما ليس عند أولئك لكنهم لا يلتزمون أمر الله ورسوله ، واتباع شريعته ، وملازمة ما جاء به الكتاب والسنة من الدين . فهؤلاء يستعينون الله ولا يعبدونه ، والذين من قبلهم يريدون أن يعبدوه ولا يستعينوه ، والمؤمن يعبده ويستعينه .

(والقسم الرابع) شر الأقسام وهو من لا يعبد ولا يستعينه ، فلا هو مع الشريعة الأمرية ؛ ولا مع القدر الكوني . وانقسامهم إلى هذه الأقسام هو فيما يكون قبل المقدور من توكل واستعانة ، ونحو ذلك . وما يكون بعده من صبر ورضا ونحو ذلك ، فهم في التقوى وهي طاعة الأمر الديني والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام :

(أحدها) أهل التقوى والصبر ، وهم الذين أنعم الله عليهم أهل السعادة في الدنيا والآخرة .

(والثاني) الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ، ويتركون المحرمات ؛ لكن إذا أصيب أحدهم

في بدنه بمرض ونحوه أو ماله أو في عرضه ، أو ابتلى بعدو يخيفه ،
عظم جزعه ، وظهر هلعه .

(والثالث) قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى : مثل الفجار
الذين يصبرون على ما يصيهم في مثل أهوائهم كاللصوص ، والقطاع الذين
يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب ، وأخذ الحرام ،
والكتاب وأهل الديوان الذين يصبرون على ذلك في طلب ما يحصل
لهم من الأموال بالحيانة وغيرها ، وكذلك طلاب الرياسة والعلو على
غيرهم يصبرون من ذلك على أنواع من الأذى التي لا يصبر عليها كثير
من الناس .

وكذلك أهل المحبة للصور المحرمة من أهل العشق وغيرهم يصبرون
في مثل ما يهوونه من المحرمات على أنواع من الأذى والآلام ، وهؤلاء هم
الذين يريدون علواً في الأرض أو فساداً من طلاب الرياسة ، والعلو
على الخلق ، ومن طلاب الأموال بالبغي والعدوان والاستمتاع بالصور
المحرمة نظراً أو مباشرة وغير ذلك ، يصبرون على أنواع من المكروهات
ولكن ليس لهم تقوى فيما تركوه من المأمور ، وفعلوه من المحذور ،
وكذلك قد يصبر الرجل على ما يصيبه من المصائب : كالمرض والفقر
وغير ذلك ، ولا يكون فيه تقوى إذا قدر .

وأما (القسم الرابع) فهو شر الأقسام لا يتقون إذا قدروا ، ولا يصبرون إذا ابتلوا ؛ بل هم كما قال الله تعالى : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَامَسَّهُ الشَّرِيزُوعًا * وَإِذَامَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا) فهو لاء تجدم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا ، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا ، إن قهرتهم ذلوا لك ، وناققوك ، وحبوك واسترحموك ، ودخلوا فيما يدفعون به عن أنفسهم من أنواع الكذب والذل ، وتعظيم المسئول ، وإن قهروك كانوا من أظلم الناس ، وأقسام قلبا ، وأقلهم رحمة وإحسانا وعفوا . كما قد جربه المسلمون في كل من كان عن حقائق الإيمان أبعد مثل التتار الذين قاتلهم المسلمون ، ومن يشبههم في كثير من أمورهم ، وإن كان متظاهراً بلباس جند المسلمين وعلماهم وزهادهم وتجارهم وصناعهم فالاعتبار بالحقائق . فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

فمن كان قلبه وعمله من جنس قلوب التتار وأعمالهم ، كان شبيها لهم من هذا الوجه ، وكان مامعه من الإسلام أو ما يظهره منه بمنزلة ما معهم من الإسلام وما يظهرونه منه ، بل يوجد في غير التتار المقاتلين من المظهرين للإسلام من هو أعظم ردة وأولى بالأخلاق الجاهلية وأبعد عن الأخلاق الإسلامية من التتار . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبه : « خير الكلام كلام الله ، وخير

الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة .

وإذا كان خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ، فكل من كان إلى ذلك أقرب ، وهو به أشبه ، كان إلى الكمال أقرب ، وهو به أحق ، ومن كان عن ذلك أبعد وشبهه أضعف ، كان عن الكمال أبعد وبالباطل أحق . والكامل هو من كان لله أطوع ، وعلى ما يصبه أصبر ، فكلمنا كان أتبع لما يأمر الله به ورسوله وأعظم موافقة لله فيما يحبه ويرضاه وصبر على ما قدره وقضاه كان أكمل وأفضل . وكل من نقص عن هذين كان فيه من النقص بحسب ذلك .

وقد ذكر الله تعالى الصبر والتقوى جميعاً في غير موضع من كتابه ، وبين أنه ينصر العبد على عدوه من الكفار المحاربين والمعاهدين والمنافقين وعلى من ظلمه من المسلمين ولصاحبه تكون العاقبة ، قال الله تعالى : (بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) وقال الله تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) وقال تعالى : (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَامَاعِنتُمْ فَذَبَتْ أَبْغَضَاءُ مِّنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَاتُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَد بَيْنَا لَكُمْ

الْأَيَّتِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * هَآأَنْتُمْ أَوَّلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا أَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِن تَمَسَّسْكُمْ حَسَنَةً سَوُّهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)
 وقال إخوة يوسف له : (أَءَتَاكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) .

وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وخصوصاً فقال تعالى :
 (وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضِّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)
 وفي اتباع ما أوحى إليه التقوى كلها : تصديقاً لحبر الله ، وطاعة لأمره ،
 وقال تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلَّذِينَ) * وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)
 وقال تعالى : (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ) وقال تعالى : (فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَا يِ اللَّيْلِ)
 وقال تعالى : (وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ)
 وقال تعالى : (أَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)
 فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر .

وقرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى : (وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ
 وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ) وفي الرحمة الإحسان إلى الخلق بالزكاة وغيرها ، فإن
 القسمة أيضاً رباعية . إذ من الناس من يصبر ولا يرحم : كأهل القوة
 والقسوة ، ومنهم من يرحم ولا يصبر : كأهل الضعف واللين ، مثل
 كثير من النساء ومن يشبههن ، ومنهم من لا يصبر ولا يرحم كأهل
 القسوة والهلل ، والمحمود هو الذي يصبر ويرحم ، كما قال الفقهاء في صفة
 المتولى : ينبغي أن يكون قوياً من غير عنف ، ليناً من غير ضعف ،
 فبصبره يقوى ، وبلينه يرحم ، وبالصبر ينصر العبد ، فإن النصر مع
 الصبر ، وبالرحمة يرحمه الله تعالى . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :
 « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال : « من لم يرحم لا يرحم »
 وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي ، الراحون يرحمهم الرحمن ، ارحموا
 من في الأرض يرحمكم من في السماء » والله أعلم انتهى .

سئل شيخ الإسلام

وقدوة الأنام ومفتى الفرق وناصر السنة : تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية — رضي الله عنه — عن « أهل الصفة » كم كانوا ؟ وهل كانوا بمكة أو بالمدينة ؟ وأين موضعهم الذي كانوا يقيمون فيه ؟ وهل كانوا مقيمين بأجمعهم لا يخرجون إلا خروج حاجة ؟ أو كان منهم من يقعد بالصفة ؟ ومنهم من يتسبب في القوت ؟ وما كان تسبيهم . هل يعملون بأبدانهم ، أم يشحذون بالزنبيل ؟ وفي من يعتقد أن « أهل الصفة » قاتلوا المؤمنين مع المشركين ؟ وفيمن يعتقد أن « أهل الصفة » أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ؟ ومن الستة الباقيين من العشرة ؟ ومن جميع الصحابة ؟ وهل كان فيهم أحد من العشرة ؟ وهل كان في ذلك الزمان أحد ينذر لأهل الصفة ؟ وهل تواجدوا على دف أو شبابة ؟ أو كان لهم حاد ينشد الأشعار ويتحركون عليها بالتصدية ويتواجدون ؟

وعن هذه الآية وهي قوله تعالى : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ) هل هي مخصوصة بأهل الصفة ؟ أم هي

عامّة ؟ وهل الحديث الذي يرويه كثير من العامة ويقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله : لا الناس يعرفونه ولا الولي يعرف أنه ولي » [صحيح] ؟ وهل تخفى حالة الأولياء أو طريقتهم على أهل العلم أو غيرهم ؟ ولماذا سمي الولي ولياً ؛ وما المراد بالولي ؟

وما الفقراء الذين يسبقون الأغنياء إلى الجنة ؟ وما الفقراء الذين أوصى بهم في كلامه . وذكرهم سيد خلقه ، وخاتم أنبيائه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سنته . هل هم الذين لا يملكون كفايتهم أهل الفاقة والحاجة أم لا ؟؟

فأجاب : شيخ الإسلام : تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية - رضي الله عنه - بقوله ما صورته :

الحمد لله رب العالمين .

أما « الصفة » التي ينسب إليها أهل الصفة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فكانت في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في شمالي المسجد بالمدينة النبوية ، كان يأوي إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه ؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه

صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يهاجروا إلى المدينة النبوية ، حين آمن من آمن من أكبر أهل المدينة من الأوس والخزرج ، وبايعهم بيعة العقبة عند منى ، وصار للمؤمنين دار عز ومنعة ، جعل المؤمنون من أهل مكة وغيرهم يهاجرون إلى المدينة ، وكان المؤمنون السابقون بها صنفين : المهاجرين الذين هاجروا إليها من بلادهم ، والأنصار الذين هم أهل المدينة وكان من لم يهاجر من الأعراب وغيرهم من المسلمين لهم حكم آخر . وآخرون كانوا ممنوعين من الهجرة لمنع أكبرهم لهم بالقيـد والحبس ، وآخرون كانوا مقيمين بين ظهرائى الكفار المستظـهـرين عليهم .

فكل هذه « الأصناف » مذكورة في القرآن ، وحكمهم باق إلى يوم القيامة في أشباههم ونظرائهم . قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)
فهذا فى السابقين .

ثم ذكر من اتبعهم إلى يوم القيامة فقال : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا

وَجَهْدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال الله تعالى : (وَالسَّيْقُوتَ الْأُولَى مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) الآية .

وذكر في السورة الأعراب المؤمنين ، وذكر المنافقين من أهل المدينة ومن حولها ، وقال سبحانه وتعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا) .

فلما كان المؤمنون يهاجرون إلى المدينة النبوية كان فيهم من ينزل على الأنصار بأهله ، أو بغير أهله ؛ لأن المبايعة كانت على أن يؤوؤهم ، ويواسوهم ، وكان في بعض الأوقات إذا قدم المهاجر اقترع الأنصار على من ينزل [عنده] منهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد حالف بين المهاجرين والأنصار ، وأخى بينهم ، ثم صار المهاجرون يكثرُونَ بعد ذلك شيئاً بعد شيء ؛ فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه .

والنبي صلى الله عليه وسلم يغزو الكفار تارة بنفسه ، وتارة بسراياه

فيسلم خلق تارة ظاهراً وباطناً ، وتارة ظاهراً فقط ، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء ، والأهلين والعزاب ، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه ، يأوي إلى تلك الصفة التي في المسجد ، ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد ، بل منهم من يتأهل ، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له . ويجيء ناس بعد ناس ، فكانوا تارة يقلون ، وتارة يكثرون ، فتارة يكونون عشرة أو أقل ، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر ، وتارة يكونون ستين وسبعين .

وأما جملة من أوى إلى الصفة مع تفرقهم ، فقد قيل : كانوا نحو أربعائة من الصحابة ، وقد قيل : كانوا أكثر من ذلك ولم يعرف كل واحد منهم . وقد جمع أسماءهم « الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي » في « كتاب تاريخ أهل الصفة » جمع ذكر من بلغه أنه كان من « أهل الصفة » وكان معتنياً بذكر أخبار النساك ، والصوفية ؛ والآثار التي يستندون إليها ، والكلمات الماثورة عنهم ؛ وجمع أخبار زهاد السلف . وأخبار جميع من بلغه أنه كان من أهل الصفة ؛ وكم بلغوا . وأخبار الصوفية المتأخرين بعد القرون الثلاثة . وجمع أيضاً في الأبواب : مثل حقائق التفسير . ومثل أبواب التصوف الجارية على أبواب الفقه . ومثل كلامهم في التوحيد والمعرفة والمحبة ؛ ومسألة السماع وغير ذلك من الأحوال . وغير ذلك من الأبواب . وفيما جمعه فوائد كثيرة . ومنافع جلييلة .

وهو في نفسه رجل من أهل الخير والدين والصلاح والفضل .
وما يرويه من الآثار فيه من الصحيح شيء كثير . ويروى أحياناً أخباراً
ضعيفة بل موضوعة . يعلم العلماء أنها كذب .

وقد تكلم بعض حفاظ الحديث في سماعه .

وكان البيهقي إذا روى عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل
سماعه . وما يظن به وبأمثاله إن شاء الله تعمد الكذب ، لكن لعدم الحفظ
والإتقان يدخل عليهم الخطأ في الرواية ؛ فإن النساك والعباد منهم من
هو متقن في الحديث ، مثل ثابت البناني ، والفضيل بن عياض ، وأمثالهما
ومنهم من قد يقع في بعض حديثه غلط . وضعف ، مثل مالك بن دينار
وفرقد السبخي ونحوهما .

وكذلك ما يأثره أبو عبد الرحمن عن بعض المتكلمين في الطريق
أو ينتصر له من الأقوال والأفعال والأحوال . فيه من الهدى والعلم
شيء كثير . وفيه - أحياناً - من الخطأ أشياء ؛ وبعض ذلك يكون
عن اجتهاد سائغ . وبعضه باطل قطعاً . مثل ما ذكر في حقائق التفسير
قطعة كبيرة عن جعفر الصادق وغيره من الآثار الموضوعة . وذكر عن
بعض طائفة أنواعاً من الإشارات التي بعضها أمثال حسنة . واستدلالات
مناسبة . وبعضها من نوع الباطل واللغو .

فالذي جمعه (الشيخ أبو عبد الرحمن) ونحوه في « تاريخ أهل
الصفة » وأخبار زهاد السلف ، وطبقات الصوفية ، يستفاد منه فوائد
جليلة ، ويجتنب منه ما فيه من الروايات الباطلة ، ويتوقف فيها فيه من
الروايات الضعيفة .

وهكذا كثير من أهل الروايات ، ومن أهل الآراء والأذواق ، من
الفقهاء والزهاد والمتكلمين ، وغيرهم . يوجد فيها بأثره عن قبلهم ،
وفيا يذكرونه معتقدين له شيء كثير ، وأمر عظيم من الهدى ، ودين
الحق ، الذي بعث الله به رسوله . ويوجد — أحياناً — عندهم من
جنس الروايات الباطلة أو الضعيفة ، ومن جنس الآراء والأذواق الفاسدة
أو المحتملة شيء كثير .

ومن له في الأمة لسان صدق عام ، بحيث يثنى عليه ، ويحمد في
جماهير أجناس الأمة ، فهؤلاء هم أئمة الهدى ، ومصايح الدجى ،
وغلظهم قليل بالنسبة إلى صوابهم ، وعامته من موارد الاجتهاد التي
يعذرون فيها ، وهم الذين يتبعون العلم والعدل ، فهم بعداء عن الجهل
والظلم ، وعن اتباع الظن ، وما تهوى الأنفس .

فصل

وأما حال « أهل الصفة » هم وغيرهم من فقراء المسلمين الذين لم يكونوا في الصفة ، أو كانوا يكونون بها بعض الأوقات ، فكما وصفهم الله تعالى في كتابه ، حيث بين مستحقي الصدقة منهم ، ومستحقي الفیء منهم ، فقال : (إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخَفُّوْهَا وَتَوْتُوْهَا الْفُقَرَاءُ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

إلى قوله (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) . وقال في أهل الفیء : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ) .

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند إمكان الاكتساب الذي لا يصدحهم عما هو أوجب أو أحب إلى الله ورسوله من الكسب ، وأما إذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب ، فكانوا يقدمون ما هو أقرب إلى الله ورسوله ، وكان أهل الصفة ضيوف

الإسلام ، يبعث إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بما يكون عنده ، فإن الغالب كان عليهم الحاجة لا يقوم ما يقدررون عليه من الكسب بما يحتاجون إليه من الرزق .

وأما « المسألة » فكانوا فيها كما أدبهم النبي صلى الله عليه وسلم حيث حرّمها على المستغنى عنها ، وأباح منها أن يسأل الرجل حقه ، مثل أن يسأل ذا السلطان أن يعطيه حقه من مال الله ، أو يسأل إذا كان لا بد سائلاً الصالحين الموسرين إذا احتاج إلى ذلك ، ونهى خواص أصحابه عن المسألة مطلقاً ، حتى كان السوط يسقط من يد أحدهم فلا يقول لأحد : ناولني إياه .

وهذا الباب فيه أحاديث وتفصيل . وكلام العلماء لا يسعه هذا المكان . مثل قوله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مشرف فخذ ، وما لا فلا تتبعه نفسك » ومثل قوله : « من يستغن يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » ومثل قوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألته خدوشاً ، أو خموشاً ، أو كدوشاً في وجهه » ومثل قوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » إلى غير ذلك من الأحاديث .

وأما الجائز منها فمثل ما أخبر الله تعالى عن موسى والخضر :
 أنهما أتيا أهل قرية فاستطعا أهلها . ومثل قوله : « لا تحل المسألة إلا
 لذي دم موجه ، أو غرم مقطع ، أو فقر مدقع » ومثل قوله لقبيصة
 ابن مخارق الهلالي : « يا قبيصة ! لا تحل المسألة إلا لثلاثة : رجل أصابته
 جائحة اجتاحت ماله : فسأل حتى يجد سداداً من عيش ، أو قواماً من
 عيش ، ثم يمسك . ورجل أصابته فاقة ، حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحجا
 من قومه فيقولون : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فسأل حتى يجد سداداً
 من عيش ، أو قواماً من عيش ، ثم يمسك . ورجل تحمل حمالة فسأل
 حتى يجد حمالته ، ثم يمسك . وما سوى ذلك من المسألة فإنما هي سحت
 يأكله صاحبه سحتاً » .

ولم يكن في الصحابة — لا أهل الصفة ولا غيرهم — من يتخذ
 مسألة الناس ، ولا الإلحاف في المسألة بالكدية ، والشحاذة لا بالزنبيل
 ولا غيره صناعة وحرفة ، بحيث لا يبتغي الرزق إلا بذلك ، كما لم يكن
 في الصحابة أيضاً أهل فضول من الأموال يتركون ، لا يؤدون الزكاة
 ولا ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ولا يعطون في النوائب . بل هذان
 الصنفان الظالمان المصران على الظلم الظاهر ، من مانعي الزكاة ، والحقوق
 الواجبة ، والمتعدين حدود الله تعالى في أخذ أموال الناس كأنهم معدومين
 في الصحابة المثني عليهم .

فصل

وأما من قال : إن أحداً من الصحابة أهل الصفة أو غيرهم أو التابعين أو تابعي التابعين قاتل مع الكفار ، أو قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم أو أصحابه ، أو أنهم كانوا يستحلون ذلك ، أو أنه يجوز ذلك . فهذا ضال غاو ؛ بل كافر يجب أن يستتاب من ذلك ، فإن تاب

وإلا قتل . (وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلَّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) : بل كان

أهل الصفة وغيرهم كالقراء الذين قنت النبي صلى الله عليه وسلم بدعو على من قتلهم من أعظم الصحابة إيماناً وجهاداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصراً لله ورسوله ، كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقال : (مُحَمَّدٌ

رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُجْتَدِداً)

إلى قوله (وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِيجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ

يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) وقال

(مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

وقد غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوات متعددة ، وكان القتال منها في تسع مغاز : مثل بدر . وأحد . والحنديق . وخيبر . وحنين . وانكسر المسلمون يوم أحد وانهزموا ، ثم عادوا يوم خيبر ، ونصرهم الله ببدر وهم أذلة ، وحصروا في الحندق حتى دفع الله عنهم أولئك الأعداء ، وفي جميع المواطن كان يكون المؤمنون من أهل الصفة وغيرهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، لم يقاتلوا مع الكفار قط ، وإنما يظن هذا ويقولوه من الضلال والمنافقين قسماً :

(قسم) منافقون . وإن أظهروا الإسلام ، وكان في بعضهم زهادة وعبادة ، يظنون أن إلى الله طريقاً غير الإيمان بالرسول ومتابعته ، وأن من أولياء الله من يستغنى عن متابعة الرسول ، كاستغناء الخضر عن متابعة موسى . وفي هؤلاء من يفضل شيخه أو عالمه أو ملكه على النبي صلى الله عليه وسلم : إما تفضيلاً مطلقاً ، أو في بعض صفات الكمال . وهؤلاء منافقون كفار يجب قتلهم بعد قيام الحجة عليهم .

فإن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الثقلين : إنسهم وجنهم وزهادهم وملوكهم . وموسى عليه السلام إنما بعث إلى

قومه لم يكن مبعوثاً إلى الخضر، ولا كان يجب على الخضر اتباعه؛ بل قال له : إني على علم من علم الله تعالى علمنيه الله لا تعلمه . وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة » وقال الله تعالى : (قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال تعالى . (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) .

و (القسم الثاني) من يشاهد ربوبية الله تعالى لعباده التي عمت جميع البرايا ، ويظن أن دين الله الموافقة للقدر ، سواء كان في ذلك عبادة الله وحده لا شريك له ، أو كان فيه عبادة الأوثان واتخاذ الشركاء والشفعاء من دونه ، وسواء كان فيه الإيمان بكتبه ورسله ، أو الإعراض عنهم والكفر بهم ، وهؤلاء يسوون بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبين المفسدين في الأرض ، وبين المتقين والفجار ، ويجعلون المسلمين كالمجرمين ، ويجعلون الإيمان والتقوى والعمل الصالح بمنزلة الكفر والفسوق والعصيان ، وأهل الجنة كأهل النار ، وأولياء الله كأعداء الله ، وربما جعلوا هذا من (باب الرضا بالقضاء) وربما جعلوه « التوحيد والحقيقة » بناء على أنه توحيد الربوبية الذي يقربه المشركون ، وأنه « الحقيقة الكونية » .

وهؤلاء يعبدون الله على حرف : فإن أصابهم خير اطمأنوا به ، وإن أصابتهم فتنة انقلبوا على وجوههم ، خسروا الدنيا والآخرة ، وغالبهم يتوسعون في ذلك حتى يجعلوا قتال الكفار قتالاً لله ، ويجعلون أعيان الكفار والفجار والأوثان من نفس الله وذاته ، ويقولون : ما في الوجود غيره ، ولا سواه ، بمعنى أن المخلوق هو الخالق ، والمصنوع هو الصانع ، وقد يقولون : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَاءَ آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) ويقولون : (أَنْظِعْ مِنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) إلى نحو ذلك من الأقوال والأفعال التي هي شر من مقالات اليهود والنصارى ، بل ومن مقالات المشركين والمجوس ، وسائر الكفار ، من جنس مقالة فرعون والجال ، ونحوها ممن ينكر الصانع الخالق البارئ رب العالمين ، أو يقولون : إنه هو ، أو إنه حل فيه .

وهؤلاء كفار بأصلي الإسلام وهما : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فإن التوحيد الواجب أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، ولا نجعل له نداً في إلهيته ، لا شريكاً ولا شافعاً . فأما « توحيد الربوبية » وهو الإقرار بأنه خالق كل شيء ، فهذا قد أقرببه المشركون الذين قال الله فيهم : (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) قال ابن عباس : تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون :

الله ، وهم يعبدون غيره ، وقال تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وقال تعالى : (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ * قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)

فالكفار المشركون مقرون أن الله خالق السموات والأرض ، وليس في جميع الكفار من جعل لله شريكا مساويا له في ذاته وصفاته وأفعاله ، هذا لم يقله أحد قط ، لا من المجوس الثنوية ، ولا من أهل التثليث ، ولا من الصابئة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ، ولا من عباد الأنبياء والصالحين ، ولا من عباد التماثيل والقبور وغيرهم ؛ فإن جميع هؤلاء — وإن كانوا كفارا مشركين متنوعين في الشرك — فهم مقرون بالرب الحق الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته ، وجميع أفعاله ؛ ولكنهم مع هذا مشركون به في ألوهيته ، بأن يعبدوا معه آلهة أخرى ، يتخذونها شفعاء أو شركاء ؛ أو في ربوبيته بأن يجعلوا غيره رب بعض الكائنات دونه مع اعترافهم بأنه رب ذلك الرب ، وخالق ذلك الخلق .

وقد أرسل الله جميع الرسل ، وأنزل جميع الكتب بالتوحيد

الذي هو عبادة الله وحده ، لا شريك له . كما قال الله تعالى : (وَمَا

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

وقال تعالى : (وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهَةً

يُعْبُدُونَ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ

اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ)

وقال تعالى : (يَتَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *

وَلِإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

وقد قالت الرسل كلهم مثل نوح وهود وصالح وغيرهم : (أَنْ اعْبُدُوا

اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا) فكل الرسل دعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك

له ، وإلى طاعتهم .

والإيمان بالرسول ، هو « الأصل الثاني » من أصلي الإسلام ، فمن

لم يؤمن بأن محمداً رسول الله إلى جميع العالمين ، وأنه يجب على جميع

الخلق متابعته ، وأن الحلال ما أحله الله ، والحرام ما حرمه الله ،

والدين ما شرعه ، فهو كافر : مثل هؤلاء المنافقين ونحوهم ممن يجوز

الخروج عن دينه وشرعته وطاعته : إما عموماً وإما خصوصاً . ويجوز

إغانة الكفار والفجار على إفساد دينه وشرعته .

ويحتجون بما يفترونه : أن أهل الصفة قاتلوه . وأنهم قالوا : نحن مع الله ، من كان الله معه كنا معه ، يريدون بذلك القدر و « الحقيقة الكونية » دون الأمر و « الحقيقة الدينية » ويحتج بمثل هذا من ينصر الكفار والفجار ، ويخفروا بقلبه وهمته ، وتوجهه من ذوي الفقر^(١) ويعتقدون مع هذا أنهم من أولياء الله ، وأن الخروج عن الشريعة المحمدية سائغ لهم ، وكل هذا ضلال وباطل . وإن كان لأصحابه زهد وعبادة ، فهم في العباد : مثل أوليائهم من التار ونحوم في الأجناد فإن « المرء على دين خليله » و « المرء مع من أحب » هكذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد جعل الله المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، والكافرين بعضهم أولياء بعض .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتال المارقين من الإسلام مع عبادتهم العظيمة الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم . وقراءته مع قراءتهم . يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما لقيتموهم فاقتلوهم : فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة ، لأن أدركتهم لأقتلهم قتل عاد » وهؤلاء قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لما خرجوا عن شريعة رسول الله

(١) نسخة زيادة : « والزمن » .

صلى الله عليه وسلم وسنته ، وفارقوا جماعة المسلمين ، فكيف بمن
يعتقد أن المؤمنين كانوا يقاثلون النبي صلى الله عليه وسلم ؟!

ومثل هذا ما يرويه بعض هؤلاء المفترين : أن أهل الصفة سمعوا ما
خاطب الله به رسوله ليلة المعراج ؛ وأن الله أمره أن لا يعلم به أحداً .
فلما أصبح وجدهم يتحدثون ، فأنكر ذلك ، فقال الله تعالى : « أنا
أمرتك أن لا تعلم به أحداً ؛ لكن أنا الذي أعلمتهم به » . إلى أمثال
هذه الأكاذيب التي هي من أعظم الكفر . وهي كذب واضح ؛ فإن
« أهل الصفة » لم يكونوا إلا بالمدينة ؛ لم يكن بمكة أهل صفة ؛
والمعراج إنما كان من مكة ؛ كما قال سبحانه وتعالى : (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا)

ومما يشبه هذا من بعض الوجوه : رواية بعضهم عن عمر أنه قال :
كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحدث هو وأبو بكر وكنت كالزنجي
بينها . وهذا من الإفك المخلوق . ثم إنهم مع هذا يجعلون عمر الذي
سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم وصديقه ، وهو أفضل الخلق
بعد الصديق لم يفهم ذلك الكلام ، بل كان كالزنجي . ويدعون أنهم
م سمعوه وعرفوه ثم كل منهم يفسره بما يدعيه من الضلالات الكفرية
التي يزعم أنها « علم الأسرار والحقائق » [ويريدون بذلك] إما
الاتحاد وإما تعطيل الشرائع ونحو ذلك . مثل ما ندعي النصيرية .

والإسماعيلية ؛ والقرامطة والباطنية الثنوية ، والحاكمية وغيرهم ، -من الضلالات المخالفة لدين الإسلام . وما ينسبونه إلى علي بن أبي طالب ؛ أو جعفر الصادق أو غيرها من أهل البيت كالبطاقة والهفت والجدول والجفر وملحمة بن غضب ، وغير ذلك من الأكاذيب المفتراة باتفاق جميع أهل المعرفة ، وكل هذا باطل .

فإنه لما كان لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم به اتصال النسب والقرابة ، وللأولياء الصالحين منهم ومن غيرهم به اتصال الموالاة والمتابعة ، صار كثير ممن يخالف دينه وشريعته وسنته يموه بطله ويزخرفه بما يفتره على أهل بيته وأهل مولاته ومتابعته ، وصار كثير من الناس يغلو إما في قوم من هؤلاء ، أو من هؤلاء ، حتى يتخذهم آلهة أو يقدم ما يضاف إليهم على شريعة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته ، وحتى يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، وما اتفق عليه السلف الطيب من أهل بيته ومن أهل الموالاة له والمتابعة ، وهذا كثير في أهل الضلال .

فصل

وأما تفضيل « أهل الصفة » على العشرة وغيرهم فخطأ وضلال ، بل خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، كما تواتر ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب موقوفاً ومرفوعاً ، وكما دل على ذلك الكتاب والسنة . واتفق عليه سلف الأمة وأئمة العلم والسنة ، وبعدهما عثمان وعلي وكذلك سائر أهل الشورى : مثل طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف ، وهؤلاء مع أبي عبيدة بن الجراح — أمين هذه الأمة — ومع سعيد بن زيد . هم العشرة المشهود لهم بالجنة .

قال الله عز وجل في كتابه : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا) .
ففضل الله السابقين قبل فتح الحديبية إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم على التابعين بعدهم ، وقال الله تعالى :
(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ) وقال تعالى :
(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْهُمُ الْمُتَحَرِّينَ وَالْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فرضى الله سبحانه عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

وقد ثبت في فضل البدرين ما تميزوا به على غيرهم ، وهؤلاء الذين فضلهم الله ورسوله ، فمنهم من هو من أهل الصفة ، وأكثرهم لم يكونوا من أهل الصفة ، والعشرة لم يكن فيهم من هو من أهل الصفة إلا سعد بن أبي وقاص . فقد قيل : إنه أقام بالصفة حرة ، وأما أكبر المهاجرين والأنصار مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل سعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، وعباد بن بشر ، وأبي أيوب الأنصاري ، ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب ونحوهم ، فلم يكونوا من « أهل الصفة » بل عامة أهل الصفة إنما كانوا من فقراء المهاجرين ؛ لأن الأنصار كانوا في ديارهم . ولم يكن أحد ينذر لأهل الصفة ولا لغيرهم .

فصل

وأما سماع المساء والتصدية : وهو الاجتماع لسماع القصائد الربانية ، سواء كان بكف ، أو بقضيب ، أو بدف ، أو كان مع ذلك شباة ، فهذا لم يفعله أحد من الصحابة ، لامن أهل الصفة ولا من غيرهم ؛ بل ولا من التابعين ، بل القرون المفضلة التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم : « خير القرون الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » لم يكن فيهم أحد يجتمع على هذا السماع ، لا في الحجاز ولا في الشام

ولا في اليمن ، ولا العراق ولا مصر ، ولا خراسان ولا المغرب . وإنما كان السماع الذي يجتمعون عليه سماع القرآن ، وهو الذي كان الصحابة من أهل الصفة وغيرهم يجتمعون عليه ، فكان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ ، والباقي يستمعون ، وقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج على أهل الصفة وفيهم قارئ يقرأ فجلس معهم » وكان عمر بن الخطاب يقول لأبي موسى : يا أبا موسى ! ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون . [وكان وجدهم على ذلك ، وكذلك إرادة قلوبهم] ^(١) وكل من نقل أنهم كان لهم حاد ينشد القصائد الربانية بصلاح القلوب ، أو أنهم لما أنشد بعض القصائد تواجدوا على ذلك . أو أنهم مزقوا ثيابهم ، أو أن قائلاً أنشدتم :

قد لسعت حية الهوى كبدي

فلا طيب لها ولا راق

إلا الطيب الذي شغفت به

فغده رقيتي وزياتي

أو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « إن الفقراء يدخلون

(١) ما بين القوسين غير موجود في المطبوعة .

الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم » أنشدوا شعراً وتواجدوا عليه ، فكل هذا وأمثاله إفك مفترى ، وكذب مخلق باتفاق أهل الاتفاق من أهل العلم والإيمان ، لا ينزع في ذلك إلا جاهل ضال ، وإن كان قد ذكر في بعض الكتب شيء من ذلك فكله كذب باتفاق أهل العلم والإيمان .

فصل

وأما قوله : (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) فهي عامة فيمن تناوله هذا الوصف : مثل الذين يصلون الفجر والعصر في جماعة ، فإنهم يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، سواء كانوا من « أهل الصفة » أو غيرهم ، أمر الله نبيه بالصبر مع عباده الصالحين : الذين يريدون وجهه ، وألا تعد عيناه عنهم ، تريد زينة الحياة الدنيا . وهذه الآية في الكهف وهي سورة مكية . وكذلك الآية التي في سورة الأنعام : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

وقد روى أن هاتين الآيتين نزلتا في المؤمنين المستضعفين لما طلب المتكبرون أن يبعدهم النبي صلى الله عليه وسلم عنه فنهاه الله عن طرد من يريد وجه الله وإن كان مستضعفاً ثم أمره بالصبر معهم، وكان ذلك قبل الهجرة إلى المدينة وقبل وجود الصفة ؛ لكن هي متناولة لكل من كان بهذا الوصف من أهل الصفة وغيرهم .

والمقصود بذلك أن يكون مع المؤمنين المتقين الذين هم أولياء الله وإن كانوا فقراء ضعفاء ، ولا يتقدم أحد عند الله بسلطانه وماله ولا بذله وفقره ، وإنما يتقدم عنده بالإيمان والعمل الصالح ، فهى الله نبيه أن يطيع أهل الرياسة والمال الذين يريدون إبعاد من كان ضعيفاً أو فقيراً وأمره ألا يطرد من كان منهم يريد وجهه ، وأن يصبر نفسه معهم في الجماعة التى أمر فيها بالاجتماع بهم ، كصلاة الفجر والعصر ، ولا يطيع أمر الغافلين عن ذكر الله المتبعين لأهوائهم .

فصل

وأما الحديث المروى : « ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولي لله » فمن الأكاذيب ليس فى شيء من دواوين الإسلام ، وكيف والجماعة [قد] يكونون كفاراً أو فساقاً يموتون على ذلك ؟ ! .

فصل

و « أولياء الله » هم (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) كما ذكر الله تعالى في كتابه . وهم « قسمان » : المقصدون أصحاب اليمين والمقربون السابقون .

فولي الله ضد عدو الله ، قال الله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وقال تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا) — إلى قوله — (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى :

(لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) وقال : (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ) وقال : (أَفَلَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحاربة ، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

و « الولي » مشتق من الولاء وهو القرب كما أن العدو من العدو وهو البعد. فولي الله من والاه بالموافقة له في محبوباته ومرضياته ، وتقرب إليه بما أمر به من طاعاته . وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح الصنفين المقتصدين من أصحاب اليمين ، وهم المتقربون إلى الله بالواجبات ، والسابقين المقربين وهم المتقربون إليه بالنوافل بعد الواجبات .

وذكر الله « الصنفين » في « سورة فاطر » و « الواقعة » و « الإنسان » و « المطففين » وأخبر أن الشراب الذي يروى به المقربون بشربهم إياه صرفاً يمزج لأصحاب اليمين .

و « الولي المطلق » هو من مات على ذلك . فأما إن قام به الإيمان والتقوى وكان في علم الله أنه يرتد عن ذلك ، فهل يكون في حال إيمانه وتقواه ولياً لله أو يقال لم يكن ولياً لله قط لعلم الله بعاقبته ؟ هذا فيه قولان للعلماء . وكذلك عندم الإيمان الذي يعقبه الكفر هل هو إيمان صحيح ثم يبطل بمنزلة ما يحبط من الأعمال بعد كماله ، أو هو إيمان باطل بمنزلة من أفطر قبل غروب الشمس في صيامه ومن أحدث قبل السلام في صلاته . فيه أيضاً قولان : للفقهاء والمتكلمين والصوفية .

والتزاع في ذلك بين أهل السنة والحديث من أصحاب الإمام أحمد

وغيرهم وكذلك يوجد النزاع فيه بين أصحاب مالك والشافعي وغيرهم . لكن أكثر أصحاب أبي حنيفة لا يشترطون سلامة العاقبة ، وكثير من أصحاب مالك والشافعي وأحمد يشترط سلامة العاقبة ، وهو قول كثير من متكلمي أهل الحديث : كالأشعري ، ومن متكلمي الشيعة وبينون على هذا النزاع : إن ولي الله هل يصير عدوا لله وبالعكس ؟ ومن أحبه الله ورضي عنه . هل أبغضه وسخط عليه في وقت ما وبالعكس ؟ ومن أبغضه الله وسخط عليه هل أحبه الله ورضى عنه في وقت ما على القولين ؟ .

و « التحقيق » هو الجمع بين القولين . فإن علم الله القديم الأزلي وما يتبعه من محبته ورضاه ، وبغضه وسخطه ، وولايته وعداوته لا يتغير . فمن علم الله منه أنه يوافي حين موته بالإيمان والتقوى فقد تعلق به محبة الله وولايته ورضاه عنه أزلاً وأبداً ، وكذلك من علم الله منه أنه يوافي حين موته بالكفر فقد تعلق به بغض الله وعداوته ، وسخطه أزلاً وأبداً لكن مع ذلك فإن الله تعالى يبغض ما قام بالأول من كفر وفسوق قبل موته . وقد يقال : إنه يبغضه ويمقتة على ذلك ، كما ينهائ عن ذلك وهو سبحانه وتعالى يأمر بما فعله الثاني من الإيمان والتقوى ، ويحب ما يأمر به ويرضاه ، وقد يقال إنه يواليه حينئذ على ذلك .

والدليل على ذلك : اتفاق الأئمة على أن من كان مؤمناً ثم ارتد

فإنه لا يحكم بأن إيمانه الأول كان فاسداً ، بمنزلة من أفسد الصلاة والصيام والحج قبل الإكمال ؛ وإنما يقال كما قال الله تعالى : (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) وقال (لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ) وقال : (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ولو كان فاسداً في نفسه لوجب الحكم بفساد أنكرته المتقدمة ، وتحريم ذبائحه ، وبطلان إرثه المتقدم ، وبطلان عباداته جميعها ، حتى لو كان قد حج عن غيره كان حجه باطلاً ، ولو صلى مدة بقوم ثم ارتد كان عليهم أن يعيدوا صلاتهم خلفه ، ولو شهد أو حكم ثم ارتد [لوجب] أن تفسد شهادته وحكمه ونحو ذلك . وكذلك أيضاً الكافر إذا تاب من كفره ، لو كان محبوباً لله ولياً له في حال كفره ، لوجب أن يقضي بعدم إحكام ذلك الكفر ، وهذا كله خلاف ما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع .

والكلام في هذه « المسألة » نظير الكلام في الأرزاق والآجال وهي أيضاً مبنية على « قاعدة الصفات الفعلية » وهي قاعدة كبيرة .

وعلى هذا يخرج جواب السائل ، فمن قال : إن ولي الله لا يكون إلا من وافاه حين الموت بالإيمان والتقوى ، فالعلم بذلك أصعب عليه وعلى غيره . ومن قال : قد يكون ولياً لله من كان مؤمناً تقياً وإن لم تعلم عاقبته فالعلم به أسهل .

ومع هذا يمكن العلم بذلك للولي نفسه ولغيره ، ولكنه قليل ولا يجوز لهم القطع على ذلك ، فمن ثبتت ولايته بالنص . وأنه من أهل الجنة كالعشرة وغيرهم فعامة أهل السنة يشهدون له بما شهد له به النص . وأما من شاع له لسان صدق في الأمة بحيث اتفقت الأمة على الثناء عليه فهل يشهد له بذلك ؟ هذا فيه نزاع بين أهل السنة ، والأشبه أن يشهد له بذلك . هذا في الأمر العام .

وأما « خواص الناس » فقد يعلمون عواقب أقوام بما كشف الله لهم ، لكن هذا ليس ممن يجب التصديق العام به ، فإن كثيراً ممن يظن به أنه حصل له هذا الكشف يكون ظاناً في ذلك ظناً لا يبغي من الحق شيئاً ، وأهل المكاشفات والمحاطبات يصيبون تارة ؛ ويخطئون أخرى ؛ كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد ؛ ولهذا وجب عليهم جميعهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يزنوا مواجيدهم ومشاهدتهم وآرائهم ومعقولاتهم بكتاب الله وسنة رسوله ؛ ولا يكتفوا بمجرد ذلك ؛ فإن سيد المحدثين والمحاطبين الملمهين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب ؛ وقد كانت تقع له وقائع فيردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أو صديقه التابع له الآخذ عنه الذي هو أكمل من المحدث الذي يحدثه قلبه عن ربه .

ولهذا وجب على جميع الخلق اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم

وطاعته في جميع أموره الباطنة والظاهرة ، ولو كان أحد بآتيه من الله ما لا يحتاج إلى عرضه على الكتاب والسنة لكان مستغنياً عن الرسول صلى الله عليه وسلم في بعض دينه . وهذا من أقوال المارقين الذين يظنون أن من الناس من يكون مع الرسول كالخضر مع موسى . ومن قال هذا فهو كافر .

وقد قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)
فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته ، ولم يضمن ذلك للمحدث ؛ ولهذا كان في الحرف الآخر الذي كان يقرأ به ابن عباس وغيره : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث إلا إذا تمى ألقى الشيطان في أمنيته)

ويحتمل والله أعلم أن [لا] يكون هذا الحرف متلوأ ، حيث لم يضمن نسخ ما ألقى الشيطان [في أمنية المحدث] ؛ فإن نسخ ما ألقى الشيطان ليس إلا للأنبياء والمرسلين ، إذ هم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى أن يستقر فيه شيء من إلقاء الشيطان ، وغيرهم لا تجب عصمته من ذلك ، وإن كان من أولياء الله المتقين ، فليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء خطأ مغفوراً لهم ؛ بل

ولا من شرطهم ترك الصغار مطلقاً ، بل ولا من شرطهم ترك الكبار
أو الكفر الذي تعقبه التوبة .

وقد قال الله تعالى : (وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ
الْمُتَّقُونَ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ
عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَبِجَزَائِهِمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ)
فقد وصفهم الله بأنهم هم المتقون . و « المتقون » هم أولياء الله ، ومع هذا
فأخبر أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ، وهذا أمر متفق عليه بين
أهل العلم والإيمان .

وإنما يخالف في ذلك الغالية من الرافضة وأشباه الرافضة من
الغالية في بعض المشايخ ، ومن يعتقدون أنه من الأولياء . فالرافضة
تزعم أن « الإثني عشر » معصومون من الخطأ والذنب . ويرون هذا
من أصول دينهم ، والغالية في المشايخ قد يقولون : إن الولي محفوظ
والنبي معصوم . وكثير منهم إن لم يقل ذلك بلسانه ؛ فحاله حال من يرى
أن الشيخ والولي لا يخطئ ولا يذنب ؛ وقد بلغ الغلو بالطائفتين إلى
أن يجعلوا بعض من غلوا فيه بمنزلة النبي وأفضل منه ، وإن زاد الأمر
جعلوا له نوعاً من الإلهية ، وكل هذا من الضلالات الجاهلية المضاهية
للضلالات النصرانية . فإن في النصارى من الغلو في المسيح والأجبار
والرهبان ما ذمهم الله عليه في القرآن ؛ وجعل ذلك عبرة لنا ؛ لئلا

نسلك سبيلهم ، ولهذا قال سيد ولد آدم : « لا نظروني كما أطرت
النصارى عيسى بن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ؛ ورسوله » .

فصل

وأما « الفقراء » الذين ذكّرهم الله في كتابه فهم صنفان : مستحقو
الصدقات ، ومستحقو الفداء .

أما مستحقو الصدقات فقد ذكّرهم الله في كتابه في قوله : (إِنْ تُبْدُوا
الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ) وفي قوله :
(إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ) . وإذا ذكر في القرآن اسم « الفقير »
وحدّه ، و« المسكين » وحدّه - كقوله : (إِطْعَمُوا عَشْرَةَ مَسْكِينٍ) - فهذا شيء
واحد ، وإذا ذكرا جميعاً فهما صنفان . والمقصود بهما أهل الحاجة . وهم الذين
لا يجدون كفايتهم ، لا من مسألة ولا من كسب يقدرّون عليه ، فمن
كان كذلك من المسلمين استحق الأخذ من الصدقات المفروضة ، والموقوفة
والمندورة ، والموصى بها ، وبين الفقهاء نزاع في بعض فروع المسألة
معروف عند أهل العلم .

و ضد هؤلاء « الأغنياء » الذين تحرم عليهم الصدقة ، ثم هم

«نوعان» : نوع تجب عليهم الزكاة ، وإن كانت الزكاة تجب على من قد تباح له عند جمهور العلماء .

ونوع لا تجب عليه الزكاة .

وكل منها قد يكون له فضل عن نفقاته الواجبة ، وهم الذين قال الله فيهم : (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ) . وقد لا يكون له فضل ، وهؤلاء الذين رزقهم قوت وكفاف هم أغنياء باعتبار غناهم عن الناس ، وهم فقراء باعتبار أنه ليس لهم فضول يتصدقون بها .

وإنما يسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بنصف يوم ، لعدم فضول الأموال التي يحاسبون على مخرجها ومصارفها ، فمن لم يكن له فضل كان من هؤلاء ، وإن لم يكن من أهل الزكاة ، ثم أرباب الفضول إن كانوا محسنين في فضول أموالهم ، فقد يكونون بعد دخول الجنة أرفع درجة من كثير من الفقراء الذين سبقوهم ، كما تقدم أغنياء الأنبياء والصديقين من السابقين وغيرهم على الفقراء الذين دونهم . ومن هنا قال الفقراء : « ذهب أهل الدثور بالأجور » وقيل لما ساوهم الأغنياء في العبادات البدنية ، وامتازوا عنهم بالعبادات المالية : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » فهذا هو « الفقير » في عرف الكتاب والسنة .

وقد يكون الفقراء سابقين ، وقد يكونون مقتصدين ، وقد يكونون ظالمين أنفسهم كالأغنياء ، وفي كلا الطائفتين : المؤمن الصديق ، والمنافق الزنديق .

وأما المستأخرون فـ « الفقير » في عرفهم عبارة عن السالك إلى الله تعالى ، كما هو « الصوفي » في عرفهم أيضاً ، ثم منهم من يرجح مسمى « الصوفي » على مسمى « الفقير » لأنه عنده الذي قام بالباطن والظاهر ومنهم من يرجح مسمى الفقير لأنه عنده الذي قطع العلائق ، ولم يشتغل في الظاهر بغير الأمور الواجبة ، وهذه منازعات لفظية اصطلاحية . و « التحقيق » أن المراد الحمود بهذين الاسمين ، داخل في مسمى الصديق ، والولي والصالح ، ونحو ذلك من الأسماء التي جاء بها الكتاب والسنة ، فمن حيث دخل في الأسماء النبوية ، يترتب عليه من الحكم ما جاءت به الرسالة ، وأما ما يميز به مما يعده صاحبه فضلاً وليس بفضل ، أو مما يوالي عليه صاحبه غيره ، ونحو ذلك من الأمور التي يترتب عليها زيادة الدرجة في الدين والدنيا ، فهي أمور مهدرة في الشريعة إلا إذا جعلت من المباحات كالصناعات ، فهذا لا بأس به ، بشرط ألا يعتقد أن تلك المباحات من الأمور المستحبات . وأما ما يقترن بذلك من الأمور المكروهة في دين الله : من أنواع البدع والفجور . فيجب النهي عنه كما جاءت به الشريعة .

وسئل

عن قوم يقولون : إن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى باب « أهل الصفة » فاستأذن ، فقالوا : من أنت ؟ قال : أنا محمد ، قالوا : ماله عندنا موضع الذي يقول : أنا . فرجع ثم استأذن ثانية ، وقال : أنا محمد مسكين ، فأذنوا له . فهل يجوز التكلم بهذا . أم هو كفر ؟

فأجاب : هذا الكلام من أعظم الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى « أهل الصفة » فإن « أهل الصفة » لم يكن لهم مكان يستأذن عليهم فيه ، إنما كانت الصفة في شمالي مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأوى إليها من لا أهل له من المؤمنين ، ولم يكن يقيم بها ناس معينون ، بل يذهب قوم ويحيى آخرون ، ولم يكن « أهل الصفة » خيار الصحابة ؛ بل كانوا من جملة الصحابة ؛ ولم يكن أحد من الصحابة يستخف بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكر . ومن فعل ذلك فهو كافر ، ومن اعتقد هذا بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو كافر فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . والله أعلم .

سئل رحمه الله

عن قوم يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث لا سند لهم بها . فيقولون : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا من الله ، والمؤمنون مني يتسمون بالأهوية منه » فهل هذا صحيح أم لا ؟ ويقرأون بينهم أحاديث ، ويزعمون أن عمر رضى الله عنه قال : كان أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدثان بحديث أبقي بينهما كأني زنجي ، لا أفقه . فهل يصح هذا أم لا ؟

ويتحدثون عن أصحاب الصفة بأحاديث كثيرة : منها أنهم يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدتم على الإسلام من قبل أن يبعث فوجدتم على الطريق ، وإنهم لم يكونوا يغزون معه حقيقة . وإنه ألزمهم النبي صلى الله عليه وسلم مرة ، فلما فر المسلمون منهزمين ضربوا بسيوفهم في عسكر النبي صلى الله عليه وسلم . وقالوا : نحن حزب الله الغالبون ، وزعموا أنهم لم يقتلوا إلا منافقين في تلك المرة ، فهل يصح ذلك أم لا ؟

والمسؤول تعيين « أصحاب الصفة » كم من رجل ؟ ومن كانوا من

الصحابة رضي الله عنهم ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى لما عرج بنبيه صلى الله عليه وسلم أوحى الله إليه مائة ألف سر ، وأمره ألا يظهرها على أحد من البشر . فلما نزل إلى الأرض وجد أصحاب الصفة يتحدثون بها ، فقال : يارب ! إني لم أظهر على هذا السر أحداً ، فأوحى الله إليه أنهم كانوا شهوداً بيني وبينك ، فهل لهذه الأشياء صحة أم لا ؟

فأجاب . الحمد لله رب العالمين ، جميع هذه الأحاديث أكاذيب مختلفة ، ليتبوا مفتريها مقعده من النار . لا خلاف بين جميع علماء المسلمين — أهل المعرفة وغيرهم — أنها مكذوبة مخلوقة ، ليس لشيء منها أصل ؛ بل من اعتقد صحة مجموع هذه الأحاديث فإنه كافر ؛ يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل . وليس لشيء من هذه الأحاديث أصل ألبتة . ولا توجد في كتاب ؛ ولا رواها قط أحد ممن يعرف الله ورسوله .

فأما « الحديث الأول » قوله : « أنا من الله والمؤمنون مني » فلا يحفظ هذا اللفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلني : « أنت مني وأنا منك » كما قال الله سبحانه : (بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) أي أتم نوع واحد . متفقون في القصد والهدى ، كالروحين اللتين تتفقان في صفاتها ؛ وهي الجنود المجندة التي

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »

وأما أن يكون الخلق جزءاً من الخالق تعالى . فهذا كفر صريح
يقوله أعداء الله النصارى ، ومن غلا من الرافضة ؛ وجهال المتصوفة
ومن اعتقده فهو كافر . نعم ! للمؤمنين العارفين بالله المحبين له من
مقامات القرب ؛ ومنازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة ، ولا يعرفه
حق المعرفة إلا من أدركه وناله ؛ والرب رب . والعبد عبد ؛ ليس في
ذاته شيء من مخلوقاته ؛ ولا في مخلوقاته شيء من ذاته ؛ وليس أحد
من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به ؛ أو بغيره من
المخلوقات ولا اتحاده به .

وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ . فكثير
منه مكنوب ، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية ؛ الذين أضلهم
الشیطان وألحقهم بالطائفة النصرانية .

والذي يصح منه عن الشيوخ له معان صحيحة ؛ ومنه ما صدر عن
بعضهم في حال استيلاء حال عليه ؛ ألحقه تلك الساعة بالسكران الذي
لا يميز ما يخرج منه من القول ، ثم إذا تاب عليه عقله وتمييزه ينكر
ذلك القول ؛ ويكفر من يقوله ؛ وما يخرج من القول في حال غيبة

عقل الإنسان لا يتخذهُ هو ولا غيره عقيدة ؛ ولا حكم له ؛ بل القلم مرفوع عن النائم والمجنون والمغمى عليه والسكران الذي سكر بغير سبب محرم ؛ مثل من بسقي الخمر وهو لا يعرفها أو أوجرها حتى سكر أو أطمع البنج وهو لا يعرفه ؛ فكذلك .

وقد يشاهد كثير من المؤمنين من جلال الله ، وعظمته ، وجماله أموراً عظيمة ، تصادف قلوباً رقيقة ، فتحدث غشياً وإغماء . ومنها ما يوجب الموت . ومنها ما يخل العقل . وإن كان الكاملون منهم لا يعتريهم هذا كما لا يعتري الناقصين عنهم ؛ لكن يعتريهم عند قوة الوارد على قلوبهم ، وضعف الحل المورود عليه ، فمن اغتر بما يقولونه أو يفعلونه في تلك الحال كان ضالاً مضلاً .

وإنما « الأحوال الصحيحة » مثل ما دل عليه ما رواه البخاري في صحيحه من قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . فبي يسمع ، وبني يبصر ، وبني يبطش ، وبني يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن

قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه » .

فانظر كيف قال في تمام الحديث : « في بسمع ، وبى يبصر ،
ولئن سألتني ، ولئن استعاذني » فيز بين الرب وبين العبد ، ألا تسمع
إلى قوله تعالى : (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
وَقَالَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ لَأَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ
عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ)

وقال : (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) إلى قوله (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)
وقال : (يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ
— إلى قوله — وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا) .

وكذلك روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : يابن آدم ! مرضت فلم
تعذني فيقول : رب ! كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ ! فيقول :
أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلوعدته لوجدتني عنده » وذكر في
الجوع والعري مثل ذلك . فانظر كيف عبر في أول الحديث بلفظ

مرضت ثم فسرته في تمامه ؛ بأن عبدي فلاناً مرض فلوعدته لوجدتني عنده ، فميز بين الرب والعبد ، والعبد العارف بالله تتحد إرادته بإرادة الله ، بحيث لا يريد إلا ما يريد الله أمراً به ورضا ، ولا يحب إلا ما يحبه الله ، ولا يبغض إلا ما يبغضه الله ، ولا يلتفت إلى عدل العاذلين ، ولوم اللاتمين ، كما قال سبحانه : (فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ) .

والكلام في مقامات العارفين طويل .

وإنما الغرض أن يتفطن المؤمن للفرق بين هؤلاء الزنادقة الذين ضاهوا النصارى ، وسلكوا سبيل أهل « الحلول ، والاتحاد » وكذبوا على الله ورسوله . وكذبوا الله ورسوله ، وبين العالمين بالله والمحيين له أولياء الله ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فإنه قد يشبه هؤلاء بهؤلاء ، كما اشتبه على كثير من الضالين حال مسيلمة الكذاب المتنبئ بمحمد بن عبد الله رسول الله حقاً ، حتى صدقوا الكاذب ، وكذبوا الصادق . والله قد جعل على الحق آيات وعلامات وبراهين ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وأما حديث عمر : أنه كان كالزنجي بين النبي صلى الله عليه وسلم

وبين أبي بكر « فكذب مختلق ، نعم ! كان أبو بكر الصديق — رضي الله عنه — أقرب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأولاهم به . وأعلمهم بمراده لما يسألونه عنه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكلم بالكلام العربي الذي يفهمه الصحابة رضي الله عنهم ، ويزداد الصديق بفهم آخر يوافق ما فهموه ، ويزيد عليهم ولا يخالفه . مثل ما في الصحيحين عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال : « إن عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة . فاختار ذلك العبد ما عند الله . فبكى أبو بكر . وقال : بل نفديك بأنفسنا وأموالنا فجعل بعض الناس يعجب ويقول : عجباً لهذا الشيخ يبكي ، أن ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً خيره الله بين الدنيا والآخرة قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المحير . وكان أبو بكر أعلمنا به . »

فالنبي صلى الله عليه وسلم ذكر عبداً مطلقاً ، وهذا كلام عربي لا لغز فيه ، ففهم الصديق لقوة معرفته بمقاصد النبي صلى الله عليه وسلم أنه هو العبد المحير ، ومعرفة أن المطلق هذا المعين خارج عن دلالة اللفظ ، لكن يوافقه ولا يخالفه ؛ ولهذا قال أبو سعيد : كان أبو بكر أعلمنا به .

ومن هذا أن الصديق — رضي الله عنه — لما عزم على قتال

ما نعي الزكاة قال له عمر : كيف تقايل الناس ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » . فقال أبو بكر . الزكاة من حقها ، والله ! لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ؛ والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . فرجع عمر وغيره إلى قول أبي بكر . وكان هو أفهم لمعنى كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وبقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام » فهذا النص الصريح موافق لفهم أبي بكر .

وكذلك قوله في صلح الحديبية لعمر مثل ما كان النبي صلى الله عليه وسلم ؛ قال له ، وأمثال ذلك كثير . فأما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتكلم بكلام لا يفهمه عمر وأمثاله ، بل يكون عندهم ككلام الزنجي . فمن اعتقد هذا فهو جاهل ضال ، عليه من الله ما يستحقه .

وأما كون أهل الصفة كانوا قبل المبعث مهتدين . فعلى من قال

هذا : لعنة الله والملائكة والناس أجمعين : بل لا خلاف بين المسلمين أنهم كانوا جاهلين : بل لا خلاف بين المسلمين أنهم كانوا كافرين جاهلين بالله وبدينه : وإنما هدام الله بكتابه : وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولم يكن بين أهل الصفة وسائر الصحابة فرق في الكفر والضلالة قبل إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد كان بعد الإسلام كثير ممن لم يكن من « أهل الصفة » كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أعلم بالله : وأعظم يقيناً من عامة أهل الصفة .

وأما ما ذكر من تخلفهم عنه في الجهاد فقول جاهل ضال : بل هم الذين كانوا أعظم الناس قتالاً وجهاداً : كما وصفهم القرآن في قوله : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) وقال في صفتهم : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا) ولقد قتل منهم في يوم واحد يوم بئر معونة سبعون : حتى وجد عليهم النبي صلى الله عليه وسلم موجدة ، وقت شهرأ يدعو على الذين قتلوهم : وأخبر عنهم : « أنهم بهم تتقى المكاره : وتسد بهم الثغور : وأنهم أول الناس وروداً على الحوض : وأنهم الشعث رؤوساً . الدنس ثياباً : الذين لا ينكحون المتنعات : ولا تفتح لهم أبواب الملوك » .

وأما « عددتم » فقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي تاريخهم : وهم نحو من ستائة ، أو سبعمائة ، أو نحو ذلك . ولم يكونوا مجتمعين في وقت واحد ، بل كان في شمال المسجد صفة يأوي إليها فقراء المهاجرين ، فمن تأهل منهم ، أو سافر ، أو خرج غازيا خرج منها ، وقد كان يكون في الوقت الواحد فيها السبعون ، أو أقل ، أو أكثر ومنهم : سعد بن أبي وقاص ، أحد العشرة . وأبو هريرة ، وخبيب ، وسلمان وغيرهم .

وأما ما ذكر من أنهم عرفوا ما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج فكذب ، ملعون قائله . وكيف يكون ذلك والمعراج كان بمكة قبل الهجرة ؟ ! وأهل الصفة إنما كانوا بالمدينة بعد الهجرة ، وبناء مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة : الطيبة وهذا كله واضح عند من عرف الله ورسوله ، وكان مسلماً خيفاً ، أو كان عالماً بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيرة أصحابه معه .

وإنما يقع في هذه الجهالات أقوام نقص إيمانهم وقل علمهم ، واستكبرت أنفسهم ، حتى صاروا بمنزلة فرعون ، وصاروا أسوأ حالا من النصارى .

والله يتوب علينا وعليهم ، وعلى سائر إخواننا المسلمين ، ويهدينا وإياهم صراطه المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم . غير المغضوب عليهم . ولا الضالين . والله تعالى أعلم .

وسئل

عن « الفتوة » المصطلح عليها إلخ ..

فأجاب - رضي الله عنه - قائلاً : أما ما ذكره من « الفتوة » التي يلبس فيها الرجل لغيره سراويل ، وبسقيه ماء وملحاً ؛ فهذا لا أصل له . ولم يفعلها أحد من السلف لا علي ولا غيره . والإسناد الذي يذكرونه في « الفتوة » إلى أمير المؤمنين : علي بن أبي طالب ، من طريقة الخليفة الناصر وغيره ، إسناد مظلم ، عامة رجاله مجاهيل لا يعرفون وليس لهم ذكر عند أهل العلم .

وقد ذكر أن أصل ذلك : أنه وضع سراويل عند قبر علي فأصبح مسدوداً ، وهذا يجري عند غير علي ، كما يجري أمثال ذلك من الأمور التي يظن أنها كرامة ، في الكنائس وغيرها ، مثل دخول مصروع إليها فيبرأ بنذر يجعل للكنيسة ، ونحو ذلك . وهذا إذا لم يكن كذباً فإنه من فعل الشياطين . كما يفعل مثل ذلك عند الأوثان ، وأنا أعرف من ذلك وقائع متعددة .

و (المقصود هنا) أن سراويل الفتوة لا أصل له عن علي ولا غيره من السلف ، وما يشترطه بعضهم من الشروط ، إن كان مما أمر الله به ورسوله ، فإنه يفعل لأن الله أمر به ورسوله ، وما نهى عنه مثل التعصب لشخص على شخص ، والإعانة على الإثم والعدوان . فهو مما ينهى عنه ، ولو شرطوه .

ولفظ « الفتى » فى اللغة هو الشاب . كما ذكر ذلك أهل اللغة . ومنه قوله تعالى : (وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ) وقوله : (إِنَّهُمْ فَتِيَةٌ ءَامِنُوا بِرَبِّهِمْ) (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ) . وقد فتى يفتى فهو فتى ، أي بين الفتا ، والأفتا من الدواب خلاف المसान ، وقد يعبر بالفتى عن المملوك مطلقاً . كما قال تعالى : (مِّنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ) .

ولما كان الشاب ألين عريكة من الشيخ صار فى طبعه من السخاء والكرم مالا يوجد فى الشيوخ . فصاروا يعبرون بلفظ الفتى عن السخي الكريم . يقال : هو فتى بين الفتوة وقد يفتى . ويفاتى . والجمع فتيان وفتية .

واستعمال لفظ الفتى بمعنى المتصف بمكارم الأخلاق موجود فى كلام كثير من المشايخ ، وقد يظن أن لفظ القرآن يدل على هذا . ومنه قول بعض الشيوخ : طريقنا تفتى وليس تنصر ، يعنى هو استعمال مكارم

الأخلاق ؛ ليس هو النسك اليابس . ومنه قول أبي إسماعيل الأنصاري :
الفتوة أن تقرب من يقصدك ، وتكرم من يؤذك ، وتحسن إلى من
يسيء إليك ، سماحة لا كظما ، ومودة لا مصابرة .

ونقل عن أحمد بن حنبل - رضى الله عنه - أنه قال : الفتوة
ترك ما تهوى لما تخشى . كما قال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى
النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ) فمن دعا الى ما دعا إليه الله ورسوله من
مكارم الأخلاق كان محسناً ، سواء سمى ذلك فتوة أو لم يسمه ، ومن
أحدث في دين الله ما ليس منه فهو رد .

والغالب أنهم يدخلون في الفتوة أموراً ينهى عنها فيهنون عن ذلك ،
ويؤمرون بما أمر الله به ورسوله ، كما ينهون عن الإلباس ، والإسقاء .
وإسناد ذلك إلى علي - رضى الله عنه - وأمثال ذلك .

سئل الشيخ الإمام العالم العلامة

إمام الوقت ، فريد الدهر ، جوهر العلم ، لب الإيمان ، قطب الزمان
مفتى الفرق ، شيخ الإسلام ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن الشيخ
الإمام شهاب الدين عبد الحلیم بن الشيخ الإمام العلامة مؤيد السنة مجد الدين
عبد السلام بن تيمية الحراني . — رضي الله عنه — ونفع به آمين .

في جماعة يجتمعون في مجلس ، ويلبسون لشخص منهم لباس « الفتوة »
ويدورون بينهم في مجلسهم شربة فيها ملح وماء يشربونها
ويزعمون أن هذا من الدين ، ويذكرون في مجلسهم ألفاظاً لا تليق
بالعقل والدين .

فنها أنهم يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألبس علي
ابن أبي طالب — رضي الله تعالى عنه — لباس الفتوة ، ثم أمره أن
يلبس من شاء ، ويقولون : إن اللباس أنزل على النبي — صلى الله تعالى
عليه وسلم — في صندوق ، ويستدلون عليه بقوله تعالى : (يَبْنِيءَ آدَمَ قَدْ
أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُوْزِي سَوْءَ تَكْم) الآية — فهل هو كما زعموا ؟ أم

كذب مختلق؟ وهل هو من الدين أم لا؟ وإذا لم يكن من الدين فما يجب على من يفعل ذلك أو يعين عليه؟ ومنهم من ينسب ذلك إلى الخليفة الناصر لدين الله. إلى عبد الجبار ويزعم أن ذلك من الدين؛ فهل لذلك أصل أم لا؟

وهل الأسماء التي يسمون بها بعضهم بعضاً من اسم الفتوة، ورؤوس الأحزاب والزعماء فهل لهذا أصل أم لا؟ ويسمون المجلس الذي يجتمعون فيه «دسكرة» ويقوم للقوم نقيب إلى الشخص الذي يلبسونه فينزعه اللباس الذي عليه يده، ويلبسه اللباس الذي يزعمون أنه لباس الفتوة يده، فهل هذا جائز. أم لا؟ وإذا قيل: لا يجوز فعل ذلك ولا الإعانة عليه، فهل يجب على ولي الأمر منعهم من ذلك؟

وهل للفتوة أصل في الشريعة أم لا؟ وإذا قيل: لا أصل لها في الشريعة فهل يجب على غير ولي الأمر أن ينكر عليهم، ويمنعهم من ذلك أم لا؟ مع تمكنه من الإنكار، وهل أحد من الصحابة - رضي الله تعالى عنهم، أو التابعين، أو من بعدهم من أهل العلم فعل هذه الفتوة المذكورة أو أمر بها أم لا؟

وهل خلق النبي صلى الله عليه وسلم من النور؟ أم خلق من الأربع عناصر؟ أم من غير ذلك؟ وهل الحديث الذي يذكره بعض الناس: «لولاك ما خلق الله عرشاً. ولا كرسيّاً، ولا أرضاً، ولا سماء»

ولا شمساً ، ولا قرأ . ولا غير ذلك » صحيح هو أم لا ؟

وهل « الأخوة » التي يؤاخيها المشايخ بين الفقراء في السماع وغيره يجوز فعلها في السماع ونحوه أم لا ؟ وهل آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ؟ أم بين كل مهاجري وأنصاري ؟ وهل آخى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أم لا ؟ بينوا لنا ذلك بالتعليل والحجة المينة ، وابسطوا لنا الجواب في ذلك بسطاً شافياً مأجورين . أثابكم الله تعالى .

فأجاب :

الحمد لله . أما ما ذكر من إلباس لباس « الفتوة » السراويل أو غيره ، وإسقاء الملح والماء فهذا باطل ، لا أصل له ، ولم يفعل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من أصحابه . لا علي بن أبي طالب ولا غيره ، ولا من التابعين لهم بإحسان .

والإسناد الذي يذكرونه من طريق الخليفة الناصر إلى عبد الجبار إلى ثمامة ، فهو إسناد لا تقوم به حجة ، وفيه من لا يعرف ، ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم بمثل هذا الإسناد المجهول

الرجال أمراً من الأمور التي لا تعرف عنه ، فكيف إذا نسب إليه ما يعلم أنه كذب وافتراء عليه ؟! فإن العالمين بسنته وأحواله متفقون على أن هذا من الكذب المخلوق عليه وعلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وما ذكروه من نزول هذا اللباس في صندوق هو من أظهر الكذب ، باتفاق العارفين بسنته .

و«اللباس الذي يوارى السوء» هو كل ماستر العورة من جميع أصناف اللباس المباح . أنزل الله تعالى هذه الآية لما كان المشركون يطوفون بالبيت عمرة ، ويقولون : ثياب عصينا الله فيها لا نظوف فيها فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأنزل قوله : (خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ) .

والكذب في هذا أظهر من الكذب فيما ذكر من لباس الحرقة ، وأن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن رداءه ، وأنه فرق الحرق على أصحابه ، وأن جبريل أتاه وقال له : إن ربك يطلب نصيبه من زبق الفقر وأنه علق ذلك بالعرش . فهذا أيضاً كذب باتفاق أهل المعرفة : فإن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجتمع هو وأصحابه على سماع كف ، ولا سماع دفوف وشبابات ، ولا رقص ولا سقط عنه ثوب من ثيابه في ذلك ، ولا قسمه على أصحابه ، وكل ما يروى من ذلك فهو كذب مخلوق باتفاق أهل المعرفة بسنته .

فصل

والشروط التي نشترطها شيوخ « الفتوة » ما كان منها مما أمر الله به ورسوله كصدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم ونصر المظلوم، وصلة الأرحام والوفاء بالعهد. أو كانت مستحبة: كالعفو عن الظالم واحتمال الأذى، وبذل المعروف الذي يحبه الله ورسوله وأن يجتمعوا على السنة، ويفارق أحدهما الآخر إذا كان على بدعة. ونحو ذلك. فهذه يؤمن بها كل مسلم سواء شرطها شيوخ الفتوة أو لم يشرطوها، وما كان منها مما نهى الله عنه ورسوله: مثل التحالف الذي يكون بين أهل الجاهلية، أن كلا منهما يصادق صديق الآخر في الحق والباطل، ويعادي عدوه في الحق والباطل، وينصره على كل من يعاديه سواء كان الحق معه أو كان مع خصمه، فهذه شروط تحلل الحرام وتحرم الحلال، وهي شروط ليست في كتاب الله.

وفي السنن عنه أنه قال: « المسلمون عند شروطهم: إلا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » وكل ما كان من الشروط التي بين القبائل والملوك والشيوخ والأحلاف وغير ذلك فإنها على هذا الحكم باتفاق علماء المسلمين، ما كان من الأمر المشروط الذي قد أمر الله به ورسوله

فإنه يؤمر به كما أمر الله به ورسوله . وإن كان مما نهى الله عنه ورسوله فإنه ينهى عنه ، كما نهى الله عنه ورسوله ، وليس لبني آدم أن يتعاهدوا ولا يتعاقدوا ولا يتحالفوا ولا يتشارطوا على خلاف ما أمر الله به ورسوله ؛ بل على كل منهم أن يوفوا بالعقود والعهود التي عهدها الله إلى بني آدم كما قال الله تعالى : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ) .

وكذلك ما يعقده المرء على نفسه كعقد النذر أو يعقده الاثنان : كعقد البيع والإجارة ، والهبة وغيرها . أو ما يكون تارة من واحد وتارة من اثنين : كعقد الوقف والوصية ؛ فإنه في جميع هذه العقود متى اشترط العاقد شيئاً مما نهى الله عنه ورسوله كان شرطه باطلاً . وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » . والعقود المخالفة لما أمر الله به ورسوله هي من جنس دين الجاهلية ، وهي شعبة من دين المشركين وأهل الكتاب الذين عقدوا عقوداً أمروا فيها بمانهى الله عنه ورسوله ، ونهوا فيها عما أمر الله به ورسوله .

فهذا أصل عظيم يجب على كل مسلم أن يتجنبه .

فصل

وأما لفظ « الفتى » فمعناه في اللغة الحدث كقوله تعالى : (إِنَّهُمْ
فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ) وقوله تعالى : (قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ
إِبْرَاهِيمُ) ومنه قوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ) ؛ لكن لما كانت
أخلاق الأحداث اللين صار كثير من الشيوخ يعبرون بلفظ « الفتوة »
عن مكارم الأخلاق . كقول بعضهم : طريقنا فتى وليس تنصر . وقول
بعضهم . « الفتوة » أن تقرب من يقصيك ، وتكرم من يؤذيك وتحسن إلى [من] (١)
بسيء إليك . سماحة لا كظما ، ومودة لا مضارة . وقول بعضهم : « الفتوة »
ترك ما تهوى لما تخشى . وأمثال هذه الكلمات التى توصف فيها
الفتوة بصفات محمودة محبوبة ، سواء سميت فتوة أو لم تسم ، وهى لم
تستحق المدح فى الكتاب والسنة إلا لدخولها فيما حمده الله ورسوله من
الأسماء . كلفظ الإحسان والرحمة ، والعفو ، والصفح ، والحلم ، وكظم
الغيظ ، والبر والصدقة ، والزكاة والخير . ونحو ذلك من الأسماء الحسنة
التي تتضمن هذه المعانى ، فكل اسم علق الله به المدح والثواب في
الكتاب والسنة كان أهله ممدوحين ، وكل اسم علق به الذم والعقاب
في الكتاب والسنة كان أهله مذمومين ، كلفظ الكذب ، والخيانة ،

(١) أضيفت حسب مفهوم السياق .

والفجور ، والظلم ، والفاحشة ونحو ذلك .

وأما لفظ « الزعيم » فإنه مثل لفظ الكفيل والقبيل والضمين ، قال تعالى : (وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) فمن تكفل بأمر طائفة فإنه يقال هو زعيم ؛ فإن كان قد تكفل بخير كان محموداً على ذلك ، وإن كان شراً كان مذموماً على ذلك .

وأما « رأس الحزب » فإنه رأس الطائفة التي تتحزب ، أي تصوير حزبا ، فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون ، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم . وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل ، والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم ، سواء كان على الحق والباطل ، فهذا من التفرق الذي ذمّه الله تعالى ورسوله ، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والاتلاف ، ونهيا عن التفرقة والاختلاف ، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى ، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمي والسهر » وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين

أصابه . وفي الصحيح عنه أنه قال : « المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله »
وفي الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « انصر أخاك ظالماً
أو مظلوماً » قيل : يارسول الله ! أنصره مظلوماً ، فكيف أنصره ظالماً ؟ !
قال : « تمنعه من الظلم ؛ فذلك نصرك إياه » . وفي الصحيح عنه أنه قال :
« خمس تجب للمسلم على المسلم : يسلم عليه إذا لقيه ؛ ويعوده إذا مرض ،
ويشتمه إذا عطس ؛ ويجيبه إذا دعاه . ويشيعه إذا مات » . وفي
الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « والذي نفسي بيده
لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحب لنفسه »

فهذه الأحاديث وأمثالها فيها أمر الله ورسوله بما أمر به من
حقوق المؤمنين بعضهم على بعض . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله
تعالى عليه وسلم أنه قال : « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا
تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا » . وفي الصحيحين عنه صلى الله تعالى
عليه وسلم أنه قال : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً : أن تعبدوه ولا تشركوا
به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ؛ وأن تناصحوا من
ولاه الله أمركم »

وفي السنن عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « ألا أنبئكم
بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن
المنكر ؟ » قالوا : بلى يارسول الله ! قال : « صلاح ذات البين فإن

فساد ذات البين هي الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر . ولكن تحلق الدين »
فهذه الأمور مما نهى الله ورسوله عنها .

وأما لفظ « الدسكرة » فليست من الألفاظ التي لها أصل في
الشريعة فيتعلق بها حمد أو ذم ؛ ولكن هي في عرف الناس يعبر بها
عن المجامع . كما في حديث هرقل : أنه جمع الروم في دسكرة ؛ ويقال
للمجتمعين على شرب الخمر : إنهم في دسكرة ؛ فلا يتعلق بهذا اللفظ
حمد ولا ذم ؛ وهو إلى الذم أقرب ؛ لأن الغالب في عرف الناس أنهم يسمون
بذلك الاجتماع على الفواحش والخمر والغناء .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على كل مسلم ؛ لكنه
من فروض الكفايات ؛ فإن قام بهما من يسقط به الفرض من ولاية
الأمر ؛ أو غيرهم . والأوجب على غيرهم أن يقوم من ذلك بما
يقدر عليه .

فصل

والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم خلق مما يخلق منه البشر ؛
ولم يخلق أحد من البشر من نور ؛ بل قد ثبت في الصحيح عن النبي

صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « إن الله خلق الملائكة من نور ؛ وخلق إبليس من مارج من نار ؛ وخلق آدم مما وصف لكم » وليس تفضيل بعض المخلوقات على بعض باعتبار ما خلقت منه فقط ؛ بل قد يخلق المؤمن من كافر ؛ والكافر من مؤمن ؛ كابن نوح منه وكبراهيم من آزر ؛ وآدم خلقه الله من طين ؛ فلما سواه ؛ ونفخ فيه من روحه ؛ وأسجد له الملائكة ؛ وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء وبأن خلقه بيديه ؛ وبغير ذلك . فهو وصالحوا ذريته أفضل من الملائكة ؛ وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين ؛ وهؤلاء من نور .

وهذه « مسألة كبيرة » مبسطة في غير هذا الموضع ؛ فإن فضل بني آدم هو بأسباب يطول شرحها هنا . وإنما يظهر فضلهم إذا دخلوا دار القرار : (وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) . والآدمي خلق من نطفة ؛ ثم من مضغة ؛ ثم من علقه ، ثم انتقل من صغر إلى كبر ، ثم من دار إلى دار ، فلا يظهر فضله وهو في ابتداء أحواله ؛ وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله ؛ بخلاف الملك الذي تشابه أول أمره وآخره . ومن هنا غلط من فضل الملائكة على الأنبياء حيث نظر إلى أحوال الأنبياء . وهم في أثناء الأحوال ؛ قبل أن يصلوا إلى ما وعدوا به في الدار الآخرة من نهايات الكمال .

وقد ظهر فضل نبينا على الملائكة ليلة المعراج لما صار بمستوى
يسمع فيه صريف الأقلام ؛ وعلا على مقامات الملائكة ؛ والله تعالى
أظهر من عظيم قدرته وعجيب حكمته من صالحى الآدميين من الأنبياء
والأولياء ما لم يظهر مثله من الملائكة ، حيث جمع فيهم ما تفرق فى
المخلوقات . فخلق بدنه من الأرض ، وروحه من الملائكة الأعلى ، ولهذا
يقال : هو العالم الصغير ، وهو نسخة العالم الكبير .

ومحمد سيد ولد آدم . وأفضل الخلق : وأكرمهم عليه ، ومن
هنا قال من قال : إن الله خلق من أجله العالم ، أو إنه لولا هو لما
خلق عرشاً ، ولا كرسيّاً ، ولا سماء ولا أرضاً ولا شمساً ولا قرراً .
لكن ليس هذا حديثاً عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا صحيحاً
ولا ضعيفاً ، ولم ينقله أحد من أهل العلم بالحديث . عن النبي صلى
الله تعالى عليه وسلم : بل ولا يعرف عن الصحابة ، بل هو كلام
لا يدري قائله . ويمكن أن يفسر بوجه صحيح كقوله : (سَخَّرَ لَكُمُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وقوله : (وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ
لَا تُحْصَوْهَا) وأمثال ذلك من الآيات التى يبين فيها أنه
خلق المخلوقات لبني آدم ، ومعلوم أن الله فيها حكماً عظيمة غير ذلك ،

وأعظم من ذلك ، ولكن يبين لبني آدم ما فيها من المنفعة ، وما أسبغ عليهم من النعمة .

فإذا قيل : فعل كذا لكذا لم يقتض أن لا يكون فيه حكمة أخرى . وكذلك قول القائل : لو لا كذا ما خلق كذا ، لا يقتضي أن لا يكون فيه حكم أخرى عظيمة ، بل يقتضي إذا كان أفضل صالحي بني آدم محمد ، وكانت خلقته غاية مطلوبة ، وحكمة بالغة مقصودة [أعظم] من غيره ، صار تمام الخلق ، ونهاية الكمال ، حصل بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم (١) .

والله خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وكان آخر الخلق يوم الجمعة ، وفيه خلق آدم وهو آخر ما خلق ، خلق يوم الجمعة بعد العصر في آخر يوم الجمعة . وسيد ولد آدم هو محمد - صلى الله تعالى عليه وسلم - آدم فمن دونه تحت لوائه - قال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إني عند الله لمكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته » أي كتبت نبوتي وأظهرت لما خالق آدم قبل نفخ الروح فيه كما يكتب الله رزق العبد وأجله وعمله وشقي أو سعيد إذا خلق الجنين قبل نفخ الروح فيه . فإذا كان الإنسان هو خاتم المخلوقات وآخرها

(١) كان بالأصل شيء من التحريف .

وهو الجامع لما فيها ، وفاضله هو فاضل المخلوقات مطلقاً ، ومحمد إنسان هذا العين ؛ وقطب هذه الرحى ، وأقسام هذا الجمع كان كأنها غاية الغايات في المخلوقات ، فما ينكر أن يقال : إنه لأجله خلقت جميعها ، وإنه لولاه لما خلقت ، فإذا فسر هذا الكلام ونحوه بما يدل عليه الكتاب والسنة قبل ذلك .

وأما إذا حصل في ذلك غلو من جنس غلو النصارى بإشراك بعض المخلوقات في شيء من الربوبية ، كان ذلك مردوداً غير مقبول ؛ فقد صح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » وقد قال تعالى : (يَتَّاهِلَ آلُ كِتَابٍ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

والله قد جعل له حقاً لا يشركه فيه مخلوق فلا تصلح العبادة إلا له ، ولا الدعاء إلا له ، ولا التوكل إلا عليه ، ولا الرغبة إلا إليه ، ولا الرهبة إلا منه ، ولا ملجأ ولا منجاة منه إلا إليه ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب السيئات إلا هو ، ولا حول ولا قوة إلا به (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ

عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) . (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا *
لَقَدْ أَخْصَنَهُمْ وَعَدَهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا)
وقال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ) فجعل الطاعة لله وللرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله
وحده ، وكذلك في قوله : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَقَالُوا احْسَبْنَا اللَّهَ سَيُوتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ)
فالإيتاء لله والرسول . وأما التوكل فعلى الله وحده ، والرغبة إلى الله
وحده .

فصل

وأما « المؤاخاة » فإن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين
والأنصار : لما قدم المدينة ، كما آخى بين سلمان الفارسي وبين أبي
الدرداء ، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، وكانوا
يتوارثون بتلك المؤاخاة ، حتى أنزل الله تعالى : (وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) فصاروا يتوارثون بالقرابة . وفي ذلك أنزل
الله تعالى : (وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ فَأَتُوهُمْ فَنَصِيْبُهُمْ) وهذا هو المحالفة .
واختلف العلماء هل التوارث بمثل ذلك عند عدم القرابة والولاء محكم
أو منسوخ ؟ على قولين :

(أحدهما) : أن ذلك منسوخ ، وهو مذهب مالك والشافعي
وأحمد في أشهر الروابطين عنه ، ولما ثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال :
« لا حلف في الإسلام ، وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزد
الإسلام إلا شدة »

و (الثاني) أن ذلك محكم وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد في
الرواية الأخرى عنه .

وأما « المؤاخاة » بين المهاجرين كما يقال : إنه آخى بين أبي
بكر وعمر ، وإنه آخى علياً ونحو ذلك ، فهذا كله باطل ، وإن كان بعض
الناس ذكر أنه فعل بمكة ، وبعضهم ذكر أنه فعل بالمدينة ، وذلك
نقل ضعيف : إما منقطع ، وإما بإسناد ضعيف . والذي في الصحيح هو
ما تقدم ، ومن تدبر الأحاديث الصحيحة ، والسيرة النبوية الثابتة ، يتقن
أن ذلك كذب .

وأما عقد « الأخوة » بين الناس في زماننا ، فإن كان المقصود منها
التزام الأخوة الإيمانية التي أثبتها الله بين المؤمنين بقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ
إِخْوَةٌ) وقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم
لا يسله ولا يظلمه » وقوله : « لا يبيع أحدكم على بيع أخيه ، ولا
يستام على سوم أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه » وقوله : « والذي

نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه من الخير ما يحبه لنفسه « ونحو ذلك من الحقوق الإيمانية التى تجب للمؤمن على المؤمن . فهذه الحقوق واجبة بنفس الإيمان ، والتزامها بمنزلة التزام الصلاة والزكاة والصيام والحج ، والمعاهدة عليها كالمعاهدة على ما أوجب الله ورسوله . وهذه ثابتة لكل مؤمن على كل مؤمن ، وإن لم يحصل بينها عقد مؤاخاة ، وإن كان المقصود منها إثبات حكم خاص كما كان بين المهاجرين والأنصار ، فهذه فيها للعلماء قولان ، بناء على أن ذلك منسوخ أم لا ؟ فن قال : إنه منسوخ — كمالك والشافعي وأحمد فى المشهور عنه . قال : إن ذلك غير مشروع . ومن قال : إنه لم ينسخ — كما قال : أبو حنيفة وأحمد فى الرواية الأخرى — قال إنه مشروع .

وأما « الشروط » التى يلتزمها كثير من الناس فى « السماع » وغيره ، مثل أن يقول : على المشاركة فى الحسنات ، وأبنا خلص يوم القيامة خلص صاحبه ، ونحو ذلك . فهذه كلها شروط باطلة ؛ فإن الأمر يومئذ لله ، هو : (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا) وكما قال تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) .

وكذلك يشترطون شروطاً من الأمور الدنيوية ولا يوفون بها ،

وما أعلم أحداً ممن دخل في هذه الشروط الزائدة على ما شرطه الله
ورسوله وفي بها ؛ بل هو كلام يقولونه عند غلبة الحال ؛ لا حقيقة له
في المآل . وأسعد الناس من قام بما أوجبه الله ورسوله ، فضلاً عن
أن يوجب على نفسه زيادات على ذلك .

وهذه المسائل قد بسطت في غير هذا الموضع . والله أعلم .

وقال رحمه الله

فصل

والشيخ « عدي بن مسافر بن صخر » كان رجلاً صالحاً ، وله أتباع صالحون ، ومن أصحابه من فيه غلو عظيم ، يبلغ بهم غليظ الكفر ، وقد رأيت جزءاً أتى بيد أتباعه فيه نسبه وسلسلة طريقه ، فرأيت عليها مضطرباً .

أما « النسب » فقالوا : عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن أحمد بن مروان بن الحكم بن مروان الأموي . وهذا كذب قطعاً فإنه يمتنع أن يكون بينه وبين مروان بن الحكم خمسة أنفس .

وأما « الحرقه » فقالوا : دخل على الشيخ العارف عقيل المنبجي وألبسه الحرقه بيده ، والشيخ عقيل لبس الحرقه من يد الشيخ مسلمة المردجي ، والشيخ مسلمة لبس الحرقه من يد الشيخ أبي سعيد الخراز .

قلت : هذا كذب واضح ، فإن مسلمة لم يدرك أبا سعيد ، بل بينها أكثر من مائة سنة ، بل قريباً من مائتي سنة .

ثم قالوا : والشيخ أبو سعيد الخراز لبس الحرقة من يد الشيخ أبي محمد العنسي والعنسي لبسها من يد الشيخ علي بن عليل الرملي ، والشيخ علي بن عليل لبسها من يد والده الشيخ عليل الرملي ، والشيخ عليل لبس الحرقة من يد الشيخ عمار السعدي ، والشيخ عمار السعدي لبس الحرقة من يد الشيخ يوسف الغساني ، والشيخ يوسف الغساني لبس الحرقة من يد والده الشيخ يعقوب الغساني ، والشيخ يعقوب الغساني لبس الحرقة من يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يوم خطب الناس بالجابية ، وعمر بن الخطاب لبس الحرقة من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لبس الحرقة من يد جبرائيل ، وجبرائيل من الله تعالى .

قلت : لبس عمر للخرقة وإلباسه ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم للخرقة وإلباسه يعرف كل من له أدنى معرفة أنه كذب . وأما الإسناد المذكور ما بين أبي سعيد إلى عمر فجهول ، وما أعرف لهؤلاء ذكراً لا في كتب الزهد والرقائق ، ولا في كتب الحديث والعلم ، ومن الممكن أن يكون بعض هؤلاء كانوا شيوخاً ، وقد ركب هذا الإسناد عليهم من لم يعرف أزمانهم والله أعلم بحقيقة أمرهم .

ثم ذكروا بعد هذا « عقيدته » وقالوا : هذه عقيدة السنة من إملأ الشيخ عدى . و « العقيدة » من (كتاب التبصرة) للشيخ أبي الفرج المقدسي . بالفاظه ، نقل المسطرة لكن حذفوا منها تسمية المخالفين وأقوالهم ، وذكروا مذكروه من الأدلة ، وزادوا فيها من ذكر يزيد وغيره أشياء لم يقلها الشيخ أبو الفرج وفيها أحاديث موضوعة ، وقال في آخرها فهذا اعتقادنا ، وما نقلناه عن مشايخنا نقله جبرائيل عن الله ، ونقله النبي صلى الله عليه وسلم عن جبرائيل ، ونقله الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمى من سماه اللالكائي في أول كتاب (شرح أصول السنة) كما ذكروا أن هذا أملاء الشيخ عدى من حفظه . وأمر بكتابته ، ورووا ذلك بالسمع من الشيخ حسن بن عدى بن أبي البركات بسماعه من والده عدى بن أبي البركات بن صخر بن مسافر وهو عدى (١) .

(١) خرم بالأصل في آخر كلمة .

وسئل

هل تخلل أبو بكر بالعبادة ؟ وتخللت الملائكة لأجله بالعبادة
أم لا ؟ ؟ .

فأجاب :

الحمد لله ، لم يتخلل أبو بكر بالعبادة ، ولا الملائكة تخللوا بالعبادة ،
وذلك كذب . والله أعلم .

وسئل

عن معنى قول من يقول : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فهل هي من جهة المعاصي ؟ أو من جهة جمع المال ؟ ؟ .

فأجاب : ليس هذا محفوظاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن هو معروف عن جندب بن عبد الله البجلي من الصحابة ، ويذكر عن المسيح بن مريم عليه السلام ، وأكثر ما يغلو في هذا اللفظ المتفلسفة ، ومن هذا حذوم من الصوفية على أصلهم ، في تعلق النفس إلى أمور ليس هذا موضع بسطها .

وأما حكم الإسلام في ذلك : فالذي يعاقب الرجل عليه الحب الذي يستلزم المعاصي : فإنه يستلزم الظلم والكذب والفواحش ، ولا ريب أن الحرص على المال والرئاسة يوجب هذا ، كما في الصحيحين انه قال : « إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » وعن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم

بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه . قال الترمذى
حديث حسن .

فحرص الرجل على المال والشرف بوجب فساد الدين ، فأما مجرد
الحب الذى فى القلب إذا كان الإنسان يفعل ما أمره الله به ، ويترك
ما نهى الله عنه . ويخاف مقام ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، فإن الله
لا يعاقبه على مثل هذا إذا لم يكن معه عمل ، وجمع المال ، إذا قام
بالواجبات فيه ولم يكتسبه من الحرام ، لا يعاقب عليه ؛ لكن إخراج
فضول المال ، والاقتصار على الكفاية أفضل وأسلم ، وأفرغ للقلب ،
وأجمع اللهم ، وأنفع فى الدنيا والآخرة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم :
« من أصبح والدنيا أكبر همه شئت الله عليه شمله ، وجعل فقره بين
عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن أصبح والآخرة أكبر
همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه ضيعته وأتته الدنيا وهي راغمة » .

وسئل رحمه الله

عما يذكر من قولهم : اتخذوا مع الفقير أيادي فإن لهم دولة وأي دولة؟! وقول عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحدث مع أبي بكر رضي الله عنه وكنت بينهما كالزنجي ، ما معنى ذلك ؟ وقول بعض الناس لبعض : نحن في بركتك ، أو من وقت حلت عندنا حلت علينا البركة . ونحن في بركة هذا الشيخ المدفون عندنا . هل هو قول مشروع أم لا ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب : الحمد لله .

أما الحديثان الأولان فكلاهما كذب ، وما قال عمر بن الخطاب ما ذكر عنه قط ، ولا روى هذا أحد بإسناد صحيح ولا ضعيف ، وهو كلام باطل ؛ فإن من كان دون عمر كان يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم ويفهم ما ينفعه الله به ، فكيف بعمر؟! وعمر أفضل الخلق بعد أبي بكر ، فكيف يكون كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر بمنزلة كلام الزنجي .

ثم الذين يذكرون هذا الحديث من ملاحدة الباطنية ؛ يدعون أنهم علموا ذلك السر الذي لم يفهمه عمر . وحمله كل قوم على رأيهم الفاسد ؛ والنجادية يدعون أنه قولهم ، وأهل الحقيقة الكونية الذين ينفون الأمر والهي والوعيد يدعون أنه قولهم .

وأهل الحلول الخاص أشباه النصارى يدعون أنه قولهم ؛ إلى أصناف آخر يطول تعدادها .

فهل يقول عاقل : إن عمر وهو شاهد لم يفهم ما قالاً ، وإن هؤلاء الجهال الضلال أهل الزندقة والإلحاد والحال علموا معنى ذلك الخطاب ، ولم ينقل أحد لفظه . وإنما وضع مثل هذا الكذب ملاحدة الباطنية ، حتى يقول الناس : إن ما أظهره الرسل من القرآن والإيمان والشريعة له باطن يخالف ظاهره ؛ وكان أبو بكر يعلم ذلك الباطن دون عمر ؛ ويجعلون هذا ذريعة عند الجهال إلى أن يسلبوهم من دين الإسلام .

ونظير هذا ما يروونه أن عمر تزوج امرأة أبي بكر ليعرف حاله في الباطن ، فقالت : كنت أشم رائحة الكبد المشوية . فهذا أيضاً كذب ، وعمر لم يتزوج امرأة أبي بكر . بل تزوجها علي بن أبي طالب وكانت قبل أبي بكر عند جعفر ، وهي أسماء بنت عميس وكانت من

عقلاء النساء ، وعمر كان أعلم بأبي بكر من نسائه وغيرهم .

وأما الحديث الآخر وهو قوله : « اتخذوا مع الفقراء أيادي فإن لهم دولة وأي دولة ! » فهذا — أيضاً — كذب ، ما رواه أحد من الناس ، والإحسان إلى الفقراء الذين ذكركم الله في القرآن ، قال الله فيهم : (إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ — إلى قوله — لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) وأهل الفياء وهم الفقراء المجاهدون الذين قال الله فيهم : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ) الآية . والحسن إليهم وإلى غيرهم عليه أن يتبغى بذلك وجه الله ، ولا يطلب من مخلوق لا في الدنيا ولا في الآخرة . كما قال تعالى : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى) وقال : (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) الآية .

ومن طلب من الفقراء الدعاء أو الشاء خرج من هذه الآية ؛ فإن في الحديث الذي في سنن أبي داود « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له ، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » ؛ ولهذا كانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بهدية تقول للرسول : اسمع مادعوا به لنا ؛ حتى ندعو لهم بمثل مادعوا ، ويبقى أجرنا على الله .

وقال بعض السلف : إذا أعطيت المسكين ، فقال : بارك الله عليك .
فقل : بارك الله عليك . أراد أنه إذا أتاك بالدعاء فادع له بمثل ذلك
الدعاء ، حتى لا تكون اعتضت منه شيئاً . هذا والعطاء لم يطلب منهم .
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما نفني مال كمال أبي بكر »
أنفقه يتنقى به وجه الله ، كما أخبر الله عنه لا يطلب الجزاء من مخلوق
لا نبي ولا غيره ، لا بدعاء ولا شفاعة .

وقول القائل : لهم في الآخرة دولة وأي دولة ! ، فهذا كذب ؛ بل
الدولة لمن كان مؤمناً تقياً فقيراً كان أو غنياً ، وقال تعالى : (وَيَوْمَ
تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَنْفِرُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)
الآيتين ، وقال تعالى : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)
وقال تعالى : (أَمْ جَعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ
أَمْ جَعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ، ونظير هذا في القرآن كثير .

ومع هذا فالؤمنون : الأنبياء وسائر الأولياء لا يشفعون لأحد إلا
بإذن الله ، كما قال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال :
(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) وقال تعالى : (وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ)
فمن أحسن إلى مخلوق يرجو أن ذلك المخلوق يجزيه يوم القيامة كان
من الأخسرين أعمالاً : الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعا ؛ بل إنما يجزى على الأعمال يومئذ الواحد القهار ،

الذي إليه الإياب والحساب ، الذي لا يظلم مثقال ذرة . وإن تكن حسنة
بضاعها ، ويؤت من لده أجرأ عظيماً . ولا يقبل من العمل إلا ما
أريد به وجهه .

فصل

وأما قول القائل : نحن في بركة فلان ، أو من وقت حلوله عندنا
حلت البركة . فهذا الكلام صحيح باعتبار ، باطل باعتبار . فأما
الصحيح : فأن يراد به أنه هدانا وعلما وأمرنا بالمعروف ونهانا عن
المنكر ، فببركة اتباعه وطاعته حصل لنا من الخير ما حصل ، فهذا
كلام صحيح . كما كان أهل المدينة لما قدم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم
في بركته لما آمنوا به ، وأطاعوه ، فببركة ذلك حصل لهم سعادة الدنيا
والآخرة ، بل كل مؤمن آمن بالرسول وأطاعه حصل له من بركة
الرسول بسبب إيمانه وطاعته من خير الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

و (أيضاً) إذا أريد بذلك أنه ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر
وحصل لنا رزق ونصر فهذا حق ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :
« وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم ، وصلاتهم ، وإخلاصهم ؟ »
وقد يدفع العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم من المؤمنين ممن

لا يستحق العذاب ، ومنه قوله تعالى : (وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ — إلى قوله — لَوَتَزَلَّيْنَا الْعَذَبَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

فلولا الضعفاء المؤمنون الذين كانوا بمكة بين ظهرائي الكفار عذب الله الكفار : وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لولا ما في البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام ، ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم » وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها . وقد قال المسيح عليه السلام : (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ) فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله ، وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة ، ويدفع من العذاب بسبيهم حق موجود ، فمن أراد بالبركة هذا ، وكان صادقاً ، فقلوه حق .

وأما « المعنى الباطل » فمثل أن يريد الإشراك بالخلق : مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله ، وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله ، فهذا جهل . فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم مدفون بالمدينة عام الحرة ، وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله ، وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك ، وكان على عهد الخلفاء يدفع الله عنهم بإيمانهم وتقواهم ، لأن الخلفاء الراشدين كانوا يدعونهم إلى ذلك

وكان ببركة طاعتهم للخلفاء الراشدين ، وبركة عمل الخلفاء معهم ينصرهم الله ويؤيدهم . وكذلك الخليل صلى الله عليه وسلم مدفون بالشام وقد استولى النصارى على تلك البلاد قريباً من مائة سنة ، وكان أهلها في شر . فمن ظن أن الميت يدفع عن الحي مع كون الحي عاملاً بمعصية الله فهو غلط .

وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله ، مثل أن يظن أن بركة السجود لغيره ، وتقبيل الأرض عنده ، ونحو ذلك يحصل له السعادة ؛ وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله . وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص يشفع له ، ويدخله الجنة بمجرد محبته ، وانتسابه إليه ، فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنة ، فهو من أحوال المشركين . وأهل البدع . باطل لا يجوز اعتقاده . ولا اعتماده . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل

عن رجل « متصوف » قال لإنسان — في كلام جرى بينهم — : فقراء الأسواق ، فقال له الرجل : اليهودي والنصراني والمسلم في السوق ، قال تعالى : (وَزَيْنُابٌ أَلْفَسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمِ) ، فقال « الصوفي » : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الفقر إلى الله » والأولياء مفتقرون للخاتمة والأشقياء تحت القضاء » ، قال الصوفي للرجل : تعرف الفقر ؟ فقال له : لا ، قال الصوفي : الفقر هو الله . فأذكروا عليه هذا اللفظ . ثم في ثاني يوم قال رجل : أنت قلت : الفقر هو الله ، فقال الصوفي : أنا قرأت في كتاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من رآني آمن بي » وأنا رأيت الفقر فأمنت به ، والفقر هو الله .

فأجاب : الحمد لله . أما الحديث كذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مع كونه كذباً مناقض للعقل والدين ؛ فإنه ليس كل من رآه آمن به ؛ بل قد رآه كثير مثل الكفار والمنافقين . وقول القائل : آمنت بالفقر أو كفرت بالفقر هو من الكلام الباطل ؛ بل هو

كفر يجب أن يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا قتل والله سبحانه هو الغني والخلق هم الفقراء إليه .

وقد قال تعالى : (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) . فإذا كان الذين قالوا إنه فقير قد توعدهم بهذا فكيف بمن يقول له الفقر ؟ ! و « المصدر » أبلغ من الصفة وإذا كان منزها على أن يوصف بذلك فكيف يجعل المصدر اسما له ؟ !

ولو قال القائل : أردت بذلك الفقر هو إرادة الله ولم يكن في السياق ما يقتضي تصديقه لم يقبل ذلك منه ، وإن كان في السياق ما يقبل تصديقه نهي عن العبارة الموهومة وأمر بالعبارة الحسنة .

وأما قوله الحديث المذكور وهو قوله : « الفقر فخري ، وبه أفتخر » فهو كذب موضوع لم يروه أحد من أهل المعرفة بالحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ومعناه باطل ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفتخر بشيء بل قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ، وقال في الحديث « إنه أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » ولو افتخر بشيء لافتخر بما فضله الله به على سائر الخلق .

و « الفقر » وصف مشترك بينه وبين سائر الفقراء سواء أريد به الشرعي وهو عدم المال ، أو الفقر الاصطلاحي وهو مكارم الأخلاق والزهد ، مع أن لفظه في كلامه وكلام أصحابه لا يراد به إلا الفقر الشرعي دون الاصطلاحي والله أعلم .

وسئل

عمن قال : إن « الفقير ، والغني » لا يفضل أحدهما صاحبه إلا بالتقوى . فمن كان أتقى لله كان أفضل وأحب إلى الله تعالى . وإن الحديث الصحيح الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام » هذا في حق ضعفاء المسلمين ، وصعاليكهم القائمين بفرائض الله تعالى ، وليس مختصاً بمجرد ما عرف واشتهر في هذه الأعصار المتأخرة ، من السجاد والمرقعة والعكاز ، والألفاظ المنمقة ؛ بل هذه الهيئات المعتادة في هذه الأزمنة مخترعة مبتدعة ، فهل الأمر على ما ذكر أم لا؟؟ .

فأجاب — رضي الله عنه — الحمد لله رب العالمين .

قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في « الغني الشاكر ، والفقير الصابر » أيهما أفضل ؟ فرجع هذا طائفة من العلماء والعباد ، ورجع هذا طائفة من العلماء والعباد ، وقد حكي في ذلك عن الإمام أحمد روايتان . وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين

على الآخر . وقال طائفة ثالثة ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى
فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل ، وإن استويا في ذلك استويا
في الفضيلة ، وهذا أصح الأقوال ؛ لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان
والتقوى . وقد قال الله تعالى : (إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى
بِهِمَا) .

وقد كان في الأنبياء والسابقين الأولين من الأغنياء من هو أفضل
من أكثر الفقراء ، وكان فيهم من الفقراء من هو أفضل من أكثر
الأغنياء ، والكاملون يقومون بالمقامين ، فيقومون بالشكر والصبر على
التمام . كحال نبينا صلى الله عليه وسلم ، وحال أبي بكر وعمر — رضي
الله عنهما ؛ ولكن قد يكون الفقر لبعض الناس أنفع من الغنى ، والغنى
أنفع لآخرين ، كما تكون الصحة لبعضهم أنفع ، كما في الحديث الذي
رواه البغوي وغيره « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى . ولو
أفقرته لأفسده ذلك . وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر . ولو
أغنيته لأفسده ذلك . وإن من عبادي من لا يصلحه إلا السقم . ولو
أصححته لأفسده ذلك ، إني أدبر عبادي إني بهم خير بصير » .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن فقراء
المسلمين يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم » وفي الحديث الآخر
لما علم الفقراء الذكر عقب الصلوات سمع بذلك الأغنياء فقالوا مثل

ما قالوا . فذكر ذلك الفقراء للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » فالفقراء متقدمون في دخول الجنة لحفة الحساب عليهم ، والأغنياء مؤخرون لأجل الحساب ، ثم إذا حوسب أحدهم فإن كانت حسناته أعظم من حسنات الفقير كانت درجته في الجنة فوقه ، وإن تأخر في الدخول كما أن السبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، ومنهم عكاشة بن محصن ، وقد بدخل الجنة بحساب من يكون أفضل من أحدهم . وصلى الله وسلم على محمد .

وقال شيخ الإسلام

رحمه الله تعالى

فصل

قد كثر تنازع الناس أيهما أفضل « الفقير الصابر ، أو الغني الشاكر » ؟؟ وأكثر كلامهم فيها مشوب بنوع من الهوى ، أو بنوع من قلة المعرفة ، والنزاع فيها بين الفقهاء والصوفية ، والعامة والرؤساء وغيرهم . وقد ذكر القاضي أبو الحسين بن القاضي أبي يعلى في كتاب « التمام لكتاب الروايتين والوجهين » لأبيه فيها عن أحمد روايتين .

(إحداهما) أن الفقير الصابر أفضل . وذكر أنه اختار هذه الرواية أبو إسحاق بن شاقلا ، ووالده القاضي أبو يعلى ، ونصرها هو .

و (الثانية) : أن الغني الشاكر أفضل ، اختاره جماعة منهم ابن قتيبة . و « القول الأول » يميل إليه كثير من أهل المعرفة والفقه

والصلاح ، من الصوفية والفقراء ، ويحكى هذا القول عن الجنيذ وغيره
و « القول الثاني » يرجحه طائفة منهم . كأبي العباس بن عطاء وغيره
وربما حكى بعض الناس في ذلك إجماعاً ، وهو غلط .

وفي المسألة « قول ثالث » وهو الصواب أنه ليس هذا أفضل من
هذا مطلقاً ، ولا هذا أفضل من هذا مطلقاً بل أفضلها أنقاهما . كما
قال تعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) وقال عمر بن الخطاب :
الغنى والفقر مطيتان ، لا أبلى أيتها ركبت . وقد قال تعالى : (إِنْ
يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا) وهذا القول اختيار طائفة منهم
الشيخ ابن حفص السهروردي ، وقد يكون هذا أفضل لقوم ، وفي
بعض الأحوال . وهذا أفضل لقوم وفي بعض الأحوال ، فإن استويا في سبب
الكرامة استويا في الدرجة ، وإن فضل أحدهما الآخر في سببها ترجح
عليه ؛ هذا هو الحكم العام .

والفقر والغنى حالان يعرضان للعبد باختباره تارة وبغير اختياره أخرى
كالقام والسفر ، والصحة والمرض ، والإمارة والانتثار ، والإمامة والانتقام .
وكل جنس من هذه الأجناس لا يجوز إطلاق القول بتفضيله على الآخر ؛
بل قد يكون هذا أفضل في حال ؛ وهذا في حال ، وقد يستويان في حال
كما في الحديث المرفوع في (شرح السنة) للبغي عن أنس من النبي
صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه تعالى : « وإن من عبادي من

لا يصلحه إلا الغنى ؛ ولو أفقرته لأفسده ذلك ؛ وإن من عبادي من
لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من
لا يصلحه إلا الصحة ، ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي من
لا يصلحه إلا السقم ، ولو أصححته لأفسده ذلك ، إني أدبر عبادي ؛ إني
بهم خير بصير . »

وفي هذا المعنى ما يروى : « إن الله يحمي عبده المؤمن الدنيا ؛
كما يحمي أحدكم مريضه الطعام والشراب » . ويروى في مناجاة موسى
نحو هذا . ذكره أحمد في الزهد . فهذا فيمن يضره الغنى ويصلحه
الفقر ، كما في الحديث الآخر « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

وكما أن الأقوال في المسألة « ثلاثة » فالناس « ثلاثة أصناف » :
غنى ، وهو من ملك ما يفضل عن حاجته . وفقير ؛ وهو من لا يقدر
على تمام كفايته . وقسم ثالث : وهو من يملك وفق كفايته ؛ ولهذا كان
في أكبر الأنبياء والمرسلين والسابقين الأولين من كان غنياً : إبراهيم ،
الخليل وأيوب ، وداوود وسليمان ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ،
وطلحة والزبير ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير ، وأسعد بن زرارة وأبي
أيوب الأنصاري ، وعادة بن الصامت ، ونحوم . ممن هو من أفضل الخلق
من النبيين والصديقين .

وفيه من كان فقيراً : كالمسيح عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا وعلي بن أبي طالب ، وأبي ذر الغفاري ، ومصعب بن عمير ، وسلمان الفارسي ونحوهم . ممن هو من أفضل الخلق ، من النبيين والصديقين ، وقد كان فيهم من اجتمع له الأمران : الغنى تارة والفقر أخرى ؛ وأتى بإحسان الأغنياء وبصبر الفقراء : كنبينا صلى الله عليه وسلم . وأبي بكر وعمر .

والنصوص الواردة في الكتاب والسنة حكمة بالقسط ؛ فإن الله في القرآن لم يفضل أحداً بفقر ، ولا غنى ، كما لم يفضل أحداً بصحة ولا مرض . ولا إقامة ولا سفر ، ولا إمارة ولا اتّبار ، ولا إمامة ولا اتّهام ؛ بل قال : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ) وفضلهم بالأعمال الصالحة : من الإيمان ودعائه ، وشعبه كاليقين والمعرفة ، ومحبة الله والإنابة إليه ، والتوكل عليه ورجائه ، وخشيته وشكره والصبر له . وقال في آية العدل : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِأَلْقُسْطِ شَهِدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أُولَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا) .

ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه يعدلون بين المسلمين . غنيهم وفقيرهم في أمورهم . ولما طلب بعض الأغنياء من النبي صلى الله عليه وسلم إبعاد الفقراء نهاء الله عن ذلك . وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه . فقال : (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآية .

وقال : (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) ولما طلب بعض الفقراء من النبي صلى الله عليه وسلم ما لا يصلح له نهاء عن ذلك . وقال : « يا أبا ذر ! إني أراك ضعيفاً . وإني أحب لك ما أحب لنفسي . لا تأمرن على اثنين . ولا تولين مال يتيم » .

وكانوا يستوون في مقاعدنم عنده ، وفي الاصطفاف خلفه ؛ وغير ذلك . ومن اختص منهم بفضل عرف النبي صلى الله عليه وسلم له ذلك الفضل ، كما قنت للقرءاء السبعين ، وكان يجلس مع أهل الصفة ، وكان أيضا لعثمان وطلحة والزبير ، وسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير وعباد بن بشر ونحوهم ، من سادات المهاجرين والأنصار الأغنياء منزلة ليست لغيرهم من الفقراء ، وهذه سيرة المعتدلين من الأئمة في الأغنياء والفقراء . وهذا هو العدل والقسط الذي جاء به الكتاب والسنة ، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز ، والليث بن سعد ، وابن المبارك ومالك وأحمد بن حنبل . وغيرهم . في معاملتهم للأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء .

وفي الأئمة كالثوري ونحوه من كان يميل إلى الفقراء ، ويميل على الأغنياء مجتهداً في ذلك طالباً به رضا الله ، حتى عتب عليه ذلك في آخر عمره ، ورجع عنه .

وفيه من كان يميل مع الأغنياء والرؤساء : كالزهرى ، ورجاء بن حيوة ، وأبى الزناد ، وأبى يوسف ومحمد وأناس آخرين ، وتكلم فيهم من تكلم بسبب ذلك ، ولهم في ذلك تأويل واجتهاد ، والأول هو العدل والقسط ، الذي دل عليه الكتاب والسنة .

ونصوص النبي صلى الله عليه وسلم معتدلة فإنه قد روى « أن الفقراء قالوا له : يارسول الله ! ذهب أهل الدثور بالأجور . يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضول أموال يتصدقون بها ولا تتصدق فقال : ألا أعلمكم شيئاً ؟ إذا فعلتموه أدركتم به من سبقكم ، ولم يلحقكم من بعدكم إلا من عمل مثل عملكم ، فعملهم التسبيح المائة في دبر كل صلاة . فجاؤوا إليه فقالوا : إن إخواننا من الأغنياء سمعوا ذلك ففعلوه ، فقال : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » وهذه الزيادة في صحيح مسلم من مراسيل أبى صالح ، فهذا فيه تفضيل للأغنياء الذين عملوا مثل عمل الفقراء من العبادات البدنية بالقلب والبدن ، وزادوا عليهم بالإنفاق في سبيل الله ونحوه من العبادات المالية .

وثبت عنه أيضاً في الصحيح أنه قال : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم — خمسمائة عام — وفي رواية بأربعين خريفاً » فهذا فيه تفضيل الفقراء المؤمنين بأنهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء المؤمنين ، وكلاهما حق ؛ فإن الفقير ليس معه مال كثير يحاسب على

قبضه وصرفه ، فلا يؤخر عن دخول الجنة لأجل الحساب ، فيسبق في الدخول ، وهو أحوج إلى سرعة الثواب ، لما فاته في الدنيا من الطيبات. والغني يحاسب ، فإن كان محسناً في غناه غير مسيء وهو فوقه ، رفعت درجته عليه بعد الدخول ، وإن كان مثله ساواه ، وإن كان دونه نزل عنه . وليست حاجته إلى سرعة الثواب كحاجة الفقير .

ونظير هذا قوله صلى الله عليه وسلم في « حوضه » : الذي طوله شهر وعرضه شهر : « مأواه أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، أول الناس علي وردا فقراء المهاجرين : الدنسين ثيابا الشعث رؤوساً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب الملوك ، يموت أحدهم وحاجته تختلج في صدره لا يجد لها قضاء » فكانوا أسبق إلى الذي يزيل ما حصل لهم في الدنيا من اللأواء والشدّة ، وهذا موضع ضيافة عامة فإنه يقدم الأشد جوعاً في الإطعام ، وإن كان لبعض المستأخرين نوع إطعام ليس لبعض المتقدمين لاستحقاقه ذلك ببذله عنده أو غير ذلك ، وليس في المسألة عن النبي صلى الله عليه وسلم أصح من هذين الحديثين وفيها الحكم الفصل : إن الفقراء لهم السبق والأغنياء لهم الفضل ، وهذا قد يترجح تارة ، وهذا كالسبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب ومع كل ألف سبعون ألفاً ، وقد يحاسب بعدهم من إذا دخل رفعت درجته عليهم .

وما روى : « أن ابن عوف يدخل الجنة حبوا » . كلام موضوع

لا أصل له ؛ فإنه قد ثبت بأدلة الكتاب والسنة أن أفضل الأمة أهل بدر ، ثم أهل بيعة الرضوان ، والعشرة مفضلون على غيرهم والخلفاء الأربعة أفضل الأمة . وقد ثبت في الصحاح أنه قال : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » وثبت في الصحاح أيضا أنه قال : « احتجت الجنة والنار فقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار : مالي لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون » وقوله : « وقفت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجذ محبسون ، إلا أهل النار فقد أمر بهم إلى النار » هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير » .

فهذه الأحاديث فيها معنيان : أحدهما أن الجنة دار المتواضعين الخاشعين ، لا دار المتكبرين الجبارين سواء كانوا أغنياء أو فقراء ؛ فإنه قد ثبت في الصحيح أنه « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقيل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً أفمن الكبر . ذاك فقال : لا - إن الله جميل يحب الجمال ولكن الكبر بطر الحق وغمط الناس » فأخبر صلى الله عليه وسلم : أن الله يحب التجميل في اللباس

الذي لا يحصل إلا بالغنى، وأن ذلك ليس من الكبر . وفي الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : فقير مختال وشيخ زان ، وملك كذاب » وكذلك الحديث المروى : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، ثم يذهب بنفسه ، حتى يكتب عند الله جباراً ، وما يملك إلا أهله » .

فلم يهذين الحديثين : أن من الفقراء من يكون مختالاً ؛ لا يدخل الجنة . وأن من الأغنياء من يكون متجملًا غير متكبر ؛ يحب الله جماله . مع قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى أموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »

ومن هذا الباب قول هرقل لأبي سفيان : أضعفاء الناس اتبعه أم اشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : وهم أتباع الأنبياء . وقد قالوا لنوح : (أَنْتَ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ) فهذا فيه أن أهل الرئاسة والشرف يكونون أبعد عن الانقياد إلى عبادة الله وطاعته ؛ لأن جهم للرئاسة يمنحهم ذلك ، بخلاف المستضعفين . وفي هذا المعنى الحديث المأثور – إن كان محفوظاً – « اللهم أحيني مسكيناً ، وامتي مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » فالمساكين ضد المتكبرين . وهم الخاشعون لله . المتواضعون لعظمته ، الذين لا يريدون علواً فى الأرض . سواء كانوا أغنياء أو فقراء .

ومن هذا الباب إن الله خيره : بين أن يكون عبداً رسولاً وبين أن يكون نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً ؛ لأن العبد الرسول يتصرف بأمر سيده ؛ لا لأجل حظه ، وأما الملك فيتصرف لحظ نفسه ، وإن كان مباحاً . كما قيل لسليمان : (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ففي هذه الأحاديث : أنه اختار العبودية والتواضع . وإن كان هو الأعلى هو ومن اتبعه . كما قال : (وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ) وقال : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ولم يرد العلو وإن كان قد حصل له . وقد أعطي مع هذا من العطاء ما لم يعطه غيره ، وإنما يفضل الغنى لأجل الإحسان إلى الخلق ، والإنفاق في سبيل الله ، والاستعانة به على طاعة الله وعبادته ، وإلا فذات ملك المال لا ينفع ، بل قد بضر وقد صبر مع هذا من اللأواء والشدة على ما لم يصبر عليه غيره ، فنال أعلى درجات الشاكرين وأفضل مقامات الصابرين ، وكان سابقاً في حالي الفقر والغنى ، لم يكن ممن لا يصلحه إلا أحدهما ، كبعض أصحابه وامته .

(المعنى الثاني) أن الصلاح في الفقراء أكثر منه في الأغنياء . كما أنه إذا كان في الأغنياء فهو أكمل منه في الفقراء ، فهذا في هؤلاء أكثر وفي هؤلاء أكثر ، لأن فتنة الغنى أعظم من فتنة الفقر ، فالسالم منها أقل . ومن سلم منها كان أفضل ممن سلم من فتنة الفقر فقط ؛ ولهذا

صار الناس يطلبون الصلاح في الفقراء ، لأن المظنة فيهم أكثر . فهذا
هذا والله أعلم .

فلهذا السبب صارت المسكنة نسبته ، وكذلك لما رأوا المسكنة
والتواضع في الفقراء أكثر ، اعتقدوا أن التواضع والمسكنة هو الفقر
وليس كذلك . بل الفقر هنا عدم المال ، والمسكنة خضوع القلب ،
وكان النبي صلى الله عليه وسلم : يستعيز من فتنة الفقر ، وشر
فتنة الغنى ، وقال : بعض الصحابة ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء
فلم نصبر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « والله ما الفقر أخشى
عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان
قبلكم فتتافسوها » ولهذا كان الغالب على المهاجرين الفقر ، والغالب
على الأنصار الغنى ، والمهاجرون أفضل من الأنصار ، وكان في المهاجرين
أغنياء ، هم من أفضل المهاجرين مع أنهم بالهجرة تركوا من أموالهم
ما صاروا به فقراء بالنسبة إلى ما كانوا عليه .

وسئل

عن « الحمد والشكر » ما حقيقتها ؟ هل هما معنى واحد ، أو معنيان ؟ وعلى أي شيء يكون الحمد ؟ وعلى أي شيء يكون الشكر ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

« الحمد » يتضمن المدح ، والثناء على المحمود بذكر محاسنه ، سواء كان الإحسان إلى الحامد ، أو لم يكن ، والشكر لا يكون إلا على إحسان المشكور إلى الشاكر ، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر ؛ لأنه يكون على المحاسن والإحسان ، فإن الله تعالى يحمد على ماله من الأسماء الحسنى ، والمثل الأعلى ، وما خلقه في الآخرة والأولى ؛ ولهذا قال تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ) وقال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ) وقال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّتَنَّى وَثَلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ) .

وأما « الشكر » فإنه لا يكون إلا على الإنعام ، فهو أخص من الحمد من هذا الوجه ؛ لكنه يكون بالقلب واليد واللسان ، كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة : يدي ، ولساني ، والضمير المحجبا

ولهذا قال تعالى : (اَعْمَلُواْ لِّدَاوُدَ شُكْرًا) .

و « الحمد » إنما يكون بالقلب واللسان ، فمن هذا الوجه الشكر أعم من جهة أنواعه ، والحمد أعم من جهة أسبابه ، ومن هذا الحديث « الحمد لله رأس الشكر ، فمن لم يحمد الله لم يشكره » وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » والله أعلم .

تدقيق مناظرة في « الحمد والشكر »

بحث جرى بين شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية

رحمه الله وبين ابن المرحل

كان الكلام في الحمد والشكر ، وأن الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح ، والحمد لا يكون إلا باللسان .

فقال ابن المرحل : قد نقل بعض المصنفين — وسماه — : أن مذهب أهل السنة والجماعة : أن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد . ومذهب الخوارج : أنه يكون بالاعتقاد ، والقول والعمل ، وبنوا على هذا : أن من ترك الأعمال يكون كافراً . لأن الكفر نقيض الشكر ، فإذا لم يكن شاكراً كان كافراً .

قال الشيخ تقي الدين : هذا المذهب المحكى عن أهل السنة خطأ والنقل عن أهل السنة خطأ . فإن مذهب أهل السنة : أن الشكر يكون بالاعتقاد ، والقول والعمل . قال الله تعالى : (اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ

شُكْرًا) وقام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه ، ف قيل له : « أتفعل هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً » .

قال ابن المرحل : أنا لا أتكلم في الدليل ، وأسلم ضعف هذا القول ؛ لكن أنا أنقل أنه مذهب أهل السنة .

قال الشيخ تقي الدين : نسبة هذا إلى أهل السنة خطأ ، فإن القول إذا ثبت ضعفه ، كيف ينسب إلى أهل الحق ؟

ثم قد صرح من شاء الله من العلماء المعروفين بالسنة أن الشكر يكون بالاعتقاد ، والقول والعمل ، وقد دل على ذلك الكتاب والسنة .

قلت : وباب سجود الشكر في الفقه أشهر من أن يذكر ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن سجدة سورة (ص) « سجدتها داود توبة ، ونحن نسجدتها شكراً » . ثم من الذي قال من أئمة السنة : إن الشكر لا يكون إلا بالاعتقاد ؟ .

قال ابن المرحل : — هذا قد نقل ، والنقل لا يمنع ، لكن يستشكل . ويقال : هذا مذهب مشكل .

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية : النقل نوعان . أحدهما : أن ينقل ما سمع أو رأى . والثاني : ما ينقل باجتهاد واستنباط . وقول القائل : مذهب فلان كذا ، أو مذهب أهل السنة كذا ، قد يكون نسبه إليه لاعتقاده أن هذا مقتضى أصوله ، وإن لم يكن فلان قال ذلك . ومثل هذا يدخله الخطأ كثيراً . ألا ترى أن كثيراً من المصنفين يقولون : مذهب الشافعي أو غيره كذا ، ويكون منصوصه بخلافه ؟ وعذرهم في ذلك : أنهم رأوا أن أصوله تقتضي ذلك القول ، فنسبوه إلى مذهبه من جهة الاستنباط ، لا من جهة النص ؟ . وكذلك هذا ، لما كان أهل السنة لا يكفرون بالمعاصي ، والخوارج يكفرون بالمعاصي . ثم رأى المصنف الكفر ضد الشكر - : أعتقد أنا إذا جعلنا الأعمال شكراً لزم انتفاء الشكر بانتفاءها ، ومتى انتفى الشكر خلفه الكفر ، ولهذا قال : إنهم بنوا على ذلك : التكفير بالذنوب . فلهذا عزى إلى أهل السنة إخراج الأعمال عن الشكر .

قلت : كما أن كثيراً من المتكلمين أخرج الأعمال عن الإيمان لهذه العلة .

قال : وهذا خطأ ، لأن التكفير نوعان : أحدهما : كفر النعمة . والثاني : الكفر بالله . والكفر الذي هو ضد الشكر : إنما هو كفر

النعمة لا الكفر بالله . فإذا زال الشكر خلفه كفر النعمة ، لا الكفر بالله .

قلت : على أنه لو كان ضد الكفر بالله ، فمن ترك الأعمال شاكراً بقلبه ولسانه فقد أتى ببعض الشكر وأصله . والكفر إنما يثبت إذا عدم الشكر بالكلية . كما قال أهل السنة : إن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافراً ، حتى يترك أصل الإيمان . وهو الاعتقاد . ولا يلزم من زوال فروع الحقيقة — التي هي ذات شعب وأجزاء — زوال اسمها ، كالإنسان ، إذا قطعت يده ، أو الشجرة ، إذا قطع بعض فروعها .

قال الصدر ابن المرحل : فإن أصحابك قد خالفوا الحسن البصري في تسمية الفاسق كافر النعمة ، كما خالفوا الحوارج في جعله كافراً بالله .

قال الشيخ تقي الدين : أصحابي لم يخالفوا الحسن في هذا ، فعمن تنقل من أصحابي هذا ؟ بل يجوز عديم أن يسمى الفاسق كافر النعمة ، حيث أطلقته الشريعة .

قال ابن المرحل : إني أنا ظننت أن أصحابك قد قالوا هذا ، لكن أصحابي قد خالفوا الحسن في هذا .

قال الشيخ تقي الدين : — ولا أصحابك خالفوه . فإن أصحابك

قد تأولوا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي أطلق فيها الكفر على بعض الفسوق - مثل ترك الصلاة . وقتال المسلمين - على أن المراد به كفر النعمة . فعلم أنهم يطلقون على المعاصي في الجملة أنها كفر النعمة . فعلم أنهم موافقوا الحسن ، لا مخالفوه .

ثم عاد ابن المرحل ، فقال : أنا أنقل هذا عن المصنف . والنقل ما يمنع ، لكن يستشكل .

قال الشيخ تقي الدين : إذا دار الأمر بين أن ينسب إلى أهل السنة مذهب باطل ، أو ينسب الناقل عنهم إلى تصرفه في النقل كان نسبة الناقل إلى التصرف أولى من نسبة الباطل إلى طائفة أهل الحق ، مع أنهم صرحوا في غير موضع : أن الشكر يكون بالقول ، والعمل ، والاعتقاد . وهذا أظهر من أن ينقل عن واحد بعينه .

ثم إنا نعلم بالاضطرار أنه ليس من أصول أهل الحق : إخراج الأعمال أن تكون شكراً لله . بل قد نص الفقهاء على أن الزكاة شكر نعمة المال . وشواهد هذا أكثر من أن تحتاج إلى نقل .

وتفسير الشكر بأنه يكون بالقول والعمل في الكتب التي يتكلم فيها على لفظ « الحمد » « والشكر » مثل كتب التفسير واللغة ،

وشروح الحديث ، يعرفه آحاد الناس . والكتاب والسنة قد دلا على ذلك .

فخرج ابن المرحل إلى شيء غير هذا ، فقال : — الحسن البصري يسمى الفاسق منافقاً ، وأصحابك لا يسمونه منافقاً .

قال الشيخ تقي الدين له : بل يسمى منافقاً النفاق الأصغر ، لا النفاق الأكبر . والنفاق يطلق على النفاق الأكبر ، الذي هو إضمار الكفر ، وعلى النفاق الأصغر ، الذي هو اختلاف السر والعلانية في الواجبات .

قال له ابن المرحل : — ومن أين قلت : إن الاسم يطلق على هذا وعلى هذا ؟ .

قال الشيخ تقي الدين : — هذا مشهور عند العلماء . وبذلك فسروا قول النبي صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » وقد ذكر ذلك الترمذي وغيره . وحكوه عن العلماء .

وقال غير واحد من السلف « كفر دون كفر ، ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك » .

وإذا كان النفاق جنساً تحته نوعان ، فالفاسق داخل في أحد نوعيه .

قال ابن المرحل : كيف تجعل النفاق اسم جنس ، وقد جعلته لفظاً مشتركاً ، وإذا كان اسم جنس كان متواطئاً ، والأسماء المتواطئة غير المشتركة ، فكيف تجعله مشتركاً متواطئاً .

قال الشيخ تقي الدين : أنا لم أذكر أنه مشترك . وإنما قلت : يطلق على هذا وعلى هذا ، والإطلاق أعم .

ثم لو قلت : إنه مشترك لكان الكلام صحيحاً . فإن اللفظ الواحد قد يطلق على شيئين بطريق التواطؤ ، وبطريق الاشتراك . فأطلقت لفظ النفاق على إبطان الكفر ، وإبطان المعصية ، تارة بطريق الاشتراك وتارة بطريق التواطؤ ، كما أن لفظ الوجود يطلق على الواجب والممكن ، عند قوم باعتبار الاشتراك ، وعند قوم باعتبار التواطؤ . ولهذا سمي مشككاً .

قال ابن المرحل : — كيف يكون هذا ؟ وأخذ في كلام لا يحسن ذكره .

قال له الشيخ تقي الدين : — المعاني الدقيقة تحتاج إلى إصغاء واستماع وتدبر . وذلك أن الماهيتين إذا كان بينهما قدر مشترك وقدر مميز ، واللفظ يطلق على كل منها ، فقد يطلق عليها باعتبار ما به

تمتاز كل ماهية عن الأخرى . فيكون مشتركا كالاشتراك اللفظي .
وقد يكون مطلقاً باعتبار القدر المشترك بين الماهيتين . فيكون
لفظاً متواطئاً .

قلت : ثم إنه في اللغة يكون موضوعاً للقدر المشترك ، ثم يغلب
عرف الاستعمال على استعماله : في هذا تارة ، وفي هذا تارة . فيبقى
دالاً بعرف الاستعمال على ما به الاشتراك والامتنياز . وقد يكون قرينة ،
مثل لام التعريف ، أو الإضافة ، تكون هي الدالة على ما به الامتنياز .

مثال ذلك : « اسم الجنس » إذا غلب في العرف على بعض أنواعه
كلفظ الدابة ، إذا غلب على الفرس ، قد نطقه على الفرس باعتبار
القدر المشترك بينها وبين سائر الدواب . فيكون متواطئاً . وقد نطقه
باعتبار خصوصية الفرس ، فيكون مشتركا بين خصوص الفرس وعموم
سائر الدواب ، ويصير استعماله في الفرس : تارة بطريق التواطؤ ، وتارة
بطريق الاشتراك . وهكذا اسم الجنس إذا غلب على بعض الأشخاص
وصار علماً بالغلبة : مثل ابن عمرو ، والنجم ، فقد نطقه عليه باعتبار
القدر المشترك بينه وبين سائر النجوم وسائر بني عمرو . فيكون إطلاقه
عليه بطريق التواطؤ . وقد نطقه عليه باعتبار ما به يمتاز عن غيره من
النجوم ، ومن بني عمرو . فيكون بطريق الاشتراك بين هذا المعنى الشخصي
وبين المعنى النوعي . وهكذا كل اسم عام غلب على بعض أفرادها ، بصح

استعماله في ذلك الفرد بالوضع الأول العام ، فيكون بطريق التواطؤ ،
بالوضع الثاني ، فيصير بطريق الاشتراك .

ولفظ « النفاق » من هذا الباب . فإنه في الشرع إظهار الدين
وإبطان خلافه . وهذا المعنى الشرعي أخص من مسمى النفاق في اللغة ،
فإنه في اللغة أعم من إظهار الدين .

ثم إبطان ما يخالف الدين ، إما أن يكون كفراً أو فسقاً . فإذا
أظهر أنه مؤمن وأبطن التكذيب ، فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد
صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار . وإن أظهر أنه صادق أو
موف ، أو أمين ، وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك . فهذا
هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقاً .

فإطلاق النفاق عليها في الأصل بطريق التواطؤ .

وعلى هذا ؛ فالنفاق اسم جنس تحته نوعان . ثم إنه قد يراد به
النفاق في أصل الدين ، مثل قوله (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ)
و (إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) والمنافق هنا : الكافر .

وقد يراد به النفاق في فروعه . مثل قوله صلى الله عليه وسلم

« آية المنافق ثلاث » وقوله « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً »
وقول ابن عمر : فيمن يتحدث عند الأمراء بحديث . ثم يخرج فيقول
بخلافه « كنا نعد هذا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم نفاقاً »

فإذا أردت به أحد النوعين . فإما أن يكون تخصيصه لقينة لفظية
مثل لام العهد ؛ والإضافة . فهذا لا يخرج عن أن يكون متواطئاً ،
كما إذا قال الرجل : جاء القاضي . وعنى به قاضى بلده ، لكون اللام
للعهد . كما قال سبحانه : (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ) إن اللام هي أوجبت
قصر الرسول على موسى ، لا نفس لفظ « رسول » . وإما أن يكون
لغلبة الاستعمال عليه ، فيصير مشتركاً بين اللفظ العام والمعنى الخاص .
فكذلك قوله (إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ) فإن تخصيص هذا اللفظ بالكافر
إما أن يكون لدخول اللام التي تفيد العهد ، والمنافق المعهود : هو
الكافر . أو تكون لغلبة هذا الاسم في الشرع على نفاق الكفر .
وقوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من كن فيه كان منافقاً » يعنى به
منافقاً بالمعنى العام ، وهو إظهاره من الدين خلاف ما يبطن .

فإطلاق لفظ « النفاق » على الكافر وعلى الفاسق إن أطلقته
باعتبار ما يمتاز به عن الفاسق كان إطلاقه عليه وعلى الفاسق باعتبار
الاشتراك . وكذلك يجوز أن يراد به الكافر خاصة . ويكون متواطئاً
إذا كان الدال على الخصوصية غير لفظ « منافق » بل لام التعريف .

وهذا البحث الشريف جار في كل لفظ عام استعمل في بعض أنواعه ، إما لغلبة الاستعمال ، أو لدلالة لفظية خصته بذلك النوع . مثل تعريف الإضافة ، أو تعريف اللام . فإن كان لغلبة الاستعمال صح أن يقال : إن اللفظ مشترك . وإن كان لدلالة لفظية كان اللفظ باقياً على موطنه .

فلهذا صح أن يقال « النفاق » اسم جنس تحته نوعان . لكون اللفظ في الأصل عاماً متواطئاً .

وصح أن يقال : هو مشترك بين النفاق في أصل الدين ، وبين مطلق النفاق في الدين . لكونه في عرف الاستعمال الشرعي غلب على نفاق الكفر .

بحث ثان

[وهو] أن الحمد والشكر بينهما عموم وخصوص .

فالحمد أعم من جهة أسبابه التي يقع عليها ؛ فإنه يكون على جميع الصفات ، والشكر لا يكون إلا على الإحسان . والشكر أعم من جهة ما به يقع ، فإنه يكون بالاعتقاد ، والقول ، والفعل . والحمد يكون بالفعل أو بالقول ، أو بالاعتقاد .

أورد الشيخ الإمام زين الدين ابن المنجا الحنبلي : أن هذا الفرق إنما هو من جهة متعلق الحمد والشكر ، لأن كونه يقع على كذا ويقع بكذا خارج عن ذاته ، فلا يكون فرقاً في الحقيقة ، والحدود إنما يتعرض فيها لصفات الذات ، لا لما خرج عنها .

فقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية : —

المعاني على قسمين : مفردة ، ومضافة . فالمعاني المفردة : حدودها لا توجد فيها بتعلقاتها . وأما المعاني الإضافية فلا بد أن يوجد في

حدودها تلك الإضافات . فإنها داخلة في حقيقتها . ولا يمكن
تصورها إلا بتصور تلك المتعلقة ، فتكون المتعلقة جزءاً من حقيقتها
فتعين ذكرها في الحدود .

والحمد والشكر معلقان بالمحمود عليه والمشكور عليه . فلا يتم ذكر
حقيقتها إلا بذكر متعلقها . فيكون متعلقها داخلاً في حقيقتها .

فاعترض الصدر بن المرحل : بأنه ليس للمتعلق من المتعلق صفة
ثبوتية . فلا يكون للحمد والشكر من متعلقها صفة ثبوتية . فإن المتعلق
صفة نسبية . والنسب أمور عدمية . وإذا لم تكن صفة ثبوتية لم تكن
داخلة في الحقيقة . لأن العدم لا يكون جزءاً من الوجود .

فقال الشيخ تقي الدين : قولك : ليس للمتعلق من المتعلق صفة
ثبوتية . ليس على العموم . بل قد يكون للمتعلق من المتعلق صفة
ثبوتية ، وقد لا يكون . وإنما الذي يقوله أكثر المتكلمين : ليس لمتعلق
القول من القول صفة ثبوتية .

ثم الصفات المتعلقة نوعان : أحدها : إضافة محضة . مثل الأبوة
والبنوة ، والفوقية ، والتحتية ونحوها . فهذه الصفة هي التي يقال فيها : هي
مجرد نسبة وإضافة . والنسب أمور عدمية . والثاني صفة ثبوتية مضافة

إلى غيرها ، كالحب والبغض ، والإرادة والكراهة ، والقدرة ، وغير ذلك من الصفات ، فإن الحب صفة ثبوتية متعلقة بالمحبوب . فالحب معروض للإضافة ، بمعنى أن الإضافة صفة عرضت له : لا أن نفس الحب هو الإضافة . ففرق بين ما هو إضافة وبين ما هو صفة مضافة . فالإضافة يقال فيها : إنها عدمية . قال : وأما الصفة المضافة فقد تكون ثبوتية ، كالحب .

قال ابن المرحل : الحب أمر عديم . لأن الحب نسبة . والنسب عدمية .

قال الشيخ تقي الدين : كون الحب ، والبغض والإرادة ، والكراهة أمراً عديمياً باطل . بالضرورة . وهو خلاف إجماع العقلاء .

ثم هو مذهب بعض المعتزلة في إرادة الله . فإنه زعم أنها صفة سلبية . بمعنى أنه غير مغلوب ولا مستكره . وأطبق الناس على بطلان هذا القول . وأما إرادة المخلوق وجبه وبغضه فلم نعلم أحداً من العقلاء قال : إنه عديم .

فأصر ابن المرحل ، على أن الحب — الذي هو ميل القلب إلى المحبوب — أمر عديم . وقال : المحبة : أمر وجودي .

قال الشيخ تقي الدين : — المحبة هي الحب . فإنه يقال : أحبه
وجه حباً ومحبة . ولا فرق . وكلاهما مصدر .

قال ابن المرحل : وأنا أقول : إنهما إذا كانا مصدرين فهما
أمر عدى .

قال له الشيخ تقي الدين : الكلام إذا انتهى إلى المقدمات الضرورية
فقد انتهى وتم . وكون الحب والبغض أمراً وجودياً معلوم بالاضطرار ؛
فإن كل أحد يعلم أن الحي إن كان خالياً عن الحب كان هذا الخلو
صفة عدمية . فإذا صار محباً ، فقد تغير الموصوف وصار له صفة ثبوتية
زائدة على ما كان قبل أن يقوم به الحب . ومن يحس ذلك من نفسه
يجده ، كما يجد شهوته ونفرته ورضاه وغضبه ولذته وألمه .

ودليل ذلك : أنك تقول : أحب يحب محبة . ونقيض أحب : لم
يحب . ولم يحب صفة عدمية ، ونقيض العدم الإثبات .

قال ابن المرحل : هذا ينتقض بقولهم : امتنع يتمتع ؛ فإن نقيض
الامتناع : لا امتناع . وامتناع صفة عدمية .

قال الشيخ تقي الدين : الامتناع أمر اعتباري عقلي ؛ فإن المتمتع
ليس له وجود خارجي . حتى تقوم به صفة . وإنما هو معلوم بالعقل .

وباعتبار كونه معلوماً له ثبوت علمي ، وسلب هذا الثبوت العلمي : عدم هذا الثبوت ؛ فلم ينقض هذا قولنا : نقيض العدم ثبوت ، وأما الحب فإنه صفة قائمة بالحب . فإنك تشير إلى عين خارجة ، وتقول : هذا الحى صار محباً بعد أن لم يكن محباً . فتخبر عن الوجود الخارجى . فإذا كان نقيضها عدماً خارجياً ، كانت وجوداً خارجياً .

وفى الجملة : فكون الحب والبغض صفة ثبوتية وجودية معلوم بالضرورة . فلا يقبل فيه نزاع ولا يناظر صاحبه إلا مناظرة السوفسطائية .

قلت : وإذا كان الحب والبغض ونحوهما من الصفات المضافة المتعلقة بالغير : صفات وجودية . ظهر الفرق بين الصفات التى هي إضافة ونسبة . وبين الصفات التى هي مضافة منسوبة . فالحمد والشكر من القسم الثانى ؛ فإن الحمد أمر وجودي متعلق بالحمود عليه . وكذلك الشكر أمر وجودي متعلق بالمشكور عليه . فلا يتم فهم حقيقتها إلا بفهم الصفة الثبوتية لها التى هي متعلقة بالغير . وتلك الصفة داخلة فى حقيقتها . فإذا كان متعلق أحدهما أكبر من متعلق الآخر ، وذلك التعلق إنما هو عارض لصفة ثبوتية لها . وجب ذكر تلك الصفة الثبوتية فى ذكر حقيقتها .

والدليل على هذا : أن من لم يفهم الإحسان امتنع أن يفهم الشكر

فعلم أن تصور متعلق الشكر داخل في تصور الشكر .

قلت : ولو قيل : إنه ليس هذا إلا أمراً عديماً . فالحقيقة إن كانت مركبة من وجود وعدم ، وجب ذكرها في تعريف الحقيقة . كما أن من عرف الأب ، من حيث هو أب . فإن تصوره موقوف على تصور الأبوة ، التي هي نسبة وإضافة . وإن كان الأب أمراً وجودياً .

فالحمد والشكر متعلقان بالحمود عليه والمشكور عليه . وإن لم يكن هذا المتعلق عارضاً لصفة ثبوتية . فلا يفهم الحمد والشكر إلا بفهم هذا المتعلق . كما لا يفهم معنى الأب إلا بفهم معنى الأبوة ، الذي هو التعلق . وكذلك الحمد والشكر أمران متعلقان بالحمود عليه والمشكور عليه .

وهذا التعلق جزء من هذا المسمى . بدليل أن من لم يفهم الصفات الجميلة لم يفهم الحمد . ومن لم يفهم الإحسان لم يفهم الشكر .

فإذا كان فهمها موقوفاً على فهم متعلقها ، فوقوفه على فهم التعلق أولى . فإن التعلق فرع على المتعلق . وتبع له . فإذا توقف فهمها على فهم المتعلق الذي هو أبعد عنها من التعلق . فتوقفه على فهم التعلق أولى . وإن كان التعلق أمراً عديماً . والله أعلم .

قال له الشيخ تقي الدين ابن نيمية : — قوله : (وَأَحَلَّ اللَّهُ
الْبَيْعَ) قد أتبع بقوله (وَحَرَّمَ الرِّبَا) وعامة أنواع الربا يسمى بيعاً .
والربا — وإن كان اسماً مجملاً — فهو مجهول . واستثناء المجهول من
المعلوم يوجب جهالة المستثنى فيبقى المراد إحلال البيع الذي ليس بربا .
فما لم يثبت أن الفرد المعين ليس بربا لم يصح إدخاله في البيع الحلال .
وهذا يمنع دعوى العموم . وإن كان الربا اسماً عاماً فهو مستثنى من
البيع أيضاً . فيبقى البيع لفظاً مخصوصاً . فلا يصح ادعاء العموم
على الإطلاق .

قال ابن المرحل : — هذا من باب التخصيص . وهنا عمومان
تعارضاً ، وليس من باب الاستثناء . فإن صيغ الاستثناء معلومة . وإذا
كان هذا تخصيصاً لم يمنع ادعاء العموم فيه .

قال الشيخ تقي الدين : — هذا كلام متصل بعضه ببعض ، وهو
من باب التخصيص المتصل . وتسميه الفقهاء استثناء ، كقوله : له هذه
الدار ولى منها هذا البيت . فإن هذا بمنزلة قوله : إلا هذا البيت .
وكذلك لو قال : أكرم هؤلاء القوم ولا تكرم فلاناً وهو منهم .
كان بمنزلة قوله : إلا فلاناً . وإذا كان كذلك صار بمنزلة قوله : أحل
الله البيع إلا ما كان منه ربياً .

فمن ادعى بعد هذا أنه عام في كل ما يسمى بيعاً فهو مخطئ .

قال ابن المرحل : — أنا أسلم أنه إنما هو عام في كل بيع لا يسمى ربا .

قال له الشيخ تقي الدين : — وهذا كان المقصود . ولكن بطل بهذا دعوى عمومته على الإطلاق ؛ فإن دعوى العموم على الإطلاق ينافي دعوى العموم في بعض الأنواع دون بعض . وهذا كلام بين .

وادعى مدع . أن فيه قولين . أحدهما : أنه عام مخصوص والثاني : أنه عموم مراد .

فقال الشيخ تقي الدين : — فإن دعوى أنه عموم مراد : باطل قطعاً ، فإننا نعلم أن كثيراً من أفراد البيع حرام .

فاعترض ابن المرحل : بأن تلك الأفراد حرمت بعد ما أحلت . فيكون نسخاً .

قال الشيخ تقي الدين : — فيلزم من هذا أن لا نحرم شيئاً من البيوع بخبر واحد ، ولا بقياس . فإن نسخ القرآن لا يجوز بذلك . وإنما يجوز تخصيصه به . وقد اتفق الفقهاء على التحريم بهذه الطريقة .

قال ابن المرحل : — رجعت عن هذا السؤال ؛ لكن أقول هو عموم
مراد في كل ما يسمى بيعاً في الشرع . فإن البيع من الأسماء المنقولة إلى
كل بيع صحيح شرعي .

قال الشيخ تقي الدين : — البيع ليس من الأسماء المنقولة ؛ فإن
مسماه في الشرع والعرف هو المسمى اللغوي ؛ لكن الشارع اشترط لحله
وصحته شروطاً . كما قد كان أهل الجاهلية لهم شروط أيضاً بحسب
اصطلاحهم . وهكذا سائر أسماء العقود ، مثل الإجارة والرهن ، والهبة
والقرض والنكاح . إذا أريد به العقد وغير ذلك — : هي باقية على
مسمياتها . والنقل إنما يحتاج إليه إذا أحدث الشارع معاني لم تكن
العرب تعرفها . مثل الصلاة والزكاة ، والتيمم . فحينئذ يحتاج إلى النقل .
ومعاني هذه العقود ما زالت معروفة .

قال ابن المرحل : — أصحابي قد قالوا : إنها منقولة .

قال الشيخ تقي الدين : — لو كان لفظ البيع في الآية المراد به
البيع الصحيح الشرعي لكان التقدير : أحل الله البيع الصحيح
الشرعي . أو أحل الله البيع الذي هو عنده حلال . وهذا — مع أنه
مكرر — فإنه يمنع الاستدلال بالآية . فإننا لانعلم دخول بيع من البيوع
في الآية حتى نعلم أنه بيع صحيح شرعي . ومتى علمنا ذلك استغنينا عن
الاستدلال بالآية .

قال ابن المرحل : — متى ثبت أن هذا الفرد يسمى بيعاً في اللغة قلت : هو بيع في الشرع ؛ لأن الأصل عدم النقل ، وإذا كان بيعاً في الشرع دخل في الآية .

قال الشيخ تقي الدين : — هذا إنما يصح لو لم يثبت أن الاسم منقول أما إذا ثبت أنه منقول . لم يصح إدخال فرد فيه . حتى يثبت أن الاسم المنقول واقع عليه . وإلا فيلزم من هذا أن كل ما سمي في اللغة صلاة وزكاة ، وتيمناً ، وصوماً ، وبيعاً ، وإجارة ، ورهنًا : أنه يجوز إدخاله في المسمى الشرعي ، بهذا الاعتبار . وعلى هذا التقدير : فلا يبقى فرق بين الأسماء المنقولة وغيرها . وإنما يقال : الأصل عدم النقل ، إذا لم يثبت . بل متى ثبت النقل فالأصل عدم دخول هذا الفرد في الاسم المنقول ، حتى يثبت أنه داخل فيه بعد النقل .

وقال نبغ الإسلام

قدس الله روحه (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا
هادي له .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً
عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى
بالله شهيداً . أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله
يأذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة وبصر به من العمى ، وأرشد
به من الغي ، وفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وفرق به
بين الحق والباطل ، والهدى والضلال والرشاد والغى ، والمؤمنين

(١) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

والكفار . والسعداء أهل الجنة والأشقياء أهل النار ، وبين أولياء الله وأعداء الله ، فمن شهد له محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن ، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشيطان .

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن لله أولياء من الناس ، وللشيطان أولياء ، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، فقال تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وقال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وقال تعالى (يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضُهُمْ فَإِنَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُم مِّنكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْمِينًا * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَمْهَلِآءَ الَّذِينَ آقَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ آيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُم حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَّيْمًا ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) وقال تعالى

(هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) .

وذكر « أولياء الشيطان » فقال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى

(الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ

الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) وقال تعالى (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا

مُتَبَيِّنًا) وقال تعالى (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ

يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ

أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ

أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا) إلى قوله

(إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)

وقال تعالى (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجِدُوا لَكُمْ)

وقال الحليل عليه السلام (يَتَأْتِيَنِي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا)

وقال تعالى (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْخَضُوا عُدْوَى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ) ،
الآيات ، إلى قوله (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

فصل

وإذا عرف أن الناس فيهم « أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » ، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء كما فرق الله ورسوله بينهما ، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله : من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة - أو فقد آذنته بالحرب - وما تقرب إلي

عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشي بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشي . ولئن سألتى لأعطينه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » وهذا أصح حديث يروي في الأولياء فينبى النبى صلى الله عليه وسلم أنه من عادى ولياً لله فقد بارز الله بالمحاربة .

وفي حديث آخر « وإنى لأتأثر لأوليائى كما يتأثر الليث الحرب » أى آخذ تأثرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب تأثره ، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه ، فأحبوا ما يحب وأبغضوا ما يبغض ، ورضوا بما يرضى ، وسخطوا بما يسخط ، وأمروا بما يأمر ونهوا عما نهى ، وأعطوا لمن يحب أن يعطى ، ومنعوا من يحب أن يمنع كما فى الترمذى وغيره عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوثق عرى الإيمان : الحب فى الله والبغض فى الله » وفى حديث آخر رواه أبو داود قال « ومن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان » .

و « الولاية » ضد العداوة ، وأصل الولاية المحبة والقرب ، وأصل

العداوة البغض والبعد . وقد قيل : إن الولي سمي ولياً من موالاته للطاعات أي متابعته لها ، والأول أصح . والولي القريب ، فيقال : هذا يلي هذا أي يقرب منه . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلاولى رجل ذكر » أي لأقرب رجل إلى الميت . وأكده بلفظ « الذكر » ليبين أنه حكم يختص بالذكور ، ولا يشترك فيها الذكور والإناث كما قال في الزكاة « فابن لبون ذكر » .

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ويبغضه وبسخطه ويأمر به وينهى عنه كان المعادي لوليه معادياً له كما قال تعالى : (لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوُا إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ) فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، فلهذا قال « ومن عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة » .

وأفضل أولياء الله هم أنبياءه ، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم ، وأفضل المرسلين أولو العزم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وعليهم وسلم ، قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) وقال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا * لَيْسَ لِلصَّادِقِينَ عَنْ

صَدَقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا .

وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام
المتقين ، وسيد ولد آدم ، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا
وفدوا ، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون
وصاحب لواء الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم
القيامة وصاحب الوسيلة والفضيلة ، الذي بعثه بأفضل كتبه وشرع له
أفضل شرائع دينه ، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، وجمع له
ولأتمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم ، وم آخر الأمم
خلقاً ، وأول الأمم بعثاً ، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح:
« نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من
قبلنا وأوتينا من بعدهم ؛ فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه - يعني
يوم الجمعة - فهدانا الله له : الناس لنا تبع فيه ، غداً لليهود وبعد
غد للنصارى »

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا أول من تنشق عنه الأرض »
وقال صلى الله عليه وسلم : « آتي باب الجنة فأستفتح ، فيقول
الحازن : من أنت ؟ فأقول أنا محمد ، فيقول بك أمرت ألا أفتح
لأحد قبلك » .

وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمته كثيرة ، ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه ، فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به ، واتبعه باطناً وظاهراً ، ومن ادعى حجة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله ؛ بل من خالفه كان من

أعداء الله وأولياء الشيطان ، قال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحِبِّكُمْ اللَّهُ) قال الحسن البصري رحمه الله : ادعى قوم أنهم يحبون الله فأزل الله هذه الآية محنة لهم ، وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول فإن الله يحبه ، ومن ادعى حجة الله ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من أولياء الله ، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله ولا يكونون من أولياء الله فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء الله وأحباؤه . قال تعالى : (قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ) الآية . وقال تعالى : (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ) الى قوله (وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وكان مشركو العرب يدعون أنهم أهل الله لسكنام مكة ، ومجاورتهم البيت ، وكانوا يستكبرون به على غيرهم ، كما قال تعالى (فَذَكَاتَ آيَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صَوْنَ * مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ) ، وقال تعالى : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِيُشِيرُوكَ أَوْ يَفْتُلُوكَ) إلى قوله (وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ) فيبين سبحانه أن المشركين ليسوا أوليائه ولا أولياء بيته ، إنما أولياؤه المتقون .

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان ليسوا لي بأولياء - يعني طائفة من أقاربه - إنما وليي الله وصالح المؤمنين » وهذا موافق لقوله تعالى : (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) الآية . وصالح المؤمنين هو من كان صالحاً من المؤمنين ، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله . ودخل في ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكلهم في الجنة كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة » ومثل هذا الحديث الآخر : « إن أوليائي المتقون أبا كانوا وحيث كانوا » .

كما أن من الكفار من يدعي أنه ولي الله وليس ولياً لله ؛ بل عدو له ، فكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام يقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه مرسل إلى جميع الإنس ؛ بل إلى الثقلين الإنس والجن ، ويعتقدون في الباطن

ما يناقض ذلك ، مثل ألا يقرأوا في الباطن بأنه رسول الله ، وإنما كان ملكا مطاعا ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك ، أو يقولون إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب كما يقوله كثير من اليهود والنصارى ، أو أنه مرسل إلى عامة الخلق وأن الله أولياء خاصة لم يرسل إليهم ولا يحتاجون إليه ؛ بل لهم طريق إلى الله من غير جهته ، كما كان الحضر مع موسى ، أو أنهم يأخذون عن الله كل ما يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة ، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وموافقون له فيها ، وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها ، أو لم يكن يعرفها ، أو لم أعرف بها منه ، أو يعرفونها مثل ما يعرفها من غير طريقته .

وقد يقول بعض هؤلاء : إن « أهل الصفة » كانوا مستغنيين عنه ، ولم يرسل إليهم ، ومنهم من يقول : إن الله أوحى إلى أهل الصفة في الباطن ما أوحى إليه ليلة المعراج ، فصار أهل الصفة بمنزلة ، وهؤلاء من فرط جهلهم لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة كما قال تعالى :
 (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ۚ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ) ، وأن الصفة لم تكن إلا بالمدينة ، وكانت صفة في شمالي مسجده صلى الله عليه وسلم ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم ؛ فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي صلى

الله عليه وسلم إلى المدينة ؛ فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به ، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه .

ولم يكن « أهل الصفة » ناساً بأعيانهم يلزمون الصفة ؛ بل كانوا يقلون تارة ويكثرُونَ أخرى ، ويقيم الرجل بها زماناً ثم ينتقل منها ؛ والذين ينزلون بها من جنس سائر المسلمين ؛ ليس لهم مزية في علم ولا دين ؛ بل فيهم من ارند عن الإسلام وقتله النبي صلى الله عليه وسلم كالعربيين الذين اجتووا المدينة — أي استوخوها — فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بلفاح — أي إيل لها لبن — وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها فلما صحوا قتلوا الراعي ، واستاقوا الذود فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم وتركهم في الحرة يستسقون فلا يسقون وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس ، وفيه أنهم نزلوا الصفة ، فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص وهو أفضل من نزل بالصفة ، ثم انتقل عنها ، ونزلها أبو هريرة وغيره .

وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي تاريخ من نزل الصفة .

وأما « الأنصار » فلم يكونوا من أهل الصفة ، وكذلك أكبر المهاجرين كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن

ابن عوف وأبي عبيدة وغيرهم لم يكونوا من أهل الصفة .

وقد روى أنه بها غلام للمغيرة بن شعبة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هذا واحد من السبعة » وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية ، وكذا كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة « الأولياء » و « الأبدال » و « النقباء » و « النجباء » و « الأوتاد » و « الأقطاب » مثل أربعة أو سبعة أو اثني عشر أو أربعين أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، أو القطب الواحد ، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ « الأبدال » . وروى فيهم حديث أنهم أربعون رجلا وأنهم بالشام وهو في المسند من حديث علي رضي الله عنه ، وهو حديث منقطع ليس بثابت . ومعلوم أن علياً ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي ، وقد أخرج في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق » وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة علي ، فقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه ، فدل هذا الحديث الصحيح على أن علي

ابن أبي طالب أولى بالحق من معاوية وأصحابه ؛ وكيف يكون الأبدال في
أدنى العسكرين دون أعلاهما ؟

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه أنشد منشد

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتي وترياق

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن
منكبه « فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث ، وأكذب منه ما يرويه
بعضهم : « أنه مزق ثوبه ، وأن جبريل أخذ قطعة منه فعلقها على
العرش » ، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه من أظهر الأحاديث كذباً عليه صلى الله عليه وسلم .

وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « كان النبي
صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يتحدثان وكنت بينهما كالزنجي » ، وهو
كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث .

والمقصود هنا أن فيمن يقر برسائله العامة في الظاهر من يعتقد
في الباطن ما يناقض ذلك فيكون منافقاً وهو يدعى في نفسه وأمثاله

أنهم أولياء الله مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إما عناداً وإما جهلاً ، كما أن كثيراً من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ ولكن يقولون إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب ، وأنه لا يجب علينا اتباعه ، لأنه أرسل إلينا رسلاً قبله ، فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله ، وإنما أولياء الله الذين وصفهم الله تعالى بولايته بقوله : (الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

ولا بد في الإيمان من أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ويؤمن بكل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله ، كما قال تعالى : (قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنَّمَا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَتْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

وقال تعالى : (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ)

إلى آخر السورة . وقال في أول السورة : (اَللّٰهُمَّ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ *

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُؤْفِقُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

فلا بد في الإيمان من أن تؤمن أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، لا نبي بعده ، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن ؛ فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين ؛ ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ليس بمؤمن ، كما قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

ومن الإيمان به الإيمان بأنه الوساطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه . ووعدته ووعدته ، وحلاله وحرامه ؛ فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقاً إلى الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر من أولياء الشيطان .

وأما خلق الله تعالى للخلق ، ورزقه إياهم ، وإجابته لدعائهم وهدايته لقلوبهم ، ونصرهم على أعدائهم ، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار ، فهذا لله وحده يفعل به بما يشاء من الأسباب ، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل .

ثم لو بلغ الرجل في « الزهد والعبادة والعلم » ما بلغ ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فليس بمؤمن ، ولا ولي لله تعالى كالأخبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم ؛ وكذلك المنتسبين إلى العلم والعبادة من المشركين مشركي العرب والترك والهند وغيرهم ممن كان من حكماء الهند والترك وله علم أو زهد وعبادة في دينه وليس مؤمناً بجميع ما جاء به فهو كافر عدو لله ، وإن ظن طائفة أنه ولي لله ، كما كان حكماء الفرس من المجوس كفاراً مجوساً .

وكذلك حكماء « اليونان » مثل أرسطو وأمثاله كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب ، وكان أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة ، وكان وزيراً للإسكندر بن فيلبس المقدوني ، وهو الذي تؤرخ به تواريخ الروم واليونان ، وتؤرخ به اليهود والنصارى ؛ وليس هذا هو ذو القرنين الذي ذكره الله في كتابه ، كما يظن بعض الناس أن أرسطو كان وزيراً لذى القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الإسكندر ، وهذا قد يسمى بالإسكندر ظنوا أن هذا ذاك كما يظنه ابن سينا وطائفة معه ،

وليس الأمر كذلك ؛ بل هذا الإسكندر المشرك الذي قد كان أرسطو وزيره متأخر عن ذلك ، ولم يكن هذا السد ، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج ، وهذا الإسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه يؤرخ له تاريخ الروم المعروف .

وفي أصناف المشركين من مشركي العرب ومشركي الهند والترك واليونان وغيرهم من له اجتهد في العلم والزهد والعبادة ؛ ولكن ليس بمتبع للرسول ولا يؤمن بما جاءوا به ولا يصدقهم بما أخبروا به ولا يطيعهم فيما أمروا ، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين ولا أولياء لله ، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم فيكشفون الناس بعض الأمور ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر ، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تنزل عليهم الشياطين . قال تعالى : (هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ) .

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسول فلا بد أن يكذبوا ، وتكذبهم شياطينهم . ولا بد أن يكون في أعمالهم ما هو إثم وفجور مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة ؛ ولهذا تنزل عليهم الشياطين واقتربت بهم فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن . قال الله تعالى : (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)

وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم مثل القرآن فمن لم يؤمن بالقرآن ويصدق خبره ويعتقد وجوب أمره فقد أعرض عنه فيقيض له الشيطان فيقترن به ، قال تعالى : (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ) وقال تعالى : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَتَنَّا بِهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى) فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التي أنزلها ، ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائماً ليلاً ونهاراً مع غاية الزهد، وعبدته مجتهداً في عبادته ولم يكن متبعاً لذكره الذي أنزله — وهو القرآن — كان من أولياء الشيطان ولو طار في الهواء أو مشى على الماء : فإن الشيطان يحمله في الهواء . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فصل

ومن الناس من يكون فيه إيمان ، وفيه شعبة من نفاق ، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى بدعها : إذا حدث كذب ؛

وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر « وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان « فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى بدعها ، وقد ثبت في الصحيحين أنه قال لأبي ذر — وهو من خيار المؤمنين — « إنك امرؤ فيك جاهلية » فقال يا رسول الله أعلى كبر سني ؟ ! قال : « نعم » ! .

وثبت في الصحيح عنه أنه قال « أربع في أمتي من أمر الجاهلية : الفخر في الأ حساب ، والطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم » وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وفي صحيح مسلم « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » وذكر البخاري عن ابن أبي مليكة قال : أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، وقد قال الله تعالى : (وَمَا أَصْبَحْكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَذَنُ اللَّهُ وَلَيَعْلَمُ الْمُؤْمِنِينَ * وَلَيَعْلَمُ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنُقَلِّبُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ) فقد جعل هؤلاء إلى

الكفر أقرب منهم للإيمان ، فعلم أنهم مخلطون وكفرهم أقوى ، وغيرهم يكون مخلطاً وإيمانه أقوى .

وإذا كان « أولياء الله » هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى ، فمن كان أكمل إيماناً وتقوى ، كان أكمل ولاية لله . فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى ، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق ، قال الله تعالى : (وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) وقال تعالى : (إِنَّمَا السَّيِّئُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ آهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَهُمْ تَقْوَاهُمْ) وقال تعالى في المنافقين (فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا) . فبين سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه ؛ وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه . وقال تعالى (وَبَزَادَا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا) وقال تعالى (لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ) .

فصل

وأولياء الله على « طبقتين » سابقون مقربون ، وأصحاب يمين مقصدون . ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه العزيز في أول سورة الواقعة وآخرها وفي سورة الإنسان ؛ والمطففين وفي سورة فاطر ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر في الواقعة القيامة الكبرى في أولها ، وذكر القيامة الصغرى في آخرها ، فقال في أولها (إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا * وَسِتِّ الْجِبَالُ سُيَا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَبُ الِّمِئْمَنَةِ مَا أَصْحَبُ الِّمِئْمَنَةِ * وَأَصْحَبُ الشِّعْمَةِ مَا أَصْحَبُ الشِّعْمَةِ * وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع .

ثم قال تعالى في آخر السورة : (فَلَوْلَا) أي : فهلا (إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ *

فَرُوحٌ وَرَنَحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ
 * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزِّلُ مِنْ حَمِيمٍ * وَنَصْلِيهٌ حَمِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ
 حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ .

وقال تعالى في سورة الانسان : (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا
 كَفُورًا * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلَآ وَسَعِيرًا * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ
 مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ
 وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ
 لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا * فَوَقَّهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
 الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَشُرُورًا * وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا) الآيات .

وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال :

(كَلَّا إِنْ كُنَّ الْفُجَّارَ لَفِي سَجِينٍ) إلى ان قال : (كَلَّا إِنْ كُنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي عِلِّيْنِ)
 * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كُنْتُ مَرْفُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى
 الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ *
 خِتَمُهُ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَفِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا
 الْمُقَرَّبُونَ) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف قالوا يمزج

لأصحاب اليمين مزجاً ، ويشرب بها المقربون صرفاً ، وهو كما قالوا .
 فإنه تعالى قال (يَشْرَبُ بِهَا) ولم يقل : يشرب منها لأنه ضمن ذلك
 قوله يشرب يعني يروى بها ، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى ، فإذا
 قيل يشربون منها لم يدل على الري ، فإذا قيل يشربون بها كان
 المعنى يروون بها ، فالمقربون يروون بها فلا يحتاجون معها إلى مادونها ؛
 فلهذا يشربون منها صرفاً ، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم
 مزجاً ، وهو كما قال تعالى في سورة الإنسان (كَانَتْ مِرْجَاهَا كَأُفُورًا
 * عَيْنَايَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا) .

فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة ، وهذا لأن
 الجزء من جنس العمل في الخير والشر ، كما قال النبي صلى الله عليه
 وسلم « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة
 من كرب يوم القيامة » ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا
 والآخرة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون
 العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً
 سهل الله له به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت
 الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ،
 وغشيتهم الرحمة ؛ وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن
 بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » رواه مسلم في صحيحه . وقال صلى الله

عليه وسلم « الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » قال الترمذي : حديث صحيح .

وفي الحديث الآخر الصحيح الذي في السنن « يقول الله تعالى : أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بته » وقال « ومن وصلها وصله الله ، ومن قطعها قطعته الله » ومثل هذا كثير .

وأولياء الله تعالى على نوعين : مقربون وأصحاب يمين كما تقدم . وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عمل القسمين في حديث الأولياء فقال « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » .

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض ، يفعلون ما أوجب الله عليهم ويتركون ما حرم الله عليهم ، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات ؛ ولا الكف عن فضول المباحات .

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، ففعلوا

الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرُونَ عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبا تاما ، كما قال تعالى : « ولا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » يعني الحب المطلق ، كقوله تعالى : (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) أي أنعم عليهم الانعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات ، يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله فشربوا صرفا كما عملوا له صرفا ، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم ، فلا يعاقبون عليه ولا يثابون عليه ، فلم يشربوا صرفا ؛ بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا .

ونظير هذا انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى عبد رسول ونبي ملك وقد خير الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم بين أن يكون عبداً رسولاً ، وبين أن يكون نبياً ملكاً ، فاختر أن يكون عبداً رسولاً ، فالنبي الملك مثل داود وسليمان ونحوهما عليهما الصلاة والسلام قال الله تعالى في قصة سليمان الذي (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِ رُوحَاءِ حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ

وَعَوَاصِرٍ * وَءَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ()
 أي أعط من شئت واحرم من شئت لا حساب عليك ، فالنبي الملك
 يفعل ما فرض الله عليه ويترك ما حرم الله عليه ويتصرف في الولاية
 والمال بما يحبه ويختار من غير إثم عليه .

وأما العبد الرسول فلا يعطي أحداً إلا بأمر ربه ولا يعطي من
 يشاء ويحرم [من يشاء بل روى عنه] أنه قال « إني والله لا أعطي
 أحداً ولا أمنع أحداً ، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت ، ولهذا يضيف
 الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول كقوله تعالى : (قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ
 وَالرَّسُولِ) وقوله تعالى : (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ)
 وقوله تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ) .

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه
 الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر كما هو مذهب مالك وغيره من
 السلف ، ويذكر هذا رواية عن أحمد ، وقد قيل في الخمس أنه يقسم
 على خمسة ، كقول الشافعي وأحمد في المعروف عنه ، وقيل : على ثلاثة ،
 كقول أبي حنيفة رحمه الله .

و « المقصود هنا » أن العبد الرسول هو أفضل من النبي الملك ، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً عليهم الصلاة والسلام أفضل من يوسف وداود وسليمان عليهم السلام ، كما أن المقربين السابقين أفضل من الأبرار أصحاب اليمين الذين ليسوا مقربين سابقين ، فمن أدى ما أوجب الله عليه وفعل من المباحات ما يحبه فهو من هؤلاء ، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه ويقصد أن يستعين بما أيسر له على ما أمره الله فهو من أولئك .

فصل

وقد ذكر الله تعالى « أولياءه » المقتصدين والسابقين في سورة فاطر في قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ)

لكن هذه الاصناف الثلاثة في هذه الآية هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة كما قال تعالى (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ

ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ. وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
الْكَبِيرُ .)

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم
المتقدمة ، وليس ذلك مختصاً بحفاظ القرآن ؛ بل كل من آمن بالقرآن
فهو من هؤلاء ، وقسمهم إلى ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق ؛ بخلاف
الآيات التي في الواقعة والمطففين والانفطار ، فإنه دخل فيها جميع الأمم
المتقدمة كافرهم ومؤمنهم ، وهذا التقسيم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم
و « الظالم لنفسه » أصحاب الذنوب المصرون عليها ، ومن تاب من ذنبه
أي ذنب كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين ، و « المقتصد »
المؤدي للفرائض المحتجب للمحارم . و « السابق للخيرات » هو المؤدي
للفرائض والنوافل ، كما في تلك الآيات ، ومن تاب من ذنبه أي ذنب
كان توبة صحيحة لم يخرج بذلك عن السابقين والمقتصدين كما في قوله
تعالى : (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا
وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

و « المقتصد » المؤدي للفرائض المجتنب للمحارم ، و « السابق بالخيرات » هو المؤدي للفرائض والنوافل كما في تلك الآيات .

وقوله (جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا) مما يستدل به أهل السنة على انه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد .

واما دخول كثير من أهل الكبائر النار فهذا مما تواترت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم كما تواترت بخروجهم من النار وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر وإخراج من يخرج من النار بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وشفاعة غيره . فمن قال : إن أهل الكبائر مخلدون في النار وتأول الآية على أن السابقين هم الذين يدخلونها وأن المقتصد أو الظالم لنفسه لا يدخلها ، كما تأوله من المعتزلة فهو مقابل بتأويل المرجئة الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل الكبائر النار ، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة من غير عذاب ، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم وإجماع سلف الأمة وأئمتها .

وقد دل على فساد قول « الطائفتين » قول الله تعالى في آيتين من كتابه وهو قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء ، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب كما يقوله من يقوله من

المعتزلة لأن الشرك يغفره الله لمن تاب وما دون الشرك يغفره الله أيضاً للتائب فلا تعلق بالمشيئة ؛ ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين قال تعالى :

(قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .
فهنا عمم المغفرة

وأطلقها ، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه ، فمن تاب من الشرك غفر الله له ، ومن تاب من الكبائر غفر الله له ، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له . ففي آية التوبة عمم وأطلق ، وفي تلك الآية خصص وعلق ، خصص الشرك بأنه لا يغفره ، وعلق ما سواه على المشيئة ومن الشرك التعطيل للخالق وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذهب . ونبه بالشرك على ما هو أعظم منه كتعطيل الخالق ، أو يجوز ألا يعذب بذنب ؛ فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر البعض دون البعض ، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفوراً له بلا توبة ولا حسنات ماحية لم يعلق ذلك بالمشيئة .

وقوله تعالى : (وَيَغْفِرْ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) دليل على أنه يغفر البعض دون البعض ، فبطل النفي والوقف العام .

فصل

وإذا كان « أولياء الله عز وجل » هم المؤمنون المتقون . والناس
يتفاضلون في الإيمان والتقوى ، فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك ،
كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق كانوا متفاضلين في عداوة
الله بحسب ذلك .

وأصل الإيمان والتقوى : الإيمان برسل الله ، وجماع ذلك :
الإيمان بخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، فالإيمان به يتضمن
الإيمان بجميع كتب الله ورسله ، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر
بالرسل ، وبما جاءوا به ، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه
العذاب في الآخرة ؛ فإن الله تعالى أخبر في كتابه أنه لا يعذب أحداً
إلا بعد بلوغ الرسالة . قال الله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)
وقال تعالى (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى

يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)

وقال تعالى عن أهل النار (كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ *

قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ)

فأخبر أنه كلما ألقى في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه

، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها فوج إلا من كذب النذير . وقال تعالى

في خطابه لا بليس (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)

فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه ؛ فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم

. فعلم أنه لا يدخل النار إلا من تبع الشيطان ، وهذا يدل على أنه

لا يدخلها من لا ذنب له فإنه ممن لم يتبع الشيطان ولم يكن مذنباً ، وما

تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسول .

فصل

ومن الناس من يؤمن بالرسول إيماناً مجحلاً ، وأما الإيمان المفصل

فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل ولم يبلغه بعض ذلك فيؤمن

بما بلغه عن الرسل ، وما لم يبلغه لم يعرفه ولو بلغه لآمن به ؛ ولكن آمن بما

جاءت به الرسل إيماناً مجحلاً ، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع

إيمانه وتقواه فهو من أولياء الله تعالى ، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه ، وما لم تقم عليه الحجة فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته والإيمان المفصل به ، فلا يعذبه على تركه ؛ لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاتته من ذلك ، فمن علم بما جاء به الرسل وآمن به إيماناً مفصلاً وعمل به فهو أكمل إيماناً وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلاً ولم يعمل به ؛ وكلاهما ولي لله تعالى .

والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيماً ، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم . قال تبارك وتعالى : (مَنْ

كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلًّا نُمِدُّهُتُّوْلَاءً وَهُتُّوْلَاءٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

فبين الله سبحانه وتعالى أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه وأن عطائه ما كان محظوراً من بر ولا فاجر ، ثم قال تعالى : (أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا) .

فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا وقد بين

تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عبادهم المؤمنين ، فقال تعالى :
 (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا
 عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ)
 وقال تعالى : (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان » وفي الصحيحين عن أبي هريرة وعمر بن العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وقد قال الله تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى)
 وقال تعالى : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَذَلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)

وقال تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ أَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)

وقال تعالى : (أَمَنْ هُوَ قَنِيتُ أَنَا أَلَيْسَ لِي لِسَانٌ سَاجِدًا وَمَا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

وقال تعالى : (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

فصل

وإذا كان العبد لا يكون ولياً لله إلا إذا كان مؤمناً تقياً لقوله تعالى :

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وفي صحيح البخاري الحديث المشهور — وقد تقدم — يقول الله تبارك وتعالى فيه : « ولا يزال عبيدي يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » ولا يكون مؤمناً تقياً حتى يتقرب إلى الله بالفرائض فيكون من الأبرار

أهل اليمين ، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب بالنوافل حتى يكون من السابقين المقربين ، فمعلوم أن أحداً من الكفار والمنافقين لا يكون ولياً لله .

وكذلك من لا يصح إيمانه وعبادته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار ومن لم تبلغه الدعوة — وإن قيل إنهم لا يعذبون حتى يرسل إليهم رسول — فلا يكونون من أولياء الله إلا إذا كانوا من المؤمنين المتقين ؛ فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات لم يكن من أولياء الله . وكذلك المجانين والأطفال ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق . وعن الصبي حتى يحتلم . وعن النائم حتى يستيقظ » . وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما . واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول . لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء . وأما المجنون الذي رفع عنه القلم فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء . ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات ؛ بل لا يصلح هو عند عامة العقلاء لأمر الدنيا كالتجارة والصناعة . فلا يصلح أن يكون بزازاً ولا عطاراً ولا حداداً ولا نجاراً ولا تصح عقودهم باتفاق العلماء . فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته . ولا غير ذلك من أقواله ، بل

أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي ، ولا ثواب ولا عقاب .
بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالاً معتبرة في مواضع بالنص والإجماع .
وفي مواضع فيها نزاع .

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى ولا التقرب إلى
الله بالفرائض والنوافل ، وامتنع أن يكون ولياً لله فلا يجوز لأحد أن
يعتقد أنه ولي لله ؛ لا سيما أن تكون حجته على ذلك إما مكاشفة سمعها
منه ، أو نوع من تصرف ، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو
صرع ؛ فإنه قد علم أن الكفار والمنافقين — من المشركين وأهل
الكتاب — لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية كالكهان والسحرة وعباد
المشركين وأهل الكتاب ، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على
كون الشخص ولياً لله وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله ، فكيف
إذا علم منه ما يناقض ولاية الله ؟! مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب
اتباع النبي صلى الله عليه وسلم باطناً وظاهراً ؛ بل يعتقد أنه يتبع الشرع
الظاهر دون الحقيقة الباطنة . أو يعتقد أن لأولياء الله طريقاً إلى الله
غير طريق الأنبياء عليهم السلام . أو يقول : إن الأنبياء ضيقوا الطريق
أو هم على قدوة العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعى
الولاية فهوؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان . فضلاً عن ولاية الله
عز وجل . فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم
كان أضل من اليهود والنصارى .

وكذلك المجنون ؛ فإن كونه مجنوناً يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله ، ومن كان يجن أحياناً وبفيق أحياناً . إذا كان في حال إفاقته مؤمناً بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويحْتَنِبُ المحارم ؛ فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعاً من أن يثبته الله على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته ، ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك . وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه ؛ فإن الله يثبته ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه ؛ ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلى به من غير ذنب فعله ، والقلم مرفوع عنه في حال جنونه .

فعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يَحْتَنِبُ المحارم بل قد بأتى بما يناقض ذلك ، لم يكن لأحد أن يقول هذا ولي الله ، فإن هذا إن لم يكن مجنوناً ؛ بل كان متولهاً من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ، وبفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض ، بل يعتقد أنه لا يجب عليه اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فهو كافر ، وإن كان مجنوناً باطنياً وظاهراً قد ارتفع عنه القلم ؛ فهذا وإن لم يكن معاقباً عقوبة الكافرين فليس هو مستحقاً لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل ، فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي الله ، ولكن إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمناً بالله متقياً كان له من ولاية الله بحسب ذلك ،

وان كان له في حال إفاقة فيه كفر أو نفاق أو كان كافراً أو منافقاً
ثم طراً عليه الجنون ، فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه
وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقة من كفر أو نفاق .

فصل

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور
المباحات فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحاً ، ولا
بخلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحاً كما قيل : كم من صديق
في قباء وكم من زنديق في عباء ؛ بل يوجدون في جميع أصناف أمة
محمد صلى الله عليه وسلم إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور ،
فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف
ويوجدون في التجار والصناع والزراع . وقد ذكر الله أصناف أمة محمد
صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ
وَنُصْفَهُ، وَثُلُثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّنْ نُحْصِيَهُ فَنَابَ عَلَيْكَ فَاقْرَأْ
وَمَا تَسْرَمِ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَّرْضَىٰ ، وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ
وَأَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ وَمَا تَسْرَمُنَّ) .

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فدخل فيهم العلماء والنسك ، ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية والفقراء » . واسم « الصوفية » هو نسبة إلى لباس الصوف ؛ هذا هو الصحيح وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صوفة بن أد بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفة ، وقيل إلى الصفا ، وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة ، فإنه لو كان كذلك ل قيل صفي أو صفائي أو صفوي أو صفي ، ولم يقل صوفي .

وصار أيضا اسم « الفقراء » يعني به أهل السلوك ، وهذا عرف حادث ، وقد تنازع الناس أيما أفضل مسمى « الصوفي » أو مسمى « الفقير » ؟ ويتنازعون أيضا أيما أفضل : الغني الشاكر أو الفقير الصابر ؟ .

وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيدين وبين أبي العباس بن عطاء ، وقد روى عن أحمد بن حنبل فيها روايتان ، والصواب في هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال : (يَتَأَيُّمُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه سئل : « أي الناس أفضل ؟ قال أتقاهم . قيل له : ليس عن هذا نسألك فقال : يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله . فقيل له : ليس عن هذا نسألك . فقال : عن معادن العرب تسألوني ؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا . »

فدل الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى أذهب عنكم غيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس رجالان : مؤمن تقى وفاجر شقى » .

فمن كان من هذه الأصناف أتقى لله فهو أكرم عند الله وإذا استويا في التقوى استويا في الدرجة .

ولفظ « الفقر » في الشرع يراد به الفقر من المال ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه كما قال تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ)

وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ) وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراء : أهل الصدقات وأهل الفياء ، فقال في الصنف الأول : (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا) وقال في الصنف الثاني وهم افضل الصنفين (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطناً وظاهراً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » .

أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله ، وجهاد الكفار من أعظم الأعمال ؛ بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله تعالى : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِيئَةَ

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (وقال تعالى : (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) .

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل : ما أبالي ألا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج ، وقال آخر : ما أبالي أن أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ، وقال علي بن أبي طالب الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما ، فقال عمر : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن إذا قضيت الصلاة سألته ، فسأله فأنزله الله تعالى هذه الآية .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله ! أي الأعمال أفضل عند الله عز وجل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » . قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن رسول الله صلى الله

عليه وسلم ولو استزدنه لزادني ، وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الأعمال أفضل ؟ قال : « إيمان بالله وجهاد في سبيله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال حج مبرور » .

وفي الصحيحين أن رجلاً قال له صلى الله عليه وسلم يا رسول الله أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله قال : « لا تستطيعه أو لا تطيقه » قال فأخبرني به قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تنفر » ؟

وفي السنن عن معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال : « يامعاذ ! اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » ، وقال : « يامعاذ ! إني لأحبك فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ، وقال له — وهو رديفه — يامعاذ : « أتدري ما حق الله على عباده » قلت الله ورسوله أعلم . قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حقهم عليه ألا يعذبهم » .

وقال أيضاً لمعاذ : « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة

سنامه الجهاد في سبيل الله » ، وقال : « يا معاذ ألا أخبرك بأبواب البر ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، وقيام الرجل في جوف الليل ، ثم قرأ (نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ثم قال : يا معاذ ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت بلى ! فقال : أمسك عليك لسانك هذا فأخذ بلسانه ، قال يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » .

وتفسير هذا ما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » فالتكلم بالخير خير من السكوت عنه ، والصمت عن الشر خير من التكلم به ، فأما الصمت الدائم فبدعة منهى عنها ، وكذلك الامتناع عن أكل الحبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضاً ، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال : « ما هذا » فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه » .

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رجالاً سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنهم تقالوها فقالوا وأبنا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا؟! ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني » أي سلك غيرها ظاناً أن غيرها خير منها ، فمن كان كذلك فهو براء من الله ورسوله ، قال تعالى : (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ) . بل يجب على كل مسلم أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة .

فصل

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ، ويجوز أن يشتهه عليه بعض أمور الدين ، حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به وما نهى

الله عنه ، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى ؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ، فقال تعالى : (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال : قد فعلت ، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنها قال لما نزلت هذه الآية (وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) قال : دخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها قبل ذلك شيء أشد منه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » قال فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

إلى قوله (أَوْ أَخْطَأْنَا) قال الله قد فعلت (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا) قال : قد فعلت ، (رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) قال قد فعلت . وقد قال تعالى (وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ) .

وثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وعمر بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أنه قال « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر » فلم يؤثم المجتهد المخطئ ؛ بل جعل له أجراً على اجتاده ، وجعل خطأه مغفوراً له ، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه ؛ ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي الله لئلا يكون نيباً ؛ بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقاً [للشرع] وعلى ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق ؛ بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف ؟ توقف فيه .

والناس في هذا الباب « ثلاثة أصناف » طرفان ووسط ؛ فمنهم من إذا اعتقد في شخص أنه ولي الله وافقه في كل ما يظن أنه حدث

به قلبه عن ربه ، وسلم إليه جميع ما يفعله ، ومنهم من إذا رآه قد قال
أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان
مجتهداً مخطئاً ، وخيار الأمور أوساطها وهو أن لا يجعل معصوما ولا
مأثوما إذا كان مجتهداً مخطئاً ، فلا يتبع في كل ما يقوله ، ولا يحكم
عليه بالكفر والفسق مع اجتهداده .

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله ، وأما إذا خالف
قول بعض الفقهاء ، ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول
المخالف ويقول هذا خالف الشرع .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم »
وروى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لو
لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر » وفي حديث آخر إن الله ضرب الحق
على لسان عمر وقلبه (وفيه) لو كان نبي بعدي لكان عمر ، وكان
علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ما كنا نبعد أن السكينة تنطق
على لسان عمر . ثبت هذا عنه من رواية الشعبي . وقال ابن عمر : ما كان عمر
يقول في شيء : إني لأراه كذا ، إلا كان كما يقول . وعن قيس بن طارق
قال كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك . وكان عمر يقول

اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم
أمور صادقة .

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله
عنه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم .
فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ؛ فأفضل هؤلاء في هذه
الأمة بعد أبي بكر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فإن خير هذه
الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر .

وقد ثبت في الصحيح نعين عمر بأنه محدث في هذه الأمة فأى
محدث ومخاطب فرض في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فعمر أفضل منه ،
ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض
ما يقع له على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتارة يوافقه
فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقه غير مرة ، وتارة
يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى
محاربة المشركين ، والحديث معروف في البخاري وغيره ؛ فإن النبي صلى
الله عليه وسلم قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو
ألف وأربعمائة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة ، وكان قد صالح المشركين
بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من
العام القابل ، وشرط لهم شروطاً فيها نوع غضاضة على المسلمين في

الظاهر ، فشق ذلك على كثير من المسلمين وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة ، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم : يا رسول الله ! ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : « بلى » قال : أفليس قتلانا في الجنة وقتلام في النار ؟ قال : « بلى » قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ ! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه » ثم قال : أفلم تكن تحدثنا أنا نأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى » . قال : « أقلت لك أنك تأتية العام ؟ » قال : لا ، قال : « إنك آتية ومطوف به » فذهب عمر إلى أبى بكر رضي الله عنها فقال له مثل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أبو بكر يسمع جواب النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي صلى الله عليه وسلم من عمر ، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك ، وقال : فعملت لذلك أعمالاً .

وكذلك لما مات النبي صلى الله عليه وسلم أنكروا عمر موته أولاً ، فلما قال أبو بكر : إنه مات رجع عمر عن ذلك .

وكذلك في « قتال مانعي الزكاة » قال عمر لأبى بكر : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن

أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها » فقال له أبو بكر رضي الله عنه : ألم يقل : « إلا بحقها » ؟ ! فإن الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال ، فعلمت أنه الحق .

ولهذا نظائر تبين تقدم أبي بكر على عمر ، مع أن عمر رضي الله عنه محدث ؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث ، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله ، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء ، وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم وينظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور ، وينازعونه في أشياء فيحتاج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ، ويقررم على منازعته ، ولا يقول لهم : أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني ، فأى أحد ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي الله وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو ومخطئون ، ومثل هذا من أضل الناس ، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه وهو

أمير المؤمنين ، وكان المسلمون ينازعونه فيما يقوله ، وهو وهم على الكتاب والسنة ، وقد انفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم ، فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به ؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به ؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً ، وإن كان صاحبه من أولياء الله ، وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله ، له أجر على اجتجاهه . لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً ، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع ؛ فإن الله تعالى يقول : (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) وهذا تفسير قوله تعالى : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ) قال ابن مسعود وغيره : حق تقاته ان يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ؛ وأن يشكر فلا يكفر ، أي بحسب استطاعتكم فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها ، كما قال تعالى : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) ، وقال تعالى : (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وقال تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْكَيلِ

وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الأنبياء في غير موضع كقوله تعالى : (قُلُوءَا أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

وقال تعالى : (اَلَمْ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * اَلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

وقال تعالى : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ وَالسَّالِينَ فِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤَفَّقُ بَعْدَهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) .

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة ، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل ، من خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله

باتباعهم ؛ بل إما أن يكون كافرا ، وإما أن يكون مفرطاً في الجهل .

وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني : إنه ليقع في قلبي النكته من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين : الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيّد رحمه الله عليه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا ، أو قال : لا يقتدى به . وقال أبو عثمان النيسابوري من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) وقال أبو عمرو بن نجيد : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

وكثير من الناس يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله ، ويظن أن ولي الله يقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة فيوافق ذلك الشخص له ، ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه ، وبين أهل الجنة وأهل النار ، وبين السعداء والأشقياء ،

وهؤلاء مشاهدون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم : (اتَّخَذُوا
أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا
إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا ۚ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

وفي المسند ومصححه الترمذي عن عدى بن حاتم في تفسيره هذه الآية لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال : ما عبدوهم : فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أحلوا لهم الحرام وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم ، وكانت هذه عبادتهم إياهم » ، ولهذا قيل في مثل هؤلاء إنما حرّموا الوصول بتضييع الأصول ، فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا بد من الإيمان بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم ، وعربهم وعجمهم ، علمائهم وعبادهم ملوكهم وسوقتهم ، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا باتباعه باطناً وظاهراً ، حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتَيْكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه ، وقد قال

تعالى . (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

وكل من خالف شيئاً مما جاء به الرسول مقلداً في ذلك لمن يظن أنه ولي الله فإنه بنى أمره على أنه ولي الله ؛ وأن ولي الله لا يخالف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأبر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة ؛ فكيف إذا لم يكن كذلك ؟ ! وتجد كثيراً من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه ولياً لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض التصرفات الحارقة للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت ؛ أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها

أو يمشي على الماء أحياناً ؛ أو يملأ إربقاً من الهواء ؛ أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحياناً عن أعين الناس ؛ أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فراه قد جاءه فقضى حاجته ؛ أو يخبر الناس بما سرق لهم ؛ أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور ؛ وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله ؛ بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغير به حتى ينظر متابعتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه .

وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور ؛ وهذه الأمور الحارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها ولياً لله فقد يكون عدواً لله ؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وتكون لأهل البدع ، وتكون من الشياطين ، فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله ؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي دل عليها الكتاب والسنة ويعرفون بنور الإيمان والقرآن وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة .

مثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ ؛ ولا يصلي الصلوات المكتوبة ؛ بل يكون

ملابساً للنجاسات معاشراً للكلاب ؛ يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل ؛ رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية ؛ ولا يتنظف ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه جنب ولا كلب » وقال عن هذه الأخلية : « إن هذه الحشوش محتضرة » أي يحضرها الشيطان وقال : « من أكل من هاتين الشجرتين الحيتين فلا يقربن مسجدنا ؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » .

وقال « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » وقال : « إن الله نظيف يحب النظافة » وقال : « خمس من الفواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية والفأرة والغراب والحدأة والكلب العقور » وفي رواية « الحية والعقرب » . وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال : « من اقتنى كلباً لا يغني عنه زرعاً ولا ضرعاً نقص من عمله كل يوم قيراط » وقال : « لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب » وقال : « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب » .

وقال تعالى : (وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ أَمْتُوا بِهِ وَعَزَرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا

النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ وَلَيْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ () .

فإذا كان الشخص مباشراً للنجاسات والخبائث التي يحبها الشيطان أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين ، أو يأكل الحيات والعقارب والزناير ؛ وأذا ان الكلاب التي هي خبائث وفواسق أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي يحبها الشيطان . أو يدعو غير الله فيستغيث بالخلوقات ويتوجه إليها ، أو يسجد إلى ناحية شيخة ، ولا يخلص الدين لرب العالمين ، أو يلبس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة ، أو يأوي إلى المقابر ؛ ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين ، أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ، ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن ، فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله ، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله ورسوله ، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله عز وجل ؛ وقال ابن مسعود : الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل ، والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

وإن كان الرجل خيراً بحقائق الإيمان الباطنة فارقاً بين الأحوال
الرحمانية والأحوال الشيطانية ، فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره كما قال
تعالى : (يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ
لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا
مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) فهذا من
المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد
الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا فراسة المؤمن ؛ فإنه
ينظر بنور الله » قال الترمذي حديث حسن . وقد تقدم الحديث
الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه : « لا يزال عبدي يتقرب إلي
بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي
يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبى يسمع ،
وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني
لأعيننه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي
المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

فإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء
الشیطان كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف ، وكما يفرق
من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء ، وكما يفرق من يعرف

الفروسية بين الشجاع والجبان ، وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبي الكذاب ، فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم ، وبين مسيلة الكذاب ؛ والأسود العنسي ، وطليحة الأسدي ، والحارث الدمشقي ؛ وبابه الرومي ؛ وغيرهم من الكذابين ؛ وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين .

فصل

و « الحقيقة » حقيقة الدين : دين رب العالمين . هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون ؛ وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج . ف « الشرعة » هي الشريعة قال الله تعالى : (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وقال تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ) .

و « المنهاج » هو الطريق قال تعالى : (وَالْوَّاسِقَتُمْ أَعْلَى الطَّرِيقَةِ

لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَّاءً غَدَقًا * لَنَفْنِئَنَّهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا) .

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر ، والمنهاج هو الطريق الذي سلك فيه
والغاية المقصودة هي حقيقة الدين ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له
وهي حقيقة دين الإسلام ، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين ، لا
يستسلم لغيره ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا ، والله لا يغفر أن يشرك
به ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه :
(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) .

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ،
وقوله تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) عام في كل
زمان ومكان .

فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم
دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له ، قال الله تعالى
عن نوح : (يَنْقُومِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتْ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ
فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ) إلى قوله : (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)
وقال تعالى : (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ
فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا
تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال تعالى : (وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللَّهِ

فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وقال السحرة : (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا
صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ) وقال يوسف عليه السلام : (تَوَقَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي
بِالصَّدِيقِينَ) وقالت بلقيس : (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
وقال تعالى : (يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ) وقال الحواريون (ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ
مُسْلِمُونَ) .

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما في الصحيحين عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » قال
تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ
إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ)
وقال تعالى : (يَتَأْتِيَ الرُّسُلُ كُلُّوَامِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *
وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّ عَوْنُ رَبِّهِمْ فِى حَرْبٍ مِّمَّا
لَدَيْهِمْ فَرَحُونِ)

فصل

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء ، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم « أربع مراتب » فقال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا) .

وفي الحديث : « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر » وأفضل الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) وقال تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في المسند « أتم توفون سبعين أمة ، أتم خيرها وأكرمها على الله »

وأفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم القرن الأول .

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال :

« خير القرون القرن الذي بعث فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجه .

وفي الصحيحين أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة قال تعالى : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مَنْ (الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) وقال تعالى : (وَالسَّابِقُونَ) الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقتلوا ، والمراد بالفتح صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة ، وفيه أنزل الله تعالى (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) فقالوا يا رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : نعم .

وأفضل السابقين الأولين « الخلفاء الأربعة » وأفضلهم أبو بكر ثم عمر ، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها ، وقد دلت على ذلك دلائل بسطانها في « منهاج

أهل السنة النبوية، في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية .

وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون من بعد الصحابة أفضل من الصحابة ، وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم واتباعا له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه ، وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملا به ، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم ، وأفضلها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه .

وقد ظن طائفة غالطة أن « خاتم الأولياء » أفضل الأولياء قياساً على خاتم الأنبياء ، ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي ، فإنه صنف مصنفاً غلط فيه في مواضع ، ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ، ومنهم من يدعى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله ، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما يزعم ذلك ابن عربي صاحب « كتاب الفتوحات المكية » و « كتاب الفصوص » يخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه كما يقال لمن قال : فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن .

ذلك أن الأنبياء أفضل في الزمان من أولياء هذه الأمة ، والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء فكيف الأنبياء كلهم؟ والأولياء إنما يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعى أنه خاتم الأولياء؟! وليس آخر الأولياء أفضلهم ، كما أن آخر الأنبياء أفضلهم ؛ فإن فضل محمد صلى الله عليه وسلم ثبت بالنصوص الدالة على ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » . وقوله : « آتى باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول محمد ، فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ،

و « ليلة المعراج » رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله تعالى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) إلى غير ذلك من الدلائل ، كل منهم يأتيه الوحي من الله ، لاسيما محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن في نبوته محتاجاً إلى غيره ، فلم تحتاج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق ؛ بخلاف المسيح أحاطهم في أكثر الشريعة على التوراة ، وجاء المسيح فأكملها ؛ ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح : كالتوراة والزبور ، وتام الأربع وعشرين نبوة ، وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين ؛ بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدث ؛ بل جمع له من الفضائل والمعارف

والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الأنبياء ؛ فكان ما فضله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر .

وهذا بخلاف « الأولياء » فإن كل من بلغه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون ولياً لله إلا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك من بلغه رسالة رسول إليه لا يكون ولياً لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسل إليه .

ومن ادعى أن من الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد فهذا كافر ملحد ، وإذا قال : أنا محتاج إلى محمد في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ؛ فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا : إن محمداً رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب . فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفاراً بذلك ، وكذلك هذا الذي يقول إن محمداً بعث بعلم الظاهر دون علم الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر ، وهو أكفر من أولئك ؛ لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة ، وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة .

فإذا ادعى المدعى أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان ؛ وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة ، فقد ادعى أن بعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر ، وهذا شر من يقول : أو من ببعض ، وأكفر ببعض ، ولا يدعى أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين .

وهؤلاء الملاحدة يدعون أن « الولاية » أفضل من « النبوة » ويلبسون على الناس فيقولون : ولايته أفضل من نبوته وينشدون :

مقام النبوة في برزخ فوبق الرسول ودون الولي

ويقولون نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته ، وهذا من أعظم ضلالهم ، فإن ولاية محمد لم يمثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى ، فضلا عن أن يمثله هؤلاء الملحدون .

وكل رسول نبي ولي ، فالرسول نبي ولي . ورسالته متضمنة لنبوته ، ونبوته متضمنة لولايته ، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع ، فإنه حال إنبائه إياه ممتنع أن يكون إلا ولياً لله ، ولا تكون مجردة عن ولايته ، ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلاً للرسول في ولايته .

وهؤلاء قد يقولون — كما يقول صاحب « الفصوص » ابن عربي — : إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ؛ وذلك أنهم اعتقدوا « عقيدة المتفلسفة » ثم أخرجوها في قالب « المكاشفة » وذلك أن المتفلسفة الذين قالوا إن الأفلاك قديمة أزلية لها علة تشبه بها ، كما يقوله أرسطو وأتباعه ؛ أو لها موجب بذاته كما يقوله متأخروهم : كابن سينا وأمثاله ، ولا يقولون إنها لرب خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته ، ولا يعلم الجزئيات ؛ بل إما أن ينكروا علمه مطلقاً ، كقول أرسطو ؛ أو يقولوا إنما يعلم في الأمور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا ، وحقيقة هذا القول إنكار علمه بها ؛ فإن كل موجود في الخارج فهو معين جزئي : الأفلاك كل معين منها جزئي ، وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها ، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، والكليات إنما توجد كليات في الأذهان لا في الأعيان .

والكلام على هؤلاء مبسوط في موضع آخر في « رد تعارض العقل والنقل » وغيره .

فإن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى ، بل ومشركي العرب ، فإن جميع هؤلاء يقولون إن الله خلق السموات والأرض ، وإنه خلق المخلوقات بمشيئته وقدرته ، وأرسطو ونحوه من المتفلسفة

واليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام ، وهم لا يعرفون الملائكة والأنبياء ، وليس في كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك ، وإنما غالب علوم القوم الأمور الطبيعية ، وأما الأمور الإلهية فكل منهم فيها قليل الصواب ، كثير الخطأ ، واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالإلهيات منهم بكثير ؛ ولكن متأخروهم كابن سينا أرادوا أن يلفقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل ؛ فأخذوا أشياء من أصول الجهمية والمعتزلة ، وركبوا مذهباً قد يعزى إليه متفلسفة أهل الملل ؛ وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع .

وهؤلاء لما رأوا أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم قد بهر العالم ، واعترفوا بأن الناموس الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ناموس طرق العالم ، ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن ، أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأولئك قد أثبتوا عقولاً عشرة يسمونها « المجردات » « والمفارقات » . وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن ، وسموا تلك « المفارقات » لمفارقتها المادة وتجردها عنها . وأثبتوا الأفلاك لكل فلك نفساً ، وأكثرهم جعلوها أعراضاً ، وبعضهم جعلها جواهر .

وهذه « المجردات » التي أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور

موجودة في الأذهان لا في الأعيان ، كما أثبت أصحاب افلاطون « الأمثال
الافلاطونية المجردة » أثبتوا هيولى مجردة عن الصورة ، ومدة وخلاء
مجريدين ، وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان لا في
الأعيان ؛ فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر
النبوت على أصولهم الفاسدة وزعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة
من اتصف بها فهو نبي .

(الأول) : أن تكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال
بها من العلم بلا تعلم .

(الثاني) : أن يكون له قوة تخيلية تخيل له ما يعقل في نفسه
بحيث يرى في نفسه صوراً أو يسمع في نفسه أصواتاً كما يراه النائم
ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج ، وزعموا أن تلك الصور هي
ملائكة الله وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى .

(الثالث) : أن يكون له قوة فعالة يؤثر بها في هيولى العالم
وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق السحرة ، هي قوى
النفس ، فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم من قلب العصا حية ، دون
انشقاق القمر ونحو ذلك ؛ فإنهم ينكرون وجود هذا .

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع . وبيننا أن كلامهم هذا
أفسد الكلام ، وأن هذا الذي جعلوه من الخصائص يحصل ما هو
أعظم منه لآحاد العامة ولأتباع الأنبياء ، وأن الملائكة التي أخبرت بها
الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون ، كما قال تعالى :
(وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) ، وليسوا عشرة ، وليسوا أعراساً ،
لا سيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو « العقل الأول » ،
وعنه صدر كل ما دونه ، و « العقل الفعال العاشر » رب كل
ما تحت فلك القمر .

وهذا كله يعلم فساده بالاضطرار من دين الرسل ، فليس أحد
من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله . وهؤلاء يزعمون أنه العقل
المذكور في حديث يروى « أن أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل
فأقبل ، فقال له : أدبر ، فأدبر ، فقال وعزتي ما خلقت خلقاً أكرم
علي منك ، فبك آخذ وبك أعطى ، ولك الثواب وعليك العقاب » .
ويسمونه أيضاً « القلم » لما روى « إن أول ما خلق الله القلم »
الحديث رواه الترمذي .

والحديث الذي ذكره في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة
بالحديث ، كما ذكر ذلك أبو حاتم البستي والدارقطني وابن الجوزي
وغيرهم . وليس في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها ، ومع

هذا فلفظه لو كان ثابتاً حجة عليهم ؛ فإن لفظه « أول ما خلق الله تعالى العقل قال له — وروى — لما خلق الله العقل قال له » فمعنى الحديث أنه خاطبه في أول أوقات خلقه ؛ ليس معناه أنه أول المخلوقات و « أول » منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر (لما) وتام الحديث « ما خلقت خلقاً أكرم علي منك » فهذا يقتضي أنه خلق قبله غيره ، ثم قال « فبك آخذ ، وبك أعطي ، ولك الثواب ، وعليك العقاب » فذكر أربعة أنواع من الأعراض ، وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل . فأين هذا من هذا ؟!

وسبب غلطهم أن لفظ « العقل » في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونان ، فإن « العقل » في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً ، كما في القرآن (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُون لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا) ويراد « بالعقل » الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها .

وأما أولئك فـ « العقل » عندهم جوهر قائم بنفسه كالعقل ، وليس هذا مطابقاً للغة الرسل والقرآن . وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الأجسام العقل والنفوس فيسميها عالم الأمر ، وقد يسمى « العقل » عالم الجبروت « والنفوس » عالم الملكوت ؛ و « الأجسام »

عالم الملك ، ويظن من لم يعرف لغة الرسل ولم يعرف معنى الكتاب والسنة أن مافى الكتاب والسنة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا ، وليس الأمر كذلك .

وهؤلاء يلبسون على المسامين تليدساً كثيراً ، كإطلاقهم أن « الفلك » محدث : أي معلول مع إنه قديم عندهم ، والمحدث لا يكون إلا مسبوقا بالعدم ، ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي محدثا ، والله قد أخبر أنه خالق كل شيء ، وكل مخلوق فهو محدث ، وكل محدث كائن بعد أن لم يكن ؛ لكن ناظرهم أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بهما ما أخبرت به الرسل ، ولا أحكموا فيها قضايا العقول ، فلا للإسلام نصروا ، ولا للأعداء كسروا ، وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ، ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة ، فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك ، كما قد بسط في غير هذا الموضع .

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون « جبريل » هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم ، والخيال تابع للعقل ، فجاء الملاحدة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم « أولياء الله » ، وأن أولياء الله أفضل من أنبياء الله ، وأهم بأخذون عن الله بلا واسطة كابن عربي صاحب « الفتوحات » و « الفصوص » ، فقال :

إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ، و « المعدن » عنده هو العقل و « الملك » هو الخيال و « الخيال » تابع للعقل ، وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال ؛ فلماذا صار عند نفسه فوق النبي ولو كان خاصة النبي ما ذكره لم يكن هو من جنسه ، فضلا عن أن يكون فوقه ، فكيف وما ذكره يحصل لآحاد المؤمنين ؟! والنبوة أمر وراء ذلك ، فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة : كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي ، والجنيدي بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم - رضوان الله عليهم أجمعين .

والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة في كتابه بصفات نبين قول هؤلاء كقوله تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ)

وقال تعالى : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَىٰ) وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ
 مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال تعالى : (وَلَهُ
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ
 اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) .

وقد أخبر أن الملائكة جاءت لإبراهيم عليه السلام في صورة
 البشر ، وأن الملك تمثل لمريم بشراً سوياً ، وكان جبريل عليه السلام
 يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي ، وفي
 صورة أعرابي ، ويراهم الناس كذلك .

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو قوة عند
 ذي العرش مكين : مطاع ثم أمين ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم
 رآه بالأفق المبين ، ووصفه بأنه (شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ
 الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ
 الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُكْفَرُونَهُ عَلَيَّ مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى *
 عِنْدَ هَاجَةِ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ
 رَبِّهِ الْكُبْرَى) .

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم « إنه لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين » يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى ، والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى ، ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين ، وأنه روح القدس ، إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء ، وأنه جوهر قائم بنفسه ، ليس خيالا في نفس النبي كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة ، والمدعون ولاية الله ، وأنهم أعلم من الأنبياء ..

وغاية حقيقة هؤلاء إنكار « أصول الإيمان » بأن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وحقيقة أمرهم جحد الخالق ، فإنهم جعلوا وجود المخلوق هو وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع ، فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود ، كما تشترك الأناسي في مسمى الإنسان ، والحيوانات في مسمى الحيوان ، ولكن هذا المشترك الكلّي لا يكون مشتركا كلياً إلا في الذهن ، وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس ، ووجود السموات ليس هو بعينه وجود الإنسان ، فوجود الخالق جل جلاله ليس هو كوجود مخلوقاته .

وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع ، فإنه لم يكن

منكراً هذا الوجود المشهود ؛ لكن زعم أنه موجود بنفسه ، لا صانع له ، وهؤلاء وافقوه في ذلك ؛ لكن زعموا بأنه هو الله ، فكانوا أضل منه وإن كان قوله هذا هو أظهر فساداً منهم ، ولهذا جعلوا عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله ، وقالوا : « لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف وإن جار في العرف الناموسي ، كذلك قال أنا ربكم الأعلى – أى وإن كان الكل أرباباً بنسبة ما ، فأنا الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم » .

قالوا : « ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقرؤا له بذلك وقالوا : (فَأَقِضْ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) قالوا : فصح قول فرعون (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) وكان فرعون عين الحق « ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر ، فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة ، فصاروا كافرين بالله واليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة خاصة الخاصة من أهل ولاية الله ، وأنهم أفضل من الأنبياء وأن الأنبياء إنما يعرفون الله من مشكاتهم .

وليس هذا موضع بسط إلحاد هؤلاء ؛ ولكن لما كان الكلام في « أولياء الله » والفرق بين « أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاء لولاية الله ، وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان ، نهنا على ذلك . ولهذا عامة كلامهم إنما هو في الحالات

الشیطانية ، ويقولون ما قاله صاحب الفتوحات : (باب أرض الحقيقة)
 ويقولون هي أرض الخيال . فتعرف بأن الحقيقة التي بتكلم فيها هي
 خيال ، وعمل تصرف الشيطان ، فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور
 بخلاف ما هي عليه قال تعالى : (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ
 قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَ نَاكَ
 يَلِيلَتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ * وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ
 أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) وقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
 ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا - إلى قوله : - يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ
 إِلَّا غُرُورًا) وقال تعالى : (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ
 وَعَدَ الْحَقَّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ
 لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ
 كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وقال تعالى :

(وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي
 جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى
 مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح

« إنه رأى جبريل يزع الملائكة (والشياطين إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عباده هربت منهم ، والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته . قال تعالى : (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا) وقال تعالى : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا) وقال تعالى : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) وقال تعالى : (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ)

وهؤلاء تأنيهم أرواح تخاطبهم وتمثل لهم ، وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة ، كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام وكان من أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام : المختار بن أبي عبيد الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « سيكون في ثقيف كذاب ومير » وكان الكذاب : المختار بن أبي عبيد ، والمير : الحجاج بن يوسف . ف قيل لابن عمر وابن عباس : إن المختار يزعم أنه ينزل إليه ، فقالا : صدق ، قال الله تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ * تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَافٍ أَثِيمٍ) . وقال الآخر وقيل له إن

المختار يزعم أنه يوحى إليه ، فقال : قال الله تعالى : (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ
لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّ لَكُمْ) .

وهذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب « الفتوحات »
أنه ألقى إليه ذلك الكتاب ؛ ولهذا يذكّر أنواعاً من الخلوات بطعام
معين وشيء معين ، وهذه مما تفتح لصاحبها اتصالاً بالجن والشياطين ،
فيظنون ذلك من كرامات الأولياء ، وإنما هو من الأحوال الشيطانية ،
وأعرف من هؤلاء عدداً ، ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان
بعيد ويعود ، ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه
به ، ومنهم من كانت تدله على السرقات بجعل يحصل له من الناس ، أو
بعتاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك .

ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسول صلوات
الله تعالى وسلامه عليهم ، كما يوجد في كلام صاحب « الفتوحات »
المكية « و » الفصوص « وأشباه ذلك يمدح الكفار ، مثل قوم نوح
وهود وفرعون وغيرهم ، ويتنقص الأنبياء : كنوح وإبراهيم وموسى
وهارون ، ويذم شيوخ المسلمين المحمودين عند المسلمين : كالجنيد بن
محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، ويمدح المذمومين عند المسلمين :
كالحلاج ونحوه كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية ؛ فإن الجنيد
— قدس الله روحه — كان من أئمة الهدى ، فسئل عن التوحيد

فقال : « التوحيد » أفراد الحدوث عن القدم . فبين أن التوحيد أن
تميز بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق . وصاحب « الفصوص »
أنكر هذا ؛ وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له : يا جنيد ! هل يميز
بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرها ؟ فخطأ الجنيد في قوله :
(أفراد الحدوث عن القدم) ؛ لأن قوله هو : إن وجود المحدث هو
عين وجود القديم ، كما قال في فصوصه : « ومن أسمائه الحسنی
« العلي » على من ؟ وما ثم إلا هو ، وعن ماذا ؟ وما هو إلا هو ،
فعلوه لنفسه وهو عين الموجودات ، فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست
إلا هو » . إلى أن قال :

« هو عين ما بطن وهو عين ما ظهر ، وما ثم من يراه غيره ،
وما ثم من ينطق عنه سواء ، وهو المسمى أبو سعيد الخراز وغير ذلك
من الأسماء المحدثات » .

فيقال لهذا الملحد : ليس من شرط المميز بين الشئيين بالعلم
والقول أن يكون ثالثاً غيرها ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه
وغيره ، وليس هو ثالث ، فالعبد يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين
خالقه ، والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم
وأهم عباده ، كما نطق بذلك القرآن في غير موضع ، والاستشهاد
بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطناً وظاهراً . وأما هؤلاء

الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منهم — وهو أحذقهم في اتحادهم — لما قرئ عليه « الفصوص » ف قيل له : القرآن يخالف فصوصكم . فقال : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد في كلامنا . ف قيل له : فإذا كان الوجود واحداً فلم كانت الزوجة حلالاً والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ، ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام ، فقلنا حرام عليكم .

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهر فإن الوجود إذا كان واحداً فمن المحجوب ومن الحجاب ؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك : إن في الكون سوى الله فقد كذب . فقال له مريده : فمن هو الذي يكذب ؟ وقالوا لآخر : هذه مظاهر . فقال لهم : المظاهر غير الظاهر أم هي ؟ فإن كانت غيرها فقد قلمت بالنسبة وإن كانت إياها فلا فرق .

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر ، وبيننا حقيقة قول كل واحد منهم ، وأن صاحب « الفصوص » يقول المعلوم شيء : ووجود الحق قاض عليه ، فيفرق بين الوجود والثبوت . والمعتزلة الذين قالوا : المعلوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه ، فإن أولئك قالوا : إن الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة في العدم وجوداً ليس هو وجود الرب . وهذا زعم أن عين وجود الرب قاض عليه

فليس عنده وجود مخلوق مبين لوجود الخالق ، وصاحبه الصدر
القانوني يفرق بين المطلق والمعين ، لأنه كان أقرب إلى الفلسفة ، فلم
يقرب بأن المعلوم شيء ؛ لكن جعل الحق هو الوجود المطلق ، وصنف
« مفتاح غيب الجمع والوجود » .

وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه ، فإن المطلق بشرط
الإطلاق — وهو الكلّي العقلي لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان
والمطلق لا بشرط وهو الكلّي الطبيعي — وإن قيل إنه موجود في
الخارج فلا يوجد في الخارج إلامعنياً ، وهو جزء من المعين عند من
يقول بثبوته في الخارج ، فيلزم أن يكون وجود الرب إما منتفياً في
الخارج وإما أن يكون جزءاً من وجود المخلوقات ، وإما أن يكون عين
وجود المخلوقات . وهل يخلق الجزء الكل أم يخلق الشيء نفسه ؟
أم العدم يخلق الوجود ؟ أو يكون بعض الشيء خالقاً لجميعة ؟!

وهؤلاء يفرون من لفظ « الحلول » لأنه يقتضى حلاً ومحللاً ، ومن
لفظ « الاتحاد » لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر ، وعندما
الوجود واحد . ويقولون : النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح بأنه
هو الله ، ولو عمموا لما كفروا .

وكذلك يقولون في عباد الأصنام : إنما أخطأوا لما عبدوا بعض

المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطأوا عندهم . والعارف الحق
عندهم لا يضره عبادة الأصنام .

وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائماً من التناقض
لأنه يقال لهم : فمن الخطيئ ؟ لكنهم يقولون : إن الرب هو الموصوف
بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق . ويقولون : إن المخلوقات
توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ، ويقولون ما قاله
صاحب « الفصوص » : « فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال
الذي يستوعب به جميع النوعت الوجودية ، والنسب العدمية ، سواء
كانت محمودة عرفاً أو عقلاً أو شرعاً ، أو مذمومة عرفاً وعقلاً وشرعاً ،
وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة » .

وهم مع كفرهم هذا لا يندفع عنهم التناقض ، فإنه معلوم بالحس
والعقل أن هذا ليس هو ذاك ، وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التمساني :
إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل . ويقولون : من
أراد التحقيق — يعني تحقيقهم — فليترك العقل والشرع .

وقد قلت لمن خاطبته منهم : ومعلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم
من كشف غيرهم ، وخبرهم أصدق من خبر غيرهم ، والأنبياء صلوات الله
وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته ؛ لا بما

يعرف الناس بعقولهم أنه ممتع ، فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول ،
وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِي إِخْبَارِ الرِّسُولِ مَا يَنَاقِضُ صَرِيحَ الْعُقُولِ ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ
يَتَعَارِضَ دَلِيلَانِ قَطْعِيَانِ : سَوَاءٌ كَانَا عَقْلَيْنِ أَوْ سَمْعَيْنِ ، أَوْ كَانَ أَحَدُهُمَا
عَقْلِيًّا وَالْآخَرُ سَمْعِيًّا ، فَكَيْفَ بِنِ ادْعَى كَشْفًا يَنَاقِضُ صَرِيحَ
الْشَّرْعِ وَالْعَقْلِ ؟ .

وهؤلاء قد لا يعتمدون الكذب ، لكن يخيل لهم أشياء تكون
في نفوسهم ويظنونها في الخارج ، وأشياء يرونها تكون موجودة في
الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين ، وتكون من
تلييسات الشياطين .

وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة قد يقدمون الأولياء على الأنبياء ،
ويذكرون أن النبوة لم تنقطع ، كما يذكر عن ابن سبعين وغيره ،
ويجعلون المراتب « ثلاثة » يقولون : العبد يشهد أولاً طاعة معصية ،
ثم طاعة بلا معصية ، ثم لا طاعة ولا معصية ، و « الشهود الأول »
هو الشهود الصحيح وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي ، وأما « الشهود
الثاني » فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول : أنا كافر
برب بعضي ، وهذا يزعم أن المعصية مخالفة لإرادة التي هي المشيئة .
والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ويقول شاعرهم :

أصبحت منفعلا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه ؛
فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله
كما قال تعالى : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ
عَذَابٌ مُهِينٌ) وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والدينية ،
والأمر الكوني والديني .

وكانت هذه « المسألة » قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فيها
الجنيد رحمه الله لهم ، من اتبع الجنيد فيها كان على السداد ، ومن
خالفه ضل ، لأنهم تكلموا في أن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته ، وفي
شهود هذا التوحيد ، وهذا بسمونه الجمع الأول ، فبين لهم الجنيد أنه
لا بد من شهود الفرق الثاني ، وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها
مشاركة في مشيئة الله وقدرته وخلقه يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه
ويرضاه ، وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ، ويفرق بين أوليائه
وأعدائه كما قال تعالى : (أَمْ جَعَلُوا لِلشَّيْطَانِ كَالْمُحْسِنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)
وقال تعالى : (أَمْ جَعَلُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ
أَمْ جَعَلُوا لِلْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ

يَجْعَلُهُمُ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَّا تُهْمُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (وقال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ لا رب غيره ، وهو مع ذلك أمر بالطاعة ، ونهى عن المعصية ، وهو لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها ، بل يبغضها ويذم أهلها وبعاقبهم .

وأما « المرتبة الثالثة » أن لا يشهد طاعة ولا معصية - فإنه يرى أن الوجود واحد ، وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله ؛ وهو في الحقيقة غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته ، وغاية العداوة لله ، فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء ، وقد قال تعالى : (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ) ولا يتبرأ من الشرك والأوثان فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ، قال الله تعالى : (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ إِنَّا بَرَاءٌ وَأَمِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ) وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنتُمْ

تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِيَ الْآرَبِ الْعَلَمِينَ (

وقال تعالى : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

وهؤلاء قد صنف بعضهم كتباً وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة بـ « نظم السلوك » يقول فيها :

لها صلاتي باللقام أقيمها وأشهد فيها أنها لي صلت
كلانا مصلّ واحد ساجد إلى حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سوائى ولم تكن صلاتي لغيري في أدا كل ركعة
☆ (إلى أن قال) ☆

وما زلت إياها وإيائي لم تزل ولا فرق بل ذاتي لذاتي أحببت
إليّ رسولاً كنت مني مرسلًا وذاتى بآياتى علىّ استدلت
فإن دعيت كنت المحيب وإن أكن منادى أجابت من دعائى ولبت

إلى أمثال هذا الكلام ؛ ولهذا كان هذا القائل عند الموت
ينشد ويقول :

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي

أمنية ظفرت نفسي بها زمنا واليوم أحسبها أضغاث أحلام

فإنه كان يظن أنه هو الله فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه

تبين له بطلان ما كان يظنه ، وقال الله تعالى : (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فجميع ما في السموات والارض يسبح

لله ؛ ليس هو الله ، ثم قال تعالى : (لَهُ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول

في دعائه : « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا

ورب كل شيء ، فلق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ،

أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك

شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك

شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، إقض عني الدين واغني من

الفقر » . ثم قال : (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ

مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

فذكر أن السموات والأرض — وفي موضع آخر — (وَمَا بَيْنَهُمَا) مخلوق مسبح له ، وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء .

وأما قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) فلفظ (مَعَ) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشئين مختلطاً بالآخر كقوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقوله تعالى : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ) وقوله تعالى : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدْ وَأَمَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) .

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ، ف « العامة » في هذه الآية وفي آية المجادلة (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم ؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل : هو معهم بعلمه .

وأما « المعية الخاصة » ففي قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقوله تعالى لموسى : (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) وقال تعالى : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) يعني النبي

صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي الله عنه ، فهو مع موسى وهارون دون فرعون ، ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ، ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين .

فلو كان معنى « المعية » أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام ؛ بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك . وقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ) أي هو إله من في السموات وإله من في الأرض ، كما قال الله تعالى : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ، وكذلك قوله تعالى : (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ) كما فسره أئمة العلم كالإمام أحمد وغيره : أنه المعبود في السموات والأرض .

وأجمع سلف الأمة وأئمتها على أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ، ويعلم أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال ، كما قال الله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) قال ابن عباس : الصمد العليم الذي كمل في علمه ، العظيم الذي كمل في عظمته ، القدير الكامل في قدرته ، الحكيم الكامل في حكمته ، السيد الكامل في سؤدده .

وقال ابن مسعود وغيره : هو الذي لا جوف له . و الأحد الذي لا نظير له . فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه ، واسمه الأحد يتضمن اتصافه أنه لا مثل له . وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن .

فصل

وكثير من الناس تشبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية إلامانية بالحقائق الخلقية القدريّة الكونية ؛ فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى :

(إِنْ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُغْنَى عَنْهُ كَلِمٌ وَلَا عِلٌّ وَلَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فهو سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه ، لا خالق غيره ، ولا رب سواه ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيبته وقدرته وخلقته ، وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله ، أمر بالتوحيد والإخلاص ، ونهى عن الإشراك بالله ، فأعظم الحسنات

التوحيد ، وأعظم السيئات الشرك . قال الله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ
 أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى : (وَمِنَ
 النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « قلت
 يا رسول الله ! أي الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله نداً وهو خلقك ،
 قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قلت :
 ثم أي ؟ قال : أن تزني بحليلة جارك . فأنزله الله تصديق ذلك
 (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
 وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ
 مُهَنًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ
 حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

وأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، ونهى عن
 الفحشاء والمنكر والبغى ، وأخبر أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ؛
 ويحب المقسطين ؛ ويحب التوايين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الذين
 يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، وهو يكره ما نهى عنه
 كما قال في سورة سبحان (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا)
 وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين ؛ وأمر بإيتاء ذي القربى الحقوق

ونهى عن التبذير ؛ وعن التقير ؛ وأن يجعل يده مغلوطة إلى عنقه ؛
وأن يبسطها كل البسط ، ونهى عن قتل النفس بغير الحق ، وعن الزنا
وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إلى أن قال (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا) وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى
 لعباده الكفر .

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائماً قال الله تعالى : (وَتُوبُوا
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا إِنَّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله
وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » وفي صحيح مسلم عنه
صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله
في اليوم مائة مرة » وفي السنن عن ابن عمر قال : كنا نعد لرسول الله
صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول « رب اغفر لي وتب علي
إنك أنت التواب الرحيم مائة مرة » أو قال « أكثر من مائة مرة »

وقد أمر الله سبحانه عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار
فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثاً
ويقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »

كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه ، وقد قال تعالى : (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ
بِالْأَسْحَارِ) فأمرهم أن يقوموا بالليل ، ويستغفروا بالأسحار . وكذلك
ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى : (وَأَسْتَغْفِرُوا
اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وكذلك قال في الحج : (فَإِذَا أَقَضْتُمْ
مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا
هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّكَالَيْنِ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ
النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)؛ بل أنزل سبحانه وتعالى في
آخر الأمر لما غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك وهي آخر
غزواته : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي
سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ
رءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ
وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) وهي آخر ما نزل من القرآن .

وقد قيل : إن آخر سورة نزلت قوله تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ
وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) فأمره تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار
وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان

يقول في ركوعه وسجوده : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي — يتأول القرآن « وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني . اللهم اغفر لي هزلي وجدي ، وخطئي وعمدي ، وكل ذلك عندي ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، لا إله إلا أنت »

وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال يارسول الله علمني دعاء أدعوه به في صلاتي ، قال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » وفي السنن عن أبي بكر رضي الله عنه قال يارسول الله علمني دعاء أدعوه به إذا أصبحت وإذا أمسيت ، فقال « قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم . قلّه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعتك . »

فليس لأحد أن يظن استغناؤه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائماً . قال الله تبارك وتعالى : (وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ()
فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة ، وقد أخبر الله تعالى
في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم .

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن
يدخل الجنة أحد بعمله ، قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا
أن يتعمدني الله برحمة منه وفضل » وهذا لا ينافي قوله (كُؤُوا وَاشْرُؤْهُنِيئًا
بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) فإن الرسول نفى بآء المقابلة والمعادلة
والقرآن أثبت بآء السبب .

وقول من قال : إذا أحب الله عبداً لم تضره الذنوب . معناه أنه إذا أحب
عبداً ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن أن الذنوب لا تضر
من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ؛
بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وإنما عباده الممدوحون هم المذكورون في قوله تعالى : (وَسَارِعُوا
إِلَى مَعْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَظِيطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا

لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ () .

ومن ظن أن « القدر » حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم : (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله تعالى راداً عليهم : (كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ * قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ) .

ولو كان « القدر » حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسول كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكات ، وقوم فرعون ، ولم بأمر بإقامة الحدود على المعتدين ، ولا يحتاج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعاً لهواه بغير هدى من الله ، ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه أن لا يذم أحداً ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه ؛ بل يستوي عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم ، فلا يفرق بين من يفعل معه خيراً وبين من يفعل معه شراً ، وهذا ممتنع طبعاً وعقلاً وشرعاً ، وقد قال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ؟ وقال تعالى : (أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) ؟ وقال تعالى : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ تَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ نَحْيَاهُمْ وَمَمَائِهِمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) وقال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ
إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) وقال تعالى (أَيْحَسِبُ الَّذِينَ أَنْبَأْنَاهُمْ لَنُؤْتِيَنَّهُم مِّمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ) أي مهملا
لا يؤمر ولا ينهى .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« احتسج آدم وموسى ، قال موسى : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك
الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، لماذا أخرجتنا
ونفسك من الجنة ، فقال له آدم : أنت موسى الذي اصطفاك الله
بكلامه وكتب لك التوراة بيده ، فكم وجدت مكتوبا عليّ قبل أن أخلق
(وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) ؟ قال : بأربعين سنة ، [قال] : فلم
تلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ؟ قال :
فحسب آدم موسى « أي : غلبه بالحجة .

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان :

« طائفة » كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع النعم والعقاب عمن
عصى الله لأجل القدر .

و « طائفة » شر من هؤلاء جعلوه حجة ، وقد يقولون : القدر

حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه ، أو الذين لا يرون أن لهم فعلا .
ومن الناس من قال : إنما حج آدم موسى لأنه أبوه ، أو لأنه كان قد
تاب ، أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم في أخرى ، أو لأن هذا يكون
في الدنيا دون الأخرى . وكل هذا باطل .

ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل
المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة ، فقال له : لماذا أخرجتنا
ونفسك من الجنة ؟ لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنباً وتاب منه ؛ فإن
موسى يعلم أن التائب من الذنب لا يلام ، وهو قد تاب منه أيضاً ، ولو
كان آدم يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا
وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) . والمؤمن مأمور عند
المصائب أن يصبر ويسلم ، وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب ، قال الله
تعالى : (فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) فأمره بالصبر على
المصائب ، والاستغفار من المعائب .

وقال تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
يَهْدِ اللَّهُ) قال ابن مسعود : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها
من عند الله فيرضى ويسلم ، فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة ، مثل المرض
والفقر والذل صبروا لحكم الله ، وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم ،
كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا

لما أصابهم ، وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر .

و « الصبر » واجب باتفاق العلماء ، وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله ، و « الرضا » قد قيل : إنه واجب ، وقيل : هو مستحب ، وهو الصحيح ، وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها ، حيث جعلها سبباً لتكفير خطاياها ، ورفع درجاته وإنابته وتضرعه إليه ، وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين ، وأما أهل البغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم ، ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها ، كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدرى ، وعند المعصية جبرى : أي مذهب وافق هواك تمذهبت به .

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها ، وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين ، وجعلهم يقيمون الصلاة وألهمهم التقوى ، وأنه لا حول ولا قوة إلا به فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى ، وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها : ففي صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي

فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة . »

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادي ! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أباي فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي ! كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي ! كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي ! كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي ! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه الحيط غمسة واحدة ، يا عبادي ! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، . »

فأمر سبحانه بحمد الله على ما يجده العبد من خير ، وأنه إذا وجد شراً فلا يلومن إلا نفسه .

وكثير من الناس يتكلم بلسان « الحقيقة » ، ولا يفرق بين الحقيقة الكونية القدريّة المتعلقة بخلقه ومشيّته ، وبين الحقيقة الدنيّة الأمرية المتعلقة برضاه ومحبه ، ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدنيّة موافقاً لما أمر الله به على ألسن رسله ، وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر ذلك بالكتاب والسنة ، كما أن لفظ « الشريعة » يتكلم به كثير من الناس ، ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله ؛ فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق الخروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر ، وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطئ . هذا إذا كان عالماً عادلاً وإلا ففي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « القضاة ثلاثة قاضيان في النار ، وقاض في الجنة : رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو في النار »

وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بنحو مما أسمع ، فمن

قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، وإنما أقطع له قطعة من النار .
فقد أخبر سيد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان في الباطن
بخلاف ذلك ، لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له ، وأنه إنما يقطع
له به قطعة من النار .

وهذا متفق عليه بين العلماء في الأملاك المطلقة إذا حكم الحاكم بما
ظنه حجة شرعية كالينة والإقرار ، وكان الباطن بخلاف الظاهر ، لم يجز
للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له بالانفاق . وإن حكم في العقود والفسوخ
بمثل ذلك ؛ فأكثر العلماء يقول إن الأمر كذلك ، وهو مذهب مالك
والشافعي وأحمد بن حنبل ، وفرق أبو حنيفة رضي الله عنه بين النوعين .

فلفظ « الشرع ، والشرعة » إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن
لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه ، ومن ظن أن لأحد من
أولياء الله طريقاً إلى الله ، غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم باطناً
وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر .

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غلطاً من وجهين :
« أحدهما » أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولا كان على
الخضر اتباعه ؛ فإن موسى كان مبعوثاً إلى بني إسرائيل ، وأما محمد
صلى الله عليه وسلم فرسلته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس ، ولو

أدركه من هو أفضل من الخضر : إبراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم ؛
اتباعه فكيف بالخضر سواء كان نبيا أو وليا ؛ ولهذا قال الخضر
لموسى : « أنا على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ؛ وأنت على
علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه » وليس لأحد من الثقلين الذين
بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول مثل هذا .

« الثاني » أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفا لشريعة موسى عليه
السلام ، وموسى لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه
على ذلك ، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم
أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز ، وقتل الصائل جائز وإن كان
صغيراً ، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله . قال :
ابن عباس رضي الله عنها لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان
— قال له — إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام
فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم ، رواه البخاري . وأما الإحسان إلى اليتيم بلا
عوض والصبر على الجوع ، فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء
مخالفاً شرع الله .

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظلماً وقد يكون
عادلاً ، وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ ، وقد يراد بالشرع قول
أئمة الفقه : كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس والأوزاعي والليث بن

سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم ، فهؤلاء أقوالهم يحتاج لها بالكتاب والسنة ، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً أي ليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمة كاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة ، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك ؛ فهذا من نوع التبديل ، فيجب الفرق بين الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل ، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية ، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة ، وبين ما يكتفى فيها بدوق صاحبها ووجده .

فصل

وقد ذكر الله في كتابه الفرق بين « الإرادة » و « الأمر » و « القضاء » و « الإذن » و « التحريم » و « البعث » و « الإرسال » و « الكلام » و « الجعل » : بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاء ؛ وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يثيب أصحابه ، ولا يجعلهم من أوليائه المتقين ، وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأثاب عليه وأكرمهم ، وجعلهم من أوليائه المتقين

وحزبه المفلحين وجنده الغالبين ؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه ، فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ، ومن كان عمله فيما يبغضه الرب وبكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه .

ف « الإرادة الكونية » هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية ، والإرادة الدينية هي المتضمنة لمحبه ورضاه المتأولة لما أمر به وجعله شرعاً ودنياً . وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح قال الله تعالى : (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ) وقال نوح عليه السلام لقومه : (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ) وقال تعالى : (وَإِذْ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلًا مَرَدَلَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ) وقال تعالى في الثانية : (وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) وقال في آية الطهارة : (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال : (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ

يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وما نهام عنه : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) والمعنى أنه أمرهم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ، فمن أطاع أمره كان مطهراً قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه .

وأما « الأمر » فقال في الأمر الكوني : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقال تعالى : (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) وقال تعالى : (أَتَنهَا أَمْرًا ثَلَاثًا أَوْ نَهَاها فَجَعَلْنَهَا حَاصِصًا كَأَن لَّمْ تَعَنْ بِالْأَمْرِ) وأما « الأمر الديني » فقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) .

وأما « الإذن » فقال في الكوني لما ذكر السحر : (وَمَاهُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) أي بمشيئته وقدرته ؛ وإلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل . وقال في « الإذن الديني » : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) وقال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ) وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا

لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وقال تعالى : (مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمْوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ) .

وأما « القضاء » فقال في الكوني : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ)
 وقال سبحانه : (إِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقال في
 الدينى : (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) أي أمر ، وليس المراد به
 قدر ذلك فإنه قد عبد غيره كما أخبر في غير موضع كقوله تعالى :
 (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا
 عِنْدَ اللَّهِ) وقول الخليل عليه السلام لقومه : (أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ *
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) وقال تعالى :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

وَحْدَهُ ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) وقال تعالى :

(قُلْ يَتَّيِبُهَا لَكُمْ أَفْكَرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ *
 وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وهذه

كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك ؛ كما قال تعالى في
 الآية الأخرى : (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ
 وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) .

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم ، كمن ظن أن قوله (وَقَضَىٰ رَبُّكَ) بمعنى قدر ، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع ، وجعل عباد الأصنام ماعبدوا إلا الله ؛ فإن هذا من أعظم الناس كفراً بالكتب .

وأما لفظ « البعث » فقال تعالى في البعث الكوني : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَٰئِهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَاسٍ شِدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا) وقال في البعث الديني : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) قال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وأما لفظ « الإرسال » فقال في الإرسال الكوني : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا) وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) وقال في الديني : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) وقال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ) وقال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْهِمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا) وقال تعالى : (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) .

وأما لفظ « الجعل » فقال في الكوني : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ

إِلَى التَّكْرِ) وقال في الديني : (لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) وقال تعالى : (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ) .

وأما لفظ « التحريم » فقال في الكوني : (وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ) وقال تعالى : (فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ) وقال في الديني : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) وقال تعالى : (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ) الآية .

وأما لفظ « الكلمات » فقال في الكلمات الكونية (وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ) ، وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر ما خلق ، ومن غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » وقال صلى الله عليه وسلم : « من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك » وكان يقول : « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق إلا طارقاً بطرق بخير يا رحمن ! » .

و « كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » هي التي كون بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيتته وقدرته . وأما « كلماته الدينية » وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه ، فأطاعها الأبرار ، وعصاها الفجار .

وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الديني وإذنه الديني وإرادته الدينية .

وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر ؛ فإنه يدخل تحتها جميع الخلق حتى إبليس وجنوده وجميع الكفار وسائر من يدخل النار ، فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشية والقدرة والقدر لهم ، فقد اختلفوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب .

وأولياء الله المتقون هم الذين فعلوا المأمور ، وتركوا المحذور ، وصبروا على المقدور ، فأحبهم وأحبوه ، ورضى عنهم ورضوا عنه . وأعداء أولياء الشياطين ، وإن كانوا تحت قدرته فهو يغيظهم ، ويغضب عليهم ، وبلغهم وبعادهم .

وبسط هذه الجمل له موضع آخر ، وإنما كتبت هنا تنبيها على مجامع « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » وجمع الفرق بينها

اعتبارهم بموافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو الذي فرق الله تعالى به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء ، وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار ، وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد وبين أعدائه أهل الغي والضلال والفساد وأعدائه حزب الشيطان وأوليائه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأبدى روح منه . قال تعالى : (لَا تَحْدُثُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) الآية وقال تعالى : (إِذْ يُوحَىٰ رَّبُّكَ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأُضِرُّهُمُ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأُضِرُّهُمُ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) .

وقال في أعدائه (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَنِّدُوا لَهُمْ) وقال : (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) وقال : (هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُهُمْ كَذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا أُوْسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) وقال تعالى : (فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تُذَكِّرُونَ * نَزِيلٌ مِنْ

رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ *
فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ *
وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (وقال تعالى :
(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ) إلى قوله : (إِنْ كَانُوا
صَادِقِينَ) .

فنه سبجانه وتعالى نينا محمداً صلى الله عليه وسلم عمن تقترن
به الشياطين، من الكهان والشعراء والمجانين ؛ وبين أن الذي جآه
بالقرآن ملك كريم اصطفاه . قال الله تعالى : (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ
الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) وقال تعالى : (وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ *
نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ) وقال
تعالى : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ، عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ
الْآبَةِ . وقال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)
إلى قوله (وَبَشِّرِ الْمُسْلِمِينَ) فسماه الروح الأمين وسماه
روح القدس .

وقال تعالى : (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُشْسِ * الْجَوَارِ الْكُنْشِ) يعنى : الكواكب
التي تكون فى السماء خائسة أى : محتفية قبل طلوعها ، فإذا ظهرت
رآها الناس جارية فى السماء ، فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها
(وَلَيْلٍ إِذَا عَسَسَ) أى إذا أدبر ، وأقبل الصبح (وَالصُّبْحِ إِذَا

نَفْسَ) أي أقبل (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) وهو جبريل عليه السلام
 (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ) أي مطاع في السماء
 أمين ثم قال : (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ) أي صاحبكم الذي من الله عليكم
 به إذ بعثه إليكم رسولا من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن
 تروا الملائكة كما قال تعالى : (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ
 الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا) الآية .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ) أي رأى جبريل عليه السلام
 (وَمَاهُو عَلَى الْغَيْبِ بَصِيرِينَ) أي بمتهم ، وفي القراءة الأخرى :
 (بضنين) أي يبخيل بكنتم العلم ولا يبذله إلا بجعل ، كما يفعل من
 بكنتم العلم إلا بالعوض . (وَمَاهُو يَقُولُ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) فزه جبريل
 عليه السلام عن أن يكون شيطانا ، كما زه محمداً صلى الله عليه وسلم عن
 أن يكون شاعراً أو كاهناً .

فأولياء الله المتقون هم المققدون بمحمد صلى الله عليه وسلم فيفعلون
 ما أمر به وينتهون عما عنه زجر ؛ ويققدون به فيما بين لهم أن يتبعوه
 فيه ، فيؤيدهم بملائكته وروح منه ، ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ،
 ولهم الكرامات التي بكرم الله بها أوليائه المتقين . وخيار أولياء الله
 كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين ، كما كانت معجزات نبيهم
 صلى الله عليه وسلم كذلك .

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم : مثل انشقاق القمر ، وتسبيح الحصى في كفه ، وإتيان الشجر إليه ، وحنين الجذع إليه ، وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس ، وإخباره بما كان وما يكون ، وإتيانه بالكتاب العزيز ، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة ، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص في حديث أم سلمة المشهور ، وأروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص ، وملاً أوعية العسكر عام نبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفاً ، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه ، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة ، وردة لعين أبي قتادة حين سألت على خده فرجعت أحسن عينيه ، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت ، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً كلاً منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة ، ودين عبد الله أبي جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقاً . قال جابر : فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فلم يقبل فمشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لجابر جد له فوقاه الثلاثين وسقاً وفضل سبعة عشر وسقاً ، ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة .

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جداً : مثل ما كان « أسيد بن حضير » يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته ، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين ؛ وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحيفة فسبحت الصحيفة أو سبح ما فيها ، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما . رواه البخاري وغيره .

وقصة « الصديق » في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا ربي من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت ، فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

و « خبيب بن عدي » كان أسيراً عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بغيب يأكله وليس بمكة غنبة .

و « عامر بن فهيرة » قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يقدرُوا عليه

وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع ، وقال : عروة :
فيرون الملائكة رفعته .

وخرجت « أم أيمن » مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت
تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حساً على
رأسها فرفعته فإذا دلو معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت
بقية عمرها .

و « سفينة » مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأسد
بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشى معه الأسد حتى
أوصله مقصده .

و « البراء بن مالك » كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه ،
وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون : يا براء ! أقسم
على ربك ، فيقول : يا رب ! أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فيهزم
العدو ، فلما كان يوم « القادسية » قال : أقسمت عليك يا رب لما
منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد ، فنحوا أكتافهم ، وقتل
البراء شهيداً .

و « خالد بن الوليد » حاصر حصناً منيعاً فقالوا لا نسلم حتى نشرب

السم فشربه فلم يضره .

و « سعد بن أبي وقاص » كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق .

و « عمر بن الخطاب » لما أرسل جيشاً أمر عليهم رجلاً يسمى « سارية » فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فقدم رسول الجيش فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح : يا سارية الجبل ، يا سارية الجبل ، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله .

ولما عذبت « الزبيرة » على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها قال المشركون أصاب بصرها اللات والعزى قالت كلا والله فرد الله عليها بصرها .

ودعا « سعيد بن زيد » على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال : اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، واقتلها في أرضها ، فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت .

« والعلاء بن الحضرمي » كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين وكان يقول في دعائه : يا عليم ! يا حليم ! يا علي ! يا عظيم !

فيستجاب له ، ودعا الله بأن يسقوا ويتوضأوا لما عدموا الماء والإسقاء
لما بعدم فأجيب ، ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدرُوا على المرور
بخيولهم ففروا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم ؛ ودعا الله أن
لا يروا جسده إذا مات ، فلم يجدوه في اللحد .

وجرى مثل ذلك « لأبي مسلم الحولاني » الذي ألقى في النار ، فإنه
مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالحشب من مدها
ثم التفت إلى أصحابه فقال : تفقدون من متاعكم شيئاً حتى أدعو الله
عز وجل فيه فقال بعضهم : فقدت مخلاة ، فقال اتبعني فتبعه فوجدها
قد تعلقت بشيء فأخذها ، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال
له : أنشهد أني رسول الله . قال ما أسمع ، قال أنشهد أن محمداً
رسول الله ؟ قال نعم ، فأمر بنار فألقى فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها
وقد صارت عليه برداً وسلاماً ؛ وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله
عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي عنها وقال
الحمد لله الذي لم يمتني حتى أرى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من
فعل به كما فعل إبراهيم خليل الله . ووضعت له جارية السم في طعامه
فلم يضره . وخبت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت ، وجاءت
وتابت فدعا لها فرد الله عليها بصرها .

وكان « عامر بن عبد قيس » يأخذ عطاءه ألفي درهم في كفه وما

يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد ، ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها ولا وزنها . ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بئابه الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال : إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي أن أخاف شيئاً غيره ، ومرت القافلة ، ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء ، فكان يؤتى بالماء له بخار ، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه .

وتغيب « الحسن البصري » عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه ، ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتاً .

و « صلة بن أشيم » مات فرسه وهو في الغزو ، فقال اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه . فلما وصل إلى بيته قال يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية ، فأخذ سرجه فمات الفرس ، وجاع مرة بالأهواز ، فدعا الله عز وجل واستطعمه ، فوَقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زماناً . وجاء الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير .

وكان « سعيد بن المسيب » في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر

رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقات الصلوات ، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره .

ورجل من « النخع » كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه هلم تتوزع متاعك على رحالنا فقال لهم : أمهلوني هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه .

ولما مات « أويس القرني » وجدوا في ثيابه أكفاناً لم تكن معه قبل ، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الآتواب .

وكان « عمرو بن عقبة بن فرقد » يصلي يوماً في شدة الحر فأظلمته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم .

وكان « مطرف بن عبد الله بن الشخير » إذا دخل بيته سبحت معه آنيته ، وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط .

ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى

ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر .

وكان « إبراهيم التيمي » يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئاً
وخرج يمتار لأهله طعاماً فلم يقدر عليه فربسه حراء فأخذ منها ثم رجع
إلى أهله ففتحها فإذا هي خنطة حراء فكان إذا زرع منها تخرج
السنبلة من أصلها إلى فرعها حباً متراكباً .

وكان « عتبة الغلام » سأل ربه ثلاث خصال صوتاً حسناً ودمعاً
غزيراً وطعاماً من غير تكلف . فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه
جارية دهره ، وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من
أين يأتيه .

وكان « عبد الواحد بن زيد » أصابه الفالج فسأل ربه أن
يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاءه
ثم تعود بعده .

وهذا باب واسع قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير
هذا الموضع .

وأما ما نعرفه عن أعيان ونعرفه في هذا الزمان فكثير .

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل فإذا احتاج إليها الضعيف الإيمان أو المحتاج أتمها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنياً عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته ؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة ؛ بخلاف من يجري على يديه الخوارق لهدى الخلق ولحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة .

وهذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال « عبد الله بن صياد » الذي ظهر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال ، وتوقف النبي صلى الله عليه وسلم في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال ؛ لكنه كان من جنس الكهان قال له النبي صلى الله عليه وسلم قد خبأت لك خبأ قال : الدخ الدخ . وقد كان خبأ له سورة الدخان فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « اخسأ فلن تعدو قدرك » يعني إنما أنت من إخوان الكهان ؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع ، وكانوا يخطون الصدق بالكذب ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الملائكة تنزل في العنان وهو السحاب فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم »

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله عنها قال :
« بينما النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم
فاستنار فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما كنتم تقولون لمثل هذا في
الجاهلية إذا رأيتموه ؟ قالوا كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم ، قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ؛
ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح
أهل السماء الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسيح أهل
هذه السماء ، ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا ؟
فيخبرونهم ، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل
السماء الدنيا ، وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم
فاجاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون » .

وفي رواية قال معمر قلت للزهري : أكان يرمى بها في الجاهلية
قال نعم ولكنها غلظت حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم .

و « الأسود العنسي » الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين
من يخبره ببعض الأمور المغيبة ، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من
الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه : حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين
لها كفره فقتلوه .

وكذلك « مسيلة الكذاب » كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور ، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل « الحارث الدمشقي » الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين يخرجون رجله من القيد ، وتمنع السلاح أن ينفذ فيه ، وتسبح الرخامة إذا مسحها بيده ، وكان يرى الناس رجالاً وركباناً على خيل في الهواء ويقول : هي الملائكة ، وإنما كانوا جنّاً ، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه ، فقال له عبد الملك : إنك لم تسم الله فسمى الله فطعنه فقتله .

وهكذا أهل « الأحوال الشيطانية » تتصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه ، فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم « ما فعل أسيرك البارحة » فيقول زعم أنه لا يعود ، فيقول « كذبك وإنه سيعود » فلما كان في المرة الثالثة . قال : دعني حتى أعلمك ما ينفعك : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) إلى آخرها ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال « صدقك

وهو كذوب » وأخبره أنه شيطان .

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها
مثل من يدخل النار بحال شيطاني أو يحضر سماع المكاء والتصدية
فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاماً لا يعلم وربما لا يفقه ،
وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه ، وربما تكلم بالسنة مختلفة
كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، والإنسان الذي حصل له الحال
لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخطه الشيطان من المس ،
ولبسه ، وتكلم على لسانه ، فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال ، ولهذا
قد يضرب المصروع ، وذلك الضرب لا يؤثر في الإنسي ويخبر إذا أفاق
أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجنى الذي لبسه .

ومن هؤلاء من يأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير
ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع ، ومنهم من يطير بهم الجنى إلى مكة
أو بيت المقدس أو غيرها ومنهم من يحمله عشية عرفة ثم يعيده من
ليلته فلا يحج حجاً شريعياً ؛ بل يذهب بثيابه ، ولا يحرم إذا حاذى
الميقات ، ولا يلبي ، ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت ؛ ولا يسعى
بين الصفا والمروة ، ولا يرمي الجمار ، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع
من ليلته ، وهذا ليس بحج ، [ولهذا رأى بعض هؤلاء الملائكة تكتب
الحجاج] فقال ألا تكتبوني ؟ فقالوا لست من الحجاج . يعني حجاً شريعياً .

وبين كرامات الأولياء وما يشبهها من الأحوال الشيطانية
فروق متعددة .

منها أن « كرامات الأولياء » سبها الإيمان والتقوى ، و « الأحوال
الشيطانية » سبها ما نهى الله عنه ورسوله . وقد قال تعالى : (قُلْ إِنَّمَا
حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ
سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ)

فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرّمها الله تعالى
ورسوله فلا تكون سبباً لكرامة الله تعالى بالكرامات عليها ، فإذا كانت
لا تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ، بل تحصل بما يحبه الشيطان
وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالخلوقات ، أو كانت مما يستعان بها
على ظلم الخلق وفعل الفواحش ، فهي من الأحوال الشيطانية لا من
الكرامات الرحمانية .

ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصديّة ينزل عليه
شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حصل رجل
من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد .

ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء كان ذلك
الحي مسلماً أو نصرانياً أو مشركاً فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث

به ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله ، كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين .

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له : أنا الحضر ، وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب ، يموت لهم الميت فيأتي الشيطان بعد موته على صورته ، وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ، ويقضي الديون ، ويرد الودائع ، ويفعل أشياء تتعلق بالميت ، ويدخل على زوجته ويذهب ، وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما تصنع كفار الهند فيظنون أنه عاش بعد موته .

ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال : إذا أنا مت فلا تدع أحداً يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي فلما مات رأى خادمه شخصاً في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه فلما قضى ذلك الداخل غسله — أي غسل الميت — غاب وكان ذلك شيطانا ، وكان قد أضل الميت ، وقال : إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك ، فلما مات جاء أيضاً في صورته لينقوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك .

ومهم من يرى عرشاً في الهواء وفوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ويقول أنا ربك ، فإن كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول . ومهم من يرى أشخاصاً في اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين ، وقد جرى هذا لغير واحد ومهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر : إما الصديق رضى الله عنه أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقية أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره مخلوق أو مقصر وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصروه وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات والجن الذين يقتنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم ، والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ ، فإن كان الإنسي كافراً أو فاسقاً أو جاهلاً دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال ، وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر ، مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم ، ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية الكرسي أو غيرهن ويكتبهن بنجاسة فيغورون له الماء ، وينقلونه بسبب ما يرضيهم به من الكفر . وقد يأتونه بما يهواه من امرأة أو صبي إما في الهواء وإما مدفوعاً ملجأً إليه .

إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها ، والإيمان بها إيمان

بالجيت والطاغوت . واجبت السحر ، والطاغوت الشياطين والأصنام ،
وإن كان الرجل مطيعاً لله ورسوله باطناً وظاهراً لم يمكنهم الدخول
معه في ذلك أو مسالته .

ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت
الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية ، وكان أهل الشرك
والبدع يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو
يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية ، فإنه
ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله
اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال :
« إن من أمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر ، ولو كنت
متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم
 خليل الله . لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر ،
إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور
مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » .

وفي الصحيحين عنه أنه ذكر له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة ،
وذكروا من حسناتها وتساوير فيها فقال « إن أولئك إذا مات فيهم

الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيها تلك التصاوير
أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة .

وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه صلى الله عليه وسلم قال « إن
من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين اتخذوا
القبور مساجد » .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تجلسوا على
القبور ولا تصلوا إليها » وفي الموطأ عنه أنه قال « اللهم لا تجعل
قبري وثناً يعبد . اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور
أنبيائهم مساجد » .

وفي السنن عنه أنه قال « لا تتخذوا قبوري عيداً وصلوا علي حينما
كنتم فإن صلاتكم تبلغني » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما من رجل بسلم علي إلا رد الله
علي روحي حتى أرد عليه السلام » وقال صلى الله عليه وسلم : « إن
الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام » وقال صلى الله عليه
وسلم : « أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة : فإن صلاتكم
معروضة علي . قالوا : يا رسول الله ! كيف تعرض صلاتنا عليك وقد

أرمت — أي بليت ؟ — فقال إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء .

وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام : (وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) قال ابن عباس وغيره من السلف : هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم فعبدهم . فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان . فهي النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ ، والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب ، فتكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين ، فسد هذا الباب .

والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته ، فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها — كما يفعل أهل دعوة الكواكب — فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانية الكواكب ، وهو شيطان ، والشيطان وإن أعان الإنسان على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه ، وعاقبة من أطاعه إلى شر إلا أن يتوب الله عليه ، وكذلك عباد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين ،

وكذلك من استغاث بميت أو غائب ، وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد ، ويروون حديثاً هو كذب باتفاق أهل المعرفة وهو : « إذا أعتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور » وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك .

ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين : مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد ، أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه . يفعل الشيطان هذا ليضلهم ، وإذ قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا ، فإن التوحيد يطرد الشيطان ؛ ولهذا حمل بعضهم في الهواء فقال : لا إله إلا الله فسقط ، ومثل أن يرى أحدم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وهو شيطان .

وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع .

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم بشرعها الله ولا رسوله صارت الشياطين كثيراً ما تأوي إلى المغارات والجبال : مثل مغارة الدم التي بجبل قاسيون ، وجبل لبنان الذي بساحل الشام ، وجبل الفتح بأسوان بمصر ، وجبال بالروم وخراسان وجبال الجزيرة ،

وغير ذلك، وجبل اللكام ، وجبل الأحيش ، وجبل سولان قرب أردبيل ، وجبل شهنك عند تبريز وجبل ماشكو عند أقشوان، وجبل نهاوند ، وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالاً من الصالحين من الإنس ويسمونهم رجال الغيب ، وإنما هناك رجال من الجن ، فالجن رجال كما أن الإنس رجال ، قال تعالى : (وَأَنَّكَ كَانَتْ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) .

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شراني جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لا يعرفه أنه إنسي وإنما هو جنى ، ويقال بكل جبل من هذه الجبال الأربعون الأبدال ، وهؤلاء الذين يظن أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال ، كما يعرف ذلك بطرق متعددة .

وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك فإننا قد رأينا وسمعنا من ذلك ما يطول وصفه في هذا المختصر الذي كتب لمن سأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك .

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام :

« قسم » يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء ، وربما صدق به

محملاً وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء .

ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان ولياً لله وكلا الأمرين خطأ ، ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله . وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة ، والصواب القول الثالث وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل كما قال الله تعالى : (يَتَّيِبُهُمُ اللَّهُ لِيُخْرِجَهُمْ مِنَ الْظُلُمِ إِلَى النُّورِ وَأُولَئِكَ يَرْجِعُهُمُ اللَّهُ فِي الْغَلَمِ)

وهؤلاء العباد والزهاد الذين

ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة تقترب بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله ؛ لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضها بعضاً ، وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم ، ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلاً أو عمداً ، ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من أولياء الشياطين . قال الله تعالى (هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ * نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) والافاك

الكذاب . والأثيم الفاجر .

ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي ، وهو سماع المشركين ، قال الله تعالى : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً

وَتَصَدِيقَهُ) قال ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم وغيرهما من السلف ، «التصدية» التصديق باليد ، و «المكاء» مثل الصغير ، فكان المشركون يتخذون هذا عبادة ، وأما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله به من الصلاة والقراءة والذكر ونحو ذلك ، والاجتماعات الشرعية ، ولم يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف ، ولا تواجد ولا سقطت بردته ؛ بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه .

وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ ، والباقيون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري : ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له : «مرت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك فقال : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً» أي لحسنته لك تحسینا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال صلى الله عليه وسلم : « لله أشهد أذنأ أي استماعاً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » : وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ علي القرآن فقال اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ فقال : إني أحب أن أسمع من غيري فقرأت عليه سورة النساء ، حتى انتهيت إلى

هذه الآية (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا)
قال : حسبك ، فإذا عينا تذرفان من البكاء .

ومثل هذا السماع هو سماع النيين وأتباعهم ، كما ذكره الله في
القرآن فقال : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمَنِ
خَرُّوْا سُجَّدًا بُكِيًا) وقال في أهل المعرفة :

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل لهم
من زيادة الإيمان واقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ
أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ غُرْمَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ
جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) وقال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ
* الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ
دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

وأما السماع المحدث ، سماع الكف والدف والقصب فلم تكن
الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون
هذا طريقاً إلى الله تبارك وتعالى ، ولا يعدونه من القرب والطاعات ،

بل يعدونه من البدع المذمومة ، حتى قال الشافعي : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير يصدون به الناس عن القرآن وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك ، ويعلمون أن للشيطان فيه نصيباً وافراً ، ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم .

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر وهو بمنزلة الخمر ، يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر ؛ ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين ، وتكلمت على ألسنة بعضهم ، وحملت بعضهم في الهواء ، وقد تحصل عداوة بينهم ، كما تحصل بين شراب الخمر فتكون شياطين أحدم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه ، ويظن الجاهل أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هذا مبعث لصاحبه عن الله وهو من أحوال الشياطين ؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله ، فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أوليائه ؟! وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة ، فلم يكرم الله عبداً بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ، ويزيده مما يقربه إليه ، ويرفع به درجته .

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات ، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات ، ومنها ما هو

من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان
والمال والغنى .

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور إن استعان به على ما
يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله ،
ازداد بذلك رفعة وقرباً إلى الله ورسوله ، وعلت درجته وإن استعان
به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش ، استحق
بذلك النجم والعقاب ، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية
وإلا كان كأمثاله من المذنبين ؛ ولهذا كثيراً ما يعاقب أصحاب الخوارق
تارة بسلبها ، كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه . وتارة
بسلب التطوعات ، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة ، وتارة ينزل
إلى درجة الفساق ، وتارة يرتد عن الإسلام . وهذا يكون فيمن له
خوارق شيطانية ؛ فإن كثيراً من هؤلاء يرتد عن الإسلام ، وكثير منهم
لا يعرف أن هذه شيطانية بل يظنها من كرامات أولياء الله ، ويظن
من يظن منهم أن الله عز وجل إذا أعطى عبداً خرق عادة لم يحاسبه
على ذلك ، كمن يظن أن الله [إذا] أعطى عبداً ملكاً ومالاً وتصرفاً لم
يحاسبه عليه ، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأموراً
بها ولا منهيّاً عنها ، فهذا يكون من عموم الأولياء ، وهم الأبرار
المقتصدون ، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء ، كما أن العبد

الرسول أعلى من النبي الملك .

ولما كانت الخوارق كثيراً ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى ، كما يتوب من الذنوب : كالزنا والسرقة ، وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها ، وكلهم بأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يتبجح بها : مع ظنهم أنها كرامات ، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها ، فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع ، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها ، وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول : هنيئاً لك يا ولي الله ، فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك ، وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول : خذني حتى يأكلني الفقراء ، ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الانس ويخاطبه بذلك ، ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس ، وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار ، أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه ، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله .

وأعرف من يخاطبه مخاطب ويقول له أنا من أمر الله ، ويعده بأنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر له الخوارق ،

مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء ؛ فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً أو شمالاً ذهب حيث أراد ، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر ، وتحمله إلى مكة وتأتى به ، وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك ، فيقول في نفسه : كيف تصوروا بصورة المردان ؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحي ويقول له علامة إنك أنت المهدي إنك تنبت في جسدك شامة فتنتب ويراهها وغير ذلك ، وكله من مكر الشيطان .

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لا حتاج إلى مجلد كبير ، وقد قال تعالى : (فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ

* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَّرْ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَنَنِ) قال

الله تبارك وتعالى : (كلا) ، ولفظ (كلا) فيها زجر وتنبيه : زجر عن مثل هذا القول ، وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده ، وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرماً له بها ، ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهيناً له بذلك ؛ بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء ، فقد يعطى النعم الدنيوية لمن لا يحبه . ولا هو كريم عنده ليستدرجه بذلك . وقد يحمي منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه .

وأيضاً «كرامات الأولياء» لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله ، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء ، وإنما تحصل عند الشرك : مثل دعاء الميت والغائب ، أو بالفسق والعصيان وأكل المحرمات : كالحيات والزناوير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ، ومثل الغناء والرقص : لاسبابها مع النسوة الأجانب والمردان ، وحالة خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلاً طويلاً . فإذا جاءت الصلاة صلى قاعداً أو ينقر الصلاة نقر الديك ، وهو يبغيض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ، ويجب سماع المكاء والتصدية ويجد عنده مواجيد . فهذه أحوال شيطانية : وهو ممن يتناوله قوله تعالى : (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) .

فالقرآن هو ذكر الرحمن ، قال الله تعالى : (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)
يعنى تركت العمل بها ، قال ابن عباس رضي الله عنها :
تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة : ثم قرأ هذه الآية .

فصل

ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى جميع الإنس والجن ، فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه ، فعليه أن يصدقه فيما أخبر ، وبطبعه فيما أمر ، ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به فهو كافر ، سواء كان إنسياً أو جنياً .

ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين وقد استمعت الجن القرآن وولوا إلى قومهم منذرين لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه يبطن نخلة لما رجع من الطائف ، وأخبره الله بذلك في القرآن بقوله

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ * قَالُوا يَنْقُومُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَقُومُنَا آجِبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِكُمْ مِّنْ عَذَابِ آلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءٌ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (.

وأنزل الله تعالى بعد ذلك (قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَنَّ لَنْ نقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)
أي السففيه منا في أظهر قولي العلماء .

وقال غير واحد من السلف : كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغياناً وكفراً كما قال تعالى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا)

وكانت الشياطين ترمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن ؛ لكن كانوا أحياناً يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم ملئت السماء حرساً شديداً وشهباً ، وصارت الشهب مرصدة لهم قبل أن يسمعوا ، كما قالوا : (وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِذِّرْهُمْ شُهَابًا رَصَدًا)

وقال تعالى في الآية الاخرى : (وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَرُوْثُونَ) ، قالوا : (وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرَأُ رِيدَ يَمَنٍ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مَتَّالِصُونَ وَمَتَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا) أي على مذاهب شتى ، كما قال العلماء

منهم المسلم والمشرک والنصراني والسني والبدعي (وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا) أخبروا أنهم لا يعجزونه : لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه (وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ)

أي الظالمون ، يقال أقسط إذا عدل ، وقسط إذا جار وظلم (فَمَن أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَالْوَاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَّاءً عَذَقًا * لِنَفْنِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا * وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا * قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَن يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَن أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا) أي ملجأ ومعاذا

(إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَةً وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا * حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْأَلُونَ مَن أضعف ناصراً وأقلَّ عدداً) .

ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وهم جن نصيبين ، كما ثبت ذلك في الصحيح من حديث ابن مسعود ، وروى أنه قرأ عليهم سورة الرحمن ، وكان إذا قال : (فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ) قالوا : ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

ولما اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم سألوه الزاد لهم ولدوا بهم فقال : « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونهُ أوفر ما يكون لحمًا ، وكل بعرة علفا لدوابكم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد لإخوانكم من الجن » وهذا النهي ثابت عنه من وجوه متعددة ، وبذلك احتج العلماء على النهي عن الاستنجاء بذلك ، وقالوا فإذا منع من الاستنجاء بما للجن ولدوا بهم فما أعد للإنس ولدوا بهم من الطعام والعلف أولى وأحرى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الإنس والجن ، وهذا أعظم قدراً عند الله تعالى من كون الجن سخروا لسليمان عليه السلام ؛ فإنهم سخروا له يتصرف فيهم بحكم الملك ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم يأمرهم بما أمر الله به ورسوله ، لأنه عبد الله ورسوله ، ومنزلة العبد الرسول فوق منزلة النبي الملك .

وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع ، وأما مؤمنوم فمجهور

العلماء على أنهم يدخلون الجنة ، وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس ولم يبعث من الجن رسول . لكن منهم النذر ، وهذه المسائل لبسطها موضع آخر .

والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ، ويأمر الإنس بذلك ، فهذا من أفضل أولياء الله تعالى ، وهو في ذلك من خلفاء الرسول ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له ، وهذا كأن يأمر بما يجب عليهم وبيناهم عما حرم عليهم ويستعملهم في مباحات له ، فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك ، وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى فغايته أن يكون في عموم أولياء الله مثل النبي الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه

وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم ، وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة ، فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ، ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر ، وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص : إما فاسق وإما مذنّب غير فاسق ، وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات : مثل أن يستعين بهم على الحج ، أو أن يطيروا به عند السماع البدعي ، أو أن يحملوه إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ، ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به .

وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن ، بل قد سمع أن أولياء الله لهم كرامات وخوارق للعادات ، وليس عنده من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية ، وبين التليسات الشيطانية فيمكرون به بحسب اعتقاده ، فإن كان مشركاً يعبد الكواكب والأوثان أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة ، ويكون قصده الاستشفاع والتوسل بمن صور ذلك الصم على صورته من ملك أو نبي أو شيخ صالح ، فيظن أنه صالح ، وتكون عبادته في الحقيقة للشيطان ، قال الله تعالى :

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِمَّنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ) .

ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها فيقارنها الشيطان عند سجودهم ليكون سجودهم له ؛ ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون . فإن كان نصرانياً واستغاث بجرجس أو غيره جاء الشيطان في صورة جرجس أو من يستغيث به ، وإن كان منتسباً إلى الإسلام واستغاث بشيخ يحسن الظن به من شيوخ المسلمين جاء في صورة ذلك الشيخ ، وإن كان من مشركي الهند جاء في صورة من يعظمه ذلك المشرك .

ثم إن الشيخ المستغاث به إن كان ممن له خبرة بالشريعة لم يعرفه الشيطان أنه تمثل لأصحابه المستغيثين به ، وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له بأقوالهم نقل أقوالهم له فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم ، وإنما هو بتوسط الشيطان .

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان قد جرى لهم مثل هذا بصورة مكاشفة ومخاطبة ، فقال : يروني الجن شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه الإخبار به ، قال : فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه فيوصلون جوابي إليه .

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الحوارق إذا كذب بها من لم يعرفها وقال إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة كما

يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارنج ، ودهن الضفادع ، وغير ذلك من الحيل الطبيعية فيعجب هؤلاء المشايخ ويقولون نحن والله لا نعرف شيئاً من هذه الحيل . فلما ذكر لهم الخير إنكم لصادقون في ذلك ، ولكن هذه الأحوال شيطانية أقرأوا بذلك وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق ، وتبين لهم من وجوه أنها من الشيطان ، ورأوا أنها من الشياطين لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع وعند المعاصي لله ، فلا تحصل عندما يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية ، فعلموا أنها حينئذ من مخارق الشيطان لأوليائه ؛ لا من كرامات الرحمن لأوليائه .

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله وسلم على محمد سيد رسله وأنبيائه وعلى آله وصحبه وأنصاره وأشياعه وخلفائه صلاة وسلاماً نستوجب بها شفاعته « آمين » .

وقال الشيخ الإمام العالم العلامة

العارف الرباني ، المقدوف في قلبه النور القرآني ، شيخ الإسلام
تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه وأرضاه (١) .

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا
ويرضاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا إله سواه ،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتبه وهداه ، صلى
الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات

وإن كان اسم « المعجزة » يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف
الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره - ويسمونها : الآيات -
لكن كثير من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما ، فيجعل « المعجزة »

(١) هذه « قاعدة في المعجزات والكرامات » .

للنبي ، و « الكرامة » للولي ، وجماعها الأمر الحارق للعادة .

فنقول : صفات الكمال ترجع إلى « ثلاثة » : العلم ، والقدرة ، والغنى . وإن شئت أن تقول : العلم ، والقدرة . والقدرة إما على الفعل وهو التأثير ، وإما على الترك وهو الغنى ، والأول أجود . وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده ؛ فإنه الذي أحاط بكل شيء علما ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين .

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) وكذلك قال

نوح عليه السلام . فهذا أول أولي العزم ، وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض ، وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم كلاهما يتبرأ من ذلك . وهذا لأنهم يطالبون الرسول صلى الله عليه وسلم نارة بعلم الغيب كقوله : (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

و (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي) وتأثره بالتأثير ، كقوله : (وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ

لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعَنْبٍ فَنُفِجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْتَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا) — إلى قوله — (قُلْ

سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) وتارة يعيرون عليه الحاجة البشرية ،
 كقوله : (وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ
 إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ ، نَذِيرًا * أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ
 مِنْهَا) .

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزان الله ، ولا هو
 ملك غني عن الأكل والمال ، إن هو إلا متبع لما أوحى إليه ، واتباع
 ما أوحى إليه هو الدين ، وهو طاعة الله ، وعبادته علما وعملا بالباطن
 والظاهر وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه
 ما علمه إياه ، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه ، ويستغني عما أغناه
 الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس .

فما كان من الخوارق من « باب العلم » فتارة بأن يسمع العبد ما لا
 يسمعه غيره . وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره بقطعة ومناما . وتارة بأن
 يعلم ما لا يعلم غيره وحياً وإلهاماً ، أو إنزال علم ضروري ، أو فراسة
 صادقة ، ويسمى كشفاً ومشاهدات ، ومكاشفات ومخاطبات : فالسماع
 مخاطبات ، والرؤية مشاهدات ، والعلم مكاشفة ، ويسمى ذلك كله
 « كشفاً » و « مكاشفة » أي كشف له عنه .

وما كان من « باب القدرة » فهو التأثير ، وقد يكون همة وصدقا ودعوة مجابة ، وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه بحال ، مثل هلاك عدوه بغير أثر منه ، كقوله « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وإني لأتأر لأوليائي كما يشأر الليث الحرب » . ومثل تذليل النفوس له ومحبتها إياه ونحو ذلك .

وكذلك ما كان من « باب العلم والكشف » . قد يكشف لغيره من حاله بعض أمور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في المبشرات : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له » وكما قال : النبي صلى الله عليه وسلم « أتم شهداء الله في الأرض » .

وكل واحد « من الكشف والتأثير » قد يكون قائماً به ، وقد لا يكون قائماً به ، بل يكشف الله حاله ويضع له من حيث لا يحتسب ، كما قال يوسف بن أسباط : « ما صدق الله عبد إلا صنع له » وقال : أحمد بن حنبل « لو وضع الصدق على جرح لبرأ » لكن من قام بغيره له من الكشف والتأثير فهو سببه أيضاً ، وإن كان خرق عادة في ذلك الغير ، فمعجزات الأنبياء وأعلامهم ودلائل نبوتهم تدخل في ذلك .

وقد جمع لنينا محمد صلى الله عليه وسلم جميع أنواع « المعجزات والحوارق » : أما العلم والأخبار الغيبية والسمع والرؤية فمثل إخبار نينا صلى الله عليه وسلم عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم ، وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم ، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم ، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء ، تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل المتواتر ، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم ، وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب وهو من حكمة إيقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه .

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من « باب العلم الحارق » وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلية مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم ، وقتال الترك ، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكور بعضها في « كتب دلائل النبوة » ، و « سيرة الرسول » و « فضائله » و « كتب التفسير » ، و « الحديث » و « المغازي » مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي وسيرة ابن إسحق ، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد ، والمدونة كصحیح البخاري ، وغير ذلك مما

هو مذكور أيضا في « كتب أهل الكلام والجدل » : كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللماوردي ، والرد على النصارى للقرطبي ، ومصنفات كثيرة جداً . وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين وهي في وقتنا هذا اثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى ، كالطوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وكتاب شعيا ، وحبقوق ، ودانيال ، وأرميا وكذلك إخبار غير الأنبياء من الأخبار والرهبان وكذلك إخبار الجن والهواتف المطلقة ، وإخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرها ، وكذلك المنامات وتعبيرها : كنعام كسرى وتعبير الموبدان ، وكذا إخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من أعلامهم .

وأما « القدرة والتأثير » فلما أن يكون في العالم العلوي أو مادونه وما دونه إما بسيط أو مركب ، والبسيط إما الجو وإما الأرض ؛ والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن . والحيوان إما ناطق وإما بهيم ؛ فالعلوي كانشقاق القمر ، ورد الشمس ليوشع بن نون ، وكذلك ردها لما فانت علياً الصلاة و النبي صلى الله عليه وسلم نائم في حجره — إن صح الحديث — فمن الناس من صححه كالطحاوي والقاضي عياض . ومنهم من جعله موقوفاً كأي الفرج بن الجوزي وهذا أصح . وكذلك معراجه إلى السماوات .

وأما « الجؤ » فاستسقاءؤه ، واستصحائه غير مرة : كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرها وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى .

وأما « الأرض والماء » فكاهتزاز الجبل تحته وتكثير الماء في عين تبوك وعين الحديبية ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة ومزادة المرأة .

وأما « المركبات » فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر وحديث أبي طلحة ، وفي أسفاره ، وجراب أبي هريرة ، ونخل جابر بن عبد الله ، وحديث جابر وابن الزبير في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه ، وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة .

وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل .

وكذلك من باب « القدرة » عصا موسى صلى الله عليه وسلم وفتق البحر والقمل والضفادع والدم ، وناقاة صالح ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى ، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون

وما يدخرون في بيوتهم .

وفي الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها ،
وإنما الغرض التمثيل بها .

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من « باب الكشف والعلم » فمثل
قول عمر في قصة سارية ، وإخبار أبي بكر بأن بيطن زوجته أنثى ،
وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً ، وقصة صاحب موسى
في علمه بحال الغلام .

و « القدرة » مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب ، وقصة أهل
الكهف ، وقصة مريم ، وقصة خالد بن الوليد ، وسفينة مولى رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأبي مسلم الخولاني ، وأشياء يطول شرحها
فإن تعداد هذا مثل المطر . وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه
أكثر الناس . وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره
وإهلاكه لمن يشتمه .

فصل

الخارق كشفاً كان أو تأثيراً إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب وإما مستحب ، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً ، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض ، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلك منها : بلعام بن باعوراء ؛ لكن قد يكون صاحبها معذوراً لاجتهاد أو تقليد أو نقص عقل أو علم أو غلبة حال أو عجز أو ضرورة . فيكون من جنس برح العابد .

و « النبي » قد يعود إلى سبب الخارق وقد يعود إلى مقصوده فالأول مثل أن يدعو الله دعاء منهيّاً عنه اعتداء عليه . وقد قال تعالى : (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفاً أو تأثيراً . والثاني أن يدعو على غيره بما لا يستحقه أو يدعو للظالم بالإعانة ، ويعينه بهمته : كحفراء العدو وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال ؛ فإن كان صاحبه من عقلاء المجانين والمغلوبين غلبة

بحيث يعذرون والناقصين نقصاً لا يلامون عليه كانوا برحمة . وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه ، وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامة ، فإن من أتى بخارق على وجه منهي عنه أو لمقصود منهي عنه فلما أن يكون معذوراً معفواً عنه كبرح ، أو يكون متعمداً للكذب كبلعام .

فتلخص أن الخارق « ثلاثة أقسام » : محمود في الدين ، ومذموم في الدين ، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين ؛ فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة ، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها كاللعب والعبث .

قال أبو علي الجوزجاني : كن طالباً للاستقامة لا طالباً للكرامة . فإن نفسك منجبة على طلب الكرامة ، وربك يطلب منك الاستقامة . قال الشيخ السهروردي في عوارفه : وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب ، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب . وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات فأبدأ نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك ، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك . ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه في صحة عمله حيث لم يكشف بشيء من ذلك ، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله

يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا ، والحكمة فيه أن
يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفننا ، فيقوى عزمه
على هذا الزهد في الدنيا ، والخروج من دواعي الهوى ، وقد يكون
بعض عباده يكشف بصدق اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجاب ، ومن
كوشف بصدق اليقين أغني بذلك عن رؤية خرق العادات ؛ لأن المراد
منها كان حصول اليقين ، وقد حصل اليقين فلو كوشف هذا المرزوق
صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً . فلا تقتضي الحكمة كشف
القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به ، وتقتضي الحكمة
كشف ذلك الآخر لموضع حاجته ، وكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً
وأهلية من الأول . فسيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، فهي كل
الكرامة . ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع
فما يبالي ولا ينقص بذلك . وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة .

فتعلم هذا ؛ لأنه أصل كبير للطالين ، والعلماء الزاهدين ، ومشايخ
الصوفية .

فصل

كلمات الله تعالى « نوعان » : كلمات كونية ، وكلمات دينية . فكلماته الكونية هي : التي استعاذ بها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر » وقال سبحانه : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) وقال تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) والكون كله داخل تحت هذه الكلمات وسائر الحوارق الكشفية التأثيرية .

و« النوع الثاني » الكلمات الدينية وهي : القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله وهي : أمره ونهيه وخبره ، وحظ العبد منها العلم بها والعمل والأمر بما أمر الله به ، كما أن حظ العبد عموماً وخصوصاً من الأول العلم بالكونيات ، والتأثير فيها . أي بموجبها .

فالأولى قدرية كونية والثانية شرعية دينية ، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية ، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية ، وقدرة الأولى التأثير في الكونيات ، وقدرة الثانية التأثير في الشرعيات ، وكما

أن الأولى تنقسم إلى تأثير في نفسه ، كمشيه على الماء وطيرانه في الهواء وجلسه على النار ، وإلى تأثير في غيره بإسقام وإصحاح ، وإهلاك وإغناء وإفقار فكذلك الثانية تنقسم إلى تأثير في نفسه بطاعته لله ورسوله ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنياً ، وظاهراً ، وإلى تأثير في غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله ؛ فيطاع في ذلك طاعة شرعية ؛ بحيث تقبل النفوس ما يأمرها به من طاعة الله ورسوله في الكلمات الدينيات . كما قبلت من الأول ما أراد تكوينه فيها بالكلمات الكونيات .

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا تضر المسلم في دينه ، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات ، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله ؛ بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمر إيجاب ولا استحباب ، وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان ناقصاً مذموماً إما أن يجعله مستحقاً للعقاب ، وإما أن يجعله محروماً من الثواب ، وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وصلاته وثوابه ، وأما العلم بالكون والتأثير فيه فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلاً في الدين ، بل قد يجب عليه شكره ، وقد يناله به إثم .

إذا عرف هذا فالأقسام ثلاثة : إما أن يتعلق بالعلم والقدرة [أو] بالدين

فقط ، أو بالكون فقط .

(فالأول) كما قال لنبه صلى الله عليه وسلم : (وَقَدْ رَبِّ أَدَخِلْنِي

مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا)

فإن السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله ، وهو كلماته الدينية ، والقدرية والكونية عند الله بكلماته الكونيات ، ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين ، فإنها حجة على النبوة من الله وهي قدرية . وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه هو شرع الله وكلماته الدينية ، وهو حجة محمد صلى الله عليه وسلم على نبوته ، ومحيطه من الحوارق للعادات ، فهو الدعوة وهو الحجة والمعجزة .

(وأما القسم الثاني) فمثل من يعلم بما جاء به الرسول خبراً

وأمرأً ويعمل به ويأمر به الناس ، ويعلم بوقت نزول المطر وتغير السعر ، وشفاء المريض ، وقدم الغائب ، ولقاء العدو ، وله تأثير إما في الأناسي ، وإما في غيرهم بإصحاح وإسقام وإهلاك ، أو ولادة أو ولاية أو عزل . وجماع التأثير إما جلب منفعة كالمال والرياسة ؛ وإما دفع مضرة كالعدو والمرض ، أولاً واحد منها مثل ركوب أسد بلا فائدة ؛ أو إطفاء نار ونحو ذلك .

(وأما الثالث) فمن يجتمع له الأمران ؛ بأن يؤتى من الكشف

والتأثير الكوني ما يؤيد به الكشف والتأثير الشرعي . وهو علم الدين والعمل به ، والأمر به ، ويؤتى من علم الدين والعمل به ، ما يستعمل به الكشف والتأثير الكوني ؛ بحيث تقع الحوارق الكونية تابعة للأوامر الدينية ، أو أن تخرق له العادة في الأمور الدينية ؛ بحيث ينال من العلوم الدينية ، ومن العمل بها ، ومن الأمر بها ، ومن طاعة الخلق فيها ، ما لم ينله غيره في مطرد العادة ، فهذه أعظم الكرامات والمعجزات وهو حال نبينا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأبي بكر الصديق وعمر وكل المسلمين .

فهذا القسم الثالث هو مقتضى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) إذ الأول هو العبادة ، والثاني هو الاستعانة ، وهو حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم والخواص من أمته المتمسكين بشرعته ومنهاجه باطنياً وظاهراً ، فإن كراماتهم كمعجزاته لم يخرجها إلا لحجة أو حاجة ، فالحجة ليظهر بها دين الله ليؤمن الكافر ويخلص المنافق ويزداد الذين آمنوا إيماناً ، فكانت فائدتها اتباع دين الله علماً وعملاً ، كالمقصود بالجهاد . والحاجة كجلب منفعة يحتاجون إليها كالطعام والشراب وقت الحاجة إليه ، أو دفع مضرة عنهم ككسر العدو بالخصى الذي رماهم به ف قيل له : (وَمَا مِثَّتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) . وكل من هذين يعود إلى منفعة الدين كالأكل والشرب وقتال العدو والصدقة على

المسلمين ؛ فإن هذا من جملة الدين والأعمال الصالحة .

وأما « القسم الأول » وهو المتعلق بالدين فقط فيكون منه ما لا يحتاج إلى الثاني ولا له فيه منفعة ، كحال كثير من الصحابة ، والتابعين وصاحبي المسلمين ، وعلمائهم وعبادهم ، مع أنه لا بد أن يكون لهم حاجة أو انتفاع بشيء من الخوارق ، وقد يكون منهم من لا يستعمل أسباب الكونيات ولا عمل بها ، فانتفاء الحارق الكوني في حقه إما لانتفاء سببه وإما لانتفاء فائدته ، وانتفاؤه لانتفاء فائدته لا يكون نقصاً ، وأما انتفاؤه لانتفاء سببه فقد يكون نقصاً وقد لا يكون نقصاً ، فإن كان لإخلاله بفعل واجب وترك محرم كان عدم الحارق نقصاً وهو سبب الضرر ، وإن كان لإخلاله بالمستحبات فهو نقص عن رتبة المقربين السابقين وليس هو نقصاً عن رتبة أصحاب اليمين المقتصدين ، وإن لم يكن كذلك بل لعدم اشتغاله بسبب بالكونيات التي لا يكون عدمها ناقصاً لثواب لم يكن ذلك نقصاً ، مثل من يمرض ولده ويذهب ماله فلا يدعو ليعافى أو يجيء ماله ، أو يظلمه ظالم فلا يتوجه عليه لينتصر عليه .

وأما « القسم الثاني » وهو صاحب الكشف والتأثير الكوني فقد تقدم أنه تارة يكون زيادة في دينه ، وتارة يكون نقصاً ، وتارة لاله ولا عليه وهذا غالب حال أهل الاستعانة ، كما أن الأول غالب حال أهل العبادة ،

وهذا الثانى بمنزلة الملك والسلطان الذى قد يكون صاحبه خليفة نبياً ، فيكون خير أهل الأرض ، وقد يكون ظالماً من شر الناس ، وقد يكون ملكاً عادلاً فيكون من أوساط الناس ؛ فإن العلم بالكونيات والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب كالعلم بأحوالها والتأثير فيها بالملك وأسبابه ، فسلطان الحال والقلب كسلطان الملك واليد ، إلا أن أسباب هذا باطنة روحانية ، وأسباب هذا ظاهرة جسمانية . وبهذا تبين لك أن القسم الأول إذا صح فهو أفضل من هذا القسم ، وخير عند الله وعند رسوله وعباده الصالحين المؤمنين العقلاء .

وذلك من وجوه :

(أحدها) أن علم الدين طلباً وخبراً لا ينال إلا من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة ، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس ، فلا ينال علمه إلا هم وأتباعهم ، ولا يعلمه إلا هم وأتباعهم .

(الثانى) أن الدين لا يعمل به إلا المؤمنون الصالحون الذين هم أهل الجنة وأجواب الله ، وصفوته وأجباؤه وأوليائه ، ولا يأمر به إلا هم .

وأما « التأثير الكونى » فقد يقع من كافر ومنافق وفاجر ،
تأثيره فى نفسه وفى غيره كالأحوال الفاسدة والعين والسحر ، وكالملوك
والجبابرة المسلطين والسلاطين الجبابرة ، وما كان من العلم مختصاً بالصالحين
أفضل مما يشترك فيه المصلحون والمفسدون .

(الثالث) أن العلم بالدين والعمل به ينفع صاحبه فى الآخرة ولا
يضره . وأما الكشف والتأثير فقد لا ينفع فى الآخرة بل قد يضره
كما قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّا كَانُوا
يَعْلَمُونَ) .

(الرابع) أن الكشف والتأثير إما أن يكون فيه فائدة أو
لا يكون ، فإن لم يكن فيه فائدة ؛ كالاطلاع على سيئات العباد
وركوب السباع لغير حاجة ، والاجتماع بالجن لغير فائدة ، والمشي على
الماء مع إمكان العبور على الجسر ؛ فهذا لا منفعة فيه لا فى الدنيا ولا
فى الآخرة ، وهو بمنزلة العبث واللعب وإنما يستعظم هذا من لم ينله .
وهو تحت القدرة والسلطان فى الكون ، مثل من يستعظم الملك أو
طاعة الملوك لشخص وقيام الحالة عند الناس بلا فائدة ، فهو يستعظمه
من جهة سببه لا من جهة منفعته كالمال والرياسة ، ودفع مضرة العدو
والمرض ؛ فهذه المنفعة تنال غالباً بغير الخوارق أكثر مما تنال بالخوارق ،
ولا يحصل بالخوارق منها إلا القليل ، ولا تدوم إلا بأسباب أخرى .

وأما الآخر أيضاً فلا يحصل بالحوارق إلا مع الدين . والدين وحده موجب للآخرة بلا خارق ، بل الحوارق الدينية الكونية أبلغ من تحصيل الآخرة كحال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكذلك المال والرياسة التي تحصل لأهل الدين بالحوارق إنما هو مع الدين . وإلا فالحوارق وحدها لا تؤثر في الدنيا إلا أثراً ضعيفاً .

فإن قيل : مجرد الحوارق إن لم تحصل بنفسها منفعة لافي الدين ولا في الدنيا فهي علامة طاعة النفوس له ، فهو موجب الرياسة والسلطان ، ثم يتوسط ذلك فتجتلب المنافع الدينية والدنيوية ، وتدفع المضار الدينية والدنيوية .

قلت : نحن لم نتكلم إلا في منفعة الدين أو الخارق في نفسه من غير فعل الناس . وأما إن تكلمنا فيما يحصل بسببها من فعل الناس فنقول أولاً : الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس وحصول الرياسة من الخارق المجرد كما هو الواقع ، فإنه لانسبة لطاعة من أطيع لدينه إلى طاعة من أطيع لتأثيره ، إذ طاعة الأول أعم وأكثر ، والمطيع بها خيار بني آدم عقلاً ودينياً ، وأما الثانية فلا تدوم ولا تكثر ولا يدخل فيها إلاجهاال الناس ، كأصحاب مسيلة الكذاب وطليحة الأسدي ونحوهم وأهل البوادي والجبال ونحوهم ممن لا عقل له ولا دين .

ثم نقول ثانياً: لو كان الحارق يناله من الرياسة والمال أكثر من صاحب الدين لكان غايته أن يكون ملكاً من الملوك ، بل ملكه إن لم يقرنه بالدين فهو كفرعون ومقدمي الإسماعيلية ونحوم ، وقد قدمنا أن رياسة الدنيا التي ينالها الملوك بسياستهم وشجاعتهم وإعطائهم أعظم من الرياسة بالحارق المجرد ، فإن هذه أكثر ما يكون مدة قريبة .

(الخامس) أن الدين ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير .

وأما الكشف أو التأثير فإن لم يقترن به الدين وإلا هلك صاحبه في الدنيا والآخرة ، أما في الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات وترك المحرمات ، وأما في الدنيا فإن الحوارق هي من الأمور الخطرة التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات في القلب والجسم والأهل والمال ، فإنه إن سلك طريق الجوع والرياضة المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه ، وربما زال عقله ومرض جسمه وذهب دينه ، وإن سلك طريق الوله والاختلاط بترك الشهوات ليتصل بالأرواح الجنية وتغيب النفوس عن أجسامها ، — كما يفعله مولهو الأحمدية — فقد أزال عقله وأذهب ماله ومعيشتة ، وأشقى نفسه شقاء لا مزيد عليه ، وعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة لما تركه من الواجبات وما فعله من المحرمات ، وكذلك إن قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات من الأقسام والعزائم فقد عرض نفسه لعقوبتهم

ومحاربتهم ، بل لو لم يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله أو شفاء المريض أو دفع العدو من السلطان والمحاربين - فهذا القدر إذا فعله الإنسان مع الناس ولم يكن عمله ديناً يتقرب به إلى الله كان كأنه قهرمان للناس يحفظ أموالهم ، أو طبيب أو صيدلي يعالج أمراضهم ، أو أعوان سلطان يقاتلون عنه ، إذ عمله من جنس عمل أولئك سواء .

ومعلوم أن من سلك هذا المسلك على غير الوجه الديني فإنه يحابي بذلك أقواما ولا يعدل بينهم ، وربما أعان الظلمة بذلك كفعل بلعام وطوائف من هذه الأمة وغيرهم . وهذا يوجب له عداوة الناس التي هي من أكثر أسباب مضرة الدنيا ولا يجوز أن يحتمل المرء ذلك إلا إذا أمر الله به ورسوله ؛ لأن ما أمر الله به ورسوله وإن كان فيه مضرة فمنفعته غالبية على مضرته والعاقبة للتقوى .

(السادس) أن للدين علما وعملا إذا صح فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه . قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) وقال تعالى : (إِنْ تَنْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعْظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً * وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) وقال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يُخْزَوْنَ * الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ قوله تعالى : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ)
رواه الترمذي وحسنه من رواية أبي سعيد .

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم
« من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل
أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ،
فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده
التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى
يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ،
وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره
الموت وأكره مساءته ولا بدله منه » فهذا فيه محاربة الله لمن حارب
وليه ، وفيه أن محبوه به يعلم سمعاً وبصراً ، وبه يعمل بطشاً وسعياً ،
وفيه أنه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع ، وبصرف عنه ما يستعيز به
من المضار . وهذا باب واسع .

وأما الخوارق فقد تكون ، مع الدين ، وقد تكون مع عدمه أو فساد
أو نقصه .

(السابع) أن الدين هو إقامة حق العبودية وهو فعل ما عليك وما أمرت به ، وأما الخوارق فهي من حق الربوبية إذا لم يؤمر العبد بها ، وإن كانت بسعي من العبد فإن الله هو الذي يخلقها بما ينصبه من الأسباب ، والعبد ينبغي له أن يهتم بما عليه وما أمر به ، وأما اهتمامه بما يفعله الله إذا لم يؤمر بالاهتمام به فهو إما فضول فتكون لما فيها من المنافع كالمنافع السلطانية المالية التي يستعان بها على الدين ، كتكثير الطعام والشراب وطاعة الناس إذا رأوها . ولما فيها من دفع المضار عن الدين بمنزلة الجهاد الذي فيه دفع العدو وغلبته .

ثم هل الدين محتاج إليها في الأصل ، ولأن الإيمان بالنبوة لا يتم إلا بالخوارق أو ليس بمحتاج في الخاصة بل في حق العامة ؟ هذا تتكلم عليه .

وأنتفع الخوارق الديني وهو حال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال صلى الله عليه وسلم « ما من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » أخرجاه في الصحيحين . وكانت آيته هي دعوته وحجته بخلاف غيره من الأنبياء . ولهذا نجد كثيراً من المنحرفين منا إلى العيسوية يفرون من القرآن ، والقال إلى الحال ، كما أن المنحرفين منا إلى الموسوية يفرون من الإيمان والحال إلى

القال ، ونينا صلى الله عليه وسلم صاحب القال والقال ، وصاحب القرآن والإيمان .

ثم بعده الخارق المؤيد للدين المعين له ، لأن الخارق فى مرتبة (إياك نستعين) والدين فى مرتبة (إياك نعبد) . فأما الخارق الذى لم يعن الدين فلما متاع دنيا أو مبعد صاحبه عن الله تعالى .

فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين حادثة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين ، وكذلك المال النافع ، كما كان السلطان والمال بيد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنها ، فمن جعلها هي المقصودة وجعل الدين تابعا لها ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل فهو يشبه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تدين خوف العذاب أو رجاء الجنة فإن ذلك مأمور به وهو على سبيل نجاة وشريعة صحيحة .

والعجب أن كثيرا ممن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفا من النار أو طلبا للجنة يجعل همه بدنه أدنى خارق من خوارق الدنيا ، ولعله يجتهد اجتهدا عظيما فى مثله وهذا خطأ ؛ ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه وطمأنينته وإيقانه بصحة طريقه وسلوكه ، فهو يطلب الآية علامة وبرهانا على صحة دينه ، كما

تطلب الأمم من الأنبياء الآيات دلالة على صدقهم ، فهذا أعذر لهم في ذلك .

ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال الرسول ونالوه من علم ، صار كل من كان عنهم أبعد مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله .

فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات وأما كن الفترات من الحوارق مالا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة .

فصل

العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة : حسية وعقلية وكشفية وسمعية ، ضرورية ونظرية وغير ذلك ، وينقسم إلى قطعي وظني وغير ذلك ، وسنتكلم إن شاء الله تعالى على ما يتبع منها وما لا يتبع في الأحكام الشرعية ، أعني الأحكام الشرعية على العلم بالكائنات من طريق الكشف بقطة ومناما كما كتبه في الجهاد .

أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان : أمور خبرية اعتقادية وأمور

طلية عملية . فالأول كالعلم بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم ومراتبهم في الفضائل ، وأحوال الملائكة وصفاتهم وأعمالهم ، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار وما في الأعمال من الثواب والعقاب ، وأحوال الأولياء والصحابة وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك .

وقد يسمى هذا النوع أصول دين ، ويسمى العقد الأكبر ، ويسمى الجدل فيه بالعقل كلاماً . ويسمى عقائد واعتقادات ، ويسمى المسائل العلمية والمسائل الخبرية ، ويسمى علم المكاشفة .

(والثاني) الأمور العملية الطلية من أعمال الجوارح والقلب كالواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات والمباحات ، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد ، فهو من جهة كونه علماً واعتقاداً أو خبراً صادقاً أو كاذباً يدخل في القسم الأول ، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهيّاً عنه يدخل في القسم الثاني ، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لمخبرها فهي من القسم الأول ، ومن جهة أنها فرض واجب وأن صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب ، وبعدمها يصير كافراً يحل دمه وماله ، فهي من القسم الثاني .

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين كانفاقهم على أن القرآن دليل فيها في الجملة ، وقد يتنازعون في بعض الطرق كتنازعهم في أن الأحكام العملية من الحسن والقبيح والوجوب والحظر هل تعلم بالعقل كما تعلم بالسمع ، أم لا تعلم إلا بالسمع ؟ وأن السمع هل هو منشأ الأحكام أو مظهر لها كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها ؟ وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار في القسم الأول مثل مسائل الصفات والقدر وغيرها مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف ، وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بما غندم على أن السمع لا تثبت به تلك المسائل فإبانتها بالعقل " حتى يزعم كثير من القدريّة والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله وأنه خالق كل شيء وقادر على كل شيء ، وتزعم الجهمية من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية وغيرهم أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته ، وأنه مستو على العرش .

ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقاً ؛ بناء على أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين بما زعموا .

ويزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات والقدر ونحوها مما يطلب فيه القطع واليقين .

(١) بالأصل سقط ولعل ما أثبت هنا هو المقصود .

ويزعم قوم من غالبية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء ،
ومنهم من يقول لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية لأنه ظني .
وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها .

فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليها من دليل أو
مشاهدة ، باطنة أو ظاهرة ، عام أو خاص ، فقد تنازع فيه بنو آدم
تنازعا كثيراً .

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة قد ينفي حصول العلم
لأحد بغير الطريق التي يعرفها ، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من
غير حجة على ذلك . وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء من
أهل الكلام من ينكرها ، ومن أصحابنا من يغلو فيها ، وخيار
الأمر أوساطها .

فالطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل
الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف قد تجاذبها الناس نفيًا وإثباتًا ،
فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه ، ومن الناس من يغلو فيما يعرفه ،
فيرفعه فوق قدره وينفي ما سواه . فالتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق
العقلية وكثير منها فاسد متناقض ، وم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً ،
وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعاً .

وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي ، وكثير من المتصوفة والفقراء يبنون على منامات وأذواق وخيالات يعتقدونها كشفاً وهي خيالات غير مطابقة ، وأوهام غير صادقة (إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) فنقول :

أما طرق الأحكام الشرعية التي تتكلم عليها في أصول الفقه فهي — بإجماع المسلمين — « الكتاب » لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك ، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية .

(والثاني) — « السنة المتواترة » التي لا تخالف ظاهر القرآن ؛ بل تفسره ، مثل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها ، ونصب الزكاة وفرائضها وصفة الحج والعمرة وغير ذلك من الأحكام التي لم تعلم إلا بتفسير السنة .

وأما السنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن ، أو يقال تخالف ظاهره كالسنة في تقدير نصاب السرقة ورجم الزاني وغير ذلك ، فذهب جميع السلف العمل بها أيضاً إلا الخوارج ؛ فإن من قولهم — أو قول بعضهم — مخالفة السنة ، حيث قال أولهم للنبي صلى الله عليه وسلم في وجهه : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله . ويحكي عنهم أنهم لا يتبعونه صلى الله عليه وسلم إلا فيما بلغه عن الله

من القرآن والسنة المفسرة له ، وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره ، ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأولهم : « لقد خبت وخسرت إن لم أعدل » فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من الأموال ، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه ، فقد اتبع ظالماً كاذباً ، وجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه من المال من هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أيامني من في السماء ولا تأمنوني ؟ » أو كما قال . يقول صلى الله عليه وسلم إن أداء الأمانة في الوحي أعظم والوحي الذي أوجب الله طاعته هو الوحي بحكمه وقسمه .

وقد ينكر هؤلاء كثيراً من السنن طعناً في النقل لارداً للمنقول كما ينكر كثير من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم كالشفاعة والحوض والصرائط والقدر وغير ذلك .

(الطريق الثالث) - « السنن المتواترة » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إما متلقة بالقبول بين أهل العلم بها ؛ أو برواية الثقات لها . وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم ، وقد أنكروا بعض أهل الكلام . وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها وإنما يوجب العلم فلم

يفرقوا بين المتلقى بالقبول وغيره ، وكثير من أهل الرأي قد ينكر كثيراً منها بشروط اشترطها ، ومعارضات دفعها بها ووضعها ، كما يرد بعضهم بعضاً ، لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما زعم ، أو لأنه خلاف الأصول ، أو قياس الأصول ، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة على خلافه أو غير ذلك من المسائل المعروفة في كتب الفقه والحديث وأصول الفقه .

(الطريق الرابع) الإجماع وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة ، وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة ، لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة ، وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً ، ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة واختلف في مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة ، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم ، والإجماع السكوتي وغير ذلك .

(الطريق الخامس) - « القياس على النص والإجماع » . وهو حجة أيضاً عند جماهير الفقهاء ، لكن كثيراً من أهل الرأي أسرف فيه حتى استعمله قبل البحث عن النص ، وحتى رد به النصوص ، وحتى استعمل منه الفاسد ، ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأساً ، وهي مسألة كبيرة والحق فيها متوسط بين الإسراف والنقص .

(الطريق السادس) - « الاستصحاب » وهو البقاء على الأصل فيما لم يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع ، وهو حجة على عدم الاعتقاد بالانفراق ، وهل هو حجة في اعتقاد عدم ؟ فيه خلاف ، ومما يشبهه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم الشرعي ، مثل أن يقال : لو كانت الأضحية أو الوتر واجبا لنصب الشرع عليه دليلا شرعياً ، إذ وجوب هذا لا يعلم بدون الشرع ، ولا دليل ، فلا وجوب .

فالأول يبقى على نفي الوجوب والتحريم المعلوم بالعقل حتى يثبت المغير له ، وهذا استدلال بعدم الدليل السمعي المثبت على عدم الحكم ، إذ يلزم من ثبوت مثل هذا الحكم ثبوت دليله السمعي ؛ كما يستدل بعدم النقل لما تتوفر الهمم والدواعي على نقله ، وما توجب الشريعة نقله ، وما يعلم من دين أهلها وعاداتهم أنهم ينقلونه على أنه لم يكن ؛ كالأستدلال بذلك على عدم زيادة في القرآن وفي الشرائع الظاهرة ، وعدم النص الجلي بالإمامة على علي أو العباس أو غيرها ؛ ويعلم الخاصة من أهل العلم بالسنن والآثار وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه انتفاء أمور من هذا ، لا يعلم انتفاءها غيرهم ؛ ولعلمهم بما ينفى من أمور منقولة يعلمونها هم ؛ ولعلمهم بانتفاء لوازم نقلها ، فإن وجود أحد الضدين بنفي الآخر ، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم .

(الطريق السابع) - « المصالح المرسلة » وهو أن يرى المجتهد أن هذا

الفعل يجلب منفعة راجحة ؛ وليس في الشرع ما ينفيه ؛ فهذه الطريق فيها خلاف مشهور ، فالفهاء يسمونها « المصالح المرسلة » ، ومنهم من يسميها الرأي ، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان ، وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم ؛ فإن حاصلها أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم وأديانهم ويزدقون طعم ثمرته ، وهذه مصلحة ، لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان . وليس كذلك ، بل المصالح المرسلة في جلب المنافع وفي دفع المضار ، وما ذكره من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين .

وجلب المنفعة يكون في الدنيا وفي الدين ، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال فيها مصلحة للخلق من غير حظر شرعي ، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهاديات التي يقال فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي . فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها دفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر .

وهذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به فإن من جهته حصل في الدين اضطراب عظيم ، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل ، وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه

وربما قدم على المصالح المرسلة كلاما بخلاف النصوص ، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعا بناء على أن الشرع لم يرد بها ، ففوت واجبات ومستحبات ، أو وقع في محظورات ومكروهات ، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه .

وحجة الأول : أن هذه مصلحة والشرع لا يهمل المصالح ، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على اعتبارها ، وحجة الثاني : أن هذا أمر لم يرد به الشرع نوا ولا قياساً .

والقول بالمصالح المرسلة بشرع من الدين مالم يأذن به الله [غالباً] . وهي تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان والتحسين العقلي والرأي ونحو ذلك . فإن الاستحسان طلب الحسن والأحسن كالاستخراج ، وهو رؤية الشيء حسناً كما أن الاستقباح رؤيته قبيحاً ، والحسن هو المصلحة ، فلا استحسان والاستصلاح متقاربان ، والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن ، لكن بين هذه فروق .

والقول الجامع أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط ، بل الله تعالى قد أكمل لنا الدين وأتم النعمة ، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي صلى الله عليه وسلم وتركنا على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، لكن ما اعتقده العقل مصلحة وإن كان

الشرع لم يرد به فأحد الأمرين لازم له ، إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر أو أنه ليس بمصلحة ، وإن اعتقده مصلحة ؛ لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة ، وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا ويكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة ، كما قال تعالى في الحمر والميسر : (قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) .

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة نافعاً وحقاً وصواباً ولم يكن كذلك ، بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين والمجوس يحسب كثير منهم أن مام عليه من الاعتقادات والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا ، ومنفعة لهم ، (الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً .

فإذا كان الإنسان يرى حسناً ما هو سيء كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب . وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً . فإن باب جحود الحق ومعاندته غير باب جهله والعمى عنه ، والكفار فيهم هذا وفيهم هذا ، وكذلك في أهل الأهواء من المسلمين القسمان . فإن الناس كما أنهم في باب الفتوى والحديث

يخطئون تارة ويتعمدون الكذب أخرى ، فكذلك هم في أحوال الديانات ، وكذلك في الأفعال قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم وقد يعتقدون أنه ليس بظلم هو ظلم فإن الإنسان كما قال الله تعالى : (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) فتارة يجهل وتارة بظلم : ذلك في قوة عمله وهذا في قوة عمله .

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول وبين أهل الإرادة والعمل فذلك يقول هذا جائز أو حسن بناء على مارآه وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريمه أو اعتقاد أنه خير له كما يجد نفعاً في مثل السماع المحدث : سماع المكاء والتصدية واليراع التي يقال لها الشبابة والصفارة والأوتار وغير ذلك وهذا يفعله لما يجده من لذته وقد يفعله لما يجده من منفعة دينه بزيادة أحواله الدينية كما يفعل مع القرآن .

وهذا يقول هذا جائز لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة ، وهو نظير المقالات المبتدعة . وهذا يقول هو حق لدلالة القياس العقلي عليه . وهذا يقول يجوز ويجب اعتقادها وإدخالها في الدين إذا كانت كذلك ، وكذلك سياسات ولاية الأمور من الولاية والقضاة وغير ذلك .

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه قد يميز بعقله بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وبين النافع والضار ،

والمصلحة والمفسدة . ولا يمكن المؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات ، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الاعتقادات ، ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن أو القبيح إذا فسر بالنافع والضرار والملائم للإنسان والمنافى له واللذيق والأليم — فإنه قد يعلم بالعقل ، هذا في الأفعال .

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود أو كمال الموجود يوصف بالحسن ومنه قوله تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) وقوله (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) كما نعلم أن الحي أكمل من الميت في وجوده ، وأن العالم أكمل من الجاهل ، وأن الصادق أكمل من الكاذب — فهذا أيضاً قد يعلم بالعقل . وإنما اختلفوا في أن العقل هل يعتبر المنفعة والمضرة . وأنه هل « باب التحسين » واحد في الخالق والمخلوق ؟

فأما الوجهان الأولان فتأبثان في أنفسهما ، ومنها ما يعلم بالعقل : الأول في الحق المقصود ، والثاني في الحق الموجود . (الأول) متعلق بحب القلب وبغضه وإرادته وكرهاته وخطابه بالأمر والنهي . و (الثاني) متعلق بتصديقه وتكذيبه وإثباته ونفيه وخطابه الخبري المشتمل على النفي والإثبات ، والحق والباطل يتناول النوعين ، فإن الحق يكون بمعنى الموجود الثابت ، والباطل بمعنى المعدم المتنفي ، والحق بإزاء ما ينبغي قصده وطلبه وعمله ، وهو النافع . والباطل بإزاء ما لا ينبغي قصده ولا طلبه ولا عمله ، وهو

غير النافع . والمنفعة تعود إلى حصول النعمة واللذة والسعادة التي هي حصول اللذة ، ودفع الألم هو حصول المطلوب ، وزوال المرهوب . حصول النعيم وزوال العذاب . وحصول الخير وزوال الشر . ثم الموجود والنافع قد يكون ثابتاً دائماً ، وقد يكون منقطعاً لا سيما إذا كان زمناً يسيراً فيستعمل الباطل كثيراً بإزاء ما لا يبقى من المنفعة ، وإزاء ما لا يدوم من الوجود . كما يقال الموت حق والحياة باطل ، وحقيقته أنه يستعمل بإزاء ما ليس من المنافع خالصاً أو راجحاً ، كما تقدم القول فيه فيما يزهد فيه ، وهو ما ليس بنافع . والمنفعة المطلقة هي الخالصة أو الراجعة . وأما ما يفوت أرجح منها أو يعقب ضرراً ليس هو دونها فإنها باطل في الاعتبار ، والمضرة أحق باسم الباطل من المنفعة . وأما ما يظن فيه منفعة وليس كذلك أو يحصل به لذة فاسدة فهذا لا منفعة فيه بحال . فهذه الأمور التي بشرع الزهد فيها وتركها وهي باطل ؛ ولذلك ما نهى الله عنه ورسوله باطل ممتنع أن يكون مشتملاً على منفعة خالصة أو راجحة . ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة لقوله (لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْمِنِّ وَالْأَدَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ) الآية . أخبر أن صدقة المرائي والمنان باطلة لم يبق فيها منفعة له . وكذلك قوله تعالى (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ) وكذلك الإحباط في

مثل قوله (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْآيَاتِنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ) ولهذا تسميه
الفقهاء العقود .

« والعبادات » بعضها صحيح وبعضها باطل وهو ما لم يحصل به مقصوده
ولم يترتب عليه أثره ، فلم يكن فيه المنفعة المطلوبة منه . ومن هذا قوله
(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ يَاقِعَةٍ يَحْسَبُهُ الْمُظَلَمَانُ مَاءً) الآية وقوله
(مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ) وقوله (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ
هَبَاءً مَنْثُورًا) ولذلك وصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة ليست مطابقة
ولا حقاً ، كما أن الأعمال ليست نافعة .

وقد توصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة إذا كانت غير مطابقة
إن لم يكن فيها منفعة ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « اللهم إني أعوذ بك
من علم لا ينفع » فيعود الحق فيما يتعلق بالإنسان إلى ما ينفعه من علم
وقول وعمل وحال ، قال الله تعالى (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا)
— إلى قوله — كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا
يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ)

وقال تعالى : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ — إلى قوله — كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) .

وإذا كان كذلك وقد علم أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه ، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، لأن ما لم يرد به وجهه إما ألا ينفع بحال ، وإما أن ينفع في الدنيا أو في الآخرة . فالأول ظاهر ، وكذلك منفعته في الآخرة بعد الموت ، فإنه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الإنسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله . وأما في الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور ، وقد يجزى بأعماله في الدنيا ، لكن تلك اللذات إذا كانت تعقب ضرراً أعظم منها وتفتت أنفع منها وأبقى ، فهي باطلة أيضاً ، فثبت أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل وإن كان فيه لذة مآ .

وأما الكائنات فقد كانت معدومة منتفية ، فثبت أن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة ليبد : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وكما قال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالها شاعر قول ليبد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وإنها تجمع الحق الموجود والحق المقصود ، وكل موجود بدون الله باطل ، وكل مقصود بدون قصد الله فهو باطل ، وعلى هذين فقد فسر قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) (إلا ما أريد به وجهه ، وكل شيء معدوم إلا من جهته . هذا على قول ، وأما القول الآخر وهو المأثور عن طائفة من السلف وبه فسر الإمام أحمد رحمه

الله تعالى في رده على الجهمية والزنادقة قال أحمد : وأما قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) وذلك أن الله أنزل (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ) فقالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، وطمعوا في البقاء ، فأُنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون فقال : كل شيء من الحيوان هالك — يعني ميتاً — إلا وجهه ، فإنه حي لا يموت ، فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالمولوت « ذكر ذلك في رده على الجهمية قولهم إن الجنة والنار نفيان .

وقد تبين مما ذكرناه أن الحسن هو الحق والصدق والنافع والمصلحة والحكمة والصواب . وأن الشيء القبيح هو الباطل والكذب والضرار والمفسدة والسفه والخطأ .

وأما مواضع الاشتباه والنزاع واختلاف الحلائق فموضع واحد وذلك أن فعل الله كله حسن جميل ، قال الله عز وجل : (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) وقال تعالى (صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) وقال تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله جميل يحب الجمال » وهو حكم عدل قال الله تعالى (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ

قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا) وقال تعالى : (وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) . وهذا كله متفق عليه بين الأمة مجملًا غير مفسر فإذا فسر تنازعوا فيه .

وذلك أن هذه الأعمال الفاسدة والآلام وهذا الشر الوجودي المتعلق بالحيوان ، وأنه لا يخلو عن أن يكون عملاً من الأعمال ، أو أن يكون ألماً من الآلام الواقعة بالحيوان ، وذلك العمل القبيح والألم شره من ضرره ، وهذا العمل والتألم : المعتزلة ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه ولا كونها شيء ، وأن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق ، أو تعوض بنفع لاحق ، وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون بل الجميع خلقه ، وهو يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، ولا فرق بين خلق المزار والمنافع ، والخير والشر بالنسبة إليه . ويقول هؤلاء : إنه لا يتصور أن يفعل ظلماً ولا سفهاً أصلاً ، بل لو فرض أنه فعل أي شيء كان فعله حكمة وعدلاً وحسناً ، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه وهو لم ينه به أحد ، ويسوون بين تعميم الحلائق وتعذيبهم ، وعقوبة المحسن ، ورفع درجات الكفار والمنافقين .

والفريقان متفقان على أنه لا ينتفع بطاعات العباد ولا بتضرر

بمعصيتهم ، لكن الأولون يقولون : الإحسان إلى الغير حسن لذاته وان لم يعد إلى المحسن منه فائدة .

والآخرون يقولون : ما حسن منا حسن منه ، وما قبح منا قبح منه ، والآخرون مع جمهور الخلائق ينكرون ، والأولون يقولون : إذا أمر بالشيء فقد أراده منا . لا يعقل الحسن والقيح إلا ما ينفع أو يضر ، كنحو ما يأمر الواحد منا غيره بشيء فإنه لابد أن يريده منه ويعينه عليه ، وقد أقدر الكفار بغاية القدرة ، ولم يبق يقدر على أن يجعلهم يؤمنون اختياراً ، وإنما كفرهم وفسوقهم وعصيانهم بدون مشيئته واختياره . وآخرون يقولون : الأمر ليس بمستلزم للإرادة أصلاً ، وقد بينت التوسط بين هذين في غير هذا الموضع ، وكذلك أمره . والأولون يقولون لا يأمر إلا بما فيه مصلحة العباد ، والآخرون يقولون أمره لا يتوقف على المصلحة .

وهنا مقدمات ، تكشف هذه المشكلات .

(إحداها) أنه ليس ما حسن منه حسن منا وليس ما قبح منه قبح منا ، فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه ، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة ، ويقبح لجلبه المضرة ، ويحسن لأننا أمرنا به ، ويقبح لأننا نهينا عنه ، وهذان الوجهان متفحيان في حق الله تعالى قطعاً ، ولو كان

الفعل يحسن باعتبار آخر كما قال بعض الشيوخ :

ويقبح من سواك الفعل عندي ونفعله فيحسن منك ذا كا

(المقدمة الثانية) أن الحسن والقبح قد يكونان صفة لأفعالنا ، وقد يدرك بعض ذلك بالعقل ، وإن فسر ذلك بالنافع والضرار والمكمل والمنقص فإن أحكام الشارع فيما يأمر به وينهى عنه تارة تكون كاشفة للصفات الفعلية ومؤكدة لها وتارة تكون مبينة للفعل صفات لم تكن له قبل ذلك ، وأن الفعل تارة يكون حسنه من جهة نفسه ، وتارة من جهة الأمر به وتارة من الجهتين جميعاً . ومن أنكر أن يكون للفعل صفات ذاتية لم يحسن إلا لتعلق الأمر به وأن الأحكام بمجرد نسبة الخطاب إلى الفعل فقط ، فقد أنكر ما جاءت به الشرائع من المصالح والمفاسد ، والمعروف والمنكر ، وما في الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها ، وأنكر خاصة الفقه في الدين الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها .

(المقدمة الثالثة) أن الله خلق كل شيء وهو على كل شيء قدير . ومن جعل شيئاً من الأعمال خارجاً عن قدرته ومشيتته فقد ألحد في أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدريّة .

(المقدمة الرابعة) أن الله إذا أمر العبد بشيء فقد أراد منه

إرادة شرعية دينية وإن لم يرد منه إرادة قدرية كونية . فإثبات إرادته في الأمر مطلقاً خطأ ، ونفيها عن الأمر مطلقاً خطأ ، وإنما الصواب التفصيل كما جاء في التنزيل (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمُ) (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ) وقال (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا) وقال (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ) وقال (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) وأمثال ذلك كثير .

(المقدمة الخامسة) أن محبته ورضاه مستلزم للإرادة الدينية والأمر الديني ، وكذلك بغضه وغضبه وسخطه مستلزم لعدم الإرادة الدينية . فالحجة والرضا والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة . هذا قول جمهور أهل السنة . ومن قال إن هذه الأمور بمعنى الإرادة كما يقوله كثير من القدرية وكثير من أهل الإثبات فإنه يستلزم أحد الأمرين : إما [أن] الكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها ديناً فقد كره كونها وإنها واقعة بدون مشيئته وإرادته . وهذا قول القدرية ، أو يقول إنه لما كان مريداً لها شاءها فهو محب لها راض بها كما تقوله طائفة من أهل الإثبات ، وكلا القولين فيه ما فيه ، فإن الله تعالى يحب المتقين ويحب المقسطين وقد رضي عن المؤمنين ، ويحب ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب ، وليس هذا

المعنى ثابتاً في الكفار والفجار والظالمين ، ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب كل مختال فخور ، ومع هذا فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأحسن ما يعتذر به من قال هذا القول من أهل الإثبات : أن المحبة بمعنى الإرادة أنه أحبها كما أرادها كونا . فكذلك أحبها ورضيها كونا . وهذا فيه نظر مذكور في غير هذا الموضع .

(فإن قيل) تقسيم الإرادة لا يعرف في حقنا بل إن الأمر منه بالشيء إما أن يريده أو لا يريده ، وأما الفرق بين الإرادة والمحبة فقد يعرف في حقنا (فيقال) وهذا هو الواجب فإن الله تعالى ليس كمثل شيء ، وليس أمره لنا كأمر الواحد منا لعبده وخدمه ، وذلك أن الواحد منا إذا أمر عبده فإما أن يأمره لحاجته إليه أو إلى المأمور به أو لحاجته إلى الأمر فقط ، فالأول كأمر السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه ومنافعهم له ، فإن هداية الخلق وإرشادهم بالأمر والنهي هي من باب الإحسان إليهم . والمحسن من العباد يحتاج إلى إحسانه قال الله تعالى (^وإِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) وقال (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم ولا هو محتاج إلى

أمرهم وإنما أمرهم إحساناً منه ونعمة أنعم بها عليهم ، فأمرهم بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم . وإرسال الرسل ، وإزالة الكتب من أعظم نعمه على خلقه كما قال (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) وقال تعالى (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ) وقال (يَتَأَيَّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالامتنال فقد تمت النعمة في حقه كما قال (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي) وهؤلاء هم المؤمنون . ومن لم ينعم عليه بالامتنال بل خذله حتى كفر وعصى فقد شقي لما بدل نعمة الله كفوراً كما قال (أَلَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) والأمر والهي الشرعيان لما كانا نعمة ورحمة عامة لم يضر ذلك عدم انتفاع بعض الناس بهما من الكفار ، كإزالة المطر وإنبات الرزق هو نعمة عامة وإن تضرر بها بعض الناس لحكمة أخرى كذلك مشيئته لما شاءه من المخلوقات وأعيانها وأفعالها لا يوجب أن يحجب كل شيء منها فإذا أمر العبد بأمر فذاك إرشاد ودلالة ، فإن فعل المأمور به صار محبوباً لله وإلا لم يكن محبوباً له وإن كان مراداً له ، وإرادته له تكويناً لمعنى آخر . فالتكوين غير التشريع .

(فإن قيل) المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين الحب

والمحجوب ويوجب للمحب بدرك محبوه فرحاً ولنة وسروراً ، وكذلك
 البغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبعُض والمبغُض ، وذلك يقتضي
 للمبغض بدرك المبعُض أذى وبغضاً ونحو ذلك ، والملاءمة والمنافرة تقتضي
 الحاجة ، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه ، وما لا يضره كيف يبغضه ؟
 والله غني لا تجوز عليه الحاجة ، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه
 وإمكانه وهو غني عن العالمين ، وقد قال تعالى [أي في الحديث القدسي] «
 يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني »
 فلهذا فسرت المحبة والرضا بالإرادة إذ يفعل النفع والضرر . فيقال
 الجواب من وجهين :

(أحدهما) الإلزام وهو أن نقول : الإرادة لا تكون إلا للمناسبة
 بين المرید والمراد ، وملاءمته في ذلك تقتضي الحاجة ، وإلا فما لا يحتاج
 إليه الحي لا ينتفع به ولا يريد ، ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار
 لا يكون إلا لنفرة وبغض ، وإلا فما لم يتألم به الحي أصلاً لا بكرهه ولا
 يدفعه ، وكذلك نفس نفع الغير وضرره هو في الحي متنافر من الحاجة
 فإن الواحد منا إنما يحسن إلى غيره لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، وإنما يضر
 غيره لجلب منفعة أو دفع مضرة ، فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي
 أخرى يلزمه فيها أثبته نظير ما يلزمه فيها نفاه لم يكن إثبات إحداها
 ونفي الأخرى أولى من العكس ، ولو عكس عاكس فنفي ما أثبته من الإرادة

وأثبت مانفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينها فرق ، وحينئذ فالواجب إما نفي الجميع ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق والإحسان إليهم وأن ذلك يستلزم الإرادة ، وإما إثبات الجميع كما جاءت به النصوص ، وحينئذ فمن توهم أنه يلزم من ذلك محذور فأحد الأمرين لازم : إما أن ذلك المحذور لا يلزم أو أنه إن لزم فليس بمحذور .

(الجواب الثاني) أن الذي يعلم قطعاً [هو] أن الله قديم واجب الوجود كامل ، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان ولا النقص ، لكن كون هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هو موضع النظر ، فإن الله غني واجب بنفسه ، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه ولا إمكانه ولا حاجته . وإن قول القائل يلزم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله مفقر إلى ذاته ، ومعلوم أنه غني بنفسه ، وأنه واجب الوجود بنفسه ، وأنه موجود بنفسه ، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه ، إن غنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق ، فإن الله غني عن العالمين وعن خلقه ، وهو غني بنفسه .

وأما إطلاق القول بأنه غني عن نفسه فهو باطل فإنه محتاج إلى نفسه ، وفي إطلاق كل منها إيهام معنى فاسد ، ولا خالق إلا الله تعالى فإذا كان سبحانه عليا يحب العلم ، عفواً يحب العفو ، جميلاً يحب

الجمال ، نظيفاً يحب النظافة ، طيباً يحب الطيب ، وهو يحب المحسنين والمتقين والمقسطين ، وهو سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة ؛ والأسماء الحسنى والصفات العلى ، وهو يحب نفسه ويثنى بنفسه على نفسه ، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه . فالعبد المؤمن يحب نفسه ، ويحب في الله من أحب الله وأحبه الله ؛ فالله سبحانه أولى بأن يحب نفسه ، ويحب في نفسه عباده المؤمنين ، ويبغض الكافرين ، ويرضى عن هؤلاء ويفرح بهم ، ويفرح بتوبة عبده التائب من أولئك ، ويمقت الكفار ويبغضهم ، ويحب حمد نفسه والثناء عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأسود بن سريع لما قال : إني حمدت ربي بمحامد فقال « إن ربك يحب الحمد » وقال صلى الله عليه وسلم « لا أحد أحب إليه المدح من الله ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك أرسل الرسل ، ولا أحد أصبر على أذى من الله ، يجعلون له ولداً وشريكاً وهو يعافهم ويرزقهم » فهو يفرح بما يحبه ، ويؤذيه ما يبغضه ، ويصبر على ما يؤذيه ، وجهه ورضاه وفرحه وسخطه وصبره على ما يؤذيه كل ذلك من كماله وكل ذلك من صفاته وأفعاله ، وهو الذي خلق الخلائق وأفعالهم ، وهم لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه . وإذا فرح ورضي بما فعله بعضهم فهو سبحانه الذي خلق فعله ، كما أنه إذا فرح ورضي بما يخلقه فهو الخالق ، وكل الذين يؤذون الله ورسوله هو الذي مكهنهم وصبر على أدام بحكمته

فلم يفتقر إلى غيره ، ولم يخرج شيء عن مشيئته ولم يفعل أحد ما لا يريد ، وهذا قول عامة القدرية ونهاية الكمال والعزة .

وأما الإمكان لو افتقر وجوده إلى فرح غيره ، وأما الحدوث فينبى على قيام الصفات فيلزم منه حدوثه ، وقد ذكر في غير هذا الموضع أن ما سلكه الجهمية في نفي الصفات فبناه على القياس الفاسد المحض وله شرح مذكور في غير هذا الموضع .

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها في غاية الإحكام والإنقان وأنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص ، والإثبات لكل كمال ، وأنه تعالى ليس له كمال ينتظر بحيث يكون قبله ناقصاً ؛ بل من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله ، وأنه إذا كان كاملاً بذاته وصفاته وأفعاله لم يكن كاملاً بغيره ولا مفتقراً إلى سواه ، بل هو الغني ونحن الفقراء ، وقال تعالى (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقته وسخطه وفرحه وأسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق وفوق الكمال ، إذ كل كمال فمن كماله يستفاد ، وله الثناء الحسن الذي لا تحصيه العباد ، وإنما هو كما أثنى على نفسه ، له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه ، (إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا) .

فهذا الأصل العظيم وهو مسألة خلقه وأمره وما يتصل به من صفاته وأفعاله من محبته ورضاه وفرحه بالمحجوب وبغضه وصبره على ما يؤذيه هي متعلقة بمسائل القدر ومسائل الشريعة . والمنهاج الذي هو المسئول عنه ومسائل الصفات ومسائل الثواب والعقاب والوعد والوعيد ، وهذه الأصول الأربعة كلية جامعة وهي متعلقة به وبخلقه .

وهي في عمومها وشمولها وكشفها للشبهات تشبه مسألة الصفات الذاتية والفعلية ، ومسألة الذات والحقيقة والحد وما يتصل بذلك من مسائل الصفات والكلام في حلول الحوادث ونفي الجسم وما في ذلك من تفصيل وتحقيق .

فإن العطفة والملحدة في أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير جاءت به الرسل بناء على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض ونفي حلول الحوادث ونفي الحاجة .

وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر ، فوقعوا في نفي الحق الذي لا ريب فيه الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب وفطرت عليه الخلائق ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية والله أعلم .

قال سُبغ الإِسْلام

قدس الله روحه

فصل

تكلم طائفة من الصوفية في « خاتم الأولياء » ، وعظموا أمره كالحكيم الترمذي ، — وهو من غلطاته ؛ فإن الغالب على كلامه الصحة بخلاف ابن عربي ، فإنه كثير التخليط ، لاسيما في الاتحاد ، — وابن عربي وغيرهم ، وادعى جماعة كل واحد أنه هو ، كابن عربي ، وربما قيده بأنه ختم الولاية المحمدية ، أو الكاملة ، أو نحو ذلك ؛ لئلا يلزمه ألا يخلق بعده لله ولي ، وربما غلوا فيه ، كما فعل ابن عربي في فصوصه فجعلوه مُمِداً في الباطن لخاتم الأنبياء ، تبعاً لغلوم الباطل ، حيث قد يجعلون الولاية فوق النبوة ، موافقة لغلاة المتفلسفة الذين قد يجعلون الفيلسوف الكامل فوق النبي .

وكذلك جهال القدرية ، والأحمدية ، واليونسية ، قد يفضلون شيخهم

على النبي ، أو غيره من الأنبياء ، وربما ادعوا في شيخهم نوعاً من الإلهية .

وكذلك طائفة من السعدية : يفضلون الولي على النبي . وقال بعضهم يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر ، وكذلك غالبية الرافضة ، الذين قد يجعلون الإمام كان ممدا للنبي في الباطن ، كما قد يجعلونه إلهاً . فأما الغلوفى ولي غير النبي حتى يفضل على النبي ، سواء سمي ولياً أو إماماً ، أو فيلسوفاً ، وانتظارهم للمنتظر الذي هو : محمد بن الحسن . أو اسماعيل ابن جعفر ، نظير ارتباط الصوفية على الغوث ، وعلى خاتم الأولياء ، فبطالانه ظاهر بما علم من نصوص الكتاب والسنة ، وما عليه إجماع الأمة فإن الله جعل الذين أنعم عليهم أربعة : النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، فغاية من بعد النبي أن يكون صديقاً ، كما كان خير هذه الأمة بعد نبيها صديقاً ؛ ولهذا كانت غاية مريم ذلك في قوله : (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ) .

وبهذا استدلت على ما ذكره طائفة : كالقاضي أبي يعلى ، وغيره من أصحابنا ، وأبي المعالي ، وأظن الباقلاني من الإجماع على أنها لم تكن نية ليقرروا كرامات الأولياء ، بما جرى على يديها ، فإن بعض الناس زعم أنها كانت نية ، فاستدلت بهذه الآية ، وفرح مخاطبي بهذه الحجة ؛ فإن الله ذكر ذلك في بيان غاية فضلها ، دفعا لغلو النصارى فيها ؛ كما

يقال لمن ادعى في رجل أنه ملك من الملوك ؛ أو غنى من الأغنياء ونحو ذلك ، فيقال : ما هو إلا رئيس قرية ، أو صاحب بستان ، فيذكر غاية ماله من الرئاسة والمال ، فلو كان للمسيح مرتبة فوق الرسالة أولها مرتبة فوق الصديقية لذكرت .

ولهذا كان أصل الغلو في النصارى ، وبشابههم في بعضه غالبية المتصوفة والشيعية ، ومن انضم إليهم من الصابئة المتفلسفة ، فالرد عليهم من جهة واحدة . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في أبي بكر وعمر : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين ، إلا النبيين والمرسلين » فهذه المسألة لشرحها موضع غير هذا وهي أن كل من سوى الأنبياء دونهم .

وإنما الكلام هنا فيما يذكرونه من خاتم الأولياء ، فنقول : هذه تسمية باطلة ، لا أصل لها في كتاب ولا سنة ولا كلام مأثور عمن هو مقبول عند الأمة قبولاً عاماً ؛ لكن يعلم من حيث الجملة أن آخر من بقي من المؤمنين المتقين في العالم فهو آخر أولياء الله .

ونقول ثانياً : إن آخر الأولياء ، أو خاتمهم ، سواء كان المحقق ، أو فرض مقدر . ليس يجب أن يكون أفضل من غيره من الأولياء ، فضلاً عن أن يكون أفضلهم ، وإنما نشأ هذا من مجرد القياس على خاتم الأنبياء . لما رأوا خاتم الأنبياء هو سيدهم . توهموا من ذلك قياساً بمجرد الاشتراك في لفظ خاتم . فقالوا : خاتم

الأولياء أفضلهم . وهذا خطأ في الاستدلال ؛ فإن فضل خاتم الأنبياء عليهم لم يكن لمجرد كونه خاتماً . بل لأدلة أخرى دلت على ذلك .

ثم نقول : بل أول الأولياء في هذه الأمة ، وسابقهم هو أفضلهم فإن أفضل الأمة خاتم الأنبياء . وأفضل الأولياء سابقهم إلى خاتم الأنبياء ؛ وذلك لأن الولي مستفيد من النبي وتابع له . فكما قرب [من النبي كان أفضل] وكما بعد عنه كان بالعكس . بخلاف خاتم الأنبياء فإن استفادته إنما هي من الله . فليس في تأخره زماناً ما يوجب تأخر مرتبته . بل قد يجمع الله له ما فرقه في غيره من الأنبياء ، فهذا الأمر الذي ذكرناه من أن السابقين من الأولياء هم خيرهم . هو الذي دل عليه الكتاب والسنن المتواترة وإجماع السلف ، ويتصل بهذا ظن طوائف أن من المتأخرين من قد يكون أفضل من أفاضل الصحابة ، ويوجد هذا في المتنبيين إلى العلم ، وإلى العبادة ، وإلى الجهاد ، والإمارة . والملك . حتى في المتفقهة من قال : أبو حنيفة أفقه من علي . وقال بعضهم يقلد الشافعي ولا يقلد أبو بكر وعمر .

ويتمسكون تارة بشبه عقلية ، أو ذوقية ، من جهة أن متأخري كل فن يحكمونه أكثر من المتقدمين . فإنهم يستفيدون علوم الأولين مع العلوم التي اختصوا بها ، كما هو موجود في أهل الحساب ، والطبايعيين والمنجمين وغيرهم .

ومن جهة الذوق ، وهو ما وجدوه لأواخر الصالحين ، من المشاهدات العرفانية ، والكرامات الحارقة ، ما لم ينقل مثله عن السلف ، وتارة يستدلون بشبه نقلية مثل قوله : « للعامل منهم أجر خمسين منكم » وقوله : « أمتي كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره » ؟ وهذا خلاف السنن المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود ، وعمران بن حصين و (١) مما هو في الصحيحين ، أو أحدهما ، من قوله : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وقوله : « والذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً : ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » وغير ذلك من الأحاديث .

وخلاف إجماع السلف : كقول ابن مسعود : « إن الله نظر في قلوب العباد : فوجد قلب محمد خير قلوب العباد ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد » وقول حذيفة « يامعشر القراء استقيموا . وخذوا سبيل من كان قبلكم ، فوالله لأن اتبعتموم لقد سبقتم سبقاً بعيداً » ولئن أخذتم يمينا وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً وقول ابن مسعود : « من كان منكم مستنأ فليستن بمن قد مات أولئك أصحاب محمد ، أبر هذه الأمة قلوباً

(١) يياض بالأصل .

وأعمقها علما ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » وقول جندب وغيره مما هو كثير مكتوب في غير هذا الموضع ، بل خلاف نصوص القرآن في مثل قوله : (وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ) الآية . وقوله : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ) الآية . وقوله : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ) الآية ، وغير ذلك ؛ فإنه لم يكن الغرض بهذا الموضع هذه المسئلة ، وإنما الغرض : الكلام على خاتم الأولياء .

ومما يشبه هذا ظن طائفة كابن هود ، وابن سبعين ، والنفري والتلمساني : أن الشيء المتأخر ينبغي أن يكون أفضل من المتقدم ؛ لاعتقادهم أن العالم متقل من الابتداء إلى الانتهاء ، كالصبي الذي يكبر بعد صغره ، والنبات الذي ينمو بعد ضعفه ، وبينون على ذلك أن المسيح أفضل من موسى ، ويبعدون ذلك إلى أن يجعلوا بعد محمد واحداً من البشر أكمل منه ، كما تقوله الإسماعيلية ، والقرامطة ، والباطنية ، فليس على هذا دليل أصلاً : أن كل من تأخر زمانه من نوع ، يكون أفضل ذلك النوع ، فلا هو مطرد ولا منعكس . بل إبراهيم الخليل قد ثبت بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنه خير البرية » أي بعد النبي . وكذلك قال الربيع بن خيثم : « لا أفضل على نبينا أحداً ،

ولا أفضل على إبراهيم بعد نينا أحداً وبعده جميع الأنبياء المتبعين للملة مثل موسى وعيسى وغيرهما ، وكذلك أنبياء بني إسرائيل كلهم بعد موسى ، وقد أجمع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى : على أن موسى أفضل من غيره من أنبياء بني إسرائيل ، إلا ما يتنازعون فيه من المسيح .

والقرآن قد شهد في آيتين لأولي العزم فقال في قوله :
 (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ)
 وقال : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى)
 فهؤلاء الخمسة أولوا

العزم ، وهم الذين قد ثبت في أحاديث الشفاعة الصحاح : أنهم يترادون الشفاعة في أهل الموقف بعد آدم ، فيجب تفضيلهم على بنيتهم ، وفيه تفضيل للمتقدم على متأخر ، ولتأخر على متقدم .

وأصل الغلط في هذا الباب : أن تفضيل الأنبياء ، أو الأولياء أو العلماء أو الأمراء بالتقدم في الزمان ، أو التأخر أصل باطل ، فتارة يكون الفضل في متقدم النوع ، وتارة في متأخر النوع ؛ ولهذا يوجد في أهل النحو ، والطب والحساب ما يفضل فيه المتقدم كبطليموس ، وسيبويه ، وبقرات وتارة بالعكس .

وأما توهمهم أن متأخري كل فن أحق من متقدميه : لأنهم
كملوه ، فهذا منتقض أولا : ليس بمطرد ، فإن كتاب سيوييه في العربية
لم يصنف بعده مثله ، بل وكتاب بطليموس ، بل نصوص بقراط لم يصنف
بعدها أكمل منها .

ثم نقول هذا قد يسلم في الفنون التي تتال : بالقياس ، والرأي
والحيلة . أما الفضائل المتعلقة باتباع الأنبياء فكل من كان إلى الأنبياء
أقرب مع كمال فطرته : كان تلقيه عنهم أعظم ، وما يحسن فيه هو من
الفضائل الدينية ، المأخوذة عن الأنبياء : ولهذا كان من يخالف ذلك
هو من المبتدعة ، الخارج عن سنن الأنبياء ، المعتقد أن له نصيباً من
العلوم والأحوال خارجاً عن طور الأنبياء . فكل من كان بالنبوة وقدرها
أعظم : كان رسوخه في هذه المسألة أشد .

وأما الأذواق والكرامات فمنها ما هو باطل ، والحق منه كان للسلف
أكمل ، وأفضل بلا شك ، وخرق العادة : تارة يكون لحاجة العبد إلى
ذلك ، وقد يكون أفضل منه لا تحرق له تلك العادة ، فإن خرقها له
سبب ، وله غاية ، فالكامل قد يرتقى عن ذلك السبب ، وقد لا يحتاج
إلى تلك الغاية المقصودة بها ، ومع هذا فما للمتأخرين كرامة إلا والسلف
من نوعها ما هو أكمل منها .

وأما قوله : « لهم أجر خمسين منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً ولا يجدون على الخير أعواناً » فهذا صحيح ، إذا عمل الواحد من المتأخرين ، مثل عمل عمله بعض المتقدمين كان له أجر خمسين ؛ لكن لا يتصور أن بعض المتأخرين يعمل مثل عمل بعض أكبر السابقين ؛ كأبي بكر وعمر . فإنه ما بقي يبعث نبي مثل محمد ، يعمل معه مثلاً عملوا مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله : « أمتي كالغيث لا بدري أوله خير أم آخره » مع أن فيه لنا فمناً : في المتأخرين من يشبه المتقدمين ، ويقاربهم حتى يبقى لقوة المشابهة والمقارنة ، لا بدري الذي ينظر إليه ، أهذا خير أم هذا؟ وإن كان أحدهما في نفس الأمر خيراً . فهذا فيه بشرى للمتأخرين بأن فيهم من يقارب السابقين ، كما جاء في الحديث الآخر : « خير أمتي أولها وآخرها . وبين ذلك ثبج أو عوج . وددت أني رأيت إخواني قالوا : أولسنا إخوانك ؟ قال : أتم أصحابي » هو تفضيل للصحابة ، فإن لهم خصوصية الصحبة التي هي أكمل من مجرد الإخوة .

وكذلك قوله : « أي الناس أعجب إيماناً » إلى قوله : « قوم يأتون بعدي يؤمنون بالورق المعلق » هو يدل على أن إيمانهم عجب ، أعجب من إيمان غيرهم ، ولا يدل على أنهم أفضل . فإن في الحديث أنهم

ذكروا الملائكة والأنبياء ، ومعلوم أن الأنبياء أفضل من هؤلاء الذين يؤمنون بالورق المعلق .

ونظيره كون الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، فإنه لا يدل على أنهم بعد الدخول يكونون أرفع مرتبة من جميع الأغنياء ، وإنما سبقوا لسلامتهم من الحساب .

وهذا باب التفضيل بين الأنواع في الأعيان ، والأعمال والصفات أو بين أشخاص النوع باب عظيم ، يغلط فيه خلق كثير ، والله يهدينا سواء الصراط .

وقال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

فصل

تكلم أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتاب « ختم الولاية » : بكلام مردود ، مخالف للكتاب والسنة ، وإجماع السلف والأئمة ، حيث غلا في ذكر الولاية ، وما ذكره من خاتم الأولياء ، وعصمة الأولياء ونحو ذلك مما هو مقدمة لضلال ابن عربي ، وأمثاله ، الذين تكلموا في هذا الباب بالباطل والعدوان ، منها قوله :

فيقال لهذا المسكين : صف لنا منازل الأولياء — إذا استفرغوا مجهود الصدق — كم عدد منازلهم ؟ وأين منازل أهل الفرية ؟ وأين الذين جازوا العساكر ؟ بأي شيء جازوا ؟ وإلى أين متهم ؟ وأين مقام أهل المجالس والحديث ؟ وكم عددهم ؟ وبأي شيء استوجبوا هذا على ربهم ؟ وما حديثهم ونجوام ؟ وبأي شيء يفتحون المناجاة ؟ وبأي

شيء يهتمونها ؟ وماذا يخافون ؟ وكيف يكون صفة سيرهم ؟ ومن ذا الذي يستحق خاتم الولاية كما استحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة ؟ وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك ؟ وما سبب (١) ؟
وكم مجالس هذه الأبدان حتى ترد إلى مالك الملك ؟ إلى مسائل أخر كثيرة ذكرها من هذا النمط .

ومنها فيه قال له قائل : فهل يجوز أن يكون في هذا الزمان من يوازي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ؟ قال : إن كنت تعنى في العمل فلا ، وإن كنت تعنى في الدرجات فغير مدفوع ، وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب ، وتسمية ما في الدرجات بالأعمال فمن الذي حول رحمة الله عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون فيهم سابق ولا مقرب ولا مجتبي ، ولا مصطفى . أو ليس المهدي كائناً في آخر الزمان ؟ فهو في الفتنة يقوم بالعدل ؛ فلا يعجز عنها . أو ليس كائناً في آخر الزمان من له ختم الولاية ؟ وهو حجة الله على جميع الأولياء يوم الموقف ؟ فكما أن محمداً صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء ، فأعطى ختم النبوة وهو حجة الله على جميع الأنبياء . فكذلك هذا الولي آخر الأولياء في آخر الزمان .

(١) بالأصل كلمتان لم تتضحاً .

قال له قائل : فأين حديث النبي صلى الله عليه وسلم « خرجت من باب الجنة ، فأُتيت بالميزان فوضعت في كفة ، وأُمتى في كفة فرجحت بالأمة . ثم وضع أبو بكر مكاني فرجح بالأمة . ثم وضع عمر مكان أبي بكر فرجح بالأمة » ! فقال هذا وزن الأعمال ؛ لا وزن ما في القلوب أين يذهب بكم ياعجم ؟ ما هذا إلا من غباوة أفهامكم . ألا ترى أنه يقول : خرجت من باب الجنة والجنة للأعمال ؛ والدرجات للقلوب ؛ والوزن للأعمال ؛ لا لما في القلوب ؛ إن الميزان لا يتسع لما في القلوب .

وقال فيه : « ثم لما قبض الله نبيه صير فيهم أربعين صديقاً ؛ بهم تقوم الأرض فهم أهل بيته ، وهم آله ؛ فكلما مات منهم رجل خلفه من يقوم مقامه ؛ حتى إذا انقضى عددهم ، وأتى وقت زوال الدنيا ؛ بعث الله ولياً اصطفاه واجتباه وقربه وأدناه وأعطاه ما أعطى الأولياء وخصه بخاتم الولاية ، فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء . فيوجد عنده ذلك الحتم صدق الولاية ، على سبيل ما وجد عند محمد صلى الله عليه وسلم صدق النبوة ؛ لم ينله القدر ، ولا وجدت النفس سبيلاً إلى الأخذ بحظها من الولاية ، فإذا برز الأولياء يوم القيامة ، وأقبضوا صدق الولاية والعبودية ؛ وجد ألوفاً عند هذا الذي ختم الولاية تماماً ؛ فكان حجة الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم .

وكان شفيعهم يوم القيامة ؛ فهو سيدهم . ساد الأولياء كما ساد محمد صلى الله عليه وسلم الأنبياء ، فينصب له مقام الشفاعة ، ويثنى على الله ثناء ، ويحمده بمحامد يقر الأولياء بفضله عليهم في العلم بالله ، فلم يزل هذا الولي مذكوراً أولاً في البدء أولاً في الذكر ، وأولاً في العلم ، ثم الأول في المسألة ، ثم الأول في الموازنة ، ثم الأول في اللوح المحفوظ ثم الأول في الميثاق ، ثم الأول في الحشر ، ثم الأول في الخطاب ، ثم الأول في الوفاة ، ثم الأول في الشفاعة ، ثم الأول في الجواز وفي دخول الدار ، ثم الأول في الزيارة ، فهو في كل مكان أول الأولياء ، كما كان محمد صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء ، فهو من محمد صلى الله عليه وسلم عند الأذن ، والأولياء عند القفا .

فهذا عند مقامه بين يديه في ملك الله ونجواه . مثال في المجلس الأعظم ، فهو في منصبه ، والأولياء من خلفه درجة درجة ، ومنازل الأنبياء مثال بين عينيه ، فهؤلاء الأربعون في كل وقت هم أهل بيته . ولست أعني من النسب ، إنما أهل بيت الذكر .

وقال شيخ الإسلام

رحمه الله تعالى

فصل^(١)

قال القاضي أبو يعلى فى عيون المسائل : [مسألة] ومثبتو النبوات حصل لهم المعرفة بالله تعالى بثبوت النبوة من غير نظر واستدلال فى دلائل العقول ، خلافاً للأشعرية فى قولهم : لا تحصل حتى تنظر وتستدل بدلائل العقول .

وقال : نحن لا نمنع صحة النظر ، ولا نمنع حصول المعرفة به وإنما خلافتنا هل تحصل بغيره ؛ واستدل بأن النبوة إذا ثبتت بقيام المعجزة علمنا أن هناك مرسلأ أرسله ؛ إذ لا يكون هناك نبي إلا وهناك مرسل وإذا ثبت أن هناك مرسل أغنى ذلك عن النظر والاستدلال فى دلائل العقول على إثباته .

وقال البيهقي فى كتاب الاعتقاد ما ذكره الخطابي أيضاً فى « الغنية

(١) هذه الرسالة تأخر الحصول عليها وإلا فمحلها كتاب توحيد الربوبية .

عن الكلام وأهله » وقد سلك بعض من بحث في إثبات الصانع وحدوث العالم طريق الاستدلال بمقدمات النبوة ، ومعجزات الرسالة ؛ لأن دلائلها مأخوذة من طريق الحس لمن شاهدها . ومن طريق استفاضة الخبر لمن غاب عنها ؛ فلما ثبتت النبوة صارت أصلاً في وجوب قبول مادعا إليه النبي ؛ وعلى هذا الوجه كان إيمان أكثر المستجيبين للرسول ؛ وذكر قصة جعفر وأصحابه مع النجاشي ، وقصة الأعرابي الذي قال : من خلق السماء وغير ذلك ؟

قلت : كثير من المتكلمين يقولون : لا بد أن تتقدم المعرفة أولاً بثبوت الرب وصفاته التي يعلم بها أنه هو ، ويظهر المعجزة ، وإلا تعذر الاستدلال بها على صدق الرسول ، فضلاً عن وجود الرب .

وأما الطريقة التي ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حُررت ، وقد جاء القرآن بها في قصة فرعون فإنه كان منكراً للرب . قال تعالى : (فَأَيَّا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعْنَابِي إِسْرَءِيلَ * قَالَ أَلَمْ تُرِيدْ أَنْ يَنْوَلِيكَ) — إلى قوله — (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

* قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَعَّيْدُهُ، فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (.

فها : قد عرض عليه موسى الحجّة اليينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين . وفي أن له إلهاً غير فرعون يتخذه . وكذلك قال تعالى : (فَالَّذِينَ سَخِرْبُوا لَكُمْ فَإِذَا هُمْ أَنْزَلُ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَن لَّآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ) فيبين أن المعجزة تدل على الوحدةانية والرسالة ، وذلك : لأن المعجزة — التي هي فعل خارق للعادة — تدل بنفسها على ثبوت الصانع ، كسائر الحوادث ، بل هي أخص من ذلك ؛ لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة ؛ ولهذا يسبح الرب عندها ، ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد ، ويحصل في النفوس ذلة [من ذكر] عظمتها ما لا يحصل للمعتاد ، إذ هي آيات جديدة فتعطي حقها ، وتدل بظهورها على الرسول ، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله . فتتقرر بها الربوبية والرسالة ، لاسيما عند من يقول دلالة المعجزة على صدق الرسول ضرورة ، كما هو قول طائفة من متكلمي المعتزلة : كالجاحظ ، وطوائف من غيرهم ، كالأشعرية والحنبلية الذين يقولون : يحصل الفرق بين المعجزة والسحر والكرامة بالضرورة .

ومن يقول : إن شهادة المعجزة على صدق النبي معلوم بالضرورة ،
وعم كثير من الأشعرية والحنبلية ، وكثير من هؤلاء يقول : لأن عدم
دالاتها على الصدق مستلزم عجز الباري ، إذ لا طريق سواها .

وأما المعتزلة : فلأن عندم أن ذلك قبيح ، لا يجوز من الباري
فعله . والأولون يقولون : ليس (١) كأمر كثيرة جداً ، وقد بينت في
غير هذا الموضع أن العلم موجود ضروري ، وهو الذي عليه جمهور (١) .

(١) يياض بالاصل .

وسئل

أيما أولى معالجة ما يكره الله من قلبك مثل : الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب . وغير ذلك . مما يختص بالقلب من درنه ، وخبثه ؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة : من الصلاة والصيام وأنواع القربات : من النوافل والمندورات مع وجود تلك الأمور في قلبه ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب — رحمه الله : الحمد لله — من ذلك ما هو عليه واجب : وأن للأوجب فضل وزيادة . كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم « ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه » . ثم قال « ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب ، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده . فإذا خبث الملك خبث جنوده ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله » وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد ، وإذا كان المقدم هو الأوجب ، [سواء] سمي

باطناً أو ظاهراً ، فقد يكون ما يسمى باطنا أوجب مثل ترك الحسد والكبر فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام ، وقد يكون ما سمي ظاهراً أفضل : مثل قيام الليل ، فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب من جنس الغبطة ونحوها ، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتورث الخشوع ، ونحو ذلك من الآثار العظيمة : هي أفضل الأعمال والصدقة والله أعلم .



وسئل

هل قال النبي صلى الله عليه وسلم : « زدني فيك تحيراً ؟ » ، وقال بعض العارفين أول المعرفة الحيرة ، وآخرها الحيرة . قيل : من أين تقع الحيرة ؟ قيل : من معنيين :

(أحدهما) كثرة اختلاف الأحوال عليه، والآخرة الشر ، وحذر الإيأس .
وقال الواسطي : نازلة تنزل بقلوب العارفين بين الإيأس والطمع لا تطعمهم في الوصل فيستريحون ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون ،
وقال بعضهم : متى أصل إلى طريق الراجين ، وأنا مقيم في حيرة المتحيرين ؟ .
وقال محمد بن الفضل العارف : كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة . وقال : أعرف الناس بالله أشد هم فيه تحيراً وقال الجنيد : انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة وقال ذو النون : غاية العارفين التحير .
وأنشد بعضهم :

قد تحيرت فيك خذ بيدي يا دليلاً لمن تحير فيه

فينوا لنا القول في ذلك بياناً شافياً .

فأجاب :

(الحمد لله) هذا الكلام المذكور « زدنى فيك تحيراً » من الأحاديث المكنوبة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يروه أحد من أهل العلم بالحديث وإنما يرويه جاهل أو ملحد ؛ فإن هذا الكلام يقتضي أنه كان حاراً ، وأنه سأل الزيادة في الحيرة ، وكلاهما باطل ؛ فإن الله هداه بما أوحاه إليه وعلمه ما لم يكن يعلم ، وأمره بسؤال الزيادة من العلم بقوله : (رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) وهذا يقتضي أنه كان عالماً ، وأنه أمر بطلب المزيد من العلم ، ولذلك أمر هو والمؤمنون بطلب الهداية في قوله : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) وقد قال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فمن يهدي الخلق كيف يكون حاراً . والله قد ذم الحيرة في القرآن في قوله : (قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى) .

وفي الجملة فالحيرة من جنس الجهل والضلال ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق علماً بالله وبأمره ، وأكمل الخلق اهتداء في نفسه ، وهداية لغيره ، وأبعد الخلق عن الجهل والضلال . قال تعالى (وَالتَّجْوِيزَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ) وقال تعالى :

(كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) وقال تعالى : (وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) — إلى قوله — (فَهَدَى اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)
فإن الله قد هدى المؤمنين به ، وقال تعالى : (اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمْنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلًا مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ) فقد كفّل الله لمن آمن به أن يجعل له
نوراً يمشي به . كما قال تعالى : (أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا
يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) وقال تعالى :
(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ومثل هذا كثير
في القرآن والحديث .

ولم يمدح الحيرة أحد من أهل العلم والإيمان ، ولكن مدحها طائفة
من الملاحدة : كصاحب « الفصوص » ابن عربي وأمثاله من الملاحدة ،
الذين هم حيارى ، فمدحوا الحيرة وجعلوها أفضل من الاستقامة ،
وادعوا أنهم أكمل الخلق ، وأن خاتم الأولياء منهم يكون أفضل في العلم
بالله من خاتم الأنبياء ، وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله منهم ، وكانوا في

ذلك . كما يقال فيمن قال : فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن ، فإن الأنبياء أقدم ، فكيف يستفيد المتقدم من المتأخر ، وهم عند المسلمين واليهود والنصارى [ليسوا] أفضل من الأنبياء ، فخرج هؤلاء عن العقل والدين : دين المسلمين واليهود والنصارى . وهؤلاء قد بسطنا الرد عليهم في غير هذا الموضع .

ولهم في « وحدة الوجود والحلول والاتحاد » كلام من شر كلام أهل الإلحاد ، وأما غير هؤلاء من الشيوخ الذين يذكرون الحيرة : فإن كان الرجل منهم يخبر عن حيرته ، فهذا لا يقتضي مدح الحيرة ؛ بل الحائر مأمور بطلب الهدى ، كما نقل عن الإمام أحمد أنه علم رجلاً أن يدعو يقول : يادليل الحائر دلى على طريق الصادقين ، واجعلنى من عبادك الصالحين .

فأما الذي قال : أول المعرفة الحيرة ، وآخرها الحيرة . فقد يريد بذلك معنى صحيحاً مثل أن يريد أن الطالب السالك يكون حائراً قبل حصول المعرفة والهدى ، فإن كل طالب للعلم والهدى هو قبل حصول مطلوبه في نوع من الحيرة ، وقوله آخرها الحيرة قد يراد به أنه لا يزال طالب الهدى والعلم فهو بالنسبة إلى ما لم يصل إليه حائراً ، وليس في ذلك مدح الحيرة ، ولكن يراد به أنه لا بد أن يعتري الإنسان نوع من الحيرة التي يحتاج معها إلى العلم والهدى .

وقوله : والحيرة من معنيين :

« أحدها » . كثرة اختلاف الأحوال ، و« الآخر » شدة الشر ، وحذر الإيأس - إخبار عن سلوك معين ؛ فإنه ليس كل سالك يعتريه هذا ، ولكن من السالكين من تختلف عليه الأحوال ، حتى لا يدري ما يقبل وما يرد وما يفعل وما يترك ، والواجب على من كان كذلك دوام الدعاء لله سبحانه وتعالى ، والتضرع إليه والاستهداء بالكتاب والسنة .

وكذلك بشدة الشر وحذر الإيأس ، فإن في السالكين من يتلى بأمور من المخالفات يخاف معها أن يصير إلى اليأس من رحمة الله ، لقوة خوفه وكثرة المخالفة عند نفسه ، ومثل هذا ينبغي أن يعلم سعة رحمة الله ، وقبول التوبة من عباده وفرحه بذلك .

وقول الآخر : نازلة تنزل بقلوب العارفين بين اليأس والطمع ، فلا تطمعهم في الوصول فيستريحون ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون فيقال : هذا أيضاً حال عارض لبعض السالكين ، ليس هذا أمراً لازماً لكل من سلك طريق الله ، ولا هو أيضاً غاية محمودة ، ولكن بعض السالكين يعرض له هذا . كما يذكر عن الشبلي أنه كان ينشد في هذا المعنى :

أظلت علينا منك يوماً سحابة أضأت لنا برقاً وأبطأ رشاشها

فلا غيمها يجلو فيأس طامع ولا غيثها يأتي فيروى عطاشها

وصاحب هذا الكلام إلى أن يعفو الله عنه ويغفر له مثل هذا الكلام أحوج منه إلى أن يمدح عليه أو يقتدى به فيه ، ومثل هذا كثير قد تكلمنا عليه في غير هذا الموضع ؛ لما تكلمنا على ما يعرض لطائفة من كلام فيه معاتبة لجانب الربوبية ، وإقامة حجة عليه بالجنون المتحير ، وإقامة عذر المحب ، وأمور تشبه هذا . قد تحيز من قال بموجها إلى الكفر والإلحاد ؛ إذ الواجب الإقرار لله بفضله وجوده وإحسانه ، وللنفس بالتقصير والذنب . كما في الحديث الصحيح « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها إذا أصبح موقناً بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقناً بها فمات من ليلته دخل الجنة »

وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يقول الله تعالى : يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وفي الحديث الصحيح

« يقول الله : من تقرب إليّ شبراً تقربت منه ذراعاً . ومن تقرب إليّ ذراعاً تقربت منه باعاً ، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة » وفي الحديث الصحيح « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني » وقد ثبت : أن الله تعالى كل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، وقد ثبت من حكمته ورحمته وعدله ما يهر العقول ؛ لأن هذه المسألة تتعلق بأصول كبار من مسائل « القدر » و « الأمر » و « الوعد » و « الوعيد » . و « الأسماء والصفات » قد بسط الكلام عليها في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : الكلام على ما ذكر عن هؤلاء الشيوخ ، فقول القائل : لا تطعمهم في الوصول فيستريحون ، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحون . هي حال عارض لشخص قد تعلقت همته بمطلوب معين وهو يتردد فيه بين اليأس والطمع ، وهذا حال مذموم ؛ لأن العبد لا ينبغي له أن يقترح على الله شيئاً معيناً ؛ بل تكون همته فعل المأمور ، وترك المحذور ، والصبر على المقدور . فمضى أعين على هذه الثلاثة جاء بعد ذلك من المطالب : ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولو تعلقت همته بمطلوب فدعا الله به فإن الله يعطيه إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها .

ولفظ « الوصول » لفظ مجمل ؛ فإنه ما من سالك إلا وله غاية

يصل إليها . وإذا قيل : وصل إلى الله ، أو إلى توحيدِهِ أو معرفته أو نحو ذلك . ففي ذلك من الأنواع المتنوعة والدرجات المتباينة ما لا يحصيه إلا الله تعالى .

ويأس الإنسان أن يصل إلى ما يحبه الله ويرضاه من معرفته وتوحيدِهِ كبيرة من الكِبَارِ ؛ بل عليه أن يرجو ذلك ويطمع فيه . لكن من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف من شيء هرب منه ، وإذا اجتهد واستعان بالله تعالى ولازم الاستغفار والاجتهاد فلا بد أن يؤتیه الله من فضله ما لم يخطر ببال ، وإذا رأى أنه لا ينشرح صدره ولا يحصل له حلاوة الإيمان ونور الهداية فليكثر التوبة والاستغفار وليلازم الاجتهاد بحسب الإمكان ، فإن الله يقول : (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) وعليه بإقامة الفرائض ظاهراً وباطناً ؛ ولزوم الصراط المستقيم مستعيناً بالله ؛ متبرئاً من الحول والقوة إلا به .

ففي الجملة ليس لأحد أن ييأس ؛ بل عليه أن يرجو رحمة الله كما أنه ليس له أن لا ييأس ؛ بل عليه أن يخاف عذابه . قال تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) . قال بعضهم : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو

حروري ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد .

وأما قول القائل : متى أصل إلى طريق الراجين ؟ وأنا مقيم في حيرة المتحيرين ؛ فهذا إخبار منه عن حال مذموم هو فيها ، كما يخبر الرجل عن نقص إيمانه ، وضعف عرفانه ، ورب في يقينه ؛ وليس مثل هذا مما يطلب ؛ بل هو مما يستعاذ بالله منه .

وأما قول محمد بن الفضل : إنه قال : العارف كلما انتقل من حال إلى حال استقبلته الدهشة والحيرة . فهذا قد يراد به أنه كلما انتقل إلى مقام من المعرفة واليقين حصل له تشوق إلى مقام لم يصل إليه من المعرفة ؛ فهو حائر بالنسبة إلى ما لم يصل إليه دون ما وصل إليه .

وقوله : أعرف الناس بالله أشد منهم فيه تحيراً ؛ أي أطلبهم لزيادة العلم والمعرفة ؛ فإن كثرة علمه ومعرفته توجب له الشعور بأمور لم يعرفها بعد ؛ بل هو حائر فيها طالب لمعرفتها والعلم بها ، ولا ريب أن أعلم الخلق بالله قد قال : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » والخلق ما أوتوا من العلم إلا قليلاً .

وما نقل عن « الجنيد » أنه قال : إنتهى عقل العقلاء إلى الحيرة ؛

فهذا ما أعرفه من كلام الجنيد . وفيه نظر هل قاله ؟ ! ولعل الأشبه أنه ليس من كلامه المعهود ؛ فإن كان قد قال هذا فأراد عدم العلم بما لم يصل إليه ؛ لم يرد بذلك أن الأنبياء والأولياء لم يحصل لهم يقين ومعرفة وهدى وعلم ؛ فان الجنيد أجل من أن يريد هذا ، وهذا الكلام مردود على من قاله . لكن إذا قيل : إن أهل المعرفة مها حصلوا من المعرفة واليقين والهدى فهناك أمور لم يصلوا إليها فهذا صحيح . كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في المسند ، وأبو حاتم في صحيحه : « اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي وغمي » قال : « من قال هذا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحاً ، فقد أخبر أن الله أسماء استأثر بها في علم الغيب عنده وهذه لا يعلمها ملك ولا بشر .

فإذا أراد المرید أن عقول العقلاء لم تصل إلى معرفة مثل هذه الأمور فهذا صحيح وأما إذا أراد أن العقلاء ليس عندهم علم ولا يقين بل حيرة وريب ، فهذا باطل قطعاً .

وما ذكر عن « ذي النون » في هذا الباب مع أن ذا النون قد وقع منه كلام أنكر عليه ، وعززه الحارث بن مسكين ، وطلبه

المتوكل إلى بغداد واتهم بالزندقة ، وجعله الناس من الفلاسفة ، فما أدري هل قال هذا أم لا ؟ بخلاف الجنيد فإن الاستقامة والمتابعة غالبية عليه ، وإن كان كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما ثم معصوم من الخطأ غير الرسول ؛ لكن الشيوخ الذين عرف صحة طريقتهم علم أنهم لا يقصدون ما يعلم فساده بالضرورة من العقل والدين .

وهذا قدر ما احتملته هذه الورقة . والله أعلم .

سئل

عن رجل يحب رجلاً عالماً . فإذا التقيا ثم افترقا حصل لذلك الرجل شبه الغشي من أجل الافتراق . وإذا كان الرجل العالم مشغولاً بحيث لا يلتفت إليه لم يحصل له هذا الحال . فهل هذا من الرجل المحب ؟ . أم هو تأثير الرجل العالم ؟

فأجاب : —

الحمد لله ، سببه من هذا ومن هذا ، مثل الماء إذا شربه العطشان حصل له لذة وطيب ، وسببها عطشه وبرد الماء ، وكذلك النار إذا وقعت في القطن سببه منها ، ومن القطن . والعالم المقبل على الطالب يحصل له لذة وطيب وسرور بسبب إقبال هذا وتوجهه ، وهذا حال المحب مع المحبوب ، والله أعلم .

سئل

ما الحكمة في أن المشتغلين بالذكر والفكر والرياضة ومجاهدة النفس وما أشبهه يفتح عليهم من الكشوفات والكرامات وما سوى ذلك من الأحوال — مع قلة علمهم ، وجهل بعضهم — ما لا يفتح على المشتغلين بالعلم ودرسه ؟ . والبحث عنه ؟ حتى لو بات الإنسان متوجهاً مشتغلاً بالذكر والحضور لا بد أن يرى واقعة أو يفتح عليه شيء ، ولو بات ليلة يكرر على باب من أبواب الفقه لا يجد ذلك ، حتى إن كثيراً من المتعبدين يجد للذكر حلاوة ولذة ، ولا يجد ذلك عند قراءة القرآن ، مع أنه قد وردت السنة بتفضيل العالم على العابد ، لاسيما إذا كان العابد محتاجاً إلى علم هو مشغول به عن العبادة .

ففي الحديث « إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل للعابدين والمجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا عبدوا واجاهدوا ، فيقول الله عز وجل

لهم : أتم عندي كملائكتي ، اشفعوا فيشفعون . ثم يدخلون الجنة » وغير ذلك من الأحاديث والآثار .

ثم إن كثيراً من المتعبدين يؤثر العبادة على طلب العلم ، مع جهله بما يبطل كثيراً من عبادته ، كنواقض الوضوء ، أو مبطلات الصلاة والصوم ، وربما يحكي بعضهم حكاية في هذا المعنى : بأن « رابعة العدوية » - رحمها الله - أتت ليلة بالقدس تصلي حتى الصباح ، وإلى جانبها بيت فيه فقيه يكرر على باب الحيز إلى الصباح ، فلما أصبحت رابعة قالت له : يا هذا ! وصل الواصلون إلى ربهم ، وأنت مشغل بحيز النساء . أو نحوها ، فما المانع أن يحصل للمشتغلين بالعلم ما يحصل للمشتغلين بالعبادة مع فضله عليه ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . لا ريب أن الذي أوتي العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة ، والعلم المدوح الذي دل عليه الكتاب والسنة هو العلم الذي ورتته الأنبياء . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن العلماء ورثة الأنبياء ؛ إن الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وهذا العلم ثلاثة أقسام ،

«علم بالله وأسمائه وصفاته» ، وما يتبع ذلك ، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص ، وآية الكرسي ، ونحوهما .

و « القسم الثانى » : العلم بما أخبر الله به ، مما كان من الأمور الماضية ، وما يكون من الأمور المستقبلية ، وما هو كائن من الأمور الحاضرة ، وفي مثل هذا أنزل الله آيات القصص ، والوعد ، والوعيد ، وصفة الجنة والنار ، ونحو ذلك .

و « القسم الثالث » : العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها وأقوال الجوارح وأعمالها وهذا العلم يندرج فيه العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة ، وهذا العلم يندرج فيه ما وجد فى كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال الظاهرة ، فإن ذلك جزء من جزء من علم الدين كما أن المكاشفات التى تكون لأهل الصفا جزء من جزء من علم الأمور الكونية .

والناس إنما يغلطون فى هذه المسائل : لأنهم يفهمون مسميات الأسماء الواردة فى الكتاب والسنة ، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة قرب رجل يحفظ حروف العلم التى أعظمها حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم : بل ولا من الإيمان ما يتميز به على من أوتى

القرآن ولم يؤت حفظ حروف العلم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب . ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن : مثل التمرة طعمها طيب ولا ريع لها . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن : كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر . ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريع لها » .

فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره ، ولا يكون مؤمناً بل يكون منافقاً . فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه . وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان . وأما الذي أوتي العلم والإيمان فهو مؤمن عليم ، فهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم مثل اشتراكهما في الإيمان ؛ فهذا أصل يجب معرفته .

وهنا « أصل آخر » : وهو أنه ليس كل عمل أورث كشفاً أو تصرفاً في الكون يكون أفضل من العمل الذي لا يورث كشفاً وتصرفاً ؛ فإن الكشف والتصرف إن لم يكن مما يستعان به على دين الله وإلا كان من متاع الحياة الدنيا . وقد يحصل ذلك للكفار من المشركين وأهل الكتاب ؛ وإن لم يحصل لأهل الإيمان الذين هم أهل الجنة ؛ وأولئك أصحاب النار .

فضائل الأعمال ودرجاتها لا تتلقى من مثل هذا ؛ وإنما تتلقى من دلالة الكتاب والسنة ؛ ولهذا كان كثير من الأعمال يحصل لصاحبه في الدنيا رئاسة ومال ، فأكرم الخلق عند الله أنقام . ومن عبد الله بغير علم فقد أفسد أكثر مما يصلح ، وإن حصل له كشف وتصرف ؛ وإن اقتدى به خلق كثير من العامة ؛ وقد بسطنا الكلام في هذا الباب في مواضعه ؛ فهذا « أصل ثان » .

و « أصل ثالث » أن تفضيل العمل على العمل قد يكون مطلقاً مثل تفضيل أصل الدين على فرعه ، وقد يكون مقيداً . فقد يكون أحد العاملين في حق زيد أفضل من الآخر ، والآخر في حق عمرو أفضل ، وقد يكونان متماثلين في حق الشخص ، وقد يكون المفضل في وقت أفضل من الفاضل ؛ وقد يكون المفضل في حق من يقدر عليه ويتنفع به أفضل من الفاضل في حق من ليس كذلك .

مثال ذلك أن قراءة القرآن أفضل من مجرد الذكر بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة - ولا اعتبار بمن يخالف ذلك من جهال العباد - ثم الركوع والسجود ينهى فيه عن قراءة القرآن ، ويؤمر فيه بالذكر ، وكذلك الذكر والدعاء في الطواف وعرفة ونحوهما ، أفضل من قراءة القرآن ، وكذلك الأذكار المشروعة : مثل ما يقال عند سماع النداء ودخول المسجد والمنزل والخروج منها ، وعند سماع

الديكة والحمر ونحو ذلك أفضل من قراءة القرآن في هذا الموطن ،
وأيضاً فأكثر السالكين إذا قرأوا القرآن لا يفهمونه . وهم بعد لم
يذوقوا حلاوة الإيمان الذي يزيدهم بها القرآن إيماناً ، فإذا أقبلوا على
الذكر أعطاهم الذكر من الإيمان ما يجدون حلاوته ولذته ، فيكون الذكر أنفع
لهم حينئذ من قراءة لا يفهمونها ، ولا معهم من الإيمان ما يزداد بقراءة
القرآن أما إذا أوتي الرجل الإيمان فالقرآن يزيده من الإيمان ما لا
يحصل بمجرد الذكر ، فهذا « أصل ثالث »

و « أصل رابع » : وهو أن الرجل قد يأتي بالعمل الفاضل من
غير قيام بشروطه ، ولا إخلاص فيه ، فيكون بتفويت شرائطه دون
من أتى بالمفضول المكمل .

فهذه الأصول ونحوها تبين جواب هذا السائل ، وإن كان تفصيل
ذلك لا تتسع له الورقة والله أعلم .

سئل الشيخ رحمه الله

عن قوم داوموا على « الرياضة » مرة فرأوا أنهم قد تجوهروا ، فقالوا : لا نبالي الآن ما عملنا ، وإنما الأوامر والنواهي رسوم العوام ، ولو تجوهروا لسقطت عنهم ، وحاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة والمراد منها ضبط العوام ، ولسنا نحن من العوام ، فندخل في حجب التكليف ، لأننا قد تجوهرنا ، وعرفنا الحكمة . فهل هذا القول كفر من قائله ؟ أم يبدع من غير تكفير ؟ وهل يصير ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي - صلى الله عليه وسلم - ؟ .

فأجاب : - لا ريب عند أهل العلم والإيمان أن هذا القول من أعظم الكفر ، وأغلظه . وهو شر من قول اليهود والنصارى ؛ فإن اليهودي والنصراني آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض . وأولئك هم الكافرون حقا كما ذكر أنهم يقولون بأن لله أمراً ونهياً ، ووعداً ووعيداً ، وأن ذلك متناول لهم إلى حين الموت . هذا إن كانوا متمسكين باليهودية والنصرانية المبدلة المنسوخة .

وأما إن كانوا من منافقي أهل ملتهم - كما هو الغالب على متكلميهم

ومتفلسفهم — كانوا شراً من منافقي هذه الأمة ، حيث كانوا مظهرين
للكفر ومبطنين للنفاق ، فهم شر ممن يظهر إيماناً ويبطن نفاقاً .

والمقصود أن المتمسكين بجملة منسوخة فيها تبديل خير من هؤلاء
الذين يزعمون سقوط الأمر والنهي عنهم بالكلية ؛ فإن هؤلاء خارجون
في هذه الحال عن جميع الكتب والشرائع والمثل ؛ لا يلتزمون لله أمراً
ولا نهياً بحال ؛ بل هؤلاء شر من المشركين المستمسكين ببقايا من المثل ؛
كمشركي العرب الذين كانوا مستمسكين ببقايا من دين إبراهيم عليه
السلام ، فإن أولئك معهم نوع من الحق يلتزمون به ، وإن كانوا مع
ذلك مشركين ، وهؤلاء خارجون عن التزام شيء من الحق ، بحيث
يظنون أنهم قد صاروا سدى لا أمر عليهم ولا نهي .

فمن كان من قوله هو أنه أو طائفة غيره قد خرجت عن كل أمر
ونهي ، بحيث لا يجب عليها شيء ، ولا يحرم عليها شيء ، فهؤلاء
أكفر أهل الأرض ، وهم من جنس فرعون وذويه ، وهم مع هذا لا
بد أن يلتزموا بشيء يعيشون به ، إذ لا يمكن النوع الإنساني أن يعيش
إلا بنوع أمر ونهي ، فيخرجون عن طاعة الرحمن وعبادته إلى طاعة
الشیطان وعبادته ؛ ففرعون هو الذي قال لموسى : (وَمَارَبُّ الْعَالَمِينَ)
ثم كانت له آلهة يعبدوها . كما قال له قومه : (وَيَذَرَكُوهُ الْهَتَكَ) .

ولكن كثير من هؤلاء لا يطلقون السلب العام ، ويخرجون عن رتبة العبودية مطلقاً ، بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم ، أو حل بعض المحرمات لهم ، فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصله إلى المقصود وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان في حال مشاهدة وحضور ، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها بما هو فيه من التوجه والحضور ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه ؛ لأن الكعبة تطوف به ، أو لغير هذا من الحالات الشيطانية . ومنهم من يستحل الفطر في رمضان لغير عذر شرعي زعماً منه استغناؤه عن الصيام . ومنهم من يستحل الخمر زعماً منه أنها إنما تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة العقلاء ، يزعمون أنها تحرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة ، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة : فتباح لهم دون العامة .

وهذه « الشبهة » كانت قد وقعت لبعض الأولين فانفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك فإن قدامة بن عبد الله شربها هو وطائفة وتناولوا قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فلما ذكر

ذلك لعمر بن الخطاب انفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وإن أصرروا على استحلالها قتلوا . وقال عمر

لقدامة : أخطأت إستك الحفرة . أما إنك لو انقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر ؛ وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب : أن الله سبحانه لما حرم الخمر - وكان تحريمها بعد وقعة أحد - قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ . فأزل الله هذه الآية بين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم تحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين .

وهذا كما أنه لما صرف القبلة وأحرم باستقبال الكعبة بعد أن كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس ، فقال الله تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ) أي صلاتكم إلى بيت المقدس . فبين سبحانه أن من عمل بطاعة الله أثابه الله على ذلك ، وإن نهى عن ذلك في وقت آخر ، ومن استحل ما لم يحرمه لم يكن عليه جناح ، إذا كان من المؤمنين المتقين وإن حرم الله ذلك في وقت آخر . فأما بعد أن حرم الخمر فاستحلها بمنزلة الصلاة إلى الصخرة بعد تحريم ذلك ، وبمنزلة التبعد بالسبت واستحلال الزنا ، وغير ذلك مما استقرت الشريعة على خلاف ما كان ، وإلا فليس لأحد أن يستمسك من شرع منسوخ بأمر . ومن فعل ذلك كان بمنزلة المستمسك بما نسخ من الشرائع : فلهذا اتفق الصحابة على أن من استحل الخمر قتلوه ، ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك ندموا ، وعلموا أنهم أخطأوا وأبسوا من التوبة . فكتب

عمر إلى قدامة يقول له : (حَمَّ * نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ *
غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) ما أدري أي ذنبك أعظم
استحللك المحرم أولاً ؟ أم يأسك من رحمة الله ثانياً ؟

وهذا الذي اتفق عليه الصحابة ، هو متفق عليه بين أئمة الإسلام
لا يتنازعون في ذلك ، ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة
المتواترة : كالصلوات الخمس ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت العتيق
أو جحد تحريم بعض المحرمات الظاهرة المتواترة : كالفواحش ، والظلم
والحمر والميسر والزنا وغير ذلك . أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة
المتواترة : كالخبز واللحم والنكاح . فهو كافر مرتد ، يستتاب فإن تاب
وإلا قتل ، وإن أضر ذلك كان زنديقاً منافقاً ، لا يستتاب عند أكثر
العلماء ؛ بل يقتل بلا استتابة ، إذا ظهر ذلك منه .

ومن هؤلاء من يستحل بعض الفواحش : كاستحلال مؤاخاة النساء
الأجانب والخلو بهن ، زعما منه أنه يحصل لهن البركة بما يفعله معهن
وإن كان محرماً في الشريعة . وكذلك من يستحل ذلك من المردان
ويزعم أن التمتع بالنظر إليهم ومباشرتهم هو طريق لبعض السالكين
حتى يترقى من حبة الخلق [إلى حبة الخالق] ويأمرون بمقدمات الفاحشة
الكبرى ، وقد يستحلون الفاحشة الكبرى ، كما يستحلها من يقول :
إن التلوط مباح بملك اليمين . فهؤلاء كلهم كفار باتفاق المسلمين ؛ وهم

بمنزلة من يستحل قتل المسلمين بغير حق . ويسبي حريمهم ويغنم أموالهم ، وغير ذلك من المحرمات ، التي يعلم أنها من المحرمات تحريماً ظاهراً متواتراً .

لكن من الناس من يكون جاهلاً ببعض هذه الأحكام جهلاً بعذر به ، فلا يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً) ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه : أو لم يعلم أن الحمر يحرم لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا ؛ بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية . بل قد اختلف العلماء فيمن أسلم بدار الحرب ولم يعلم أن الصلاة واجبة ثم علم . هل يجب عليه قضاء ما تركه في حال الجهل ؟ على قولين في مذهب الإمام أحمد وغيره :

(أحدهما) : لا يجب عليه القضاء ، وهو مذهب أبي حنيفة .

و (الثاني) : يجب عليه القضاء ، وهو المشهور عند أصحاب الشافعي بل النزاع بين العلماء في كل من ترك واجبا قبل بلوغ الحجة : مثل ترك الصلاة عند عدم الماء يحسب أن الصلاة لا تصح بتيمم ، أو من أكل حتى تبين له الحيط الأبيض من الحيط الأسود ، ويحسب أن ذلك هو المراد بالآية ، كما جرى ذلك

لبعض الصحابة ، أو مس ذكره ، أو أكل لحم الإبل ولم يتوضأ ، ثم تبين له وجوب ذلك ، وأمثال هذه المسائل هل يجب عليه القضاء ؟ على قولين في مذهب أحمد وغيره . وأصل ذلك هل يثبت حكم الخطاب في حق المكلف قبل التمكن من سماعه ؟ على « ثلاثة أقوال » في مذهب أحمد وغيره .

قيل : يثبت مطلقاً ، وقيل : لا يثبت مطلقاً ؛ وقيل : يفرق بين الخطاب الناسخ ؛ والخطاب المبتدأ . كأهل القبلة ، والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية : أن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه ؛ فإن القضاء لا يجب عليه في الصور المذكورة ونظائرهما مع اتفاقهم على انتفاء الإثم ؛ لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان فإذا كان هذا في التأثيم فكيف في التكفير ؟!

وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات ، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ، فلا يعلم كثيراً مما بيعت الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك ، ومثل هذا لا يكفر ؛ ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان ، وكان حديث العهد بالإسلام ، فأنكر شيئاً من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول ؛ ولهذا جاء في الحديث « يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا

صوماً ولا حجا إلا الشيخ الكبير ، والعجوز الكبيرة ، يقول أدركنا
آباءنا وهم يقولون : لا إله إلا الله ، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا
حجا . فقال : ولا صوم ينجيهم من النار . »

وقد دل على هذا الأصل ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال رجل — لم يعجل
حسنة قط — لأهله إذا مات فحرقوه ، ثم أذروا نصفه في البر ، ونصفه
في البحر ، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبه عذاباً لا يعذبه أحداً من
العالمين . فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه
وأمر البحر فجمع ما فيه ، ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك
يا رب ! وأنت أعلم ؛ فغفر الله له » وفي لفظ آخر « أسرف رجل على
نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال : إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم
اسحقوني ، ثم أذروني في البحر . فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني
عذاباً ما عذبه أحداً . قال : ففعلوا ذلك به . فقال للأرض : أدِّ
ما أخذت ، فإذا هو قائم . فقال له : ما حملك على ما صنعت . قال :
خشيتك يا رب . أو قال : مخافتك ، فغفر له بذلك » وفي طريق آخر
« قال الله لكل شيء أخذ منه شيئاً : أد ما أخذت منه » .

وقد أخرج البخاري هذه القصة من حديث حذيفة وعقبة بن
عمرو أيضاً عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان

رجل فيمن كان قبلكم كان بسوء الظن بعمله . فقال لأهله : إذا أنامت
فخذوني فذروني في البحر في يوم صائف ففعلوا ، فجمعه الله . ثم قال :
ما حملك على الذي فعلت (١) ؟ فقال : ما حملني إلا مخافتك . فغفر له .

وفي طريق آخر : « أن رجلاً حضره الموت ، فلما يئس من الحياة
أوصى أهله إذا أنامت ، فاجمعوا لي حطباً كثيراً ، وأوقدوا فيه ناراً حتى
إذا أكلت لحمي ، ووصلت إلى عظمي ، فامتحشت ، فخذوها فاطحنوها
ثم انظروا يوماً فذروني في اليم . فجمعه الله فقال له : لم فعلت ذلك ؟
قال : من خشيتك . فغفر الله له » قال عقبه بن عمرو أنا سمعته — يعني
النبي صلى الله عليه وسلم — يقول ذلك . وكان نباشاً .

فهذا الرجل ظن أن الله لا يقدر عليه إذا تفرق هذا التفرق ،
فظن أنه لا يعيده إذا صار كذلك ، وكل واحد من إنكار قدرة الله
تعالى ، وإنكار معاد الأبدان وإن تفرقت كفر . لكنه كان مع إيمانه بالله
وإيمانه بأمره وخشيته منه جاهلاً بذلك ، ضالاً في هذا الظن مخطئاً .
فغفر الله له ذلك . والحديث صريح في أن الرجل طمع أن لا يعيده
إذا فعل ذلك ، وأدنى هذا أن يكون شاكاً في المعاد ، وذلك كفر
— إذا قامت حجة النبوة على منكره حكم بكفره — هو بين في عدم إيمانه

(١) نسخة صنعت .

بالله تعالى ، ومن تأول قوله : لئن قدر الله علي بمعنى قضى ، أو بمعنى ضيق ، فقد أبعد النجعة ، وحرف الكلم عن مواضعه ، فإنه إنما أمر بتحيقه وتفريقه لئلا يجمع ويعاد . وقال : إذا أنامت فأحرقوني ثم اسحقوني ، ثم ذروني في الريح في البحر ، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً .

فذكر هذه الجملة الثانية بحرف الفاء عقيب الأولى يدل على أنه سبب لها ، وأنه فعل ذلك لئلا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، فلو كان مقراً بقدرة الله عليه إذا فعل ذلك كقدرته عليه إذا لم يفعل لم يكن في ذلك فائدة له ؛ ولأن التقدير عليه والتضييق موافقان للتعذيب ، وهو قد جعل تفريقه مغايراً ، لأن يقدر الرب . قال : فوالله ! لئن قدر الله علي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً من العالمين . فلا يكون الشرط هو الجزاء ؛ ولأنه لو كان مراده ذلك لقال : فوالله لئن جازاني ربي أو لئن عاقبني ربي ليعذبني عذاباً ، كما هو الخطاب المعروف في مثل ذلك ؛ ولأن لفظ « قدر » بمعنى ضيق لا أصل له في اللغة .

ومن استشهد على ذلك بقوله : (وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ) وقوله : (وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) فقد استشهد بما لا يشهد له . فإن اللفظ كان بقوله : (وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ) أي اجعل ذلك بقدر ، ولا تزد ولا تنقص وقوله : (وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ) أي جعل رزقه قدر ما يغنيه

من غير فضل ، إذ لو ينقص الرزق عن ذلك لم يعش .

وأما « قَدَرَ » بمعنى قَدَّرَ . أي أراد تقدير الخير والشر فهو لم يقل : إن قدر علي ربي العذاب ، بل قال : لئن قدر علي ربي ، والتقدير يتناول النوعين ، فلا يصح أن يقال : لئن قضى الله علي ؛ لأنه قد مضى وتقرر عليه ما ينفعه وما يضره ؛ ولأنه لو كان المراد التقدير أو التضييق لم يكن ما فعله مانعاً من ذلك في ظنه . ودلائل فساد هذا التحريف كثيرة ليس هذا موضع بسطها ، فغاية ما في هذا أنه كان رجلاً لم يكن عالماً بجميع ما يستحقه الله من الصفات ، وبتفصيل أنه القادر ، وكثير من المؤمنين قد يجهل مثل ذلك ، فلا يكون كافراً .

ومن تتبع الأحاديث الصحيحة وجد فيها من هذا الجنس ما يوافقه كما روى مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « ألا أحدثكم عني وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قلنا : بلى ! قالت : لما كانت ليلتي التي النبي صلى الله عليه وسلم فيها عندي ، انقلب فوضع رداءه ، وخلع نعليه فوضعها عند رجله ، وبسط طرف إزاره على فراشه ، واضطجع فلم يثبت إلا ريثما ظن أنني رقدت ، فأخذ رداءه رويداً ، وانتقل رويداً ، وفتح الباب رويداً ، فخرج ، ثم أجافه رويداً ، فجعلت درعي في رأسي ، واختمت وتقنعت إزارتي ثم انطلقت على إثره حتى جاء البقيع . فقام فأطال القيام ، ثم رفع يديه

ثلاث مرات ، ثم انحرف فأنحرفت وأسرع فأسرعت فهورول وهورول وأحضر وأحضرت ، فسبقتة فدخلت ، فليس إلا أن اضطجعت فقال : مالك يا عائشة حشيتي رايية ؟ قالت : لا شيء . قال : لتخبريني ، أو ليخبرني اللطيف الحبير . قالت : قلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي فأخبرته . قال : فأنت السواد الذي رأيت أمامي ؟ قلت : نعم فلهزني في صدري لهزة أوجعتني . ثم قال : أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ ! قالت : قلت مهما يكتم الناس بعلمه الله ، قال : نعم ! قال : فإن جبريل — عليه السلام — أتاني حين رأيت فناداني — فأخفاه منك فأجبه وأخفيه منك ، ولم يكن يدخل عليك وقد وضعت ثيابك ، وظننت أنك رقدت ، وكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي — فقال : إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم . قلت : كيف أقول يا رسول الله ؟ قال : قولي : السلام على أهل الديار من المؤمنين ، والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله للاحقون . »

فهذه عائشة أم المؤمنين : سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - هل يعلم الله كل ما يكتم الناس ؟ فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : نعم ، وهذا يدل على أنها لم تكن تعلم ذلك ، ولم تكن قبل معرفتها بأن الله عالم بكل شيء يكتمه الناس كفرة ، وإن كان الإقرار [بذلك]

بعد قيام الحجة من أصول الإيمان ، وإنكار علمه بكل شيء إنكار قدرته على كل شيء ، هذا مع أنها كانت ممن يستحق اللوم على الذنب ، ولهذا لهزها النبي صلى الله عليه وسلم وقال : أتخافين أن يحيف الله عليك ورسوله ؟ ! وهذا الأصل مبسوط في غير هذا الموضع .

فقد تبين أن هذا القول كفر ، ولكن تكفير قائله لا يحكم به حتى يكون قد بلغه من العلم ما تقوم به عليه الحجة التي يكفر تاركها ، ودلائل فساد هذا القول كثيرة في الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمتها ومشايخها ، لا يحتاج إلى بسطها . بل قد علم بالاضطرار من دين الإسلام : أن الأمر والنهي ثابت في حق العباد إلى الموت .

وأما قول القائل : هل يصدر ذلك عمن في قلبه خضوع للنبي صلى الله عليه وسلم ؟ .

فيقال : هذا لا يصدر عمن هو مقر بالنبوات مطلقاً ، بل قائل ذلك كافر بجميع الأنبياء والمرسلين ؛ لأنهم جميعاً أتوا بالأمر والنهي للعباد إلى حين الموت بل لا يصدر هذا القول ممن في قلبه خضوع لله وإقرار بأنه إله العالم ، فإن هذا الإقرار يستلزم أن يكون الإنسان عبداً لله خاضعاً له ، ومن سوغ لإنسان أن يفعل ما يشاء من غير تعبد بعبادة الله ، فقد أنكر أن يكون الله إلهه .

وأما قولهم إنهم قد تجوهروا ، فقالوا : لا نبالي الآن ما عملنا ؟ .

فيقال لهم : ماذا تغنون بقولكم ؟ فإن أرادوا أن النفس بقيت صافية طاهرة ، لا تتازع إلى الشهوات والأهواء المردية ، فهذا لو كان حقاً لكان معناه أن النفس قد صارت مطيعة ليس فيها دواعي المعصية فتكون منقادة إلى فعل المأمور ، ولا تميل إلى المحذور ، وهذا غاية أن تكون معصومة لا تطلب فعل القبيح ، وهذا ما يخرجها أن تكون مأمورة منهية كالملائكة .

وإذا قال مثل هؤلاء : لا ينافي ما عملنا ، قيل لهم : الذي تعملونه إن كان من جنس الأهواء المردية فقد تناقضتم في زعمكم أن نفوسكم لم يبق لها هوى ، وإن كان من جنس الأعمال الصالحة فهذا جنس لا ينكر ، فعلم أنهم متناقضون في هذا الكلام إذا أرادوا بتجوهر النفس صفاءها وطهارتها عن الأكدار البشرية ، مع أن هذا الكمال ممتنع في حق البشر ما دامت الأرواح في الأجسام ؛ ولهذا أنكر المشايخ ذلك على من ادعاه ، كالأثار المعروفة في ذلك عن الشيخ أبي علي الروذباري وغيرهم وأعظم الناس درجة الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمرم الله بالتوبة والاستغفار ، حتى خاتم الرسل أمره الله في أواخر ما أنزل عليه من القرآن ما أمره به بقوله : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

ولهذا كان الذي عليه سلف الأمة وأئمتها أن الأنبياء إنما هم معصومون من الإقرار على الذنوب ، وأن الله يستدرهم بالتوبة التي يحبها الله - (يُحِبُّ التَّوْبِينَ) - وإن كانت حسنات الأبرار سيئات المقربين . وأن ما صدر منهم من ذلك إنما كان لكمال النهاية بالتوبة لا لنقص البداية بالذنوب . وأما غيرهم فلا تجب له العصمة ، وإنما يدعي العصمة المطلقة لغير الأنبياء الجهال من الرافضة وغالية النساك ، وهذا مبسوط في موضعه .

وأما قولهم : حاصل النبوة يرجع إلى الحكمة والمصلحة ، فلا ريب أن الله يبعث الأنبياء لما فيه صلاح العباد في المعاش والمعاد ، ولا ريب أن الله أمر العباد بما فيه صلاحهم ونهاهم عما فيه فسادهم ، ولا ريب أن الحكمة هي العلم والعمل بها ، كما فسرناها بذلك مالك بن أنس وغيره من الأئمة ؛ لكن أي شيء في هذا مما يوجب سقوطها عن بعض العباد ؟ وإنما يخرج عن الحكمة والمصلحة من يكون سفيهاً مفسداً (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ) (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) .

وأما قولهم : المراد منها ضبط العوام ولسنا نحن من العوام .

فالكلمة الأولى : زندقة ونفاق ، والثانية كذب واختلاق ، فإنه ليس المراد من الشرائع مجرد ضبط العوام ؛ بل المراد منها الصلاح باطنا

وظاهراً ، للخاصة والعامة في المعاش والمعاد ، ولكن في بعض فوائد العقوبات المشروعة في الدنيا ضبط العوام . كما قال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » فإن من يكون من المنافقين والفجار فإنه ينزجر بما يشاهده من العقوبات ، وينضبط عن انتهاك المحرمات ، فهذا بعض فوائد العقوبات السلطانية المشروعة .

وأما فوائد الأمر والنهي : فأعظم من أن يحصيها خطاب أو كتاب ؛ بل هي الجامعة لكل خير يطلب ويراد ، وفي الخروج عنها كل شر وفساد .

ودعوى هؤلاء أنهم من الخواص ، يوجب أنهم من حثالة منافقي العامة ، وهم داخلون فيما نعت الله به المنافقين في قوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخٰدِعُونَ اللّٰهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخٰدِعُونَ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّٰهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ بِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ * وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوْا فِى الْاَرْضِ قَالُوْا اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُوْنَ * اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُوْنَ وَلٰكِنْ لَا يَشْعُرُوْنَ * وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوْا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوْا اَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلٰكِنْ لَا يَعْلَمُوْنَ — إلى قوله — صُمُّ بُكْمٌ عُمًى فَهُمْ لَا يَرْجِعُوْنَ) . وفي مثل قوله : (اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِيْنَ يَرْعُمُوْنَ اَنْفُسَهُمْ ءَامِنُوْا بِمَا اُنْزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنْزِلَ مِنْ

قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) ولبسط الكلام على أمثال هؤلاء موضع غير هذا .

ومن هؤلاء من يحتج بقوله : (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) ويقول معناها : اعبد ربك حتى يحصل لك العلم والمعرفة ، فإذا حصل ذلك سقطت العبادة . وربما قال بعضهم : اعمل حتى يحصل لك حال ، فإذا حصل لك حال تصوفي [سقطت عنك العبادة] وهؤلاء فيهم من إذا ظن حصول مطلوبه من المعرفة والحال استحل ترك الفرائض ، وارتكاب المحارم ، وهذا كفر كما تقدم .

ومنهم من يظن استغناءه عن النوافل حينئذ ، وهذا مغبون منقوص جاهل ضال خاسر باعتقاد الاستغناء عن النوافل واستخفافه بها حينئذ ،

بخلاف من تركها معتقداً كمال من فعلها حينئذ معظماً لحاله ، فإن هذا ليس مذموماً ، وإن كان الفاعل لها مع ذلك أفضل منه ، أو يكون هذا من المقربين السابقين ، وهذا من المقتصدين ، أصحاب اليمين .

ومن هؤلاء من يظن أن الاستمسك بالشرعية — أمراً ونهياً — إنما يجب عليه ما لم يحصل له من المعرفة أو الحال ، فإذا حصل له لم يجب عليه حينئذ الاستمسك بالشرعية النبوية ، بل له حينئذ أن يمشي مع الحقيقة الكونية القدريّة ، أو يفعل بمقتضى ذوقه ووجدته وكشفه ورأيه من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، وهؤلاء منهم من يعاقب بسلب حاله حتى يصير منقوصاً عاجزاً محروماً ، ومنهم من يعاقب بسلب الطاعة حتى يصير فاسقاً ، ومنهم من يعاقب بسلب الإيمان حتى يصير مرتداً منافقاً ، أو كافراً ملعناً . وهؤلاء كثيرون جداً ، وكثير من هؤلاء يحتاج بقصة موسى والخضر .

فأما استدلالهم بقوله تعالى : (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)
فهي عليهم لا لهم ، قال الحسن البصري : إن الله لم يجعل لعمل المؤمنين أجلاً دون الموت ، وقرأ قوله : (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) ؛ وذلك أن اليقين هنا الموت وما بعده باتفاق علماء المسلمين وهؤلاء من المستيقنين . وذلك مثل قوله : (مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَوْلَا لَنَا مِنَ الْمَصْلِينَ — إلى قوله — وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا)

تَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ (فهذا قالوه وهم في جهنم .
وأخبروا أنهم كانوا [على] مأم عليه من ترك الصلاة والزكاة والتكذيب
بالآخرة ، والحوض مع الخائضين حتى أتاها اليقين . ومعلوم أنهم مع
هذا الحال لم يكونوا مؤمنين بذلك في الدنيا ، ولم يكونوا مع الذين
قال الله فيهم : (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) وإنما أراد بذلك أنه أتاها
ما يوعدون . وهو اليقين . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم
في الحديث الصحيح — لما توفي عثمان بن مظعون — وشهدت له بعض
النسوة بالجنة . فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ؟ إني
والله وأنا رسول الله ما أدري ما يفعل بي » وقال : « أما عثمان فقد
جاءه اليقين من ربه » أي أتاه ما وعده وهو اليقين .

و « يقين » على وزن فعيل . وسواء كان فعيل بمعنى مفعول ، أي
الموت . كالحيب والنصيح والذبيح ، أو كان مصدراً وضع موضع
المفعول . كقوله : (هَذَا خَلْقُ اللَّهِ) وقوله : (أَنَّى أَمْرُ اللَّهِ) وقوله :
ضرب الأمير ؛ وغفر الله لك . قيل : وقولهم قدرة عظيمة . وأمثال
ذلك ؛ فإنه كثير . فعلى التقديرين المعنى لا يختلف ؛ بل اليقين هو ما وعد
به العباد من أمر الآخرة ، وقوله : (حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) كقولك :
يأتيك ما توعده .

فأما أن يظن أن المراد : اعبدته حتى يحصل لك إيقان ، ثم لاعبادته

عليك . فهذا كفر باتفاق أئمة المسلمين ؛ ولهذا لما ذكر للجنيـد بن محمد أن قوماً يزعمون أنهم يصلون من طريق البر إلى ترك العبادات . فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء ، وما زال أئمة الدين ومشايخه يعظمون النكير على هؤلاء المنافقين ، وإن كانوا من الزهاد العابدين وأهل الكشف والتصرف في الكون وأرباب الكلام والنظر في العلوم ، فإن هذه الأمور قد يكون بعضها في أهل الكفر والنفاق ومن المشركين وأهل الكتاب . وإنما الفاصل بين أهل الجنة وأهل النار؛ الإيمان والتقوى . الذي هو نعت أولياء الله . كما قال : (الْآيَاتِ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وأما احتجاجهم بقصة موسى والخضر فيحتجون بها على وجهين :

(احدهما) : أن يقولوا : إن الخضر كان مشاهداً لإرادة الربانية الشاملة ، والمشئنة الإلهية العامة ، وهي « الحقيقة الكونية » . فلذلك سقط عنه الملام فيما خالف فيه الأمر والهي الشرعي ، وهو من عظيم الجهل والضلال ، بل من عظيم النفاق والكفر ، فإن مضمون هذا الكلام : أن من آمن بالقدر وشهد أن الله رب كل شيء ، لم يكن عليه أمر ولا نهى ، وهذا كفر بجميع كتب الله ورسله ، وما جاءوا به من الأمر والهي ، وهو من جنس قول المشركين الذين قالوا : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ) قال الله

تعالى : (كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)
ونظير هذا في سورة النحل ، وفي سورة يس . (وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أطعمهم إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وكذلك في سورة الزخرف : (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَالَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) .

وهؤلاء هم « القدرية المشركية » الذين يحتجون بالقدر على دفع الأمر والهي هم شر من القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة ، الذين روى فيهم : « إن مرضوا فلا تعودوم ، وإن ماتوا فلا تشهدوم » ؛ لأن هؤلاء يقرون بالأمر والهي والثواب والعقاب ، لكن أنكروا عموم الإرادة والقدرة والخلق ، وربما أنكروا سابق العلم .

وأما « القدرية المشركية » فإنهم ينكرون الأمر والهي والثواب والعقاب ، لكن [وإن لم ينكروا] عموم الإرادة والقدرة والخلق ، فإنهم ينكرون الأمر والهي والوعد والوعيد ، ويكفرون بجميع الرسل والكتب ؛ فإن الله إنما أرسل الرسل مبشرين من أطاعهم بالثواب ، ومنذرين من عصاهم بالعقاب . وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع غير هذا .

و « أيضاً » فإن موسى عليه السلام كان مؤمناً بالقدر ، وعالماً به بل أتباعه من بني إسرائيل كانوا أيضاً مؤمنين بالقدر ، فهل يظن من له أدنى عقل أن موسى طلب أن يتعلم من الخضر الإيمان بالقدر ، وأن ذلك يدفع الملام ، مع أن موسى أعلم بالقدر من الخضر ، بل عموم أصحاب موسى يعلمون ذلك .

و « أيضاً » فلو كان هذا هو السر في قصة الخضر بين ذلك لموسى . وقال : إني كنت شاهداً للإرادة والقدر ، وليس الأمر كذلك . بل بين له أسباباً شرعية تبيح له ما فعل . كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

وأما « الوجه الثاني » : فإن من هؤلاء من يظن : أن من الأولياء من يسوغ له الخروج عن الشريعة النبوية ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى ، وأنه قد يكون للولي في المكاشفة والمحاطبة ما يستغني به عن متابعة الرسول في عموم أحواله أو بعضها ، وكثير منهم يفضل الولي في زعمه ، إما مطلقاً ، وإما من بعض الوجوه على النبي ، زاعمين أن في قصة الخضر حجة لهم ، وكل هذه المقالات من أعظم الجهالات والضلالات ؛ بل من أعظم أنواع النفاق والإلحاد والكفر .

فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام : أن رسالة محمد بن عبد

الله — صلى الله عليه وسلم — لجميع الناس : عربهم وعجمهم ، وملوكهم وزهادهم وعلماهم وعامتهم ، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة ؛ بل عامة الثقلين الجن والإنس ، وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعتة وطاعته وملازمة ما بشره لأمرته من الدين . وما سنه لهم من فعل المأمورات وترك المحظورات ، بل لو كان الأنبياء المتقدمون قبله أحياء لوجب عليهم متابعتة ومطاوعته .

وقال الله تعالى : (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَ أَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) . قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق ؛ لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره بأخذ الميثاق على أمة لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه .

وفي سنن النسائي عن جابر أن النبي — صلى الله عليه وسلم — رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال : « أمتهوكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي » — هذا أو نحوه — ورواه أحمد في المسند ولفظه : « ولو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتكم » وفي مراسيل أبي داود قال : « كفى بقوم ضلالة أن يبتغوا كتاباً غير كتابكم . أُنزل على

نبي غير نبيهم » وأنزل الله تعالى : (أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ
يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ) الآية .

بل قد ثبت بالأحاديث الصحيحة « أن المسيح عيسى بن مريم إذا
نزل من السماء فإنه يكون متبعاً لشريعة محمد بن عبد الله صلى الله
عليه وسلم » فإذا كان صلى الله عليه وسلم يجب اتباعه ونصره على
من يدركه من الأنبياء . فكيف بمن دونهم ؟

بل مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته
دعوته أن يتبع شريعة رسول غيره ، كموسى وعيسى . فإذا لم يجوز
الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول ، فكيف بالخروج عنه والرسول ؟
كما قال تعالى : (قُلُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ
أَهْتَدُوا وَإِنْ نَوَوْا فَمَا نَعْلَمُ لَهُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) . وقال
تعالى : (ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۚ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
وَكُتُبِهِ ۚ وَرُسُلِهِ ۚ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) .

ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل : كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمنا به ، وما علمنا أنه كذب رددناه ، وما لم نعلم حاله لم نصدقه ولم نكذبه ، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوا ، ولا تكذبوا . فإما أن يحدثوكم باطل فتصدقوا ، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوا . وقولوا : آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » .

ومما بين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة : أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا أوجب الله على الخضر متابعتة وطاعته ؛ بل قد ثبت في الصحيحين « إن الخضر قال له : يا موسى ! إني على علم من علم الله علمنيه الله لا نعلمه ، وأنت على علم من علم الله ، علمكه الله لا أعلمه » وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة .

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : فيما فضله الله به على الأنبياء قال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى الناس عامة » فدعوة محمد صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع العباد ، ليس لأحد الخروج عن متابعتة وطاعته ، ولا استغناء عن رسالته ، كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته

مستغنياً عنه بما علمه الله . وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول
لمحمد : إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه ، ومن سوغ هذا
أو اعتقد أن أحداً من الخلق : الزهاد والعباد أو غيرهم له الخروج عن
دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ومتابعته ، فهو كافر باتفاق المسلمين .
ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا .

وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة ؛ ولهذا لما بين الخضر
لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل وافقه موسى ، ولم يختلفا
حينئذ . ولو كان ما فعله الخضر مخالفاً لشريعة موسى لما وافقه .

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم
بسبب يبيح له الفعل في الشريعة ، والآخر لا يعلم ذلك السبب ، وإن
كان قد يكون أفضل من الأول . مثل شخصين : دخلا إلى بيت
شخص ، وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله ، إما بإذن
لفظي أو غيره ، فيتصرف . وذلك مباح في الشريعة ، والآخر الذي
لم يعلم هذا السبب لا يتصرف ، وخرق السفينة كان من هذا الباب ،
فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وكان من
المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة ، إذا علموا ذلك ؛ لئلا يأخذها (١) خير
من اتزاعها منهم .

(١) يياض بالأصل .

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها . فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عنها فأذن لهم في أكلها ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح ؛ لأنه كان مأذوناً فيه عرفاً والإذن العرفي كالإذن اللفظي ؛ ولهذا يبيع النبي صلى الله عليه وسلم عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظاً ، ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرا قليلاً إلى بيته ، قام بجميع أهل المسجد ، لما علم من طيب نفس أبي طلحة ، وذلك لما يجعله الله من البركة . وكذلك حديث جابر .

وقد ثبت أن لحاماً دعاه فاستأذنه في شخص يستتبعه ؛ لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما ، وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصائل على أبويه ، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما ، وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين ، بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال ؛ فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال : « إن كنت تعلم منهم ما علمه الحضر من الغلام فاقتلهم ، وإلا فلا تقتلهم » .

وكذلك في الصحيحين « أن عمر لما استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل ابن صياد ، وكان مراهماً ، لما ظنه اللجال ، فقال : « إن يكنه فلن تسلط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله » فلم يقل إن يكنه فلا خير لك في قتله ، بل قال : « فلن تسلط عليه » .

وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فسادہ لم یکن ذلك محذوراً ، وإلا كان التعلیل بالصغر كافياً . فإن الأعم إذا كان مستقلاً بالحکم كان الأخص عديم التأثير ، كما قال فی الهرة : «إنها لیست بنجس إنها من الطوافین علیکم والطوافات» .

وأما بناء الجدار فإنما فیہ ترك أخذ الجعل مع جوعهم ، وقد بین الحضر : أن أهله فیهم من الشیم وصلاح الوالد ما یستحقون به التبرع ؛ وإن كان جائعاً .

ومن ذلك أن من أسباب الوجوب والتحريم والإباحة ما قد یكون ظاهراً ، فیشتري فیها الناس ، ومنه ما یكون خفياً عن بعضهم ظاهراً لبعضهم على الوجه المعتاد ، ومنه ما یكون خفياً يعرف بطریق الكشف . وقصة الحضر من هذا الباب . وذلك یقع كثيراً فی أمتنا . مثل أن یقدم لبعضهم طعام فیکشف له أنه مغصوب فیحرم علیه أكله ، وإن لم یحرم ذلك على من لم یعلم ذلك ، أو یظفر بمال یعلم أن صاحبه أذن له فیہ فیحل له أكله ، فإنه لا یحل ذلك لمن لم یعلم الإذن . وأمثال ذلك .

فمثل هذا إذا كان الشیخ من المعروفین بالصدق والإخلاص كان مثل هذا من مواقع الاجتهاد ، الذي یصیب فیہ تارة ویخطئ أخرى

فإن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ نظير ما يقع في الرؤيا وتأويلها ، والرأي ، والرواية ، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول ؛ ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به ولهذا كان الصديق المتلقي عن الرسول كل شيء ؛ مثل أبي بكر أفضل من المحدث مثل عمر ؛ وكان الصديق يبين للمحدث المواضع التي اشتبهت عليه ؛ حتى يرده إلى الصواب . كما فعل أبو بكر بعمر يوم الحديبية ؛ ويوم موت النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي قتال ما نعى الزكاة ، وغير ذلك . وهذا الباب قد بسطناه في غير هذا الموضع .

والمقصود أنه ليس في قصة الخضر ما يسوغ مخالفة شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأحد من الخلق . نعم لفظ « الشرع » قد صار فيه اشتراك في عرف العامة ، منهم من يجعله عبارة عن حكم الحاكم ، ولا ريب أن حكم الحاكم قد يطابق الحق في الباطن . وقد يخالفه ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه عن أم سلمة : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أفضى بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار »

وقد اتفق المسلمون على أن حكم الحاكم بالحقوق المرسلة لا يغير الشيء عن صفته في الباطن ، فلو حكم بآل زيد لعمر ، لإقرار أو بينة

كان ذلك باطلاً في الباطن ، ولم يبح ذلك له في الباطن ، ولا يجوز له أخذه مع العلم بالحال باتفاق المسلمين ، وكذلك عند جماهير الأمة لو حكم بعقد أو فسخ نكاح أو طلاق وبيع فإن حكمه لا يغير الباطن عندهم ، وإن كان منهم من يقول : حكمه يغير ذلك في هذا الموضع ؛ لأن له ولاية العقود والفسوخ . فالصحيح قول الجمهور ، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد ، وسائر فقهاء أهل الحجاز والحديث ، وكثير من فقهاء العراق .

وأيضاً فلفظ « الشرع » في هذا الزمان ، يطلق على ثلاثة معان :

شرع منزل ، وشرع متأول ، وشرع مبدل .

« فالمنزل » الكتاب والسنة ، فهذا الذي يجب اتباعه على كل واحد ، ومن اعتقد أنه لا يجب اتباعه على بعض الناس فهو كافر .

و « المتأول » موارد الاجتهاد التي تنازع فيها العلماء ، فاتباع أحد المجتهدين جائز لمن اعتقد أن حجته هي القوية ، أو لمن ساغ له تقليده ولا يجب على عموم المسلمين اتباع أحد بعينه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكثير من المتفهمة إذا رأى بعض الناس من المشايخ الصالحين ، [يرى أنه] يكون الصواب مع ذلك ، وغيره قد خالف

الشرع ، وإنما خالف ما يظنه هو الشرع ، وقد يكون ظنه خطأ فيثاب
على اجتهاده ، وخطؤه مغفور له وقد يكون الآخر مجتهداً مخطئاً .

وأما « الشرع المبدل » : فمثل الأحاديث الموضوعة ، والتأويلات
الفاسدة ، والأقيسة الباطلة والتقليد المحرم ، فهذا يحرم أيضاً . وهذا
من مثار النزاع ، فإن كثيراً من المتفقهة والمتكلمة قد يوجب على كثير
من المتصوفة والمتفجرة اتباع مذهبه المعين ، وتقليد متبوعه ؛ والتزام
حكم حاكمه باطنياً وظاهراً ، ويرى خروجه عن ذلك خروجاً عن
الشريعة المحمدية ، وهذا جهل منه وظلم ؛ بل دعوى ذلك على الإطلاق
كفر ونفاق .

كما أن كثيراً من المتصوفة والمتفجرة يرى مثل ذلك في شيخه
ومتبوعه ، وهو في هذا نظير ذلك . وكل من هؤلاء قد يسوغ الخروج
عما جاء به الكتاب والسنة ، لما يظنه معارضاً لهما ، إما لما يسميه هذا
ذوقاً ووجداً ، ومكاشفات ومخاطبات ، وإما لما يسميه هذا قياساً ورأياً
وعقليات وقواطع ، وكل ذلك من شعب النفاق ، بل يجب على كل
أحد تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع ما أخبر به ، وطاعته
في جميع ما أمر به ، وليس لأحد أن يعارضه بضرب الأمثال ، ولا
بآراء الرجال ، وكل ما عارضه فهو خطأ وضلال .

وقد ذكرنا من تفصيل ذلك في غير هذا الموضع ما لا يتسع له
هذا المجال .

والله تعالى يوفقنا وسائر إخواننا لما يحببه ويرضاه ؛ من الأقوال
والأفعال الباطنة والظاهرة ، وفي جميع الأحوال . والله سبحانه وتعالى
أعلم . والحمد لله وحده ، وصلواته وسلامه على نبيه محمد وآله
وصحبه وسلم .

سئل شيخ الإسلام

عن الحديث المروي في « الأبدال هل هو صحيح أم مقطوع ؟ وهل « الأبدال » مخصوصون بالشام ؟ أم حيث تكون شعائر الإسلام قائمة بالكتاب والسنة يكون بها الأبدال بالشام وغيره من الأقاليم ؟ وهل صحيح أن الولي يكون قاعداً في جماعة ويغيب جسده ؟

وما قول السادة العلماء في هذه الأسماء التي تسمى بها أقوام من المنسوبين إلى الدين والفضيلة ، ويقولون هذا غوث الأغواث ، وهذا قطب الأقطاب وهذا قطب العالم ، وهذا القطب الكبير ، وهذا خاتم الأولياء ؟!

فأجاب : أما الأسماء الدائرة على السنة كثير من النساك والعامّة مثل « الغوث » الذي بمكة ، و « الأوتاد الأربعة » و « الأقطاب السبعة » و « الأبدال الأربعين » و « النجباء الثلاثمائة » : فهذه أسماء ليست موجودة في كتاب الله تعالى ؛ ولا هي أيضاً مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ، ولا ضعيف يحمل [عليه] ألفاظ الأبدال .

فقد روي فيهم حديث شامي منقطع الإسناد عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن فيهم - يعني أهل الشام - الأبدال الأربعين رجلاً ، كلما مات رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً ، ولا توجد هذه الأسماء في كلام السلف ، كما هي على هذا الترتيب ؛ ولا هي مأثورة على هذا الترتيب والمعاني عن المشايخ المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً ؛ وإنما توجد على هذه الصورة عن بعض المتوسطين من المشايخ ؛ وقد قالها إما آثراً لها عن غيره أو ذاكراً .

وهذا الجنس ونحوه من علم الدين قد التبس عند أكثر المتأخرين حقه بباطله ، فصار فيه من الحق ما يوجب قبوله ، ومن الباطل ما يوجب رده ، وصار كثير من الناس على طرفي نقيض .

قوم كذبوا به كله لما وجدوا فيه من الباطل .

وقوم صدقوا به كله لما وجدوا فيه من الحق ، وإنما الصواب التصديق بالحق والتكذيب بالباطل ، وهذا تحقيق لما أخبر به النبي عليه السلام عن ركوب هذه الأمة سنن من قبلها حذو القذة بالقذة .

فإن أهل الكتابين لبسوا الحق بالباطل ، وهذا هو التبديل

والتحريف الذي وقع في دينهم ؛ ولهذا يتغير الدين بالتبديل تارة ، وبالنسخ أخرى ، وهذا الدين لا ينسخ أبداً لكن يكون فيه من يدخل من التحريف والتبديل والكذب والكتمان ما يلبس به الحق بالباطل ، ولا بد أن يقيم الله فيه من تقوم به الحجة خلفاً عن الرسل ، فينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، فيحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المشركون .

فالكتب المنزلة من السماء ، والأثارة من العلم الماثورة عن خاتم الأنبياء ، يميز الله بها الحق من الباطل ، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وبذلك يتبين أن هذه الأسماء على هذا العدد ، والترتيب والطبقات ليست حقاً في كل زمان ، بل يجب القطع بأن هذا على عمومته وإطلاقه باطل ؛ فإن المؤمنين يقلون تارة ويكثرُونَ أخرى ، وبقل فيهم السابقون المقربون تارة ، ويكثرُونَ أخرى ، وينتقلون في الأمكنة ، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين لزوم مكان واحد في جميع الأزمنة ، وليس من شرط أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ومن يدخل فيهم من السابقين المقربين تعيين العدد .

وقد بعث الله رسوله بالحق وآمن معه بمكة نفر قليل كانوا أقل من سبعة ، ثم أقل من أربعين ، ثم أقل من سبعين ، ثم أقل من

ثلاثمائة فيعلم أنه لم يكن فيهم هذه الأعداد ، ومن الممتع أن يكون ذلك في الكفار ثم هاجر هو وأصحابه إلى المدينة ، وكانت هي دار الهجرة والسنة والنصرة ، ومستقر النبوة وموضع خلافة النبوة ، وبها انعقدت بيعة الخلفاء الراشدين ، أبي بكر وعمر وعثمان وعلى رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، وإن كان قد خرج منها بعد أن بويع فيها ؛ ومن الممتع أنه قد كان بمكة في زمنهم من يكون أفضل منهم .

ثم إن الإسلام انتشر في مشارق الأرض ومغاربها ، وكان في المؤمنين في كل وقت من أولياء الله المتقين ؛ بل من الصديقين السابقين المقربين عدد لا يحصى عدده إلا رب العالمين ، لا يحصرون بثلاثمائة ولا بثلاثة آلاف ، ولما انقرضت القرون الثلاثة الفاضلة كان في القرون الخالية من أولياء الله المتقين ؛ بل من السابقين المقربين من لا يعرف عدده ، وليسوا بمحصورين بعدد ولا محدودين بآمد ، وكل من جعل لهم عدداً محصوراً فهو من المبطلين عمداً أو خطأ ، فنسأله من كان القطب والثلاثة إلى سبعمائة ، في زمن آدم ونوح وإبراهيم ، وقبل محمد عليهم الصلاة والسلام في الفترة حين كان عامة الناس كفرة ؟ ! قال الله تعالى : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا) أي كان مؤمناً وحده وكان الناس كفاراً جميعاً . وفي صحيح البخاري « أنه قال لسارة : ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك » وقال الله تعالى : (هُوَ الَّذِي

بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (.

وإن زعموا أنهم كانوا بعد رسولنا عليه السلام نسألهم في أي زمان كانوا ؟ ومن أول هؤلاء ؟ وبأية آية ؟ وبأي حديث مشهور في الكتب الستة ؟ وبأي إجماع متواتر من القرون الثلاثة ثبت وجود هؤلاء بهذه الأعداد حتى نعتقده ؟ لأن العقائد لا نعتقد إلا من هذه الأدلة الثلاثة ، ومن البرهان العقلي (قُلْ مَا تَوْابَرَهَنَّاكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فإن لم يأتوا بهذه الأدلة الأربعة الشرعية فهم الكاذبون بلا ريب ، فلا نعتقد أكاذيبهم .

ويلزم منه أن يرزق الله سبحانه وتعالى الكفار وينصرهم على عدوم بالذات بلا واسطة ، ويرزق المؤمنين وينصرهم بواسطة المخلوقات ، والتعظيم في عدم الواسطة ، كروح الله ، وناقة الله . تدبر ولا تتحير ، واحفظ القاعدة حفظاً .

« فأما لفظ الغوث والغيث » فلا يستحقه إلا الله فهو غياث المستغيثين ، فلا يجوز لأحد الاستغاثة بغيره ، لا بملك مقرب ولا نبي مرسل .

ومن زعم أن أهل الأرض يرفعون حوائجهم التي يطلبون بها

كشف الضر عنهم ، ونزول الرحمة إلى الثلاثمائة ، والثلاثمائة إلى السبعين
والسبعون إلى الأربعين ، والأربعون إلى السبعة ، والسبعة إلى الأربعة ،
والأربعة إلى الغوث فهو كاذب ضال مشرك ، فقد كان المشركون كما
أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ
إِلَّا آيَاتُهُ) وقال سبحانه وتعالى : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ
إِذَا دَعَاهُ) .

فكيف يكون المؤمنون يرفعون إليه حوائجهم بعده بوسائط من
الحجاب ؟ وهو القائل تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ
أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) وقال
إبراهيم عليه السلام داعياً لأهل مكة (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ
غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي
إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفَى وَمَا تَعْلِنُ وَمَا
يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ
إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) .

وقال النبي عليه السلام لأصحابه لما رفعوا أصواتهم بالذكر « أيها
الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا وإنما تدعون

سميعاً قريباً ؛ إن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته «
وهذا باب واسع .

وقد علم المسلمون كلهم أنه لم يكن عامة المسلمين ولا مشايخهم المعروفون يرفعون إلى الله حوائجهم ، لا ظاهراً ولا باطناً بهذه الوسائط والحجاب ، فتعالى الله عن تشبيهه بالخلق من الملوك وسائر ما يقوله الظالمون علواً كبيراً ، وهذا من جنس دعوى الرافضة أنه لا بد في كل زمان من إمام معصوم يكون حجة الله على المكلفين لا يتم الإيمان إلا به ، ثم مع هذا يقولون إنه كان صيماً دخل السرداب من أكثر من أربعائة وأربعين سنة ، ولا يعرف له عين ولا أثر ، ولا يدرك له حس ولا خبر .

وهؤلاء الذين يدعون هذه المراتب فيهم مضاهاة للرافضة من بعض الوجوه ؛ بل هذا الترتيب والإعداد تشبه من بعض الوجوه ترتيب الإسماعيلية ، والنصيرية ، ونحوهم في السابق والتالي والناطق ، والأساس والجسد (١) وغير ذلك من الترتيب ، الذي ما نزل الله به من سلطان .

(١) نسخة والحد .

(وأما الأوتاد) فقد يوجد في كلام البعض أنه يقول : فلان من الأوتاد ، يعنى بذلك أن الله تعالى يثبت به الإيمان ، والدين في قلوب من يهديهم الله به ، كما يثبت الأرض بأوتادها ، وهذا المعنى ثابت لكل من كان بهذه الصفة من العلماء ، فكل من حصل به تثبيت العلم والإيمان في جمهور الناس كان بمنزلة الأوتاد العظيمة ، والجبال الكبيرة ، ومن كان بدونه كان بحسبه ، وليس ذلك محصوراً في أربعة ولا أقل ولا أكثر ، بل جعل هؤلاء أربعة مضاهاة بقول المنجمين في أوتاد الأرض .

(وأما القطب) فيوجد أيضاً في كلامهم فلان من الأقطاب ، أو فلان قطب ، فكل من دار عليه أمر من أمور الدين أو الدنيا ، باطناً أو ظاهراً ، فهو قطب ذلك الأمر ومداره ، سواء كان الدائر عليه أمر داره أو دربه ، أو قريته أو مدينته ، أمر دينها أو دنياها ، باطناً أو ظاهراً ، ولا اختصاص لهذا المعنى بسبعة ولا أقل ولا أكثر ؛ لكن الممدوح من ذلك من كان مداراً لصالح الدنيا والدين دون مجرد صلاح الدنيا ؛ فهذا هو القطب في عرفهم ، فقد يتفق في بعض الأعصار أن يكون شخص أفضل أهل عصره ، وقد يتفق في عصر آخر أن يتكافأ اثنان أو ثلاثة في الفضل عند الله سواء ، ولا يجب أن يكون في كل زمان شخص واحد هو أفضل الخلق عند الله مطلقاً .

وكذلك لفظ « البدل » جاء في كلام كثير منهم ، فأما الحديث المرفوع فالأشبه أنه ليس من كلام النبي عليه السلام ، فإن الإيمان كان بالحجاز وباليمن قبل فتوح الشام ، وكانت الشام والعراق دار كفر ، ثم لما كان في خلافة علي رضي الله عنه قد ثبت عنه عليه السلام أنه قال : « تمرق مارقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين بالحق فكان علي وأصحابه أولى بالحق ممن قاتلهم من أهل الشام ؛ ومعلوم أن الذين كانوا مع علي رضي الله عنه من الصحابة مثل عمار بن ياسر ، وسهل بن حنيف ونحوهما كانوا أفضل من الذين كانوا مع معاوية ، وإن كان سعد بن أبي وقاص ونحوه من القاعدین أفضل ممن كان معها ، فكيف يعتقد مع هذا أن الأبدال جميعهم الذين هم أفضل الخلق كانوا في أهل الشام ؟ ! هذا باطل قطعاً ، وإن كان قد ورد في الشام وأهله فضائل معروفة فقد جعل الله لكل شيء قدراً .

والكلام يجب أن يكون بالعلم والقسط ، فمن تكلم في الدين بغير علم دخل في قوله تعالى : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) وفي قوله تعالى : (وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ) ومن تكلم بقسط وعدل دخل في قوله تعالى : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ) وفي قوله تعالى : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) وفي قوله تعالى : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) .

والذين تكلموا باسم البدل فسروه بمعان : منها أنهم أبدال الأنبياء

ومنها أنه كلما مات منهم رجل أبدل الله تعالى مكانه رجلاً ، ومنها أنهم أبدلوا السيئات من أخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بحسنات . وهذه الصفات كلها لا تخص بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ، ولا تحصر بأهل بقعة من الأرض ؛ وبهذا التحرير يظهر المعنى في اسم « النجباء » .

فالغرض أن هذه الأسماء تارة تفسر بمعان باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، مثل تفسير بعضهم « الغوث » هو الذي يغيث الله به أهل الأرض في رزقهم ونصرهم ، فإن هذا نظير ما تقوله النصارى في الباب وهو معدوم العين والأثر شبيه بحال المنتظر الذي دخل السرداب من نحو أربعمائة وأربعين سنة .

وكذلك من فسر « الأربعين الأبدال » بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل ؛ بل النصر والرزق يحصل بأسباب من آكدها دعاء المؤمنين ، وصلاتهم وإخلاصهم ، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل ولا بأكثر ؛ كما جاء في الحديث المعروف أن سعد بن أبي وقاص قال : يا رسول الله ! الرجل يكون حامياً للقوم ، أيسهم له مثل ما يسهم لأضعفهم ؟ فقال : « يا سعد ! وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم »

وقد يكون للرزق والنصر أسباب آخر ؛ فإن الفجار والكفار

أيضاً يرزقون وينصرون ؛ وقد يجذب الأرض على المؤمنين ويخيفهم من عدوم لينبوا إليه ويتوبوا من ذنوبهم ، فيجمع لهم بين غفران الذنوب وتفريج الكرب ، وقد يملئ للكفار ويرسل السماء عليهم مدراراً ؛ ويمددم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون ، إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر ، وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة فليس كل إنعام كرامة ، ولا كل امتحان عقوبة ؛ قال الله تعالى : (فَأَمَّا آلِ النَّسْنِ إِذَا مَا ابْنَلَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْنَلَهُ فَقَدَرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ * كَلَّا)

وليس في أولياء الله المتقين ؛ ولا عباد الله المخلصين ، الصالحين ولا أنبيائه المرسلين ؛ من كان غائب الجسد دائماً عن أبصار الناس بل هذا من جنس قول القائلين إن علياً في السحاب ، وإن محمد بن الحنفية في جبال رضوى ، وإن محمد بن الحسن بسرداب ساحرى ، وإن الحاكم بجبل مصر ، وإن الأبدال الأربعين رجال الغيب بجبل لبنان ، فكل هذا ونحوه من قول أهل الإفك والبهتان ؛ نعم قد تحرق العادة في حق الشخص ، فيغيب تارة عن أبصار الناس إما لدفع عدو عنه ، وإما لغير ذلك ، وأما أنه يكون هكذا طول عمره فباطل ، نعم ! يكون نور قلبه وهدى فؤاده وما فيه من أسرار الله تعالى وأماته وأتواره ، ومعرفته غيباً عن أعين الناس ، ويكون صلاحه وولايته غيباً عن

أكثر الناس ، فهذا هو الواقع ، وأسرار الحق بينه وبين أوليائه ،
وأكثر الناس لا يعلمون ، وقد بينا بطلان اسم الغوث مطلقاً ، واندرج
في ذلك غوث العجم ومكة والغوث السابع .

وكذا لفظ « خاتم الأولياء » لفظ باطل لا أصل له ، وأول من
ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي ، وقد انتحل طائفة كل منهم
يدعي أنه خاتم الأولياء : كابن حمويه وابن عربي وبعض الشيوخ الضالين
بدمشق وغيرها ، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي عليه السلام من
بعض الوجوه ، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان ، وكل ذلك طمعاً
في رئاسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رئاسة خاتم الأنبياء ، وقد غلطوا : فإن
خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك ، وليس كذلك خاتم
الأولياء ، فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين
والأنصار ، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عمر
رضي الله عنه ، ثم عثمان رضي الله عنه ، ثم علي رضي الله عنه ، وخير
قرونها القرن الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الذين
يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، وخاتم الأولياء في الحقيقة آخر مؤمن بقي
يكون في الناس ، وليس ذلك بخير الأولياء ، ولا أفضلهم
بل خیرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ثم عمر :
اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين
أفضل منها .

قال شيخ الإسلام

قدس الله روحه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ؛ وأشهد أن لا إله إلا الله رب السموات والأرضين ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين (١)

(أما بعد) فقد كتبت ما حضرني ذكره في المشهد الكبير بقصر الإمارة والميدان بحضرة الخلق من الأمراء والكتاب والعلماء والفقهاء العامة وغيرهم في أمر « البطائحية » يوم السبت تاسع جمادى الأولى سنة خمس ، لتشوف الهمم إلى معرفة ذلك وحرص الناس على الاطلاع عليه ، فإن من كان غائباً عن ذلك قد يسمع بعض أطراف الواقعة ،

(١) مناظرة ابن تيمية لدجاجة البطائحية .

ومن شهدها فقد رأى وسمع ما رأى وسمع ، ومن الحاضرين من سمع ورأى ما لم يسمع غيره ويرى لانتشار هذه الواقعة العظيمة ، ولما حصل بها من عز الدين ، وظهور كلمته العليا ، وقهر الناس على متابعة الكتاب والسنة ، وظهور زيف من خرج عن ذلك من أهل البدع المضلة ، والأحوال الفاسدة والتليس على المسلمين .

وقد كتبت في غير هذا الموضع صفة حال هؤلاء « البطائحية » ، وطريقهم وطريق (الشيخ أحمد بن الرفاعي) وحاله ، وما وافقوا فيه المسلمين وما خالفهم ؛ ليتبين ما دخلوا فيه من دين الإسلام وما خرجوا فيه عن دين الإسلام ؛ فإن ذلك يطول وصفه في هذا الموضع ، وإنما كتبت هنا ما حضرني ذكره من حكاية هذه الواقعة المشهورة في مناظرتهم ومقابلتهم .

وذلك أني كنت أعلم من حالهم بما قد ذكرته في غير هذا الموضع — وهو أنهم وإن كانوا منتسبين إلى الإسلام وطريقة الفقر والسلوك ويوجد في بعضهم التبع والتأله والوجد والمحبة والزهد والفقر والتواضع ولين الجانب والملاطفة في المخاطبة والمعاشرة والكشف والتصرف ونحو ذلك ما يوجد — فيوجد أيضاً في بعضهم من الشرك وغيره من أنواع الكفر ، ومن الغلو والبدع في الإسلام والإعراض عن كثير مما جاء به الرسول ، والاستخفاف بشريعة الإسلام ، والكذب والتليس .

وإظهار المخارق الباطلة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن
سبيل الله ما يوجد

وقد تقدمت لي معهم وقائع متعددة بينت فيها لمن خاطبته منهم
ومن غيرهم بعض مافيهم من حق وباطل ، وأحوالهم التي يسمونها
الإشارات ، وتاب منهم جماعة ، وأدب منهم جماعة من شيوخهم ،
وبينت صورة ما يظهرونه من المخاريق : مثل ملابس النار والحيات ،
وإظهار الدم ، واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير
ذلك ، وإن عامة ذلك عن حيل معروفة وأسباب مصنوعة ، وأراد غير مرة منهم
قوم إظهار ذلك فلما رأوا معارضتي لهم رجعوا ودخلوا على أن أسترهم
فأجبتهم إلى ذلك بشرط التوبة ، حتى قال لي شيخ منهم في مجلس عام
فيه جماعة كثيرة ببعض البساتين لما عارضتهم بأني أدخل معكم النار بعد
أن تغتسل بما يذهب الحيلة ، ومن احترق كان مغلوبا ، فلما رأوا
الصدق أمسكوا عن ذلك .

وحكى ذلك الشيخ أنه كان مرة عند بعض أمراء التتر بالمشرق .
وكان له ضم يعبده ، قال : فقال لي : هذا الضم يأكل من هذا
الطعام كل يوم ويبقى أثر الأكل في الطعام بينا يرى فيه !! فأنكرت
ذلك ، فقال لي إن كان يأكل أنت تموت ؟ فقلت نعم ، قال
فأقمت عنده إلى نصف النهار ولم يظهر في الطعام أثر ! فاستعظم ذلك

التري وأقسم بإيمان مغلظة أنه كل يوم يرى فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك . فقلت لهذا الشيخ : أنا أبين لك سبب ذلك . ذلك التري كافر مشرك ، ولضمنه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة إلى أهل الإسلام الخالص كالتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتري وأمثاله سود ، وأهل الاسلام المحض بيض ، وأتم بلى فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل من كان حاضراً !!!

وقلت لهم في مجلس آخر لما قالوا تريد أن تظهر هذه الإشارات؟ قلت : إن عملتموها بحضور من ليس من أهل الشأن : من الأعراب والفلاحين ، أو الأتراك أو العامة أو جمهور المتفقهة والمتفكرة والمتصوفة — لم يحسب لكم ذلك . فمن معه ذهب فليأت به إلى سوق الصرف إلى عند الجهابذة الذين يعرفون الذهب الخالص من المغشوش ومن الصفر ؛ لا يذهب إلى عند أهل الجهل بذلك . فقالوا لي : لا نعمل هذا إلا أن تكون همتك معنا ، فقلت : همتي ليست معكم ؛ بل أنا معارض لكم مانع لكم ؛ لأنكم تقصدون بذلك إبطال شريعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فإن كان لكم قدرة على إظهار ذلك فافعلوا . فانقلبوا صاغرين .

فلما كان قبل هذه الواقعة بمدة كان يدخل منهم جماعة مع شيخ لهم من شيوخ البر ، مطوقين بأغلال الحديد في أعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمر ، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتى هي أحسن ؛ فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين ، ويتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس أن هذا لله سر من أسرارهم ، وإنه سياء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم — أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه — خاطبته فى ذلك بالمسجد الجامع ، وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ولا من المشايخ الذين يقتدى بهم ، ولا يجوز التعبد بذلك ، ولا التقرب به إلى الله تعالى لأن عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة ، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي فى ذلك وهو أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رأى على رجل خاتماً من حديد فقال « ما لي أرى عليك حلية أهل النار » . وقد وصف الله تعالى أهل النار بأن فى أعناقهم الأغلال . فالتشبه بأهل النار من المنكرات وقال بعض الناس قد ثبت فى الصحيح عن أبي هريرة عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث الرؤيا قال فى آخره « أحب القيد وأكره الغل . القيد ثبات فى الدين » فإذا كان مكروهاً فى المنام فكيف فى اليقظة ؟ ! .

فقلت له فى ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع

زيادة ، وخوفته من عاقبة الإصرار على البدعة ، وأن ذلك يوجب عقوبة فاعله ، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعده عهدي به . وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها بانفاق المسلمين ، ولا التقرب بها إلى الله ولا اتخاذها طريقاً إلى الله وسبباً لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيراً عند الله وقربة إليه ، ولا أن يجعل شعاراً للتائبين المريدن وجه الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم .

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أن المباحات إنما تكون مباحة إذا جعلت مباحات ، فأما إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله ، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها ، فلا حرام إلا ما حرمه الله ؛ ولا دين إلا ما شرعه الله ؛ ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به ، ولن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات؟! ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر ، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره ، وعند آخرين لاشيء عليه ، فلا

يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة [طاعة وعبادة] .

ونحو ذلك العهد التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل « الفتوة » و « رماة البندق » ونحو ذلك ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلا ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله ؛ لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك ؛ ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع إلى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم واتباع الكتاب والسنة ؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل : إنه قرينة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلا أن يكون مما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما علم باتفاق الأمة أنه ليس بواجب ولا مستحب ولا قرينة لم يجز أن يعتقد أو يقال إنه قرينة وطاعة .

فكذلك هم متفقون على أنه لا يجوز قصد التقرب به إلى الله ، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات ، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل .

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء والعباد يرون الشيء

إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه ؛ بل يقال إنه جائز ، ولا يفرقون بين اتخاذه دينا وطاعة وبراً ، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة ، ومعلوم أن اتخاذه دينا بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من أعظم المحرمات وأكبر السيئات ، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات .

فصل

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الإصرار على الابتداع في الدين ، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين ، ويطلبون الإيقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة ، وأنتظر الرجوع والفئة ، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع . وكان قد كتب إلي كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار ، وعتب وآثار ، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة ، بل إما أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليّات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال الناس بالباطل .

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب . فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلا بذلك وحضر عندنا منهم شخص فزعنا الغل من عنقه ،

وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتبعون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ) ؛ ولهذا غالب وجدم هوى مطلق لا يدرون من يبعدون ، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء .

فحملهم هوام على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا إلى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التي يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتتفق على اتباع سبيله — فخرجوا من المسجد الجامع في جموعهم إلى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم ، ثم رجعوا إلى مسجد الشاغو — على ما ذكر لي — ومم من الصياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العجائب . فأرسلت إليهم مرة ثانية لإقامة الحجة والمعذرة ، وطلباً للبيان والتبصرة ، ورجاء المنفعة والتذكرة . فعمدوا إلى القصر مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والإزباد والإرعاد ، واضطراب الرموس والأعضاء ، والتقلب في نهر بردى ، وإظهار التوله

الذي يخلون به على الردى ، وإبراز مايدعونه من الحال والمحال ، الذي يسلمه إليهم من أضلوا من الجهال .

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر ، وسأل عنهم ف قيل له هم مشتكون ، فقال ليدخل بعضهم ، فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوى عليّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه ؛ لكن حدثني من كان حاضراً أن الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا بل يقوله عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، قال فأني شيء يقال له ؟ قالوا : نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا ، قال فنسمع كلامه فمن كان الحق معه نصرناه ، قالوا يزيد أن تشد منا ، قال : لا ، ولكن أشد من الحق سواء كان معكم أو معه ، قالوا : ولا بد من حضوره ؟ قال : نعم ، فكرروا ذلك فأمر بإخراجهم ، فأرسل إلي بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

فلما علمت ذلك ألقى في قلبي أن ذلك لأمر يريد الله من إظهار الدين ، وكشف حال أهل النفاق المتدعين ، لانتشارهم في أقطار الأرضين ، وما أحبت البغي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلا أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة

الحال ، وإني إذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثر فيكم القيل والقال ، وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان ، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان . فجاء الرسول وأخبر أنهم اجتمعوا بشيوخهم الكبار ، الذين يعرفون حقيقة الأسرار ، وأشاروا عليهم بموافقة ما أمروا به من اتباع الشريعة ، والخروج عما ينكر عليهم من البدع الشنيعة . وقال شيخهم الذي يسبح بأقطار الأرض كبلاد الترك ومصر وغيرها : أحوالنا تظهر عند التتار لا تظهر عند شرع محمد بن عبد الله . وأنهم زعوا الأغلال من الأعناق ، وأجابوا إلى الوفاق .

ثم ذكر لي أنه جاءهم بعض أكابر غلمان المطاع وذكر أنه لا بد من حضورهم لموعد الاجتماع . فاستخرت الله تعالى تلك الليلة واستعنته ، واستتصرته واستهديته ، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى ألقى في قلبي أن أدخل النار عند الحاجة إلى ذلك ، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملة الخليل ، وأنها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الخنفاء بنو احي البطائح منضمين إلى من يضاهيهم من نصارى الدهماء .

وبين الصابئة ومن ضل من العباد المنتسبين إلى هذا الدين ، نسب يعرفه من عرف الحق المبين ، فالغالية من القرامطة والباطنية

كالنصيرية والإسماعيلية . يخرجون إلى مشابهة الصابئة الفلاسفة ، ثم إلى الإشراف ، ثم إلى جحود الحق تعالى . ومن شركهم الغلو في البشر ، والابتداع في العبادات ، والخروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق ، كالملاحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

فلما أصبحنا ذهبنا للميعاد ، وما أحييت أن أستصحب أحداً للإسعاد ، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب ، والله هو المسبب لجميع الأسباب . وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء ، الذي استحوذوا به على أكثر أهل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثل زعمهم أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأن لهم طريقاً لا يعرفها أحد من العلماء . وأن شيخهم هو في المشايخ كالحليفة ، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبار المنيفة ، وأن المنكر عليهم هو أخذ بالشرع الظاهر ، غير واصل إلى الحقائق والسرائر . وأن لهم طريقاً وله طريق . وهم الواصلون إلى كنه التحقيق ، وأشبه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق .

وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لحفاء نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام ،

وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار ، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار ، لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل .

قال المخبر : فغدا أولئك الأمراء الأكابر ، وخطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر ، وذكر لي أنواعا من الخطاب ، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب ، والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق ، فأعاد الرسول ، إلى مرة ثانية فبلغه أنا في الطريق ، وكان كثير من أهل البدع الأضداد ، كطوائف من المتفكحة والمتفكرة وأتباع أهل الاتحاد . مجدين في نصرهم بحسب مقدورهم ، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم . فلما حضرت وجدت النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين إلى ما سيكون طالين للاطلاع . فذكر لي نائب السلطان وغيره من الأمراء بعض ما ذكروه من الأقوال المشتملة على الافتراء . وقال إنهم قالوا : إنك طلبت منهم الامتحان ، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسوها فقلت هذا من البهتان .

وها أنا ذا أصف ما كان . قلت للأمير : نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً ، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النار . وفي ذلك الحديث الصحيح . وهؤلاء يكذبون في ذلك ، وهم كذابون مبتدعون قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنيائهم ما الله به عليم . وذكرت

تلبسهم على طوائف من الأمراء ، وأنهم لبسوا على الأمير المعروف
بالأيدمرى . وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرها ، وقد لبسوا
أيضاً على الملك العادل كتفا في ملكه ، وفي حالة ولاية حماه ، وعلى
أمير السلاح أجل أمير بديار مصر ، وضاق المجلس عن حكاية جميع
تلبسهم . فذكرت تلبسهم على الأيدمرى ، وأنهم كانوا يرسلون من
النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق
المكاشفة ، ووعدوه بالملك ، وأنهم وعدوه أن يروه رجال الغيب ،
فصنعوا خشباً طوالاً وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب بأكر
الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة وذاك يرى من بعيد قوماً يطوفون
على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالا كثيراً ثم انكشف
له أمرهم .

قلت للأمير : وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك ، وهو
ممن حدثني بهذه القصة . وأما قفجق فلأنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم
وأوهموه أن الموتى تتكلم ، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجل
زعموا أنه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد
لتعود عليه بركته ، وقالوا إنه طلب منه جملة من المال ؛ فقال قفجق
الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله ، وتقرب قفجق منه
وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز

فذكرت للأمير هذا ؛ ولهذا قيل لي إنه لما انقضى المجلس وانكشف
حالمهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتابا وهو نائب السلطنة بحماه يخبره
بصورة ما جرى .

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال
ونحوها وأنا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة ، فذكر الأمير حديث
البدعة وسألني عنه ، فذكرت حديث العرباض بن سارية ، وحديث
جابر بن عبد الله ، وقد ذكرتهما بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره .

قلت للأمير : أنا ما امتحنت هؤلاء ، لكن هم يزعمون أن لهم أحوالا
يدخلون بها النار ، وأن أهل الشريعة لا يقدرّون على ذلك ،
ويقولون لنا هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن
يعترضوا علينا ، بل يسلم إلينا ما نحن عليه - سواء وافق الشرع أو خالفه -
وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا ومم
ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله ، وكان مغلوبا ، وذلك بعد أن
نغسل جسامنا بالحلل والماء الحار .

فقال الأمير ولم ذاك ؟ قلت : لأنهم يطلون جسامهم بأدوية يصنعونها
من دهن الضفادع ، وباطن قشر النارج ، وحجر الطلق وغير ذلك

من الحيل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلي جلدى بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق ، فاستعظم الأمير هجومي على النار ، وقال : أنفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ! قد استخرت الله في ذلك وألقى في قلبي أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء ؛ فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين له باطنا وظاهراً لحجة أو حاجة ، فالحجة لإقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله ، وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن ننصر الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا ، فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤيدنا الله به من الآيات .

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرم أبداً الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السباط بذلك ، وفرح بذلك ، وكأنهم كانوا قد أوهموه أن هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده ، وسمعتة يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر الحاج بهادر وأنا جالس بينهما على رأس السباط بالتركي ما فهمته منه إلا أنه قال اليوم ترى حرباً عظيماً ، ولعل ذاك كان

جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل .

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الإصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون ، فقال الأمير ، إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق ، وقمنا إلى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبها در فسمعته يذكر له أيوب الحال بمصر والموليين ونحو ذلك ، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة ، وأن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال ؛ فإنه ذكر لي ذلك .

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده ، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يبسط في الميدان . وقد قدم البطائحية وم جماعة كثيرون ، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والجبو والتقلب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) .

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأول المشتكي ، وشيخ آخر

يسمى نفسه خليفة سيده أحمد ، ويركب بعلمين ، ومم بسمونه : عبد الله الكذاب ، ولم أكن أعرف ذلك . وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أنفطن لكذبه حتى فارقني ، فبقي في نفسي أن هذا خفي على تليسه إلى أن غاب ، وما يكاد يخفي علي تليس أحد ، بل أدركه في أول الأمر فبقي ذلك في نفسي ولم أره قط إلى حين ناظرته ، ذكر لي أنه ذاك الذي كان اجتمع بي قديما فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد يكون حيث كنتم تليسه بيني وبينه .

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة ، وإنا مجيئون إلى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومتبعون للشريعة . (فقلت) أما التوبة فمقبولة . قال الله تعالى : (غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ) هذه إلى جنب هذه . وقال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ) .

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسمم الأطواق وذكر أن وهب ابن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقا في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت .

(فقلت) لهم : ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات
 المخالفة لشرعنا ، قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد
 الله أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من
 التوراة فقال : « أمتهوكون يا ابن الخطاب ؟ لقد جئتكم بها بيضاء
 نقية لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتكم » وفي مراسيل
 أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى مع بعض أصحابه شيئاً
 من كتب أهل الكتاب فقال « كفى ب قوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير
 كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم » وأنزل الله تعالى (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا
 أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ)

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل
 عليها من عند الله إذا خالف شرعنا ، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا
 من ربنا وتبع الشريعة والمهاج الذي بعث الله به إلينا رسولنا . كما
 قال تعالى : (فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ
 الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا) . فكيف يجوز
 لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها ؟! وما علينا
 من عباد بني إسرائيل ؟! (تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا
 تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) هات مافي القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري
 ومسلم وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية .

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا
القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية .

(فقلت) له هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء
المسلمين ؛ بل كلهم ينهى عن التعبد به وبعده بدعة ، وهذا الشيخ
كمال الدين بن الزملكاني مفتى الشافعية ودعوته وقلت : ياكمل الدين !
ما تقول فى هذا ؟ فقال هذا بدعة غير مستحبة بل مكروهة ، أو
كما قال . وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من
العلماء بذلك .

(وقلت) ليس لأحد الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم
ولا الخروج عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ،
وأشك هل تكلمت هنا فى قصة موسى والحضر ؛ فإنى تكلمت بكلام
بعد عهدي به .

فاتتدب ذلك الشيخ « عبد الله » ورفع صوته . وقال : نحن لنا
أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها ، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه : مثل
المجالس والمدارس والباطن والظاهر ؛ ومضمونه أن لنا الباطن ولغيرنا
الظاهر ، وأن لنا أمراً لا يقف "" عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا ،

(١) نسخة : لا يقدر .

(فقلت) له — ورفعت صوتي وغضبت — : الباطن والظاهر
والمجالس والمدارس ، والشريعة والحقائق ، كل هذا مردود إلى كتاب
الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ليس لأحد الخروج عن
كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا من المشايخ والفقهاء ،
ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم ؛ بل
جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . وذكرت
هذا ونحوه .

فقال — ورفع صوته — : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا . وادعى
الأحوال الحارقة كالنار وغيرها ، واختصاصهم بها ، وأنهم يستحقون
تسليم الحال إليهم لأجلها .

فقلت — ورفعت صوتي وغضبت — أنا أخطب كل أحدي
من مشرق الأرض إلى مغربها أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل
ما تصنعون ، ومن احترق فهو مغلوب ؛ وربما قلت فعليه لعنة الله ؛
ولكن بعد أن تغسل جسومنا بالخل والماء الحار ؛ فسألني الأمراء
والناس عن ذلك ؟ فقلت : لأن لهم حيلة في الاتصال بالنار يصنعونها
من أشياء : من دهن الضفادع . وقشر النارنج . وحجر الطلق .
فضج الناس بذلك ، فأخذ يظهر القدرة على ذلك فقال : أنا وأنت
نلف في بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت . (فقلت) فقم ؛

وأخذت أكرر عليه في القيام إلى ذلك ، فمد يده بظهر خلع القميص
فقلت : لا ! حتى تغتسل في الماء الحار والحل ، فأظهر الوهم على عاداتهم
فقال من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال حزمة حطب .
فقلت هذا تطويل وتفريق للجمع ؛ ولا يحصل به مقصود ؛ بل قنديل يوقد
وأدخل إصبعي وإصبعك فيه بعد الغسل ؛ ومن احترقت إصبعه فعليه
لعنة الله ؛ أو قلت : فهو مغلوب . فلما قلت ذلك تغير وذل . وذكر
لي أن وجهه اصفر .

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين
حقيقة ، ولو طرتم في الهواء ؛ ومشيتم على الماء ؛ ولو فعلتم ما فعلتم لم
يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع . ولا على
إبطال الشرع ؛ فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر ؛
وللأرض أنبتى فتنبت ، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه ؛
ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه ، ثم يقول له قم فيقوم ، ومع هذا
فهو دجال كذاب ملعون ، لعنه الله ، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك
وقع عظيم في القلوب .

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء
ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر
والنواهي ، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال للشافعي أندري

ما قال صاحبنا يعني الليث بن سعد ؟ قال : لو رأيت صاحب هوى
يمشي على الماء فلا تغتر به . فقال الشافعي : لقد قصر الليث لو رأيت
صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به ؛ وتكلمت في هذا ونحوه
بكلام بعد عهدي به . ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب
الصلح وجعلت ألح عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة وهم
لا يجيبون ، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولعون
منهم ، وهم عدد كثير ، والناس يضحون في الميدان ، ويتكلمون
بأشياء لا أضبطها .

فذكر بعض الحاضرين أن الناس قالوا ما مضمونه : (فَوَقَعَ الْحَقُّ
وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ)
وذكروا
أيضاً أن هذا الشيخ يسمى عبد الله الكذاب . وأنه الذي قصدك مرة
فأعطيته ثلاثين درهما ، فقلت : ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه
ملبس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنه أدخل النار في
لحيته قدام صاحب حماة ، ولما فارقتني وقع في قلبي أن لحيته مدهونة .
وأنه دخل إلى الروم واستحوذ عليهم .

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلييسهم ، وتبين للأمراء الذين
كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا ، وتخطب الحاج بهادر
ونائب السلطان وغيرها بصورة الحال ، وعرفوا حقيقة الحال ؛ وقمنا إلى

داخل ودخلنا ، وقد طلبوا التوبة عما مضى ، وسألني الأمير عما تطلب منهم فقلت : متابعة الكتاب والسنة مثل أن [لا] يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعها ، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمها ونحو ذلك ، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمها ، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنة التي توجب الكفر . وقد توجب القتل دون الكفر ، وقد توجب قتال الطائفة الممتعة دون قتل الواحد المقدور عليه .

فقالوا : نحن ملتزمون الكتاب والسنة أتكسر علينا غير الأطواق ؟ نحن نخلعها . فقلت : الأطواق وغير الأطواق ، ليس المقصود شيئاً معيناً ؛ وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم . فقال الأمير فأبي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنة ؟ فقلت : حكم الكتاب والسنة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس ، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً ، ومن خرج عنه ضربت عنقه — وكرر ذلك وأشار بيده إلى ناحية الميدان — وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس ؛ فإن هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه ، فيتقرر عند المقاتلة ، وأهل الديوان ، والعلماء والعباد ، وهؤلاء وولاة الأمور — أنه من خرج عن الكتاب والسنة ضربت عنقه .

قلت : ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله ؛
فإن من هؤلاء من لا يصلي ، ومنهم من يتكلم في صلاته ، حتى إنهم
بالأمس بعد أن اشتكوا علي في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب
الصلاة : ياسيدي أحمد شيء لله . وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك
بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم فأمر قائل ذلك
لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عاداتهم في صغير الذنوب . ولم
يأمره بإعادة الصلاة . وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا
منكر يبطل الصلاة .

فقال : هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس .

فقلت : العطاس من الله والله يحب العطاس ويكره التأثب ولا
يملك أحدهم دفعه ، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان ، وهو باختيارهم
وتكلفهم ، ويقدرّون على دفعه ، ولقد حدثني بعض الحيرين بهم بعد
الجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى : مثل
قول أحدهم أنا على بطن امرأة الإمام ، وقول الآخر كذا وكذا من
الإمام ، ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة ، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر
ترك الصلاة يصلون بالنوبة ، وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا

مغلوبين على ذلك كما يغلب الرجل في بعض الأوقات على صيحة أو بكاء
في الصلاة أو غيرها .

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنة وجموعهم بالميدان بأصواتهم
وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم (قلت له) أهذا موافق للكتاب
والسنة ؟ فقال : هذا من الله حال يرد عليهم ، فقلت : هذا من
الشیطان الرجيم لم يأمر الله به ولا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ،
ولا أحبه الله ولا رسوله ، فقال : ما في السموات والأرض حركة
ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته ، فقلت له : هذا من باب
القضاء والقدر ، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسوق وعصيان هو
بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله ؛ بل ذلك مما زينه
الشیطان وسخطه الرحمن .

فقال : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال . فقلت : بهذه السياط
الشرعية . فأعجب الأمير وضحك ، وقال : إي والله ! بالسياط الشرعية ،
تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ،
ومن لم يجب إلى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية . وأمسكت
سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن
خرج عن كتاب الله وسنة رسوله ضربناه بسيف الله ، وأعاد الأمير

هذا الكلام ، وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يُقرُّون ولا نقر نحن ؟ . فقلت : اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم ، والمبتدع لا يقر على بدعته . فأفحموا لذلك .

و « حقيقة الأمر » أن من أظهر منكراً في دار الإسلام لم يقر على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر ، ولا يقر من أظهر الفجور ، وكذلك أهل النمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ، ومن سوام فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته ، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

وذكرت ذم « المبتدعة » فقلت روى مسلم في صحيحه عن جعفر ابن محمد الصادق عن أبيه أبي جعفر الباقر عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبته « إن أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وفي السنن عن العرياض بن سارية ، قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلّت منها القلوب ، فقال قائل يا رسول كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال « أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين

من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » وفي رواية « وكل ضلالة في النار » .

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثاً في ذم الزنا ، فقلت هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، والزنا معصية ، والبدعة شر من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ فإن المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نتوب الناس ، فقلت : مماذا تتوبونهم ؟ قال : من قطع الطريق ، والسرقه ، ونحو ذلك . فقلت : حالهم قبل تتوبكم خير من حالهم بعد تتوبكم ؛ فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ، ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينوون التوبة ، فجعلتموهم بتتوبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يغيظه الله ويبغضون ما يحبه الله ، وينت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي .

قلت مخاطباً للأئمة والحاضرين : أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان يضحك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان كلما أتى به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم جلده الحد فلغنه رجل مرة . وقال :

لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ !
فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « لا تلغنه فإنه يحب الله
ورسوله » . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان
صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبي صلى الله تعالى عليه
وسلم بذلك ونهى عن لعنه .

وأما المبتدع فمثل ما أخرجنا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب
وعن أبي سعيد الخدري وغيرها — دخل حديث بعضهم في بعض —
أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يقسم ، فجاءه رجل نأتى الجبين
كث اللحية ، مخلوق الرأس ، بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال .
فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « يخرج من ضضيء هذا قوم
يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع
قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما
يمرق السهم من الرمية : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد » وفي رواية :
« لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل »
وفي رواية « شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه » .

« قلت » : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم ومما
عليه من العبادة والزهادة أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم ، وقتلهم
علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم

وذلك لخروجهم عن سنة النبي وشريعته ، وأظن أنى ذكرت قول الشافعي : لأن يتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يتلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قبح البدع في الإسلام ، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدعا منكرا فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر أخذ شيخهم عبد الله يقول : يامولانا لا تعرض لهذا الجنب العزيز – يعني أتباع أحمد ابن الرافعي – فقلت منكراً بكلام غليظ : ويحك ؛ أي شيء هو الجنب العزيز ، وجنب من خالفه أولى بالعزيزا ذو الزرجنة ^(١) تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ، فقال : يامولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم ، فقلت : مثل ما أحرقتي الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم ، ويقول أصحابهم إن لهم سراً مع الله فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجليل .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة يابيت الكذب – فإن فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك ، أو يساوونهم ،

(١) كذا بالأصل .

أو يزيدون عليهم ، فإنهم من أكذب الطوائف حتى قيل فيهم : لانتقلوا
أكذب من اليهود على الله ، ولكن قولوا أكذب من الأحدية على
شيخهم ، وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم (فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا
تُنْظِرُونِ) .

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً
صحيحة ليهدوا بها فبذلت لهم ذلك ، وأعيد الكلام أنه من خرج عن
الكتاب والسنة ضربت عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام
على ذلك . والحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم
الأحزاب وحده .

سئل شيخ الإسلام

وناصر السنة ، فريد الوقت ، وبحر العلوم ، بقية المجتهدين ، وحجة
المتأخرين ، تاج العارفين ، وقدوة المحققين ، رحلة الطالبين ، ونخبة
الراسخين ، إمام الزاهدين ومنال المجتهدين ، الإمام الحجة النوراني ،
والعالم المجتهد الرباني ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن
عبد السلام بن تيمية الحراني أدام الله علو قدره في الدارين ، وجعله
يتسم ذروة الكمال مسرور القلب قرير العين ، عن « المرشدة » كيف
كان أصلها وتأليفها ؟ وهل تجوز قراءتها أم لا ؟

فأجاب - رحمه الله تعالى - قائلا :

الحمد لله رب العالمين . أصل هذه : أنه وضعها أبو عبد الله محمد بن
عبد الله بن التومرت ، الذي تلقب بلهدي ، وكان قد ظهر في المغرب
في أوائل المائة الخامسة من نحو مائتي سنة ، وكان قد دخل إلى بلاد
العراق ، وتعلم طرفا من العلم ، وكان فيه طرف من الزهد والعبادة .

ولما رجع إلى المغرب صعد إلى جبال المغرب ؛ إلى قوم من البربر .

وغيرهم : جهال لا يعرفون من دين الإسلام إلا ما شاء الله ، فعلهم الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام ، واستجاز أن يظهر لهم أنواعا من المخاريق ، ليدعوم بها إلى الدين ، فصار يجيء إلى المقابر يدفن بها أقواماً ويواطئهم على أن يكلموه إذا دعاهم ، ويشهدوا له بما طلبه منهم ، مثل أن يشهدوا له بأنه المهدي ، الذي بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي بواطئ اسمه اسمه ، واسم أبيه اسم أبيه . وأنه الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت جوراً وظلماً . وأن من اتبعه أفلح ، ومن خالفه خسر ، ونحو ذلك من الكلام . فإذا اعتقد أولئك البربر أن الموتى يكلمونه ويشهدون له بذلك ، عظم اعتقادهم فيه وطاعتهم لأمره .

ثم إن أولئك المقبورين يهدم عليهم القبور ليموتوا ، ولا يظهروا أمره ، واعتقد أن دماء أولئك مباحة بدون هذا ، وأنه يجوز له إظهار هذا الباطل ليقوم أولئك الجهال بنصره واتباعه . وقد ذكر عنه أهل المغرب وأهل المشرق الذين ذكروا أخباره من هذه الحكايات أنواعاً . وهي مشهورة عند من يعرف حاله عنه .

ومن الحكايات التي يأتونها عنه أنه واطأ رجلاً على إظهار الجنون وكان ذلك علماً يحفظ القرآن والحديث والفقه ، فظهر بصورة الجنون والناس لا يعرفونه إلا مجنوناً . ثم أصبح ذات يوم وهو عاقل يقرأ القرآن والحديث والفقه ، وزعم أنه علم ذلك في المنام ، وعوفي مما كان

به ، وربما قيل : إنه ذكر لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم علمه ذلك فصاروا يحسنون الظن بذلك الشخص ، وأنه كان لهم يوم يسمونه يوم الفرقان ، فرق فيه بين أهل الجنة وأهل النار بزعمه ، فصار كل من علموا أنه من أوليائهم جعلوه من أهل الجنة ، وعصموا دمه ، ومن علموا أنه من أعدائهم جعلوه من أهل النار ، فاستحلوا دمه ، واستحل دماء ألوف مؤلفة من أهل المغرب المالكية ، الذين كانوا من أهل الكتاب والسنة على مذهب مالك وأهل المدينة ، يقرؤون القرآن والحديث : كالصحيحين ، والموطأ وغير ذلك والفقه على مذهب أهل المدينة فزعم أنهم مشبهة مجسمة ولم يكونوا من أهل هذه المقالة ، ولا يعرف عن أحد من أصحاب مالك إظهار القول بالتشبيه والتجسيم .

واستحل أيضاً أموالهم ، وغير ذلك من المحرمات بهذا التأويل ونحوه ، من جنس ما كانت تستحله الجهمية المعطلة — كالفلاسفة والمعتزلة ، وسائر نفاة الصفات — من أهل السنة والجماعة ، لما امتحنوا الناس في « خلافة المأمون » وأظهروا القول بأن القرآن مخلوق ، وأن الله لا يرى في الآخرة ، ونفوا أن يكون لله علم ، أو قدرة أو كلام أو مشيئة ، أو شيء من الصفات القائمة بذاته .

وصار كل من وافقهم على هذا التعطيل عصموا دمه وماله ، وولوه الولايات وأعطوه الرزق من بيت المال ، وقبلوا شهادته وافتدوه من

الأسر ومن لم يوافقهم على أن القرآن مخلوق وما يتبع ذلك من بدعهم قتلوه ، أو حبسوه أو ضربوه أو منعوه العطاء من بيت المال ، ولم يولوه ولاية ، ولم يقبلوا له شهادة ، ولم يفدوه من الكفار . يقولون : هذا مشبه ؛ هذا مجسم ، لقوله : إن الله يرى في الآخرة ، وأن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن الله استوى على العرش ، ونحو ذلك . فدامت هذه المحنة على المسلمين بضع عشرة سنة ، في أواخر خلافة المأمون ، وخلافة أخيه المعتصم ، والواثق بن المعتصم ، ثم إن الله تعالى كشف الغمة عن الأمة ، في ولاية المتوكل على الله ، الذي جعل الله عامة خلفاء بني العباس من ذريته دون ذرية الذين أقاموا المحنة لأهل السنة .

فأمر المتوكل برفع المحنة وإظهار الكتاب والسنة ، وأن يروى ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ، من الإثبات النافي للتعطيل . وكان أولئك الجهمية المعطلة قد بلغ من تبديلهم للدين أنهم كانوا يكتبون على ستور الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ولا يقولون : (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وأنهم كانوا يمتحنون الناس بقوله تعالى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) فإذا قالوا وهو السميع البصير أنكروا عليهم ، ومذهب سلف الأمة وأئمتها أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير

تكيف ولا تمثيل . فلا ينفون عن الله ما أثبتة لنفسه ، ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه ، بل يعلمون أن الله ليس كمثل شيء . لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعاله فكما أن ذاته لا تشبه الذوات ، فصفاته لا تشبه الصفات .

والله تعالى بعث الرسل فوصفوه بإثبات مفصل ، ونفي مجمل . وأعداء الرسل : الجهمية الفلاسفة ونحوهم وصفوه بنفي مفصل ، وإثبات مجمل . فإن الله سبحانه وتعالى أخبر في كتابه بأنه : بكل شيء عليم وأنه على كل شيء قدير ، وأنه حي قيوم ، وأنه عزيز حكيم ، وأنه غفور رحيم ، وأنه سميع بصير . وأنه يحب المتقين والمحسنين والصابرين وأنه لا يحب الفساد ، ولا يرضى لعباده الكفر ، وأنه رضى عن المؤمنين ورضوا عنه ، وأنه يغضب على الكفار وبلغهم ، وأنه إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه . وأنه كلم موسى تكليماً ، وأن القرآن نزل به الروح الأمين من الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم . كما قال : (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) وروح القدس هو جبريل كما قال في الآية الأخرى : (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ) وقال تعالى : (نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) وقال تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) وقال تعالى : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ)

وقد ثبت في صحيح مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ! إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ؛ فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ ! قال : فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ؛ وهي الزيادة » وقد استفاد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح أنه قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته » و « إن الناس قالوا : يا رسول الله ؛ هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : هل تضامون في رؤية الشمس صحوّاً ليس دونها سحب ؟ قالوا : لا قال : فهل تضارون في رؤية القمر صحوّاً ليس دونه سحب ؟ قالوا : لا . قال : فإنكم سترون ربكم . كما ترون الشمس والقمر » فشبه صلى الله عليه وسلم الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي ؛ فإن العباد لا يحيطون بالله علماً ؛ ولا تدركه أبصارهم . كما قال تعالى : (لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) .

وقد قال غير واحد : من السلف والعلماء إن « الإدراك » هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به ، فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله .

وقال تعالى في النبي : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا)

(هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) . (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) فبين في هذه الآيات أن الله لا كفو له ، ولا ند له ، ولا مثل له ولا سمي له ، فمن قال : إن علم الله كعلمي ، أو قدرته كقدرتي أو كلامه مثل كلامي ، أو إرادته ومحبه ورضاء وغضبه مثل إرادتي ومحبي ورضائي وغضبي ، أو استواءه على العرش كاستوائني ، أو نزوله كنزولي ، أو إتيانه كإتياني ، ونحو ذلك فهذا قد شبه الله ومثله بخلقه ، تعالى الله عما يقولون ، وهو ضال خيث مبطل ، بل كافر .

ومن قال : إن الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا مشيئة ، ولا سمع ولا بصر ، ولا محبة ولا رضى ، ولا غضب ، ولا استواء ، ولا إتيان ولا نزول فقد عطل أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ، وألحد في أسماء الله وآياته وهو ضال خيث مبطل بل كافر ؛ بل مذهب الأئمة والسلف إثبات الصفات ونفي التشبيه بالخلق وإثبات بلا تشبيه وتنزيه بلا تعطيل ، كما قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري : من شبه الله بخلقه فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيها .

ومما بين ذلك : أن الله تعالى أخبرنا أن في الجنة ماء ولبناً وخبثاً وعسلاً ولحمًا وفاكهة وحريراً وذهباً وفضة ، وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء فإذا

كانت المخلوقات فى الجنة توافق المخلوقات فى الدنيا فى الأسماء ، والحقائق
ليست مثل الحقائق ، فكيف يكون الخالق مثل المخلوق إذا وافقه
فى الاسم ؟ ! .

والله تعالى قد أخبر أنه سميع بصير ، وأخبر عن الإنسان أنه سميع
بصير ، وليس هذا مثل هذا ، وأخبر أنه حي ، وعن بعض عباده أنه
حي ، وليس هذا مثل هذا . وأخبر أنه رؤوف رحيم ، وأخبر عن نبيه
أنه رؤوف رحيم ، وليس هذا مثل هذا . وأخبر أنه عليم حليم ، وأخبر
عن بعض عباده بأنه عليم حليم ، وليس هذا مثل هذا . وسمى نفسه
الملك ، وسمى بعض عباده الملك ، وليس هذا مثل هذا . وهذا كثير فى
الكتاب والسنة ، فكان سلف الأمة وأئمتها كأئمة المذاهب : مثل أبي
حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، على هذا إثبات بلا تشبيه ،
وتنزيه بلا تعطيل لا يقولون بقول أهل التعطيل ، نفاة الصفات ، ولا
بقول أهل التمثيل المشبهة للخالق بالمخلوقات ، فهذه طريقة الرسل ،
ومن آمن بهم .

وأما المخالفون للرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من المتفلسفة
وأشباههم ، فيصفون الرب تعالى « بالصفات السلبية » ليس كذا ، ليس
كذا ، ليس كذا ، ولا يصفونه بشيء من صفات الإثبات ، بل بالسلب
الذي يوصف به المعدم فيبقى ما ذكره مطابقاً للمعدم ، فلا يبقى

فرق بين ما يثبتونه وبين المعدم ، وهم يقولون : إنه موجود ليس بمعدم ، فيتناقضون ، يثبتونه من وجه ، ويحذفونه من وجه آخر . ويقولون : إنه وجود مطلق ، لا يتميز بصفة .

وقد علم الناس أن المطلق لا يكون موجوداً ، فإنه ليس في الأمور الموجودة ما هو مطلق لا يتعين ، ولا يتميز عن غيره ، وإنما يكون ذلك فيما يقدره المرء في نفسه ، فيقدر أمراً مطلقاً ، وإن كان لا حقيقة له في الخارج ، فصار هؤلاء المتفلسفة الجهمية المعطلون لا يجعلون الخالق سبحانه وتعالى موجوداً مبيناً لخلقه : بل إما أن يجعلوه مطلقاً في ذهن الناس ، أو يجعلوه حالاً في المخلوقات ، أو يقولون هو وجود المخلوقات .

ومعلوم أن الله كان قبل أن يخلق المخلوقات ، وخلقها فلم يدخل فيها ، ولم يدخلها فيه ، فليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وعلى ذلك دل الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . فالجهمية المعطلة نفاة الصفات من المتفلسفة والمعتزلة وغيرهم — الذين امتحنوا المسلمين ، كما تقدم — كانوا على هذا الضلال ، فلما أظهر الله تعالى أهل السنة والجماعة ، ونصرهم . بقي هذا النفي في نفوس كثير من أتباعهم ، فصاروا يظهرون تارة مع الرافضة القرامطة الباطنية ، وتارة مع الجهمية الاتحادية ، وتارة يوافقونهم

على أنه وجود مطلق ، ولا يزيدون على ذلك .

وصاحب « المرشدة » كانت هذه عقيدته كما قد صرح بذلك في كتاب له كبير شرح فيه مذهبه في ذلك ذكر فيه أن الله تعالى وجود مطلق ، كما يقول ذلك ابن سينا وابن سبعين وأمثالهم .

ولهذا لم يذكر في « مرشدته » الاعتقاد الذي يذكره أئمة العلم والدين من أهل السنة والجماعة أهل الحديث والفقه والتصوف والكلام وغيرهم من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم ، كما يذكره أئمة الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، وأهل الكلام : من الكلاية والأشعرية والكرامية وغيرهم ، ومشايخ التصوف والزهد ، وعلماء أهل الحديث فإن هؤلاء كلهم متفقون على أن الله تعالى حي عالم بعلم ، قادر بقدرة . كما قال تعالى : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ) وقال تعالى : (لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ) . وقال تعالى : (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) . وقال تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً) وقال تعالى : (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ) أي بقوة .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمهم السورة من القرآن . يقول :

« إذا لم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة . ثم ليقل : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر — وبسميه باسمه — خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، فاقدره لي ، ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه . واقدر لي الخير حيث كان . ثم رضى به » .

والأئمة الأربعة وسائر من ذكر متفقون على أن الله تعالى يرى في الآخرة ، وأن القرآن كلام الله .

فصاحب « المرشدة » لم يذكر فيها شيئاً من الإثبات الذي عليه طوائف أهل السنة والجماعة ، ولا ذكر فيها الإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا باليوم الآخر وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من أمر الجنة والنار والبعث والحساب وفتنة القبر والحوض وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الكبر ، فإن هذه الأصول كلها متفق عليها بين أهل السنة والجماعة . ومن عادات علمائهم أنهم يذكرون ذلك في العقائد المختصرة ، بل اقتصر فيها على ما يوافق أصله وهو القول بأن الله وجود مطلق ، وهو قول المتفلسفة والجهمية .

والشيعة ، ونحوم ممن اتفقت طوائف أهل السنة والجماعة ، أهل المذاهب الأربعة وغيرهم على إبطال قوله ، وتضليله .

فذكر فيها ما تقوله نفاة الصفات ، ولم يذكر فيها صفة واحدة لله تعالى ثبوتية ، وزعم في أولها أنه قد وجب على كل مكلف أن يعلم ذلك ، وقد اتفقت الأئمة على أن الواجب على المسلمين ما أوجبه الله ورسوله ، وليس لأحد أن يوجب على المسلمين ما لم يوجبه الله ورسوله والكلام الذي ذكره بعضه قد ذكره الله ورسوله ، فيجب التصديق به ، وبعضه لم يذكره الله ولا رسوله ولا أحد من السلف والأئمة فلا يجب على الناس أن يقولوا ما لم يوجب الله قوله عليهم . وقد يقول الرجل كلمة وتكون حقاً ، لكن لا يجب على كل الناس أن يقولوها ، وليس له أن يوجب على الناس أن يقولوها فكيف إذا كانت الكلمة تتضمن باطلاً ؟

وما ذكره من النفي يتضمن حقاً وبطلاً ، فالحق يجب اتباعه ، والباطل يجب اجتنابه . وقد بسطنا الكلام على ذلك في كتاب كبير . وذكرنا سبب تسميته لأصحابه بالموحدين ، فإن هذا مما أنكره المسلمون ؛ إذ جميع أمة محمد صلى الله عليه وسلم موحدون ، ولا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد .

و « التوحيد » هو ما بينه الله تعالى في كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . كقوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) وهذه السورة تعدل ثلث القرآن . وقوله : (قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا) أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) وقال تعالى : (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذُنُوبِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

فنفاة الجهمية من المعتزلة وغيرهم سماوا نفي الصفات توحيداً . فمن قال إن القرآن كلام الله وليس بمخلوق . أو قال : إن الله يرى في الآخرة أو قال : « أستخيرك بعلمك . وأستقدرك بقدرتك » لم يكن موحداً عندهم ؛ بل يسمونه مشبهاً مجسماً ، وصاحب « المرشدة » لقب أصحابه موحدين ، اتباعاً لهؤلاء الذين ابتدعوا توحيداً ما أنزل الله به من سلطان ، وألحدوا في التوحيد الذي أنزل الله به القرآن .

وقال أيضاً في قدرة الله تعالى : إنه قادر على ما يشاء ، وهذا يوافق قول الفلاسفة وعلي الأسواري وغيره من المتكلمين الذين يقولون : إنه لا يقدر على غير ما فعل ، ومذهب المسلمين أن الله على

كل شيء قدير . سواء شاءه أو لم يشأه ، كما قال تعالى : (قُلْهُوَ
الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْسَكُمْ شَيْعًا) .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه لما نزل
قوله تعالى : (قُلْهُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ) قال :
أعوذ بوجهك (أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) قال : أعوذ بوجهك .

(أَوْ يَلْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِقَ بَعْضُكُم بِأَسْ بَعْضٍ) قال : هاتان أهون «
قالوا فهو يقدر الله عليها وهو لا يشاء أن يفعلها ؛ بل قد أجاز الله هذه
الامة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم ، أو
يهلكهم بسنة عامة . وقد قال تعالى : (أَيْخَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامُهُ *
بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ) فالله قادر على ذلك ، وهو لا يشاءه ، وقد
قال تعالى : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىهَا) وقال تعالى :
(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً) فالله تعالى قادر على ذلك ، فلو
شاءه لفعله بقدرته ، وهو لا يشاءه .

وقد شرحنا ما ذكره فيها كلمة كلمة وبيننا ما فيها من صواب وخطأ
ولفظ مجمل في كتاب آخر .

فالعالم الذي يعلم حقائق ما فيها ، ويعرف ما جاء به الكتاب والسنة لا يضره ذلك ، فإنه يعطي كل ذي حق حقه ، ولا حاجة لأحد من المسلمين إلى تعلمها وقراءتها ، ولا يجوز لأحد أن يعدل عما جاء في الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها إلى ما أحدثه بعض الناس مما قد يتضمن خلاف ذلك ، أو يوقع الناس في خلاف ذلك ، وليس لأحد أن يضع للناس عقيدة ولا عبادة من عنده ؛ بل عليه أن يتبع ولا يتدع ، ويقندي ولا يتدي ، فإن الله سبحانه بعث محمداً صلى الله عليه وسلم : بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . وقال له : (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) وقال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) والنبي صلى الله عليه وسلم علم المسلمين ما يحتاجون إليه في دينهم .

فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات ، وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها ، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح فإن ما خالف العقل الصريح فهو باطل ، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطل ، ولكن فيه ألفاظ قد لا يفهمها بعض الناس ، أو يفهمون منها معنى باطلاً ، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة ؛ فإن

الله تعالى قال : (وَزَلَّنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِبَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ) .

والله أعلم . والحمد لله وحده . وصلواته على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه وسلم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وما توفيقى إلا بالله . عليه
توكلت وإليه أنيب .

سئل

عن رجل تخاطب هو وإنسان على من قرأ « المرشدة » .

قال الأول : قال بعض العلماء المرشدة لا يجوز أن نقرأها ،
قال الآخر : من لا يقرأها فهو كافر ؟

الجواب : الحمد لله ، أما هذا القائل الثاني الذي قال : من لا يقرأها
فهو كافر ، فإنه كاذب ضال مخطئ جاهل يجب أن يستتاب عن مثل
هذا القول ، فإن تاب وإلا عوقب عقوبة بليغة تردعه وأمثاله عن
مثل هذا .

بل إذا فهم مضمون قوله : من لم يقرأها فهو كافر ، وأصر عليه
بعد العلم ، كان هو الكافر المستحق لأن يستتاب ، فإن تاب وإلا
قتل . والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن قوم منتسبين إلى المشايخ : يتوبونهم عن قطع الطريق ، وقتل النفس والسرقة ؛ وألزموم بالصلاة ؛ لكنهم يصلون صلاة عادة البادية ، فهل يجب إقامة حدود الصلاة أم لا ؟ (١) ومع هذا شعارهم الرفض ، وكشف الرؤوس ، وتفتيل الشعر ، وحمل الحيات . ثم غلب على قلوبهم حب الشيوخ . حتى كلما عثر أحدهم أوهمه أمر استغاث بشيخه ، ويسجدون لهم مرة في غيبتهم ، ومرة في حضورهم ، فتارة يصادف السجود إلى القبلة ، وتارة إلى غيرها — حيث كان شيخه — ويزعمون هذا لله . ومنهم من يأخذ أولاد الناس حوارات برضى الوالدين ، وبغير رضام ، وربما كان ولد الرجل معيناً لوالديه على السعي في الحلال فيأخذه ويعلمه الدروزة ، وينذر للموتى . ومنهم من يواخي النسوان فإذا نهوا عن ذلك قال : لو حصل لي أمك وأختك واخيتيها فإذا قيل : لا تنظر أجنبية . قال : أنظر عشرين نظرة ، ويحلفون

(١) يأتي الكلام على الأمر بالصلاة في بابها .

بالمشايخ . وإذا نهوا عن شيء من ذلك . قال : أنت شرعي . فهل المنكر عليهم مأجور أم لا ؟

وهل اتخاذ الحرقة على المشايخ له أصل في الشرع أم لا ؟ وهل انتساب كل طائفة إلى شيخ معين يثاب عليه . أم لا ؟ وهل التارك له آثم أم لا ؟ ويقولون : إن الله يرضى لرضا المشايخ ، ويغضب بغضبهم ويستندون إلى قوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » و « أوثق عرى الإسلام الحب في الله والبغض في الله » فهل ذلك دليل لهم ، أم هو شيء آخر ؟ ومن هذه حاله هل يجوز دفع الزكاة إليه ؟؟

فأجاب — قدس الله روحه —

وأما كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات فليس هذا من شعار أحد من الصالحين ؛ لا من الصحابة ولا التابعين ولا شيوخ المسلمين لا المتقدمين ولا المتأخرين ولا الشيخ أحمد بن الرفاعي ولا غيره وإنما ابتدع هذا بعد موت الشيخ أحمد بمدة طويلة ، ابتدعه طائفة انتسبت إليه فخالفوا طريق المسلمين وخرجوا عن حقائق الدين ، وفارقوا طريق عباد الله الصالحين وهم نوعان :

أهل حال إبليسي . وأهل محال تليسي . فأما أهل « الأحوال »

منهم : فهم قوم اقترنت بهم الشياطين ، كما يقترنون بلخوانهم ؛ فإذا حضروا سماع المكاء والتصدية أخذهم الحال ، فيزيدون ويرغون . كما يفعله المصروع . ويتكلمون بكلام لا يفهمونه ولا الحاضرون ؛ وهي شياطينهم تتكلم على ألسنتهم عند غيبة عقولهم ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع ، ولهم مشابهُون في الهند من عباد الأصنام ، ومشابهُون بالمغرب يسمى أحدم المصلي ؛ وهؤلاء الذين في المغرب من جنس الزط الذين لاخلق لهم ؛ فإذا كان لبعض الناس مصروع أو نحوه أعطاهم شيئاً فيجيئون ويضربون لهم بالدف والملاهي ويحرقون ويوقدون ناراً عظيمة مؤججة ويضعون فيها الحديد العظيم حتى يبقى أعظم من الجمر وينصبون رماحاً فيها أسنة ، ثم يصعد أحدم يقعد فوق أسنة الرماح قدام الناس ، ويأخذ ذلك الحديد الحمى ويمره على يديه ، وأنواع ذلك .

ويرى الناس حجارة يرمى بها ولا يرون من رمى بها ، وذلك من شياطينهم الذين يصعدون بهم فوق الرمح ، وهم الذين يباشرون النار ، وأولئك قد لا يشعرون بذلك ، كالمصروع الذي يضرب ضرباً وجيعاً وهو لا يحس بذلك ؛ لأن الضرب يقع على الجنى ، فكذا حال أهل الأحوال الشيطانية ، ولهذا كلما كان الرجل أشبه بالجن والشياطين كان حاله أقوى ، ولا بآتيهم الحال إلا عند مؤذن الشيطان وقرآنه ، فهوذنه المزمار ، وقرآنه الغناء .

ولا يأتيهم الحال عند الصلاة والذكر والدعاء والقراءة ، فلا لهذه الأحوال فائدة في الدين ، ولا في الدنيا ، ولو كانت أحوالهم من جنس عباد الله الصالحين ، وأولياء الله المتقين ، لكانت تحصل عندما أمر الله به من العبادات الدينية ، ولكان فيها فائدة في الدين والدنيا لتكثير الطعام والشراب عند الفاقات ، واستنزال المطر عند الحاجات ، والنصر على الأعداء عند المخافات ، وهؤلاء أهل الأحوال الشيطانية في التلipsis يحقون البركات ، ويقوون المخافات ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، لا يأمرؤن بالمعروف ولا ينهؤن عن المنكر ، ولا يجاهدون في سبيل الله ، بل هم مع من أعطاهم وأطعمهم وعظمهم ، وإن كان تتريا ؛ بل يرجحون التتر على المسلمين ، ويكونون من أعوانهم ونصرائهم الملاعين ، وفيهم من يستعين على الحال بأنواع من السحر والشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله .

وأما أهل « الحال » منهم : فهم يصنعون أدوية كحجر الطلق ، ودهن الضفادع ، وقشور النارج ، ونحو ذلك . يمشون بها على النار ويمسكون نوعا من الحيات يأخذونها بضعة ، ويقدمون على أكلها بفجور ، وما يصنعونه من السكر واللاذن ، وماء الورد ، وماء الزعفران والدسم ، فكل ذلك حيل وشعوذة يعرفها الخبير بهذه الأمور .

ومنهم من تأتيه الشياطين ، وذلك هم أهل الحال الشيطاني .

فصل

وأما ما ذكروا من غلوم في الشيوخ : فيجب أن يعلم أن الشيوخ الصالحين الذين يقتدى بهم في الدين هم المتبعون لطريق الأنبياء والمرسلين كالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، ومن له في الأمة لسان صدق - وطريقة هؤلاء دعوة الخلق إلى الله ، وإلى طاعته وطاعة رسوله ، واتباع كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والمقصود أن يكون الدين كله لله ، وتكون كلمة الله هي العليا . فإن الله تعالى يقول : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) .

والرسل أمروا الخلق أن لا يعبدوا إلا الله وأن يخلصوا له الدين فلا يخافون غيره ، ولا يرجون سواه ، ولا يدعون إلا إياه . قال تعالى : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) . وقال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الحشية والتقوى لله وحده . وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاءَ أَيْتُهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فالإيتاء لله والرسول : (وَمَاءَ أَنْتُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهكم عنه فأنهوا) والحلال ما حله رسول الله والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ، ليس لأحد من الأولين والآخرين خروج عن طاعته وشريعته ، ومن لم يقربه باطنا وظاهراً فهو كافر مخلد في النار .

وخير الشيوخ الصالحين ، وأولياء الله المتقين : أتبعهم له وأقر بهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره : كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي . وسائر التابعين بإحسان ، وأما الحسب فله وحده ولهذا قالوا : (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) ولم يقولوا ورسوله . كما قال تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وقال تعالى : (يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أي : أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . فهو وحده يكفيهم فإنه سبحانه له الملك وله الحمد وهو كاف عبده . كما قال تعالى : (أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ) وقال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) الآية .

وروي أن بعض الصحابة قال : يارسول الله ! هل ربنا قريب فتناجيه ؟ أم بعيد فتناديه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فهو سبحانه سميع قريب مجيب رحيم ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وهو يعلم من أحوال العباد ما لا يعلمه غيره ، ويقدر على قضاء حوائجهم التي لا يقدر عليها غيره ، ويرحمهم رحمة لا يرحمهم بها غيره .

والشيوخ الذين يقتدى بهم يدلون عليه ، ويرشدون إليه ، بمنزلة الأئمة في الصلاة ، يصلون ويصلي الناس خلفهم ، وبمنزلة الدليل الذي للحاج هو يدهم على البيت ، وهو وهم جميعاً يحجون إليه ، ليس لهم من الإلهية نصيب ؛ بل من جعل لهم شيئاً من ذلك فهو من جنس النصارى المشركين ، الذين قال الله في حقهم : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقد قال نوح عليه السلام : (قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ) وهكذا أمر الله محمداً صلى الله عليه وسلم أن يقول .

فليس لأحد أن يدعو شيخاً ميتاً أو غائباً ؛ بل ولا يدعو ميتاً ولا غائباً ؛ لا من الأنبياء ولا غيرهم ، فلا يقول لأحدم : ياسيدي فلان ! أنا في حسبك أو في جوارك ، ولا يقول : بك أستغيث ، وبك أستجير ، ولا يقول : إذا عثر : يافلان ! ولا يقول : محمد ! وعلي ! ولا الست نفيسة

ولا سيدي الشيخ أحمد ! ولا الشيخ عدي ! ولا الشيخ عبد القادر ! ولا غير ذلك ، ولا نحو ذلك مما فيه دعاء الميت والغائب ، ومسأله ، والاستغاثة به ، والاستنصار به ، بل ذلك من أفعال المشركين ، وعبادات الضالين .

ومن المعلوم أن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في صحيح البخاري « أن الناس لما أجدبوا استسقى عمر بالعباس . وقال اللهم إنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنينا ، فتسقيننا . وإنا تتوسل بعم نينا فاسقنا فيسقون » فكانوا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يتوسلون بدعائه ، وشفاعته لهم ، كما يتوسل به الناس يوم القيامة ، ويستشفعون به إلى ربهم ، فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع لهم . ألا ترى الله يقول (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) . وقال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يُنْفَعُكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمْ مِنْ شَرِكٍ وَمَالُهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)
فبين سبحانه أن المخلوقات كلها ليس لأحد منها شيء في الملك ، ولا له شريك فيه ، ولا له ظهير ، أي : معين لله تعالى كما تعاون الملوك ، وبين أن الشفاعة عنده لا تنفع إلا لمن أذن له .

وإذا كان يوم القيامة يجيء الناس إلى آدم ، ثم نوح ، ثم إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى ، فيطلبون الشفاعة منهم ، فلا يشفع لهم أحد من هؤلاء الذين هم سادة الخلق ، حتى يأتوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فيأتي ربه فيحمده بمحامد ويسجد له ، فإذا أذن له في الشفاعة شفع لهم . فهذه حال هؤلاء الذين هم أفضل الخلق ؛ فكيف غيرهم ؟

فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يدعونه ، ولا يستغيثون به ولا يطلبون منه شيئاً لا عند قبره ولا بعيداً من قبره ؛ بل ولا يصلون عند قبره ولا قبر غيره ، لكن يصلون ويسلمون عليه ويطيعون أمره ويتبعون شريعته ، ويقومون بما أحبه الله تعالى من حق نفسه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين ، فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم . فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » وقال : « لا تتخذوا قبري عيداً . وصلوا علي حيث كنتم فإن صلاتكم تبلغني » وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا وقال له رجل : ما شاء الله وشئت فقال : « أ جعلتني لله نداً ؟ قل : ما شاء الله وحده » وقال : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » .

وفي المسند أن معاذ بن جبل سجد له . فقال : « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال : يارسول الله ! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم وبذكرون ذلك عن أنبيائهم فقال : يا معاذ ! « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » وقال : « يا

معاذ ! أرأيت لو مررت بقبري أكنت ساجداً لقبري قال : لا قال :
فإنه لا يصلح السجود إلا لله ، أو كما قال .

فإذا كان السجود لا يجوز لرسول الله صلى الله عليه وسلم حياً
ولاميتاً، ولا لقبره، فكيف يجوز السجود لغيره ؟ بل قد ثبت عنه في
الصحيح أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » فقد نهى
عن الصلاة إليها ، كما نهى عن اتخاذها مساجد ولهذا لما أدخلوا حجرته
في المسجد لما وسعوه جعلوا مؤخرها مسنماً منحرفاً عن سمت القبلة لئلا
يضي أحد إلى الحجرة النبوية ، فما الظن بالسجود إلى جهة غيره .
كأئمن كان؟!.

وأما قول القائل : هذا السجود لله تعالى فإن كان كاذباً في ذلك
فكفى بالكذب خزيًا، وإن كان صادقاً في ذلك فإنه يستتاب فإن تاب
وإلا قتل ، فإن السجود لا يكون إلا على الوجه المشروع وهو السجود
في الصلاة ، وسجود السهو وسجود التلاوة ، وسجود الشكر على أحد
قولي العلماء . وأما السجود عقيب الصلاة بلا سبب فقد كرهه العلماء
وكذلك ما يفعله بعض المشايخ من سجدين بعد الوتر لم يفعله أحد من
السلف ولا استعجه أحد من الأئمة ، ولكن هؤلاء بلغهم حديث رواه أبو
موسى الذي في (الوظائف) أن النبي صلى الله عليه وسلم كان

يُصلي سجدتين بعد الوتر ففعلوا (١) الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه « أنه كان يصلي بعد الوتر ركعتين وهو جالس ولم يداوم على ذلك » فسميت الركعتان سجدتين . كما في أحاديث أخر . فهذا هو أصل ذلك . والكلام في هاتين الركعتين المذكور في غير هذا الموضع .

وأما السجدتان فلا أصل لهما ولا للسجود المجرد بلا سبب وقالوا هو بدعة فكيف بالسجود إلى جهة مخلوق من غير مراعاة شروط الصلاة وهذا يشابه من يسجد للشرق في الكنيسة مع النصارى ويقول : لله ، أو يسجد مع اليهود إلى الصخرة ويقول : لله ؛ بل سجود النصارى واليهود لله وإن كان إلى غير قبلة المسلمين خير من السجود لغير الله . بل هذا بمنزلة من يسجد للشمس عند طلوعها وغروبها ويسجد لبعض الكواكب والأصنام ويقولون : لله .

فصل

وأما فساد الأولاد : بحيث يعلمه الشحاذة ، ويمنعه من الكسب الحلال ، أو يخرج به بيلاده مكشوف الشعر " في الناس ، فهذا يستحق

(١) يباح بالأصل .

صاحبه العقوبة البليغة ، التي تزجره عن هذا الإفساد ، لاسيما إن أدخلوهم في الفواحش ، وغير ذلك من المنكرات ؛ ويجب تعليم أولاد المسلمين ما أمر الله بتعليمهم إياه ، وتربيتهم على طاعة الله ورسوله . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « مروم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم في المضاجع »

فصل

وأما « النذر للموتى » من الأنبياء والمشايخ وغيرهم : أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم . فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى . سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك وهو شبه بمن ينذر للكنائس ؛ والرهبان وبيوت الأصنام . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به ؛ بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء ، وهذا إذا كان النذر لله وأما إذا كان النذر لغير الله ، فهو كمن يحلف بغير الله ، وهذا شرك . فيستغفر الله منه ، وليس في هذا وفاء ولا كفارة . ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين فأجره على رب العالمين .

وأصل عقد النذر منهي عنه . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل » وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج ؛ دون ما لم يكن طاعة لله تعالى .

فصل

فأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب ، وخلوم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة منهن : فهذا حرام باتفاق المسلمين ، ومن جعل ذلك من الدين ، فهو من إخوان الشياطين . قال الله تعالى : (وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يخلون رجل بامرأة فإن ثالثهما الشيطان » وقال : « إياكم والدخول على النساء . قالوا : يا رسول الله : أ رأيت الحمى ؟ قال : الحمى الموت » ومن لم ينته عن ذلك عوقب عقوبة بليغة تزجره ، وأمثاله من أهل الفساد والعناد .

فصل

وأما الحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشايخ والملوك وغيرهم فإنه منهي عنه ، غير منعقد باتفاق الأئمة ، ولم ينازعوا إلا في الحلف برسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة . والجمهور على أنه لا تتعقد اليمين لا به ولا بغيره ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » فمن حلف بشيخه أو بتربته أو بحياته أو بحقه على الله ، أو بالملوك أو بنعمة السلطان أو بالسيف أو بالكعبة أو أبيه أو تربة أبيه أو نحو ذلك كان منهياً عن ذلك ، ولم تتعقد يمينه باتفاق المسلمين .

فصل

وأما قول القائل : لمن أنكر عليه أنت شرعي . فكلام صحيح ، فإن أراد بذلك أن الشرع لا يتبعه ، أو لا يجب عليه اتباعه ، وأنا خارج عن اتباعه ، فلفظ الشرع قد صار له في عرف الناس « ثلاث معان » الشرع المنزل ، والشرع المؤول ، والشرع المبدل .

فأما الشرع المنزل : فهو ما ثبت عن الرسول من الكتاب والسنة وهذا الشرع يجب على الأولين والآخرين اتباعه ، وأفضل أولياء الله أكملهم اتباعاً له ، ومن لم يلتزم هذا الشرع ، أو طعن فيه أو جوز لأحد الخروج عنه ، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

وأما المؤول فهو ما اجتهد فيه العلماء من الأحكام ، فهذا من قلد فيه إماماً من الأئمة ساغ ذلك له ، ولا يجب على الناس التزام قول إمام معين .

وأما الشرع المبدل فهو الأحاديث المكنوبة ، والتفاسير المقلوبة ، والبدع المضلة التي أدخلت في الشرع وليست منه ، والحكم بغير ما أنزل الله . فهذا ونحوه لا يحل لأحد اتباعه .

وإنما حكم الحكم بالظاهر ، والله تعالى يتولى السرائر ، وحكم الحاكم لا يحيل الأشياء عن حقائقها . فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض . وإنما أقضي بنحو ما أسمع فمن قضيت له من أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار » فهذا قول إمام الحكم ، وسيد ولد آدم .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اجتهد الحاكم : فإن أصاب
فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » وقال « القضاة ثلاثة :
قاضيان في النار ، وقاض في الجنة . رجل علم الحق وقضى به فهو في
الجنة ، ورجل قضى للناس بجهل فهو في النار ، ورجل علم الحق
وقضى بخلافه فهو في النار » .

ومن خرج عن الشرع الذي بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم
ظاناً أنه متبع للحقيقة ، فإنه مضاء للمشركين المكذبين للرسل ، ولفظ
« الحقيقة » يقال : على « حقيقة كونية » و « حقيقة بدعية »
و « حقيقة شرعية » .

و « الحقيقة الكونية » مضمونها الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن الله
خالق كل شيء وربّه ومليكه . وهذا مما يجب أن يؤمن به ، ولا
يجوز أن يحتج به ، بل لله علينا الحجة البالغة ، فمن احتج بالقدر فحجته
داحضة ، ومن اعتذر بالقدر عن المعاصي فعذره غير مقبول .

وأما « الحقيقة البدعية » فهي سلوك طريق الله سبحانه وتعالى ،
مما يقع في قلب العبد من الذوق والوجد ، والمحبة والهوى ، من غير
اتباع الكتاب والسنة . كطريق النصارى ، فهم تارة يعبدون غير الله
وتارة يعبدون بغير أمر الله . كالنصارى المشركين الذين اتخذوا أجبارهم

ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم ، وابتدعوا الرهبانية فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله . وأما دين المسلمين فكما قال الله تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) وقال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) قال الفضيل بن عياض : [أخلصه وأصوبه قالوا :] وما أخلصه وأصوبه . قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ولهذا كان عمر بن الخطاب يقول في دعائه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وأما « الحقيقة الدينية » وهي تحقيق ما شرعه الله ورسوله ، مثل الإخلاص لله ، والتوكل على الله ، والخوف من الله ، والشكر لله ، والصبر لحكم الله ، والحب لله ورسوله ، والبغض في الله ورسوله ، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله . فهذا حقائق أهل الإيمان ، وطريق أهل العرفان .

فصل

والأمر بالمعروف ، وهو الحق الذي بعث الله به رسوله . والهي عن المنكر ، وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور ، بل هو من أعظم الواجبات ، وأفضل الطاعات : بل هو طريق أئمة الدين ، ومشايخ الدين ، يقتدي بهم فيه . قال الله تعالى : (وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين ، يقتدي بهم في الدين ، فمن لم يأمر بالمعروف وبنه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ، ولا ممن يقتدي به .

فصل

وأما لباس الحرقة التي يلبسها بعض المشايخ المريدين : فهذه ليس لها أصل يدل عليها الدلالة المعتبرة من جهة الكتاب والسنة ، ولا كان المشايخ المتقدمون وأكثر المتأخرين يلبسونها المريدين . ولكن طائفة من

المتأخرين رأوا ذلك واستحبوه ، وقد استدل بعضهم بأن النبي صلى الله عليه وسلم ألبس أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص ثوباً ، وقال لها : سنا ، والسنا بلسان الحبشة الحسن . وكانت قد ولدت بأرض الحبشة ، فلهذا خاطبها بذلك اللسان ، واستدلوا أيضاً بحديث البردة التي نسجتها امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم : فسأله إياها بعض الصحابة فأعطاه إياها وقال : « أردت أن تكون كفناً لي » .

وليس في هذين الحديثين دليل على الوجه الذي يفعلونه . فإن إعطاء الرجل لغيره ما يلبسه كإعطائه إياه ما ينفعه ، وأخذ ثوب من النبي صلى الله عليه وسلم على وجه البركة كأخذ شعره على وجه البركة ، وليس هذا كلباس ثوب أو قلنسوة على وجه المتابعة والاقتداء ؛ ولكن [يشبهه] من بعض الوجوه خلع الملوك [التي] يخلعونها على من يولونه كأنها شعار وعلامة على الولاية والكرامة ؛ ولهذا يسمونها تشریفاً . وهذا ونحوه غاية أن يجعل من جنس المباحات ؛ فإن اقترن به نية صالحة كان حسناً من هذه الجهة ، وأما جعل ذلك سنة وطريقاً إلى الله سبحانه وتعالى فليس الأمر كذلك .

وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين : فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان والقرآن . كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتلقاه عنهم التابعون ؛ وبذلك يحصل اتباع السابقين

الأولين بإحسان ، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن ونحوه ، فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر ؛ ولا يتعين ذلك في شخص معين ؛ ولا يحتاج الإنسان في ذلك أن ينتسب إلى شيخ معين ، كل من أفاد غيره إفادة دينية هو شيخه فيها ؛ وكل ميت وصل إلى الإنسان من أقواله وأعماله وآثاره ما انتفع به في دينه فهو شيخه من هذه الجهة ؛ فسلف الأمة شيوخ الخلفاء قرناً بعد قرن ؛ وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعتة ، ويعادي على ذلك ؛ بل عليه أن يوالي كل من كان من أهل الإيمان ، ومن عرف منه التقوى من جميع الشيوخ وغيرهم ، ولا يخص أحداً بمزيد موالات ، إلا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه ، فيقدم من قدم الله تعالى ورسوله عليه ، ويفضل من فضله الله ورسوله ، قال الله تعالى : (يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربي على عجمي ؛ وللعجمي على عربي ؛ ولا أسود على أبيض ؛ ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » .

فصل

وأما قول القائل : أنت للشيخ فلان ، وهو شيخك في الدنيا والآخرة .

فهذه بدعة منكورة من جهة أنه جعل نفسه لغير الله ، ومن جهة أن قوله : شيخك في الدنيا والآخرة كلام لا حقيقة له ، فإنه إن أراد أنه يكون معه في الجنة ، فهذا إلى الله لا إليه ، وإن أراد أنه يشفع فيه فلا يشفع أحد لأحد إلا بأذن الله تعالى ، إن أذن له أن يشفع فيه وإلا لم يشفع ؛ وليس بقوله : أنت شيخي في الآخرة يكون شافعاً له — هذا إن كان الشيخ ممن له شفاعه — فقد تقدم أن سيد المرسلين والخلق لا يشفع حتى يأذن الله له في الشفاعه بعد امتناع غيره منها . وكم من مدع للمشيخة وفيه نقص من العلم والإيمان ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

وقول القائل : « لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه الله به » هو من كلام أهل الشرك والبهتان ، فإن عباد الأصنام أحسنوا ظنهم بها فكانوا هم وإياها من حصب جهنم ، كما قال الله تعالى : (إِنَّا كُنَّا وَهَمًا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ () . لكن قال

النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك ، ولا يستحب له ذلك ، بل يكره له .

وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك ، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان ، والذين يعلمونه ويؤدّبونه لا يبدلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه وعلمه ، فإنه يفعل الأصلح لدينه . وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه ، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده .

فأما الانتساب الذي يفرق بين المسلمين ، وفيه خروج عن الجماعة والاتلاف إلى الفرقة ، وسلوك طريق الابتداع ، ومفارقة السنة والاتباع ، فهذا مما ينهى عنه ، وبأثم فاعله ، ويخرج بذلك عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فصل

وأما قول القائل : إن الله يرضى لرضا المشايخ ويغضب لغضبهم .

فهذا الحكم ليس هو لجميع المشايخ ، ولا مختص بالمشايخ ، بل كل من كان موافقاً لله : يرضى ما يرضاه الله ، ويسخط ما يسخط الله كان الله يرضى لرضاه ، ويغضب لغضبه ، من المشايخ وغيرهم ، ومن لم يكن كذلك من المشايخ ، لم يكن من أهل هذه الصفة . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - وكان قد جرى بينه وبين صهيب وخباب وبلال وغيرهم كلام في أبي سفيان ابن حرب ؛ فإنه مر بهم فقالوا : « ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها . فقال أتقولون هذا لكبير قريش ؟ ودخل على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : لعلك أغضبتهم يا أبا بكر . لئن كنت أغضبتهم ، لقد أغضبت ربك » أو كما قال . قال : فخرج عليهم أبو بكر فقال لهم : يا إخواني ! أغضبتكم ؟ قالوا لا يغفر الله لك يا أبا بكر . فهؤلاء كان غضبهم لله .

وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول

الله تعالى من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيننه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه .

فهذا المؤمن الذي تقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض أحبه الله لأنه فعل ما أحبه الله ، والجزاء من جنس العمل . قال الله تعالى : (رَضِيََ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) وفى الحقيقة فالعبد الذي يرضى الله لرضاه ، ويغضب لغضبه ، هو يرضى لرضا الله ، ويغضب لغضب الله وليكن هذان مثالان : فمن أحب ما أحب الله ، وأبغض ما أبغض الله ورضي ما رضي الله لما يرضي الله ، ويغضب لما يغضب ؛ لكن هذا لا يكون للبشر على سبيل الدوام ، بل لا بد لأكمل الخلق أن يغضب أحياناً غضب البشر ، ويرضى رضا البشر .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « اللهم إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأبما مسلم سيئته أو لعنته وليس لذلك بأهل فاجعل ذلك له صلاة وزكاة وقربة تقربه إليك يوم القيامة »

وقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك في قضية معينة ، لكون غضبه لأجل أبي سفيان وهم كانوا يغضبون الله ، وإلا فأبو بكر أفضل من ذلك ، وبالجملة فالشيوخ والملوك وغيرهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله أطيعوا ، وإن أمروا بخلاف ذلك لم يطاعوا ؛ فإنه لاطاعة للمخلوق في معصية الخالق ، وليس أحد معصوما إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا في الشيخ الذي ثبت معرفته بالدين وعمله به .

وأما من كان مبتدعا بدعة ظاهرة ، أو فاجراً فجوراً ظاهراً . فهذا إلى أن تنكر عليه بدعته وفجوره ، أحوج منه إلى أن يطاع فيما يأمر به ؛ لكن إن أمر هو أو غيره بما أمر الله به ورسوله ، وجبت طاعة الله ورسوله ، فإن طاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد ، في كل حال ؛ ولو كان الأمر بها كائناً من كان .

فصل

وأما قوله صلى الله عليه وسلم « المرء مع من أحب » فهو من أصح الأحاديث . وقال أنس : فما فرح المسلمون بشيء بعد الإسلام فرحهم بهذا الحديث ، فأنا أحب رسول الله وأبا بكر وعمر ، وأرجو أن أحشر

مهم ، وإن لم أعمل مثل أعمالهم . وكذلك « أوثق عرى الإسلام
 الحب في الله والبغض في الله » لكن هذا بحيث أن يحب المرء ما يحبه
 الله ومن يحب الله ، فيحب أنبياء الله كلهم ؛ لأن الله يحب
 كل من علم أنه مات على الإيمان والتقوى ، فإن هؤلاء أولياء الله
 والله يحبهم كالذين شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة وغيرهم من
 أهل بدر وأهل بيعة الرضوان .

فمن شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة شهدنا له بالجنة ، وأما
 من لم يشهد له بالجنة . فقد قال طائفة من أهل العلم : لا نشهد له بالجنة
 ولا نشهد أن الله يحبه ، وقال طائفة : بل من استغشى من بين
 الناس إيمانه وتقواه ، واتفق المسلمون على الثناء عليه ، كعمر بن عبد
 العزيز والحسن البصري وسفيان الثوري وأبي خنيفة ومالك والشافعي
 وأحمد والفضيل بن عياض وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي وعبد
 الله بن المبارك — رضي الله عنهم — وغيرهم . شهدنا لهم بالجنة ؛
 لأن في الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه بجنزة فأتوا
 عليها خيراً فقال : وجبت ، وجبت ، ومر عليه بجنزة ، فأتوا عليها
 شراً . فقال : وجبت ، وجبت . قالوا : يا رسول الله ! ما قولك :
 وجبت ، وجبت ؟ قال : هذه الجنزة أتيتم عليها خيراً فقلت : وجبت
 لها الجنة ، وهذه الجنزة أتيتم عليها شراً فقلت وجبت لها النار . قيل :

بسم يارسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن ، والثناء السيئ .

وإذا علم هذا فكثير من المشهورين بالمشيخة في هذه الأزمان ، قد يكون فيهم من الجهل والضلال والمعاصي والذنوب ما يمنع شهادة الناس لهم بذلك ، بل قد يكون فيهم المنافق والفساق ، كما أن فيهم من هو من أولياء الله المتقين ، وعباد الله الصالحين ، وحزب الله المفلحين ، كما أن غير المشايخ فيهم هؤلاء ، وهؤلاء في الجنة ، والتجار والفلاحون وغيرهم من [هذه] الأصناف .

إذا كان كذلك فمن طلب أن يحشر مع شيخ لم يعلم عاقبته كان ضالاً ؛ بل عليه أن يأخذ بما يعلم ؛ فيطلب أن يحشره الله مع نبيه والصالحين من عباده . كما قال الله تعالى : (وَإِنْ تَطَلَّهَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِّحُ الْمُؤْمِنِينَ) . وقال الله تعالى : (إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)

وعلى هذا فمن أحب شيخاً مخالفاً للشريعة كان معه ؛ فإذا دخل الشيخ النار كان معه . ومعلوم أن الشيوخ المخالفين للكتاب والسنة أهل الضلال والجهالة ، فمن كان معهم كان مصيره مصير أهل الضلال والجهالة ، وأما من كان من أولياء الله المتقين : كأبي بكر وعمر وعثمان

وعلي وغيرهم ؛ فمحبة هؤلاء من أوثق عرى الإيمان ؛ وأعظم حسنات المتقين .

ولو أحب الرجل لما ظهر له من الخير الذي يحبه الله ورسوله ، أثابه الله على محبة ما يحبه الله ورسوله ، وإن لم يعلم حقيقة باطنه ، فإن الأصل هو حب الله وحب ما يحبه الله ، فمن أحب الله وأحب ما يحبه الله كان من أولياء الله . وكثير من الناس يدعي المحبة من غير تحقيق قال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) قال بعض السلف : ادعى قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنهم يحبون الله ، فأُنزل الله هذه الآية ، فمحبة الله ورسوله وعباده المتقين تقتضي فعل محبوباته ، وترك مكروهاته ، والناس يتفاضلون في هذا تفاضلا عظيما ، فمن كان أعظم نصيبا من ذلك ، كان أعظم درجة عند الله .

وأما من أحب شخصا لهواه ، مثل أن يحبه لدنيا بصيها منه ، أو حاجة يقوم له بها ، أو لمال يتآكله به . أو بعصية فيه . ونحو ذلك من الأشياء فهذه ليست محبة لله ؛ بل هذه محبة لهوى النفس ، وهذه المحبة هي التي توقع أصحابها في الكفر والفسوق والعصيان . وما أكثر من يدعي حب مشايخ الله ، ولو كان يحبهم لله لأطاع الله الذي

أحبهم لأجله ، فإن المحبوب لأجل غيره نكون محبته تابعة لمحبة ذلك الغير .

وكيف يحب شخصاً لله من لا يكون محباً لله ، وكيف يكون محباً لله من يكون معرضاً عن رسول صلى الله عليه وسلم وسبيل الله . وما أكثر من يحب شيوخاً أو ملوكاً أو غيرهم فيتخدم أنداداً يحبهم كحب الله .

والفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ظاهر ، فأهل الشرك يتخذون أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ، وأهل الإيمان يحبون ذلك ؛ لأن أهل الإيمان أصل جهم هو حب الله ومن أحب الله أحب من يحبه ، ومن أحبه الله ، فحبيب المحبوب محبوب ومحبوب الله يحب الله فمن أحب الله فيحبه من أحب الله .

وأما أهل الشرك فيتخذون أنداداً أو شفعاء يدعونهم من دون الله قال الله تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا خَوْلاًنَكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقال الله تعالى : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنْى إِذَا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنْى ءَأَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ

فَاسْمَعُونَ) وقال الله تعالى : (وَأَنْذَرِيهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وقال الله تعالى : (مَا كَانَ لِلْبَشَرِ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب : ليكون الدين كله لله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » فالدين واحد وإن تفرقت الشريعة والمنهاج ، قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وقال تعالى : (وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال الله تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

ومن حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ما يقبل من أحد بلغته الدعوة إلا الدين الذي بعثه به ؛ فإن دعوته عامة لجميع الخلائق ، قال الله تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ) . وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يسمع بي من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن

بِي إِلَّا دَخَلَ النَّارَ » قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
 فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ
 يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
 الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ
 وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ
 يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا
 إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَكَلِمَاتِهِ ۖ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) .

فعلى الخلق كلهم اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يعبدون إلا
 الله ، ويعبدونه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لا بغيرها ، قال الله
 تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ
 * إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ
 الْمُؤْمِنِينَ)
 ويجتمعون على ذلك ولا يفرقون ،
 كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنْ أَلَّفَ
 يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا : أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ
 جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا ، وَأَنْ تَتَّصِحُوا مِنْ وِلَاةِ اللَّهِ أَمْرَهُمْ » وعبادة الله تتضمن
 كمال محبة الله ، وكمال الذل لله ، فأصل الدين وقاعدته يتضمن أن يكون الله

هو المعبود الذي تحبه القلوب وتخشاه ولا يكون لها إله سواه ، وإلا له ما تأله القلوب بالحبّة والتعظيم والرجاء والخوف والإجلال والإعظام ونحو ذلك .

والله سبحانه أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو فتخلو القلوب عن محبة ما سواه [بمحبته ، وعن رجاء ما سواه] برجائه وعن سؤال ما سواه بسؤاله وعن العمل لما سواه بالعمل له وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به ؛ ولهذا كان وسط الفاتحة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ، نصفين ، فإذا قال : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) قال الله حمدني عبدي ، فإذا قال : (الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) قال : أثني علي عبدي ، وإذا قال : (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) قال : مجدني عبدي . وإذا قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) قال : هذه الآية بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، وإذا قال : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) قال : هؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل ، .

فوسط السورة (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فالدين أن لا يعبد إلا الله ولا يستعان إلا بإياه ، والملائكة والأنبياء وغيرهم عباد الله كما قال تعالى : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ

عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (فالحب لغير الله كحب النصارى للمسيح ، وحب اليهود لموسى وحب الرافضة لعلي ، وحب الغلاة لشيخوهم وأئمتهم : مثل من يوالي شيئا أو إماما وينفر عن نظيره وها متقاربان أو متساويان في الرتبة ، فهذا من جنس أهل الكتاب الذين آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وحال الرافضة الذين يوالون بعض الصحابة ويعادون بعضهم ، وحال أهل العصية من المنتسبين إلى فقه وزهد : الذين يوالون [بعض] الشيوخ والأئمة دون البعض . وإنما المؤمن من يوالي جميع أهل الإيمان . قال الله تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه - وقال : « مثل المؤمنين في توادعهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . وقال عليه السلام : « لا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » .

ومما يبين الحب لله والحب لغير الله : أن أبا بكر كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم مخلصا لله ، وأبو طالب عمه كان يحبه وينصره لهواه لا لله . فتقبل الله عمل أبي بكر وأزل فيه : (وَسَيَجْزِيهَا الْآلَتَى *

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ
 الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى) وأما أبو طالب فلم يتقبل عمله ؛ بل أدخله
 النار ؛ لأنه كان مشركاً عاملاً لغير الله . وأبو بكر لم يطلب أجره من
 الخلق ، لا من النبي ولا من غيره ؛ بل آمن به وأحبه وكلاه وأعانه
 بنفسه وماله متقرباً بذلك إلى الله وطالبا الأجر من الله . ورسوله يبلغ
 عن الله أمره ونهيه ووعدته ووعيدته ، قال تعالى : (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا
 الْحِسَابُ) .

والله هو الذي يخلق ويرزق ويعطي ويمنع ويخفف ويرفع ويعز
 ويدل ، وهو سبحانه مسبب الأسباب ، ورب كل شيء ومليكه .

والأسباب التي يفعلها العباد مما أمر الله به وأباحه فهذا يسلك ،
 وأما ما ينهى عنه نهياً خالصاً ، أو كان من البدع التي لم يأذن الله بها
 فهذا لا يسلك . قال تعالى : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا
 يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ
 مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)

بين سبحانه ضلال الذين يدعون المخلوق من الملائكة والأنبياء وغيرهم
 المبين ، أن المخلوقين لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في
 الأرض ، ثم بين أنه لا شركة لهم ، ثم بين أنه لا عون له ولا ظهير ؛
 لأن أهل الشرك يشبهون الخالق بالمخلوق . كما يقول بعضهم : إذا كانت

لك حاجة استوصي الشيخ فلان ، فإنك تجده ، أو توجه إلى ضريحه
خطوات وناده ، يا شيخ ! يقضي حاجتك ، وهذا غلط ، لا يحل فعله
وإن كان من هؤلاء الداعين لغير الله من يرى صورة المدعو أحياناً
فذلك شيطان تمثل له . كما وقع مثل هذا لعدد كثير .

ونظير هذا قول بعض الجهال من أتباع الشيخ عدي وغيره ،
كل رزق لا يجيء على يد الشيخ لا أريده . والعجب من ذي عقل
سليم يستوصي من هو ميت ، يستغيث به ، ولا يستغيث بالحي الذي
لا يموت ، ويقوى الوم عنده أنه لو لا استغاثته بالشيخ الميت لما قضيت
حاجته . فهذا حرام فعله .

ويقول أحدم إذا كانت لك حاجة إلى ملك توصلت إليه بأعوانه ،
فهكذا يتوصل إليه بالشيخ . وهذا كلام أهل الشرك والضلال ، فإن
الملك لا يعلم حوائج رعيته ، ولا يقدر على قضائها وحده ، ولا يريد
ذلك إلا لغرض يحصل له بسبب ذلك ، والله أعلم بكل شيء ، يعلم
السر وأخفى ، وهو على كل شيء قدير . فالأسباب منه وإليه ، وما
من سبب من الأسباب ، إلا دائر موقوف على أسباب أخرى ، وله
معارضات . فالتار لا تحرق إلا إذا كان المحل قابلاً ، فلا تحرق
السمندل ، وإذا شاء الله منع أثرها كما فعل بإبراهيم عليه السلام .

وأما مشيئة الرب فلا تحتاج إلى غيره ولا مانع لها ، بل ماشاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن . وهو سبحانه أرحم من الوالدة بولدها : يحسن إليهم ويرحمهم ، ويكشف ضررهم ، مع غناه عنهم ، واقتدارهم إليه ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

فنفى الرب هذا كله فلم يبق إلا الشفاعة . فقال : (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) (وَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فهو الذي يأذن في الشفاعة ، وهو الذي يقبلها ، فالجميع منه وحده ، وكلما كان الرجل أعظم إخلاصاً : كانت شفاعة الرسول أقرب إليه . قال له أبو هريرة : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « من قال لا إله إلا الله يتغنى بذلك وجه الله » .

وأما الذين يتوكلون على فلان ليشفع لهم من دون الله تعالى ، ويتعلقون بفلان ، فهؤلاء من جنس المشركين الذي اتخذوا شفعاء من دون الله تعالى . قال الله تعالى : (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً) وقال الله تعالى : (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) وقال : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ

قال طائفة من السلف : كان قوم يدعون المسيح والعزير والملائكة
فبين الله تعالى أن هؤلاء الملائكة والأنبياء عباده ، كما أن هؤلاء عباده
وهؤلاء يتقربون إلى الله ، وهؤلاء يرجون رحمة الله ، وهؤلاء يخافون
عذاب الله . فالملشركون اتخذوا مع الله أنداداً يحبونهم كحب الله ؛
واتخذوا شفعاء يشفعون لهم عند الله ، ففيهم محبة لهم وإشراك بهم ،
وفيه من جنس ما في النصارى من حب المسيح وإشراك به ؛ والمؤمنون
أشد حباً لله : فلا يعبدون إلا الله وحده ، ولا يجعلون معه شيئاً يحبونه
كمحبته لا أنبيائه ولا غيرهم ؛ بل أحبوا ما أحبه بمحبتهم لله ؛ وأخلصوا
دينهم لله وعلوموا أن أحداً لا يشفع لهم إلا بإذن الله ؛ فأحبوا عبد الله
ورسوله محمداً صلى الله عليه وسلم لحب الله ، وعلوموا أنه عبد الله
المبلغ عن الله ، فأطاعوه فيما أمر وصدقوه فيما أخبر ولم يرجوا إلا الله ؛
ولم يخافوا إلا الله ، ولم يسألوا إلا الله ، وشفاعته لمن يشفع له هو بإذن
الله ، فلا ينفع رجاؤنا للشفيع ، ولا مخافتنا له ، وإنما ينفع توحيدنا ،
وإخلاصنا لله ، وتوكلنا عليه ، فهو الذي يأذن للشفيع

فعلى المسلم أن يفرق بين محبة المؤمنين ودينهم ، ومحبة النصارى

والمشركين ودينهم ، ويتبع أهل التوحيد والإيمان . ويخرج عن مشابهة
المشركين ، وعبد الصلطان .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث
من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه
مما سواها ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع
في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقي في النار » . وقال
تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ) وقال الله تعالى : (مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ
ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) وهذا باب واسع ، ودين
الإسلام مبني على هذا الأصل ، والقرآن يدور عليه .

سئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه

عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة في الفساد ؛ وتعلق كل منهم بسبب ؛ واستند إلى قول قيل . فمنهم من هو مكب على حضور الساعات المحرمة التي تعمل بالدفوف ، التي بالجلال ، والشبابات المعروفة في هذا الزمان . ويحضرها المردان والنسوان ، ويستند في ذلك إلى دعوى جواز حضور السماع عند الشافعي وغيره من الأئمة .

فأجاب : أما الساعات المشتملة على الغناء والصفارات والدفوف المصلصات : فقد اتفق أئمة الدين أنها ليست من جنس القرب والطاعات بل ولو لم يكن على ذلك ، كالغناء والتصفيق باليد ، والضرب بالقضيب والرقص ونحو ذلك فهذا وإن كان فيه ما هو مباح ، وفيه ما هو مكروه ، وفيه ما هو محظور ، أو مباح للنساء دون الرجال . فلا نزاع بين أئمة الدين أنه ليس من جنس القرب ، والطاعات والعبادات ولم يكن أحد من الصحابة والتابعين وأئمة الدين وغيرهم من مشايخ الدين

يحضرون مثل هذا السماع ، لا بالحجاز ، ولا مصر ، ولا الشام ، ولا العراق ، ولا خراسان . لا في زمن الصحابة ، والتابعين ، ولا تابعيهم .

لكن حدث بعد ذلك : فكان طائفة يجتمعون على ذلك ، ويسمون الضرب بالقضيب على جلاجل ونحوه « التغير » .

قال الحسن بن عبد العزيز الحراني : سمعت الشافعي يقول : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغير ، يصدون به الناس عن القرآن ، وهذا من كمال معرفة الشافعي وعلمه بالدين ، فإن القلب إذا تعود سماع القصائد والآيات والتذ بها ، حصل له نفور عن سماع القرآن ، والآيات فيستغنى بسماع الشيطان عن سماع الرحمن .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » وقد فسر الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرها بأنه من الصوت فيحسنه بصوته ، ويترنم به ، بدون التلحين المكروه وفسره ابن عينة وأبو عبيد وغيرها بأنه الاستغناء به ، وهذا وإن كان له معنى صحيح فالأول هو الذي دل عليه الحديث فإنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن يجهر به » وفي الأثر : « إن العبد إذا ركب الدابة أتاها الشيطان وقال له : تغن ، فإن لم يتغن . قال له : تمن » فإن

النفس لا بد لها من شيء في الغالب تترنم به . فمن لم يترنم بالقرآن
ترنم بالشعر .

وسماع القرآن هو سماع النبيين والمؤمنين والعارفين والعالمين . قال الله
تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ)
الآية . وقال : (وَإِذْ أَسْمِعُ مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) الآية .
وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ) الآيتين وقال :
(اللَّهُ نُزِّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ) الآية . وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ
اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) الآية .

وهذا « السماع » هو الذي شرعه الله للمؤمنين في الصلاة وخارج
الصلاة ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا اجتمعوا
أمرؤا واحداً منهم يقرأ والناس يستمعون .

ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى وهو يقرأ . فجعل
يستمتع لقراءته . وقال : « مررت بك البارحة وأنت تقرأ . فجعلت
أستمع لقراءتك » فقال : لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً .
أي : لحسنه تحسيناً . وكان عمر يقول لأبي موسى : ذكرنا ربنا
فيقرأؤم يستمعون لقراءته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن
مسعود : « اقرأ علي القرآن . فقال : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال :

إني أحب أن أسمعـه من غيري . فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا بلغت هذه الآية : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) فقال : حسبك فنظرت فإذا عيناه تذرفان بالدمع » فهذا هو السماع الذي يسمعه سلف الأمة ، وقرونها المفضلة . وخيار الشيوخ إنما يقولون بهذا السماع .

وأما الاستماع إلى القصائد الملحنة والاجتماع عليها . فأكابر الشيوخ لم يحضروا هذا السماع ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم . وأبي سليمان الداراني : ومعروف الكرخي ، والسري السقطي وأمثالهم من المتأخرين : كالشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي بن مسافر ، والشيخ أبي مدين ، والشيخ أبي اليان ، وأمثال هؤلاء المشايخ : فإنهم لم يكونوا يحضرون هذا السماع ، وقد حضره طائفة من الشيوخ وأكابرهم ثم تابوا منه ورجعوا عنه . وكان الجنيد — رحمه الله تعالى — لا يحضره في آخر عمره . ويقول : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به ، أي من قصد السماع صار مفتوناً ، وأما من سمع بيتاً يناسب حاله بلا اقتصاد فهذا يستريح به .

والذين حضروا السماع المحدث الذي جعله الشافعي من إحداه الزنادقة ، لم يكونوا يجتمعون مع مردان ونسوان ، ولا مع مصلصات وشابات وكانت أشعارهم مزهدات مرققات .

فأما « السماع » المشتمل على منكرات الدين ، فمن عدة من القربات استتيب ، فإن تاب وإلا قتل . وإن كان متأولاً جاهلاً بين له خطأ تأويله ، وبين له العلم الذي يزيل الجهل . هذا من كونه طريقاً إلى الله .

وأما كونه محرماً على من يفعله على وجه اللهو واللعب لا على وجه القربة إلى الله ، فهذا فيه تفصيل ، فأما المشتمل على الشبابت والدفوف المصلصة ، فمذهب الأئمة الأربعة تحريمه . وذكر أبو عمرو ابن الصلاح أن هذا ليس فيه خلاف في مذهب الشافعي ، فإن الخلاف إنما حكي في اليراع المجرد ، مع أن العراقيين من أصحاب الشافعي لم يذكروا في ذلك نزاعاً ، ولا متقدمة الحراسانيين ، وإنما ذكره متأخرو الحراسانيين .

وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الذين يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف على وجه النعم لهم وأن الله معاقبهم . فدل هذا الحديث على تحريم المعازف . والمعازف هي آلات اللهو عند أهل اللغة ، وهذا اسم يتناول هذه الآلات كلها .

ولهذا قال الفقهاء : إن من أتلفها فلا ضمان عليه إذا أزال التالف

المحرم . وإن أُنلف المالية ففيه نزاع . ومذهب أحمد المشهور عنه .
ومالك أنه لا ضمان في هذه الصور أيضاً . وكذلك إذا أُنلف دنان
الحر . وشق ظروفه وأُنلف الأصنام المتخذة من الذهب ، كما أُنلف
موسى عليه السلام العجل المصنوع من الذهب وأمثال ذلك .

وسئل

عمن يؤاخي النسوان . ويظهر شيئاً من جنس الشعبذة ؛ كتنقش شيء من القطن أو الحرقة باللاذن ، أو بغير ذلك . أو يمسك النار مباشرة بكفه أو بأصابعه بلا حائل بينه وبينها . إلخ .

فأجاب : وأما مؤاخاة النساء ، وإظهار الإشارات المذكورة ؛ فهي من أحوال إخوان الشياطين . وأصحاب هذه الإشارات ليس فيهم ولي لله ، بل هم بين حال شيطاني ، ومحال بهتاني . من حال إبليس ومحال تليس .

وهؤلاء أصل حالهم أن الشياطين تنزل على من يعمل ما يحبه الشيطان من الكذب والفجور ، فإذا خرج أحدهم عن العقل والدين وصار من المتهوكين — الذين يطيعون الشيطان ، ويعصون الرحمن . وله شخير ونخير كأصوات الحمير ، يحضر أحدهم السماع ، ويؤاخون النسوان ، ويتخذون الجيران ويرقصون كالقروذ ، وينقرون في صلاتهم الركوع والسجود . يعضون سماع القرآن واتباع شريعة الرحمن — نزلت عليهم الشياطين التي تنزل على كل أفاك أثيم ؛ فمنهم من ترفعه

في الهواء ، ومنهم من تدخله النار ، ومنهم من يمشي ومعه ضوء يريه أن ذلك كرامات ، ومنهم من يستغيث بالشيخ ويخاطب من يستغيث بالشيخ حتى يرى أن ذلك كرامة للشيخ ، ومنهم من يحضر طعاماً وفاكهة وحلوى ، إلى أمور أخرى قد عرفناها وعرفنا من وقعت له هذه الأمور وأضعافها .

فإذا تاب الرجل والتزم دين الإسلام وصلى صلاة المسلمين وتاب عما حرمه رب العالمين واعتاض بسماع القرآن عن سماع الشيطان ذهبت تلك الأحوال الشيطانية ، فإن قوي إيمانه حصلت له مقامات الصالحين وإلا كفاه أن يكون من أهل جنة النعيم ، وهذا بين يعرف المسلم أن هذه الأحوال شيطانية لا كرامات إيمانية .

وسئل

عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة من الفساد ، ومنهم من يقول :
إن غاية التحقيق ، وكمال سلوك الطريق ، ترك التكليف . بحيث أنه
إذا ألزم بالصلاة يقوم ، ويقول : خرجنا من الحضرة ووقفنا بالباب .

فأجاب : أما من جعل كمال التحقيق الخروج من التكليف . فهذا
مذهب الملاحدة من القرامطة والباطنية ، ومن شابههم من الملاحدة
المنتسبين إلى علم أو زهد أو تصوف أو زهد ،

يقول أحدهم : إن العبد يعمل حتى تحصل له المعرفة ، فإذا حصلت
زال عنه التكليف ، ومن قال هذا فإنه كافر مرتد باتفاق أئمة الإسلام
فإنهم متفقون على أن الأمر والنهي جار على كل بالغ عاقل إلى أن يموت
قال تعالى : (وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) . قال الحسن البصري : لم
يجعل الله لعمل المؤمن غاية دون الموت ؛ وقرأ هذه الآية . و « اليقين »
هنا ما بعد الموت . كما قال تعالى في الآية الأخرى : (وَكَأَنَّهُ كَذِيبُ يَوْمٍ الْيَقِينِ)
* حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينُ) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في

الحديث الصحيح لما مات عثمان بن مظعون : « أما عثمان فإنه أتاه اليقين من ربه » وقد سئل الجنيد بن محمد — رحمه الله تعالى — عمن يقول : إنه وصل من طريق البر إلى أن تسقط عنه الأعمال .

فقال : الزنا والسرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء ، ولقد صدق الجنيد — رحمه الله — فإن هذه كبائر ، وهذا كفر ونفاق ، والكبائر خير من الكفر ، والنفاق .

وقول الواحد من هؤلاء : خرجنا من الحضرة إلى الباب ، كلمة حق أريد بها باطل ، فإنهم خرجوا من حضرة الشيطان ، إلى باب الرحمن ، كما يحكى عن بعض شيوخ هؤلاء : أنهم كانوا في سماع ، فأذن المؤذن فقام إلى الصلاة . فقال : كنا في الحضرة ، فصرنا إلى الباب ولا ريب أنه كان في حضرة الشيطان ، فصار على باب الرحمن ، أما كونه أنه كان في حضرة الله ، فصار على بابه ؛ فهذا ممتنع عند من يؤمن بالله ورسوله فإنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم : « بأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد » وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

وفي الصحيح عن ابن مسعود . عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه

سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة على مواقيتها « وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أول ما يحاسب عليه العبد من عمله صلاته » وآخر شيء وصى به النبي صلى الله عليه وسلم أمته الصلاة ، وكان يقول « جعلت قرّة عيني في الصلاة » وكان يقول : « أرخا يابلال بالصلاة » ولم يقل أرخا منها ، فمن لم يجد قرّة عينه وراحة قلبه في الصلاة ، فهو منقوص الإيمان . قال الله تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله » .

وهذا باب واسع ، لا ينكره من آمن بالله ورسوله .

سئل شيخ الإسلام

الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية — رحمه الله — عما أحدثه الفقراء المجردون ، والمطوعون من صجة الشباب ، ومؤاخذة النسوان والماجريات ، وخط رؤوسهم بين يدي بعضهم بعضاً ، وأكلهم مال بعضهم بعضاً بغير حق ، ومن جنى بشال تحت رجليه ، ويضرب بغير حق ، ووقوفهم مكشوفى الرؤوس ، منحنيين كالراكعين ، ووضع النعال على رؤوسهم ، ولباسهم الصوف ، والرقع ، والسجادة ، والسبحة ، وأكل الحشيشة . وإذا جاءهم أمرد فرضوا عليه أن يصحبه واحد منهم ، وبطلبوا منه الصجة ، هل يجوز ذلك ؟ أو نقل عن الصحابة ؟ ؟

فأجاب : الحمد لله ، أما صجة المردان ، على وجه الاختصاص بأحدهم — كما يفعلونه — مع ما ينضم إلى ذلك من الخلوة بالأمرد الحسن ، وميئته مع الرجل ، ونحو ذلك . فهذا من أفحش المنكرات عند المسلمين ، وعند اليهود ، والنصارى ، وغيرهم ، فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام ودين سائر الأمم ، بعد قوم لوط : تحريم الفاحشة اللوطية ، ولهذا بين الله فى كتابه أنه لم يفعلها قبل قوم لوط أحد من العالمين ، وقد عذب الله

المستحلين لها بعذاب ما عذبه أحداً من الأمم ، حيث طمس أبصارهم ،
وقلب مدائنهم ، فجعل عاليها سافلها ، وأنبعثهم بالحجارة من السماء .

ولهذا جاءت الشريعة بأن الفاحشة التي فيها القتل : يقتل صاحبها
بالرجم بالحجارة . كما رجم النبي صلى الله عليه وسلم اليهوديين وماعز بن
مالك والأسلمي والغامدية وغيرهم ، ورجم بعده خلفاؤه الراشدون .

والرجم شرعه الله لأهل التوراة والقرآن ، وفي السنن عن النبي
صلى الله عليه وسلم : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا
الفاعل والمفعول به » . ولهذا اتفق الصحابة على قتلها جميعاً ؛ لكن
توعدوا في صفة القتل : فبعضهم قال : يرجم ، وبعضهم قال : يرمى من
أعلى جدار في القرية ويتبع بالحجارة ، وبعضهم قال : يحرق بالنار ؛
ولهذا كان مذهب جمهور السلف والفقهاء أنها يرجمان بكبرين كانا أو
ثيبين ، حرين كانا أو مملوكين ، أو كان أحدهما مملوكاً للآخر ، وقد
اتفق المسلمون على أن من استحلها بمملوك أو غير مملوك فهو
كافر مرتد .

وكذلك مقدمات الفاحشة عند التلذذ بقبلة الأمد ، ولمسه ، والنظر
إليه ، هو حرام باتفاق المسلمين . كما هو كذلك في المرأة الأجنبية . كما
ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « العينان

تزنيان وزناها النظر والأذن تزني وزناها السمع ، واليد تزني وزناها البطش ، والرجل تزني وزناها المشي ، والقلب يتمنى وبشهي ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

فإذا كان المستحل لما حرم الله كافراً ، فكيف بمن يجعله قربة وطريقاً إلى الله تعالى ؟! قال الله تعالى :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) وسبب نزول الآية أن غير المحس من العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فجعل الله كشف عوراتهم فاحشة ، وبين أن الله لا يأمر بالفحشاء ، ولهذا لما حج أبو بكر الصديق قبل حجة الوداع نادى بأمر النبي صلى الله عليه وسلم : - وكان يحج المسلم والمشرک - لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . فكيف بمن يستحل إتيان الفاحشة الكبرى ؟ أو مادونها ؟ ويجعل ذلك عبادة وطريقاً .

وإن كان طائفة من المتفلسفة ومن وافقهم من ضلال المتنكسة جعلوا عشق الصور الجميلة من جملة الطريق التي تزكى بها النفوس ، فليس هذا من دين المسلمين ، ولا اليهود ولا النصارى . وإنما هو دين أهل الشرك الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله .

وإن كان أتباع هؤلاء زادوا على ما شرعه ساداتهم وكبرائهم ،
زيادات من الفواحش التي لا ترضاها القروء ؛ فإنه قد ثبت في صحيح
البخاري « أن أبا عمران رأى في الجاهلية قرداً زنى بقردة ، فاجتمعت
عليه القروء فرجمته » . ومثل ذلك قد شاهدته الناس في زماننا في غير
القروء ، حتى الطيور .

فلو كانت صحبة « المردان » المذكورة خالية عن الفعل المحرم ،
فهي مظنة لذلك ، وسبب له ؛ ولهذا كان المشايخ العارفون بطريق الله
يحذرون من ذلك . كما قال فتح الموصلي : أدركت ثلاثين من الأبدال
كل ينهاني عند مفارقتي إياه عن صحبة الأحداث . وقال معروف
الكرخي : كانوا ينهون عن ذلك . وقال بعض التابعين : ما أنا على
الشاب الناسك من سبع يجلس إليه ، بأخوف مني عليه من حدث
يجلس إليه . وقال سفيان الثوري ، وبشر الحافي : إن مع المرأة
شيطاناً ، ومع الحدث شيطانين . وقال بعضهم : ما سقط عبد من عين
الله إلا ابتلاه الله بصحبة هؤلاء الأحداث . وقد دخل من فتنة الصور
والأصوات على النساء ما لا يعلمه إلا الله ، حتى اعترف أكبر الشيوخ
بذلك . وتاب منهم من تداركه الله برحمته .

ومعلوم أن هذا من باب اتباع الهوى بغير هدى من الله . (وَمَنْ
أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ) ومن استحل ذلك ، أو

اتخذة ديناً كان ضالاً مضاهياً للمشركين والنصارى ، ومن فعله مع اعترافه بأنه ذنب أو معصية كان عاصياً أو فاسقاً .

وكذلك مؤاخاة « المرأة الأجنبية » بحيث يخلو بها ، وينظر منها ما ليس للأجنبي أن ينظره حرام باتفاق المسلمين ، واتخاذ ذلك ديناً وطريقاً كفر وضلال . والمال الذي يؤخذ لأجل إقرارهم ، ومعونة على محادثة الرجل الأمرد ، هي من جنس جعل القوادة ، ومطالبتهم له بالصحة من جنس العرس على البغي . والله سبحانه أباح النكاح غير مسافحين ، ولا متخذي أخدان ، فالمرأة المسافحة تزني بمن اتفق لها ، وكذلك الرجل المسافح : الذي يزني مع من اتفق له . وأما المتخذ الحدن فهو الرجل يكون له صديقة ، والمرأة يكون لها صديق ، فالأمرد المخادن للواحد من هؤلاء من جنس المرأة المتخذة خدناً . وكذلك الجعل والمال الذي يؤخذ على هذا من جنس مهر البغي . وجعل القوادة ونحو ذلك .

وأما « الماكرات » فإذا اختصم رجلان بقول أو فعل وجب أن يقام في أمرها بالقسط . قال الله تعالى : (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُوءًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ) . وقال (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ) وقال : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَنِّبُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ) الآية .

وقد روى : أن اقتالهما كان بالجريد والنعال .

وقد قال تعالى : (لَأَخِيرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ) الآية . وقال : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) .

وقال : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ) . وقال : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) الآية .

فإن كان الشخصان قد اختصا نظر أمرهما ، فإن تبين ظلم أحدهما ، كان المظلوم بالخيار بين الاستيفاء والعفو ، والعفو أفضل ، فإن كان ظلمه بضرب أو لطم فله أن يضربه ، أو يلطمه ، كما فعل به عند جماهير السلف ، وكثير من الأئمة ، وبذلك جاءت السنة . وقد قيل : إنه يؤدب ، ولا قصاص في ذلك .

وإن كان قد سبه فله أن يسبه مثل ما سبه ، إذا لم يكن فيه عدوان على حق محض لله ، أو على غير الظالم . فإذا لعنه أو سماه باسم كلب ونحوه . فله أن يقول له مثل ذلك . فإذا لعن أباه لم يكن له أن يلعن أباه ؛ لأنه لم يظلمه . وإن افتري عليه كذباً لم يكن له أن يفتری عليه كذباً ؛ لأن الكذب حرام لحق الله . كما قال كثير من

العلماء في القصاص في البدن : أنه إذا جرحه أو خنقه أو ضربه ونحو ذلك يفعل به كما فعل . فهذا أصح قولي العلماء ، إلا أن يكون الفعل محرماً لحق الله ، كفعل الفاحشة ، أو تجريعه الخمر ، فقد نهى عن مثل هذا أكثرهم ، وإن كان بعضهم سوغه بنظير ذلك .

وإذا اعترف الظالم بظلمه ، وطلب من المظلوم أن يعفو عنه ، ويستغفر الله له ، فهذا حسن مشروع . كما ثبت في الصحيح عن أبي الدرداء : « أنه كان بين أبي بكر وعمر كلام ، وأن أبا بكر طلب من عمر أن يستغفر له فأبى عمر ، ثم ندم . فطلب أبا بكر فوجده قد سبقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وذكر له ذلك . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يغفر الله لك يا أبا بكر ، ثم قال : أيها الناس ! إني قد جئت إليكم فقلت : إني رسول الله فقلت : كذبت ؛ وقال أبو بكر : صدقت فهل أتم تاركوا لي صاحبي ؟ » .

وإذا طلب من المظلوم العفو بعد اعتراف الظالم فأجاب : كان من الحسنين الذين أجرم على الله ، وإن أبى إلا طلب حقه لم يكن ظالماً . لكن يكون قد ترك الأفضل الأحسن ، فليس لأحد أن يخرجهم عن أهل الطريق بمجرد ذلك ، كما قد يفعله كثير من الناس . قال الله تعالى : (وَلَمَنِ اتَّصَرَ بِعَدُوِّهِ فَأُوتِيَكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

فإنه لو كان من ترك الإحسان الذي [لا يحب عليه] يحسب خارجاً عن الطريق خرج عنه جمهور أهله .

و « أولياء الله » على صنفين : مقربين سابقين ، وأصحاب يمين مقتصدين . كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع ، وبني يبصر ، وبني يبطش ، وبني يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

ثم أكثر هؤلاء الذين يذمون تارك العفو إنما يذمونه لأهوائهم لكون الظالم صديق أحدم أو ورثته ، أو قرينه ونحو ذلك .

والله سبحانه أوجب على عباده العدل في الصلح ، كما أوجبه في الحكم . فقال تعالى : (فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) . وقيد الإصلاح الذي يثب عليه بالإخلاص ، فقال

تعالى : (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا) .
إذ كثير من الناس يقصدون الإصلاح : إما لسمعة وإما لرياء .

ومن العدل أن يمكن المظلوم من الاتصاف ، ثم بعد ذلك الشفاعة إلى المظلوم في العفو ، وبصالحه الظالم ، وترغيبه في ذلك . فإن الله تعالى إذا ذكر في القرآن حقوق العباد التي فيها وزر الظالم ندب فيها إلى العفو . كقوله سبحانه : (وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ) . وقوله : (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ) .

وعن أنس قال : «مارفع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعفو» وليس من شرط طلب العفو من المظلوم أن الظالم يقوم على قدميه ، ولا يضع نعليه على رأسه ، ونحو ذلك مما قد يلتزمه بعض الناس . وإنما شرطه التمكين من نفسه حتى يستوفي منه الحق . فإذا أمكن المظلوم من استيفاء حقه فقد فعل ما وجب عليه . ثم المستحق بالخيار إن شاء [عفا] ، وإن شاء استوفى .

وللمظلوم أن يهجره ثلاثاً ، وأما بعد الثلاث فليس له أن يهجره على ظلمه إياه ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل لمسلم أن

يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيصد هذا ، ويصد هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام .

وأما إذا كان الذنب لحق الله كالكذب ، والفواحش ، والبدع المخالفة للكتاب والسنة ، أو إضاعة الصلاة بالتفريط ، وواجباتها ، ونحو ذلك ، فهذا لا بد فيه من التوبة . وهل يشترط مع التوبة إظهار الإصلاح في العمل ؟ على قولين للعلماء . وإذا كان لهم شيخ مطاع فإن له أن يعزر العاصي بحسب ذنبه تعزيراً يليق بمثله أن يفعله بمثله ، مثل هجره مدة ، كما هجر النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة المخلفين .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون : يسوسون الناس في دينهم ودنياهم ، ثم بعد ذلك ، تفرقت الأمور ، فصار أمراء الحرب يسوسون الناس في أمر الدنيا والدين الظاهر ، وشيوخ العلم والدين يسوسون الناس فيما يرجع إليهم فيه من العلم والدين .

وهؤلاء أولو أمر تجب طاعتهم فيما يأمرون به من طاعة الله التي هم أولو أمرها . وهو كذلك فسر أولو الأمر في قوله : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ) بأمراء الحرب : من الملوك ونوابهم ، وبأهل العلم والدين الذين يعلمون الناس دينهم ، ويأمرونهم بطاعة الله ، فإن قوام الدين بالكتاب والحديد ، كما قال تعالى : (لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ
وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ .

وإذا كان ولاية الحرب عاجزين ومفرطين عن تقويم المنتسبين إلى الطريق ،
كان تقويمهم على رؤسائهم وكان لهم من تعزيرهم وتأديبهم ما يتمكنون منه ، إذا
لم يقم به غيرهم . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً
فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وهو
أضعف الإيمان » .

وقد يكون تعزيره بنفيه عن وطنه مدة ، كما كان عمر بن الخطاب
— رضي الله عنه — ينفي من شرب الخمر . وكما نفى نصر بن حجاج
إلى البصرة ، لحوف فتنة النساء به ، وقد مضت سنة رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالنفي في الزنا ، ونفي الخنث ، وأمر بعض المشايخ للمسيء
بالسفر هذا أصله . وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل طويل ببيان الذنوب ،
والتوبة منها ، وشروط التوبة ، وهو حال مستصحب للعبد من أول
أمره إلى آخر عمره ، كما قال تعالى : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *
وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) الآية .

وإذا تاب العبد ، وأخرج من ماله صدقة للتطهر من ذنبه : كان
ذلك حسناً مشروعاً . قال تعالى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ

عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَتِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم :
« الصدقة تطفيئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار . والحسد يأكل الحسنات كما
تأكل النار الحطب » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : فتنة الرجل في
أهله وماله وولده تكفرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر » وقال كعب بن مالك : إن من توبتي أن أتخلع من مالي
صدقة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمسك عليك بعض مالك .
فهو خير لك » .

لكن لا يجوز إلزامه بصدقة . ولا تجب عليه لا بإخراج ثيابه ، ولا
غير ذلك . ولا يجوز أن يقصد مطالبته بالتوبة أن يؤكل ماله ،
لا سيما إذا أغت فجعل له ذنب من غير ذنب ؛ فإن هذا يبقى كذبا
وظلما ، وأكلا للمال بالباطل ، ولا يجب أن يكون ما يخرج صدقة
مصرفاً في طعام يأكلونه ؛ بل الخيرة إليه بوضعه حيث يكون أصلح
وأطوع لله ولرسوله .

والذي ينبغي أن ينظر أحق الناس بتلك الصدقة فتدفع إليه ،
وأما أن يجعل من جملة التوبة صنعة طعام ، ودعوة ، فهذا بدعة .
فما زال الناس يتوبون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من
غير هذه البدعة .

وأما الشكر الذي فيه إخراج شيء من ماله : كملبوس ، أو غيره
شكراً لله على ما أنعم به ، إما من توبة ، وإما إصلاح ، ونحو ذلك .
فهو حسن مشروع ؛ فإن كعب بن مالك لما جاءه المبعثر بتوبة الله عليه :
أعطاه ثوبه الذي كان عليه ، واستعار ثوباً ذهب فيه إلى النبي صلى الله
عليه وسلم . لكن تعيين اللباس وغيره في الشكر بدعة أيضاً . فإن فعل
ذلك أحياناً فهو حسن ، فلا يجعل واجباً أو مستحباً ، إلا ما جعله الله
ورسوله واجباً أو مستحباً ، ولا ينكر إلا ما كرهه الله ورسوله . فلا
دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرم الله .

وضرب الرجل تحت رجليه هو من التغير : فإن كان له ذنب
يستحق به مثل ذلك من دين الله ، والمؤدب له ممن له أهلية ذلك .
فهو حق . وأما كشف الرؤوس ، والانحناء فليس من السنة . وإنما
هو مأخوذ عن عادات بعض الملوك ، والجاهلية ، والمخلوق لا يسأل
كشف رأس ، ولا ركوع له . وإنما يركع لله في الصلاة ، وكشف
الرؤوس لله في الإحرام .

وأما « لباس الصوف » فقد لبس رسول الله صلى الله عليه وسلم
جبة الصوف في السفر ؛ ولهذا قال الأوزاعي : لباس الصوف في السفر
سنة ، وفي الحضر بدعة .

ومعنى هذا أن المداومة عليه فى الحضر [بدعة] . كما روينا عن محمد بن سيرين : أنه بلغه أن أقواماً يتحرون لباس الصوف . قال : أظن هؤلاء بلغهم أن المسيح كان يلبس الصوف ، فلبسوه لذلك ، وهدى نبينا أحب إلينا من هدى غيره . وفى السنن « أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون الجمعة ، ولباسهم الصوف » وفى الحديث الآخر « قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم مجتأى النار » والمار من الصوف . وقد لبس النبي صلى الله عليه وسلم : القطن ، وغيره .

ومعنى هذا أن اتخاذ لبس الصوف عبادة وطريقا إلى الله [بدعة] . وأما لبسه للحاجة والانتفاع به للفقير لعدم غيره ، أو لعدم لبس غيره ، ونحو ذلك فهو حسن مشروع . والامتناع من لبسه مطلقاً مذموم ، لاسيما من يدعى لبسه كبراً وخيلاء ، لم ينظر الله إليه يوم القيامة ، فإنه قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال : « من جر إزاره خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » وقال : « بينما رجل يجر إزاره خيلاء إذ خسفت به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وقد كانوا يكرهون الشهرتين من الثياب : المرتفع ، والمنخفض .

وليس لأحد أن يجعل من الدين ، ومن طريق الله إلا ما شرعه الله ورسوله ، لاسيما إذا كان التقيد فيه فساد الدين والدنيا . فإن

لبس الصوف ، وترقيع الثوب عند الحاجة حسن ، من أفعال السلف .
والامتناع من ذلك مطلقاً مذموم .

فأما من عمد إلى ثوب صحيح فمزقه ثم يرقعه بفضلات ،
ويلبس الصوف الرفيع الذي هو أعلى من القطن ، والكتان . فهذا
جمع فسادين :

أما من جهة الدين فإنه يظن التقيد بلبس المرقع والصوف من
الدين ، ثم يريد أن يظهر صورة ذلك دون حقيقته ، فيكون ما ينفقه
على ذلك أعظم مما ينفق على القطن الصحيح ، وهذا مخالف للزهد .

وفساد المال بإتلافه وإنفاقه فيما لا ينفع لا في الدين ، ولا في الدنيا .

ما تقول السادة الأعموم

أئمة الإسلام ، ورثة الأنبياء عليهم السلام — رضي الله عنهم ،
وأرضاهم ، في صفة « سماع الصالحين » ما هو ؟ وهل سماع القوائد الملحنة
بالآلات المطربة هو من القرب والطاعات . أم لا ؟ وهل هو
مباح ، أم لا ؟

فأجاب : شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية — رضي الله عنه —

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

أصل هذه « المسألة » أن يفرق بين السماع الذي ينتفع به في
الدين ، وبين ما يرخص فيه رفعاً للحرص ، بين سماع المتقربين ، وبين
سماع المتلعين (١) .

فأما السماع الذي شرعه الله تعالى لعباده ، وكان سلف الأمة من
الصحابة والتابعين ، وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم ، وزكاة

(١) نسخة المتقدمين بدل المتقربين والمتأخرين بدل المتلعين .

نفوسهم — فهو سماع آيات الله تعالى ، وهو سماع النبيين والمؤمنين ،
وأهل العلم ، وأهل المعرفة .

قال الله تعالى ، لما ذكر من ذكره من الأنبياء في قوله : (أُولَئِكَ
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَنَاجِيقَ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجِبِينَآ إِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا)
وقال : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ
زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) .

وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا *
وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) .
وقال تعالى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ) .

وبهذا السماع أمر الله تعالى ، كما قال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ
الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وعلى أهله أتى كما في
قوله تعالى : (فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) .
وقال في الآية الأخرى : (أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)
فالقول الذي أمروا بتدبره هو القول الذي أمروا باستماعه . وقد
قال تعالى : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) .

وقال تعالى : (كَتَبْنَا إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِّدَبْرُوءِ آبَائِهِ) .

وكما أتى على هذا السماع ، ذم المعرضين عن هذا السماع ، فقال

تعالى : (وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا)

، وقال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى : (وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا *

وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا)

، وقال تعالى : (فَمَا نَفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ * كَانَهُمْ

حُمْرُ مُسْتَنْفِرَةٍ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) .

وقال تعالى : (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ آذَانِنَا وَقُرْءَانٍ بَيْنِنَا

وَبَيْنِكَ حِجَابٌ) . وقال تعالى : (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا

بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِلَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ

وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا) .

وهذا هو السماع الذي شرعه الله لعباده في صلاة الفجر ، والعشائين ،

وغير ذلك .

وعلى هذا السماع كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

يجتمعون ، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم أن يقرأ والباقيون

يستمعون . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى :

يا أبا موسى ؛ ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون . وهذا هو السماع الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يشهده مع أصحابه ، ويستدعيه منهم ، كما في الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : « قال النبي صلى الله عليه وسلم : اقرأ علي القرآن ، قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ ! فقال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآية . (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) قال : حسبك ، فنظرت فإذا عيناه تذرفان » وهذا هو الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يسمعه هو وأصحابه . كما قال تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) و « الحكمة » هي السنة .

وقال تعالى : (إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعِيدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَى فَأِنَّمَا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقَدْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ) وكذلك غيره من الرسل ، قال تعالى : (يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَفْقُصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أَتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) .

وبذلك يحتاج عليهم يوم القيامة . كما قال تعالى : (يَمْعَشَرُ الْجَنِّ

وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَفْسَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)
 وقال تعالى : (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح ، والمعرض عنه ضال شقي . قال تعالى : (فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) . وقال تعالى : (وَمَنْ يَعِشْ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) .

و « ذكر الله » يراد به تارة : ذكر العبد ربه ، ويراد به الذكر الذي أنزله الله . كما قال تعالى : (وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ) . وقال نوح : (أَوْعِظْكُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ بَعْضِ مَنَاسِكِكُمْ لِيُنذِرَكُمْ) وقال : (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) . وقال : (مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ) . وقال : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) . وقال : (إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ

مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) وقال : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) .

وهذا « السماع » له آثار إيمانية من المعارف القدسية ، والأحوال الزكية ، يطول شرحها ووصفها ، وله في الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وهذا مذكور في القرآن . وهذه الصفات موجودة في الصحابة ، ووجدت بعدم آثار ثلاثة : الاضطراب ، والصراخ ، والإغماء ، والموت في التابعين .

و « بالجملة » فهذا السماع هو أصل الإيمان ؛ فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الخلق أجمعين ليبليهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى ، وأفلح ، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى .

وأما « سماع المكاء والتصديّة » وهو التصفيق بالأيدي ، والمكاء مثل الصغير ونحوه ، فهذا هو سماع المشركين الذي ذكره الله تعالى في قوله : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءٌ وَتَصْدِيَةٌ) فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد ، والتصويت بالفم قرينة وديناً . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم – وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ، ولا حضروه قط ، ومن قال إن النبي صلى الله عليه وسلم حضر ذلك فقد كذب

عليه ، باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته . والحديث الذي ذكره محمد بن طاهر المقدسي في « مسألة السماع » و « في صفة التصوف » ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردي صاحب عوارف المعارف « أن النبي صلى الله عليه وسلم أنشده أعرابي :

قد لسعت حية الهوى كبدي فلا طيب لها ولا راق

إلا الحبيب الذي شغفت به فعنده رقيتى وترى

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه ، فقال له معاوية :
ما أحسن لهوكم ! فقال له : مهلاً يا معاوية ! ليس بكريم من لم يتواجد
عند ذكر الحبيب « فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم
بهذا الشأن .

وأظهر منه كذباً حديث آخر يذكرون فيه : أنه لما بشر الفقراء
بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا ، وخرقوا ثيابهم ، وأن جبرائيل نزل
من السماء فقال : يا محمد ! إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق ،
فأخذ منها خرقه فعلقها بالعرش ، وأن ذلك هو زيق الفقراء . وهذا وأمثاله
إنما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه
ومن بعدهم ، ومعرفة الإسلام والإيمان .

وهو يشبه رواية من روى : « أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين ، أو غير يوم حنين ، وأنهم قالوا نحن مع الله ، من كان الله معه كنا معه » ، ومن روى : « أن صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بسر كان الله أمر نبيه أن يكتبه ، فقال لهم : من أين لكم هذا ؟ قالوا : الله علمنا إياه ، فقال : يارب ! ألم تأمرني ألا أفشيهِ ؟ فقال : أمرتك أنت ألا تفشيهِ ، ولكني أنا أخبرتهم به » ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين ، مع فرط جهلهم بدين الإسلام ، فينبون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها . تارة يسقطون التوسط بالرسول وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقاً . فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى ؛ فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد ، ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقاً .

وهؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقاً عن أنفسهم ، كان هذا أغلظ من كفر أولئك ؛ لكنهم يقولون : لا تسقط الوساطة إلا عن الخاصة ، لا عن العامة ، فيكونون أ كفر من أهل الكتاب من جهة إسقاط السفارة مطلقاً عنهم ، في بعض الأحوال ، وأهل الكتاب أ كفر من جهة إسقاط سفارة محمد مطلقاً ، بل أهل الكتاب الذين يقولون إنه رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء ، فإن أولئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب ، وهؤلاء يخرجون عن رسالته من لا يبقى معه إلا خيالات

ووساوس وظنون ألقاها إليه الشيطان ، مع ظنه أنه من خواص أولياء الله وهو من أشد أعداء الله ، وتارة يجعلون هذه الآثار المختلفة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الإسلام ، ويدعون أنها من أسرار الخواص ، كما يفعل الملاحدة والقرامطة والباطنية ، وتارة يجعلونها حجة في الإعراض عن كتاب الله وسنة نبيه إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهواً واعباً .

وبالمجلة قد عرف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع لصالحى أمته وعبادهم وزهادهم أن يجتمعوا على استماع الآيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب ، أو الدف . كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعتهم ، واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة ، لا في باطن الأمر ، ولا في ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي ، ولكن رخص النبي صلى الله عليه وسلم في أنواع من اللهو في العرس ونحوه ، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس ، والأفراح . وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بدف ، ولا بصفق بكف ، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « التصفيق للنساء والتسييح للرجال . ولعن المتشبهات من النساء بالرجال . والمتشبهين من الرجال بالنساء » .

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء ، كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مخنثاً ، ويسمون الرجال

المغنين مخانيئاً ، وهذا مشهور في كلامهم .

ومن هذا الباب حديث عائشة رضي الله عنها لما دخل عليها أبوها - رضي الله عنه - في أيام العيد ، وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعث . فقال أبو بكر رضي الله عنه : « أبزمар الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم معرضاً بوجهه عنها ، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط . فقال : دعها يا أبا بكر ! فإن لكل قوم عيداً ، وهذا عيدنا أهل الإسلام » ففي هذا الحديث بيان : أن هذا لم يكن من عادة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الاجتماع عليه ، ولهذا سماه الصديق زممار الشيطان ، والنبي صلى الله عليه وسلم أقر الجواري عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد ، والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد ، كما جاء في الحديث « ليعلم المشركون أن في ديننا فسحة » وكان لعائشة لعب تلعب بهن ويحجن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها ، وليس في حديث الجاريتين أن النبي صلى الله عليه وسلم استمع إلى ذلك . والأمر والهي إنما يتعلق بالاستماع ؛ لا بمجرد السماع . كما في الرؤية فإنه إنما يتعلق بقصد الرؤية ، لا بما يحصل منها بغير الاختيار .

وكذلك في اشتام الطيب إنما ينهى المحرم عن قصد الشم ، فأما إذا شم ما لم يقصده فإنه لا شيء عليه . وكذلك في مباشرة المحرمات كالحواس

الخمس : من السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس . إنما يتعلق الأمر والهي من ذلك بما للعبد فيه قصد وعمل ، وأما ما يحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهي .

وهذا مما وجه به الحديث الذي في السنن عن ابن عمر « أنه كان مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع صوت زمارة راع ، فعدل عن الطريق ، وقال : هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ حتى انقطع الصوت »

فإن من الناس من يقول : بتقدير صحة هذا الحديث ، لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه ، فيجاب بأنه كان صغيراً ، أو يجاب بأنه لم يكن يستمع ، وإنما كان يسمع . وهذا لا إثم فيه . وإنما النبي صلى الله عليه وسلم فعل ذلك طلباً للأفضل والأكمل ، كمن اجتاز بطريق فسمع قوماً يتكلمون بكلام محرم فسد أذنيه كيلا يسمعه ، فهذا حسن ، ولو لم يسد أذنيه لم يأثم بذلك . اللهم إلا أن يكون في سماعه ضرر ديني لا يندفع إلا بالسد .

و « بالجملة » فهذه (مسألة السماع) تكلم كثير من المتأخرين في السماع : هل هو محظور ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج ، بل مقصودهم بذلك أن يتخذ طريقاً إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب ، والتشويق إلى المحبوب ،

والتخويف من المrehوب ، والتحزين على فوات المطلوب ، فتستزل به
الرحمة ، وتستجلب به النعمة ، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان ،
وتستجلى به مشاهد أهل العرفان ، حتى يقول بعضهم : إنه أفضل
لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه : حتى
يجعلونه قوتاً للقلوب ، وغذاء للأرواح ، وحادياً للنفوس ، يحدوها إلى
السير إلى الله ، ويحثها على الإقبال عليه .

ولهذا يوجد من اعتاده ، واغتنى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح
به ، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الأبيات ؛ بل إذا سمعوا
القرآن سمعوه بقلوب لاهية ، وألسن لاغية ، وإذا سمعوا سماع المكاء
والتصدية خشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، وأصغت القلوب ،
وتعاطت المشروب .

فمن تكلم في هذا : هل هو مكروه ، أو مباح ؟ وشبهه بما كان
النساء يغنين به في الأعياد والأفراح ، لم يكن قد اهتدى إلى الفرق
بين طريق أهل الحسارة ، والفلاح ، ومن تكلم في هذا : هل هو
من الدين ؟ ومن سماع المتقين ؟ ومن أحوال المقربين والمقتصدين ؟
ومن أعمال أهل اليقين ؟ ومن طريق المحبين المحبوبين ؟ ومن أفعال
الساالكين ، إلى رب العالمين ؟ كان كلامه فيه من وراء وراء ، بمنزلة من
سئل عن علم الكلام المختلف فيه : هل هو محمود ؟ أو مذموم ؟ فأخذ

يتكلم في جنس الكلام وانقسامه : إلى الاسم ، والفعل ، والحرف ،
أو بتكلم في مدح الصمت ، أو في أن الله أباح الكلام والنطق ،
وأمثال ذلك مما لا يحصى المحل المشتبه المتنازع فيه .

فإذا عرف هذا : فاعلم أنه لم يكن في عنفوان القرون الثلاثة المفضلة
لا بالحجاز ولا بالشام ، ولا باليمن ، ولا مصر ، ولا المغرب ، ولا
العراق ، ولا خراسان ، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من
يجتمع على مثل سماع المكاء والتصديعة ، لا بدف ، ولا بكف ، ولا
بقضيب ، وإنما أحدث هذا بعد ذلك في أواخر المائة الثانية ، فلما
راه الأئمة أنكروه .

فقال : الشافعي — رضي الله عنه — خلفت ببغداد شيئاً أحدثته
الزنادقة ، يسمونه « التغيير » يصدون به الناس عن القرآن . وقال يزيد
ابن هارون : ما يغبر إلا الفاسق ، ومتى كان التغيير ؟!

وسئل عنه الإمام أحمد ، فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل :
أنجلس معهم ؟ قال : لا ، وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه ، وأكبر
الشيوخ الصالحين لم يحضروه ، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل
ابن عياض ، ولا معروف الكرخي ، ولا أبو سليمان الداراني ، ولا أحمد
ابن أبي الحواري ، والسري السقطي ، وأمثالهم . والذين حضروه من

الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم . وأعيان المشايخ عابوا أهله ، كما فعل ذلك عبد القادر ، والشيخ أبو البيان ، وغيرهما من المشايخ .

وما ذكره الشافعي - رضى الله عنه - من أنه من إحدث الزنادقة كلام إمام خير بأصول الإسلام ، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة : كابن الراوندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وأمثالهم : كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمي - في مسألة السماع - عن ابن الراوندي . قال : إنه اختلف الفقهاء في السماع : فأباحه قوم ، وكرهه قوم . وأنا أوجهه - أو قال - وأنا آمر به . يخالف إجماع العلماء في الأمر به .

و « الفارابي » كان بارعا في الغناء الذي يسمونه « الموسيقى » . وله فيه طريقة عند أهل صناعة الغناء ، وحكايته مع ابن حمدان مشهورة . لما ضرب فأبكام ، ثم أضحكهم ، ثم نومهم ثم خرج .

و « ابن سينا » ذكر في اشاراته ، في « مقامات العارفين » في الترغيب فيه ، وفي عشق الصور ، ما يناسب طريقة أسلافه الفلاسفة ، والصابئين المشركين ، الذين كانوا يعبدون الكواكب ، والأصنام . كأرسطو وشيعته من اليونان - ومن اتبعه كبر قلس ، وثامسطيوس ، والإسكندر الأفروديسي ، وكان أرسطو وزير الإسكندر بن فيلبس المقدوني ،

الذي تؤرخ له اليهود والنصارى ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

وأما « ذو القرنين » المذكور في القرآن الذي بنى « السد » فكان قبل هؤلاء بزمان طويل ، وأما الإسكندر الذي وزر له أرسطو : فانه إنما بلغ بلاد خراسان ونحوها في دولة الفرس ، لم يصل إلى السد وهذه الأمور مبسوبة في غير هذا الموضع .

و « ابن سينا » أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليونان ، ومما أخذه من أهل الكلام المبتدعين الجهمية ، ونحوم . وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلية في كثير من أمورهم العلمية والعملية ، ومزجه بشيء من كلام الصوفية ، وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة الباطنية ؛ فإن أهل بيته كانوا من الإسماعيلية : أتباع الحاكم الذي كان بمصر وكانوا في زمانه ، ودينهم دين أصحاب « رسائل إخوان الصفا » ، وأمثالهم من أئمة منافقي الأمم الذين ليسوا مسلمين ، ولا يهود ولا نصارى .

وكان الفارابي قد حذق في حروف اليونان التي هي تعاليم أرسطو ، وأتباعه من الفلاسفة المشائين ، وفي أصواتهم صناعة الغناء ، ففي هؤلاء الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو به النفوس ، وترتاض به ، وتهذب به الأخلاق .

وأما « الحنفاء » أهل ملة إبراهيم الخليل ، الذي جعله الله إماماً ،
وأهل دين الإسلام ، الذي لا يقبل الله من أحد ديناً غيره ، المتبعون
لشريعة خاتم الرسل محمد — صلى الله عليه وسلم — فهؤلاء ليس
فيهم من يرغب في ذلك ، ولا يدعو إليه . وهؤلاء هم أهل القرآن ،
والإيمان ، والهدى ، والسعد ، والرشاد ، والنور ، والفلاح ، وأهل
المعرفة والعلم ، واليقين والاخلاص ، والمحبة له ، والتوكل عليه ، والحشية
له ، والإنابة إليه .

ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة ، ومن له نصيب من
الحبة ، لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ولا عرفوا مغبته ،
كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول في أنواع
من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ، ظناً منهم أنه حق موافق ولم
يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وحلاً
وقولاً وعملاً ومعرفة وذوقاً وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس ، ولكن
الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة ؛ فإن الله بعث محمداً صلى
الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى
بالله شهيداً .

وقد قال تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) وقد قال تعالى : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي

مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) . قال عبد الله ابن مسعود : « خط لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خطاً ، وخط خطوطاً ، عن يمينه وشماله . ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

وقد قال تعالى : (وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فقد رضي الله عن السابقين رضا مطلقاً ، ورضى عنهم اتباعهم بإحسان . قال عبد الله ابن مسعود : إن الله نظر في قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد ، فاصطفاه لرسالته ، ثم نظر في قلوب الناس بعد قلبه ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رأوه قبيحاً فهو عند الله قبيح . وقال عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ومعارفها ، وأذواقها ، ومواجدها ، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب

للقلوب منفعة ، ولا مصلحة إلا وفي ضمن ذلك من الضرر والمفسدة
ما هو أعظم منه ، فهو للروح كالخمر للجسد ، يفعل في النفوس فعل
حميا الكئوس .

ولهذا يورث أصحابه سكرأ أعظم من سكر الخمر ، فيجدون لذة بلا
تميز ، كما يجد شارب الخمر ؛ بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل
لشارب الخمر ، ويصدم ذلك عن ذكر الله وعن الصلاة ، أعظم مما يصدم
الخمر ، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، أعظم من الخمر ، حتى يقتل بعضهم
بعضاً من غير مس ييد ، بل بما يقتن بهم من الشياطين ؛ فإنه يحصل
لهم أحوال شيطانية ، بحيث تنزل عليهم الشياطين في تلك الحال ،
ويتكلمون على ألسنتهم ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع : إما
بكلام من جنس كلام الأعاجم ، الذين لا يفقه كلامهم ، كلسان الترك ،
أو الفرس ، أو غيرهم ، ويكون الإنسان الذي لبسه الشيطان عرياً
لا يحسن أن يتكلم بذلك ، بل يكون الكلام من جنس كلام من
تكون تلك الشياطين من إخوانهم . وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم له
معنى ، وهذا يعرفه أهل المكاشفة « شهوداً وعياناً » .

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا
النمط ، فإن الشياطين تلبس أحدهم ، بحيث يسقط إحساس بدنه ،
حتى إن المصروع يضرب ضرباً عظيماً ، وهو لا يحس بذلك ، ولا

يؤثر في جلده ، فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين ، وتدخل بهم النار وقد تطير بهم في الهواء ، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله ، كما يلبس الشيطان المصروع .

وبأرض الهند ، والمغرب ، ضرب من الزط يقال لأحدهم : المصلى فانه يصلى النار كما يصلى هؤلاء ، وتلبسه ويدخلها ويطير في الهواء ، ويقف على رأس الزج ، ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء ، وهم من الزط الذين لا خلاق لهم ، والجن تخطف كثيراً من الإنس وتغيبه عن أبصار الناس ، وتطير بهم في الهواء ، وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه ، وكذلك يفعل هذا هؤلاء المتوهلون والمتنسبون إلى بعض المشايخ إذا حصل له وجد سماعي ، وعند سماع المكاء والتصديّة ، منهم من يصعد في الهواء ، ويقف على زج الرمح ، ويدخل النار ، ويأخذ الحديد المحمى بالنار ثم يضعه على بدنه . وأنواع من هذا الجنس ، ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة ، ولا عند الذكر ، ولا عند قراءة القرآن ؛ لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية ، تطرد الشياطين ، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين .

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا

غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وحفتهم الملائكة ، وذكروهم الله فيمن عنده » وقد ثبت في الحديث الصحيح « أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف ، نزلت الملائكة لسماعها ، كالظلة فيها السرج » .

ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم ، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر ، والسلف يسمونه تغييراً ؛ لأن التغيير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود ، وهو ما يغبر صوت الانسان على التلحين ، فقد يضم إلى صوت الإنسان . إما التصفيق بأحد اليدين على الأخرى ، وإما الضرب بقضيب على فخذ وجلد ، وإما الضرب باليد على أختها ، أو غيرها على دف أو طبل ، كناقوس النصارى ، والنفخ في صفارة كبوق اليهود . فمن فعل هذه الملاحى على وجه الديانة والتقرب فلا ريب فى ضلالتة وجهالتة .

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فذهب الأئمة الأربعة : أن آلات اللهو كلها حرام ، فقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره « أن النبى صلى الله عليه وسلم أخبر أنه سيكون من أمتة من يستحل الحر والحرير ، والخمر والمعازف ، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير » .

و « المعازف » هى الملاحى كما ذكر ذلك أهل اللغة . جمع معزفة وهى الآلة التى يعزف بها : أى بصوت بها . ولم يذكر أحد من

أتباع الأئمة في آلات اللهو نزاعاً . إلا أن بعض المتأخرين من أصحاب الشافعي ذكر في اليراع وجهين ، بخلاف الأوتار ونحوها ؛ فإنهم لم يذكروا فيها نزاعاً . وأما العراقيون الذين هم أعلم بمذهبه وأتبع له ، فلم يذكروا نزاعاً لافي هذا ، ولا في هذا ، بل صنف أفضلهم في وقته أبو الطيب الطبري شيخ أبي إسحق الشيرازي في ذلك مصنفاً معروفاً . ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو : هل هو حرام ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ وذكر أصحاب أحمد لهم في ذلك ثلاثة أقوال ، وذكروا عن الشافعي قولين ، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك في ذلك نزاعاً .

وذكر زكريا بن يحيى الساجي - وهو أحد الأئمة المتقدمين المائلين إلى مذهب الشافعي - أنه لم يخالف في ذلك من الفقهاء المتقدمين إلا إبراهيم بن سعد من أهل البصرة ، وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وأبو القاسم الشقيري ، وغيرها : عن مالك . وأهل المدينة . في ذلك فغلط . وإنما وقعت الشبهة فيه ، لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع ، إلا أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم ؛ بل قال إسحاق بن عيسى الطباع : سألت مالكا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء ، فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ، وهذا معروف في كتاب أصحاب مالك ، وهم أعلم بمذهبه ، ومذهب أهل المدينة من طائفة في

المشرق لا علم لها بمذهب الفقهاء ، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب
بعود فقد افترى عليه ، وإنما نهت على هذا ؛ لأن فيما جمعه أبو عبد
الرحمن السلمي ، ومحمد بن طاهر المقدسي ، في ذلك حكايات وآثار ،
يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق .

وكان « الشيخ أبو عبد الرحمن » — رحمه الله — فيه من الخير
والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ
والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده ؛ فهذا يوجد في كتبه من
الآثار الصحيحة ، والكلام المنقول ، ما ينتفع به في الدين . ويوجد
فيها من الآثار السقيمة ، والكلام المردود ، ما يضر من لا خبرة له .
وبعض الناس توقف في روايته . حتى أن السهتي كان إذا روى
عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه . وأكثر الحكايات
التي يرويها أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة عنه ، فإنه كان أجمع
شيوخه لكلام الصوفية .

و « محمد بن طاهر » له فضيلة جيدة من معرفة الحديث ورجاله ،
وهو من حفاظ وقته ، لكن كثير من المتأخرين : أهل الحديث ، وأهل
الزهد ، وأهل الفقه ، وغيرهم ، إذا صنفوا في باب ذكروا ما روى
فيه من غث وسمين ، ولم يميزوا ذلك ، كما يوجد ممن يصنف في
الأبواب مثل المصنفين : في فضائل الشهور ، والأوقات ، وفضائل الأعمال

والعبادات ، وفضائل الأشخاص ، وغير ذلك من الأبواب ، مثل ما صنف بعضهم في فضائل رجب ، وغيرهم في فضائل صلوات الأيام والليالي وصلاة يوم الأحد ، وصلاة يوم الاثنين ، وصلاة يوم الثلاثاء ، وصلاة أول جمعة في رجب ، وألفية رجب ، وأول رجب ، وألفية نصف شعبان ، وإحياء ليلتي العيدين ، وصلاة يوم عاشوراء .

وأجود ما يروى من هذه الصلوات حديث صلاة التيسيع ، وقد رواه أبو داود ، والترمذي . ومع هذا فلم يقل به أحد من الأئمة الأربعة ؛ بل أحمد ضعف الحديث ، ولم يستحب هذه الصلوات . وأما ابن المبارك فلمنقول عنه ليس مثل الصلاة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإن الصلاة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليس فيها قعدة طويلة بعد السجدة الثانية ، وهذا يخالف الأصول فلا يجوز أن تثبت بمثل هذا الحديث .

ومن تدبر الأصول علم أنه موضوع . وأمثال ذلك ؛ فإنها كلها أحاديث موضوعة ، مكذوبة ، باتفاق أهل المعرفة ، مع أنها توجد في مثل كتاب أبي طالب ، وكتاب أبي حامد ، وكتاب الشيخ عبد القادر ؛ وتوجد في مثل أمالي أبي القاسم بن عساكر ، وفيما صنفه عبد العزيز الككناني ، وأبو علي بن البنا ، وأبو الفضل بن ناصر ، وغيرهم . وكذلك

أبو الفرج بن الجوزي : يذكر مثل هذا في فضائل الشهور ، ويذكر في الموضوعات أنه كذب موضوع .

والذين جمعوا الأحاديث في « الزهد والرقائق » يذكرون ما روى في هذا الباب ، ومن أجل ما صنف في ذلك ، وأندره « كتاب الزهد » لعبد الله بن المبارك . وفيه أحاديث واهية ، وكذلك « كتاب الزهد » لهناد بن السري ، ولأسد بن موسى ، وغيرها . وأجود ما صنف في ذلك : « الزهد » للإمام أحمد ، لكنه مكتوب على الأسماء ، وزهد ابن المبارك على الأبواب . وهذه الكتب يذكر فيها زهد الأنبياء ، والصحابة ، والتابعين .

ثم إن المتأخرين على صنفين : منهم من ذكر زهد المتقدمين ، والمتأخرين . كأبي نعيم في الحلية ، وأبي الفرج بن الجوزي في « صفة الصفوة » .

ومنهم من اقتصر على ذكر المتأخرين ، من حين حدث اسم الصوفية كما فعل أبو عبد الرحمن السلمي في « طبقات الصوفية » وصاحبه أبو القاسم القشيري في الرسالة ، ثم الحكايات التي يذكرها هؤلاء بمجردا ، مثل ابن خنيس ، وأمثاله ، فيذكرون حكايات مرسلّة ، بعضها صحيح ، وبعضها باطل .

مثل ذكركم : أن الحسن صحب علياً . وقد اتفق أهل المعرفة على أن « الحسن البصري » لم يلق علياً ، ولا أخذ عنه شيئاً ، وإنما أخذ عن أصحابه : كالأحنف بن قيس ، وقيس بن معاذ ، وغيرها . وكذلك حكاياتهم : أن الشافعي وأحمد اجتماعا لشيبان الرعين ، وسألاه عن سجود السهو ، وكذلك اتفق أهل المعرفة على أن الشافعي وأحمد لم يلقيا شيبان الرعين ، بل ولا أدركاه .

وقد ذكر أبو عبد الرحمن في « حقائق التفسير » عن جعفر بن محمد ، وأمثاله من الأقوال المأثورة ما يعلم أهل المعرفة أنه كذب على جعفر بن محمد ، فإن جعفرأ كذب عليه ما لم يكذب على أحد ؛ لأنه كان فيه من العلم والدين ، ما ميزه الله به ، وكان هو وأبوه - أبو جعفر - وجده - علي بن الحسين - من أعيان الأئمة علما وديناً ، ولم يجرى بعد جعفر مثله [في أهل البيت] . فصار كثير من أهل الزندقة والبدع ينسب مقالته إليه حتى أصحاب « رسائل إخوان الصفا » ينسبونها إليه . وهذه الرسائل صنف بعد موته بأكثر من مائتي سنة ، صنف عند ظهور مذهب الإسماعيلية العبيديين ، الذين بنوا القاهرة ، وصنف على مذهبهم الذي ركبوه من قول الفلاسفة اليونان ، ومجوس الفرس ، والشيعنة من أهل القبلة ؛ ولهذا قال العلماء : إن ظاهر مذهبهم الرفض ، وباطنه الكفر المحض .

ونسبوا إلى جعفر أنه تكلم في تقدم المعرفة عن حوادث الكون :
مثل اختلاج الأعضاء ، والرعود ، والبروق ، والهفت ، وغير ذلك مما
نزه الله جعفرأ وأئمة أهل بيته عن الكلام فيه . وهذا مبسوط في غير
هذا الموضع .

و (المقصود هنا) أن المذكور عن سلف الأمة وأئمتها من
المنقولات : ينبغي للإنسان أن يميز بين صحيحه وضعيفه ، كما ينبغي مثل
ذلك في المعقولات ، والنظريات ، وكذلك في الأدواق ، والمواجيد ،
والمكاشفات ، والمحاطبات ، فإن كل صنف من هذه الأصناف الثلاثة ،
فيها حق وباطل ، ولا بد من التمييز في هذا وهذا .

وجماع ذلك أن ما وافق كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وما
كان عليه أصحابه فهو حق ، وما خالف ذلك فهو باطل . فإن الله يقول :
(يَتَّخِذُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى
اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وقال تعالى .
(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ
بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

وفي صحيح مسلم عن عائشة — رضي الله عنها — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « كان إذا قام من الليل يقول : اللهم ! رب جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . والكلام على هذه الأمور مبسوط في غير هذا الموضع .

وقد تكلمنا على كلام المشايخ في السماع ، وما ذكره القشيري في رسالته هو وغيره عنهم ، وشرحنا ذلك كلمة كلمة ، لكن هذا الموضع لا يتسع لذلك .

وجماع الأمر في ذلك أنه إذا كان الكلام في السماع وغيره ، هل هو طاعة وقربة ؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك ، وإذا كان الكلام : هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ فلا بد من دليل شرعي يدل على ذلك . إذ ليس الحرام إلا ما حرمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ، والله سبحانه وتعالى ذم المشركين على أنهم ابتدعوا ديناً لم يشرعه الله لهم ، وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله تعالى . فقال تعالى :

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) وقال تعالى :
 (وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ
 أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ
 عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) .

وكثير من الناس يفعل في السماع وغيره : ما هو من جنس
 الفواحش المحرمة ، وما يدعو إليها ، وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب ،
 فهو مما أمر الله به : فهؤلاء لهم نصيب من معنى هذه الآية . قال
 تعالى : (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ
 إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ
 بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ) .

وقد كان المشركون يحرمون من الطعام واللباس أشياء ، ويتخذون
 ذلك ديناً ، وكان بعض الصحابة قد عزموا على الترهيب ، فأنزل الله
 تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ
 لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا) الآية .

وجماع الدين أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبده إلا بما شرع ، ولا نعبد بالبدع ، كما قال تعالى : (لِيَسْأَلُوكُمْ آيَاتُكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) . قال الفضيل بن عياض : أخلصه ، وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ .

قال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ، لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وهذا الذي ذكره الفضيل مما اتفق عليه أئمة المشايخ ، كما قال أبو سليمان الداراني : إنه لتمر بقلبي النكته من نكت القوم ، فلا أقبلها إلا بشاهدين اثنين : الكتاب ، والسنة ، وقال الشيخ أبو سليمان أيضاً : ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يسمع فيه بأثر ، فإذا سمع بأثر كان نوراً على نور .

وقال الجنيد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث ، لم يصح له أن يتكلم في علمنا هذا ، وقال سهل ابن عبد الله التستري : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل ، وقال : كل عمل على ابتداء فإنه عذاب على النفس ، وكل عمل بلا اقتداء فهو غش النفس .

وقال أبو عثمان النيسابورى : من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً
نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة ؛
لأن الله يقول : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) . ومثل هذا كثير فى كلامهم .

وإذا كان كذلك فليس لأحد أن يسلك إلى الله إلا بما شرعه
الرسول لأئمة ، فهو الداعى إلى الله بإذنه ، الهادي إلى صراطه ، الذي
من أطاعه دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، فهو الذي فرق الله
به بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغى . آخره .
والحمد لله رب العالمين . صلى الله على محمد وصحبه وسلم .

سُئِلَ سَيِّغُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ

عَنْ « السَّمَاعِ »

فأجاب : « السماع » الذي أمر الله به ورسوله ، واتفق عليه سلف الأمة ومشايخ الطريق : هو سماع القرآن ، فإنه سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال سبحانه وتعالى :
(أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبْتِنَا إِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا)
وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْآذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا) .

وقال تعالى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)
وقال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (وقال سبحانه وتعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) وقال تعالى : (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ) .

وقال سبحانه وتعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) وقال سبحانه وتعالى : (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) وهذا كثير في القرآن .

وكما أتى سبحانه وتعالى على هذا السماع ، فقد ذم المعرضين عنه ، كما قال : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) وقال : (وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) وقال سبحانه وتعالى : (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُجْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ) وقال سبحانه وتعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ) وقال : (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ) وقال سبحانه وتعالى : (وَإِذْ أَنْتَلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ

فِي أَذْنَيْهِ وَقَرَأَ بَشِيرَهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ (.

وهذا كثير في كتاب الله ، وسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وإجماع المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ، ويحبه ويرغب فيه
ويذمون من يعرض عنه ، ويبغضه ؛ ولهذا شرع الله للمسلمين في صلاتهم
ولطسهم ، شرع سماع المغرب ، والعشاء الآخر .

وأعظم سماع في الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه : (وَقُرْآنَ
الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) وقال عبد الله بن رواحة - رضي
الله عنه - يمدح النبي صلى الله عليه وسلم - :

وفينا رسول الله يتلو كتابه
إذا انشق معروف من الفجر ساطع
بيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استنقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع

وهو مستحب لهم خارج الصلوات ، وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم : « أنه خرج على أهل الصفة . وفيهم واحد يقرأ وهم

يستمعون ، فجلس معهم » . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحداً منهم يقرأ والباقيون يستمعون .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : يا أبا موسى ! ذكرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون ، ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى وهو يقرأ : فجعل يستمع لقراءته ، وقال : « لقد أوتي هذا زميراً من مزامير داود » وقال : « يا أبا موسى ! لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت أستمع لقراءتك » فقال : لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبرته لك تحييراً أي : حسنته لك تحسناً .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » . « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « لله أشد أدنا للرجل حسن الصوت ، من صاحب القينة إلى قينته » وقوله : « ما أذن الله إذنا » أي سمع سمعاً ، ومنه قوله : (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي سمعت ، والآثار في هذا كثيرة .

وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية . والأحوال الزكية يطول شرحها ، ووصفها . وله في الجسد آثار محمودة . من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وقد ذكر الله هذه الثلاثة في القرآن . وكانت موجودة في أصحاب رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - الذين أثنى عليهم في القرآن ، ووجد بعدهم في التابعين
آثار ثلاثة : الاضطراب ، والاختلاج ، والإغماء - أو الموت ،
والهيام ؛ فانكر بعض السلف ذلك - إما لبدعتهم ، وإما لحبهم .

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك ؛ فإن السبب إذا لم
يكن محظوراً كان صاحبه فيما تولد عنه معذوراً . لكن سبب ذلك قوة
الوارد على قلوبهم ، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم
كانوا مذمومين ، كما ذم الله الذين قال فيهم : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ
ذَلِكَ) وقال : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَيَسْقُوتُ)
ولو أثر فيهم آثارا
محمودة لم يجذبهم عن حد العقل . لكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة
كانوا محمودين أيضاً ومعذورين .

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب في الاجتماع على ذلك : إما
نشيد مجرد ، نظير الغبار . وإما بالتصفيق ، ونحو ذلك . فهو السماع
المحدث في الإسلام ، فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى
عليهم النبي - صلى الله عليه وسلم - حيث قال : « خير القرون : القرن
الذي بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وقد كرهه
أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ .

وقال الشافعي - رحمه الله - : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة
يسمونه التغيير يصدون به الناس عن القرآن .

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال : هو محدث أكرهه ، قيل
له : إنه يرق عليه القلب . فقال : لا تجلسوا معهم . قيل له : أيهجرون ؟
فقال : لا يبلغ بهم هذا كله . فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة ،
لا في الحجاز ، ولا في الشام ، ولا في اليمن ، ولا في مصر ، ولا في
العراق ، ولا خراسان . ولو كان للمسلمين به منفعة في دينهم
لفعله السلف .

ولم يحضره مثل : إبراهيم بن آدم ، ولا الفضيل بن عياض ، ولا
معروف الكرخي ، ولا السري السقطي ، ولا أبو سليمان الداراني ،
ولا مثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي ، والشيخ أبي البيان ، ولا
الشيخ حياة ، وغيرهم ؛ بل في كلام طائفة من هؤلاء - كالشيخ عبد القادر
وغيره - ألهي عنه . وكذلك أعيان المشايخ .

وقد حضره من المشايخ طائفة ، وشرطوا له المكان ، والإمكان ،
والخلان ، والشيخ الذي يحرس من الشيطان . وأكثر الذين حضروه
من المشايخ الموثوق بهم رجعوا عنه في آخر عمرهم . كالجنيد فإنه حضره
وهو شاب ، وتركه في آخر عمره . وكان يقول : من تكلف السماع

فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . فقد ذم من يجتمع له ،
ورخص فيمن يصادفه من غير قصد . ولا اعتماد للجلوس له .

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل . فإن الآيات المتضمنة لذكر
الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والتيم والصبر على العذل
واللوم ونحو ذلك ، هو قول مجمل ، يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب
الأوثان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب النسوان ، ومحب
المردان . فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن ، وأثار الساكن ،
وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله . لكن فيه مضرة راجعة على منفعة : كما
في الخمر والميسر ، فإن فيها إثما كبيرا ، ومنافع للناس ، وإثمها أكبر
من نفعها .

فلهذا لم تأت به الشريعة لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجعة .

وأما ما تكون مفسدته غالبية على مصلحته ، فهو بمنزلة من يأخذ
درهما بدينار ، أو يسرق خمسة دراهم ، ويتصدق منها بدرهمين .

وذلك أنه يهيج الوجد المشترك ، فيثير من النفس كوامن تضره
آثارها ، ويغذي النفس ويفتها ، فتعاض به عن سماع القرآن ، حتى
لا يبقى فيها عجة لسمع القرآن ولا التذاذ به ، ولا استطابة له . بل

يبقى في النفس بغض لذلك ، واشتغال عنه . كمن شغل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل ، وعلوم أهل الكتاب ، والصابئين واستفادته العلم والحكمة منها ، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله ، إلى أشياء أخرى تطول .

فلما كان هذا السماع لا يعطي بنفسه ما يحبه الله ورسوله من الأحوال والعارف ، بل قد يصد عن ذلك ، ويعطي ما لا يحبه الله ورسوله ، أو ما يبغضه الله ورسوله ، لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا سلف الأمة ولا أعيان مشايخها .

ومن نكته أن الصوت يؤثر في النفس بحسنه : فتارة يفرح ، وتارة يحزن ، وتارة يغضب ، وتارة يرضي ، وإذا قوي أسكر الروح فتصير في لذة مطربة من غير تمييز . كما يحصل للنفس إذا سكرت بالرقص ، وللجسد أيضاً إذا سكر بالطعام والشراب ، فإن السكر هو الطرب الذي يؤثر لذة بلا عقل ، فلا تقوم منفعتُه بتلك اللذة بما يحصل من غيبة العقل ، التي صدت عن ذكر الله وعن الصلاة ، وأوقعت العداوة والبغضاء .

و « بالجملة » فعلى المؤمن أن يعلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئاً يقرب إلى الجنة إلا وقد حدث به ، ولا شيئاً يبعد عن

النار إلا وقد حدث به ، وأن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله
ورسوله ، فإن الله يقول : (أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) وإذا وجد فيه منفعة لقلبه ،
ولم يجد شاهد ذلك ، لا من الكتاب ولا من السنة ، لم يلتفت إليه .

قال سهل بن عبد الله التستري : كل وجد لا يشهد له الكتاب
والسنة فهو باطل .

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لتلم بقلبي النكتة من نكت القوم
فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة . وقال أبو
سليمان أيضاً : ليس لمن أهتم شيئاً من الخير أن يفعله ، حتى يجد فيه
أثراً ، فإذا وجد فيه أثراً كان نوراً على نور .

وقال الجنيد بن محمد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم
يقرأ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا .

و « أيضاً » فإن الله يقول في الكتاب (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ
إِلَّا مُكَاةً وَتَصَدِيَةً) قال السلف من الصحابة والتابعين : « المكاة »
كالصغير ونحوه ، من التصويت ، مثل الغناء . و « التصدية » :
التصفيق باليد . فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية

والغناء لهم صلاة ، وعبادة وقربة ، يعتاضون به عن الصلاة التي شرعها الله ورسوله .

وأما المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان : فصلاتهم وعبادتهم القرآن ، واستماعه ، والركوع والسجود ، وذكر الله ودعاؤه ، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله ، فمن اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة فقد ضاهى المشركين في ذلك ، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين : المهاجرين والأنصار . فإن كان بفعله في بيوت الله فقد زاد في مشابهته أكبر وأكبر ، واشتغل به عن الصلاة وذكر الله ودعائه ، فقد عظمت مشابهته لهم . وصار له كفل عظيم من الذم الذي دل عليه قوله سبحانه وتعالى : (وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً)

لكن قد يغفر له ذلك لاجتهاده ، أو لحسنات ماحية ، أو غير ذلك . فيما يفرق فيه [بين] المسلم والكافر . لكن مفارقه للمشركين في غير هذا لا يمنع أن يكون مذموماً خارجاً عن الشريعة ، داخلاً في البدعة التي ضاهى بها المشركين ، فينبغي للمؤمن أن يتفطن لهذا ، ويفرق بين سماع المؤمنين الذي أمر الله به ورسوله ، وسماع المشركين الذي نهى الله عنه ورسوله .

ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين ، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين . وإن كان قد غلط فيه قوم من صالح المسلمين ، فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاتهم ، لما وقع من خطئهم . فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد »

وهذا كما أن جماعة من السلف قاتلوا أمير المؤمنين علياً بتأويل ، وعلي بن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق منهم ، وقد قال فيهم : من قصد الله فله الجنة .

وجماعة من السلف والحلف استحلوا بعض الأشربة بتأويل — وقد ثبت بالكتاب والسنة تحريم ما استحلوه — وإن كان خطؤهم مغفوراً لهم .

والذين حضروا هذا السماع من المشايخ الصالحين شرطوا له شروطاً لا توجد إلا نادراً ، فعامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشايخ ، ومع هذا فأخطأوا — والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة — وإن كانوا معذورين .

والسبب الذي أخطأوا فيه أوقع أمما كثيرة في المنكر الذي نهوا

عنه ، وليس للعالمين شرعة ولا منهاج ، ولا شريعة ولا طريقة أكمل
من الشريعة التي بعث الله بها نبيه محمداً — صلى الله عليه وسلم —
كما كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدي
هدي محمد صلى الله عليه وسلم »

ومن غلط بعضهم توهمه أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة
والتابعين حضروا هذا السماع ، سماع المكاء والتصدية ، والغناء والتصفيق
بالأكف ، حتى روى بعض الكاذبين أن النبي صلى الله عليه وسلم
أنشده أعرابي شعراً . قوله :

قد لست حية الهوى كبدي
فلا طيب لها ولا راق
سوى الحبيب الذي شغفت به
فمنه دائي ومنه تربياتي

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه .
وقال : « ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر المحبوب » . وهذا
الحديث كذب بإجماع العارفين بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وسنته وأحواله .

كما كذب بعض الكذابين : أن أهل الصفه قاتلوا المؤمنين مع

المشركين ، وأمثال هذه الأمور المكذوبة إنما يكذبها من خرج عن أمر الله ورسوله ، وأطبقت عليه طوائف من الجاهلين بأحوال الرسول وأصحابه ؛ بل بأصول الإسلام .

وأما « الرقص » فلم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا أحد من الأئمة بل قد قال الله في كتابه : (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ) وقال في كتابه : (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) أي : بسكينة ، ووقار .

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود ؛ بل الدف والرقص في الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا أحد من سلف الأمة ؛ بل أمروا بالقرآن في الصلاة ، والسكينة . ولو ورد على الإنسان حال يغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن المشروع ، وكان ذلك الحال بسبب مشروع . كسماع القرآن ونحوه ، سلم إليه ذلك الحال كما تقدم ، فلما إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به ، مع علمه بأنه يوقعه فيها لا يصلح له : مثل شرب الخمر ، مع علمه أنها تسكره ، وإذا قال : ورد علي الحال ، وأنا سكران قيل له : إذا كان السبب محظوراً ، لم يكن السكران معذوراً .

فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقاً فهو مبتدع ، ضال ، من جنس خفراء العدو ، وأعوان الظلمة ، من ذوي الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى ، والمشركين ، والصابئين . في بعض ما لهم من الأحوال

ومن كان كاذباً فهو منافق ضال .

قال سيد المسلمين في وقته - الفضيل بن عياض - في قوله تعالى :
(لِبَلَّوْكُمْ أَنْ تَحْسَنُ عَمَلًا) قال : أخلصه ، وأصوبه . قيل له : يا أبا علي أما
أخلصه ؟ وأصوبه ؟ . قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً
لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً .
والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

وكان يقول : من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام ، ومن
زوج كريمته لصاحب بدعة فقد قطع رحمها ، ومن اتهر صاحب بدعة
ملاً الله قلبه أمناً وإيماناً . وأكثر إشارته وإشارات غيره من المشايخ
بالبدعة إنما هي إلى البدع في العبادات والأحوال ، كما قال عن النصارى
(وَرَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهُمَا مَا كُتِبَ لَهُنَّ عَليَهِمْ) وقال ابن مسعود : « عليكم
بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً
فاقشعر جلده ، من مخافة الله ، إلا تحانت عنه خطاياهم كما يتحات الورق
اليابس عن الشجرة ، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خالياً
فدمعت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبداً ، وإن اقتصاداً في
سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة . فاحرصوا أن
تكون أعمالكم - إن كانت اجتهاداً أو اقتصاداً - على منهاج الأنبياء
وسنتهم » .

وأما قول القائل : هذه شبكة يصاد بها العوام .

فقد صدق ، فإن أكثرهم إنما يتخذون ذلك شبكة لأجل الطعام ،
والتوانس على الطعام . كما قال الله فيهم : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا
مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ
اللَّهِ) ومن فعل هذا فهو من أئمة الضلال ، الذين قيل في رؤوسهم :
(يَوْمَ نُقَلِّبُ وُجُوهَهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا
أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ
لَعْنًا كَبِيرًا) .

وأما الصادقون منهم : فهم يتخذونه شبكة ، لكن هي شبكة مخروقة
يخرج منها الصيد إذا دخل فيها ، كما هو الواقع كثيراً ؛ فإن الذين دخلوا
في السماع المتبدع في الطريق ، ولم يكن معهم أصل شرعي شرعه الله
ورسوله ، أورتهم أحوالاً فاسدة^(١) .

وإلى عبادته ومحبته ، وطاعته ، والرغبة إليه ، والتبتل له والتوكل
عليه أحسن من^(١) الإسلامية ، والشريعة القرآنية ، والمناهج^(١) الموصلة
الحقيقة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة .

(١) يياض بالأصل .

وإذا كان غير مشروع ، ولا مأمور به ، فالتطهر ، أو الإنصات
له ، واستفتاح باب الرحمة هو من جنس عادة الرهبان ، ليس من عبادة
أهل الإسلام ، والإيمان ، ولا عبادة أهل القرآن ، ولا من أهل السنة
والإحسان . والحمد لله وحده .

سئل

عمن قال إن السماع على الناس حرام وعلي حلال هل يفسق في ذلك أم لا ؟

فأجاب — رضي الله عنه — من ادعى أن المحرمات تحريماً عاماً : كالفواحش ، والظلم ، والملاهي ، حرام على الناس حلال له فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل ، ومن ادعى في الدفوف والشباب أنها حرام على بعض الناس دون بعض فهذا مخالف للسنة ، والإجماع ، وأئمة الدين ، وهو ضال من الضلال . ومن ثم مصرأ على مثل ذلك كان فاسقاً . والله أعلم .

سئل

عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف ، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه التواضع . هل هذا سنة ؟ أو فعله الشيوخ الصالحون ؟ .

الجواب : لا يجوز السجود لغير الله ، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة ، ولا أكابر شيوخها : كالفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي ، والسري السقطي ، وغير هؤلاء .

وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل : الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي ، والشيخ أبي مدين ، والشيخ أبي البيان ، وغير هؤلاء . فإنهم لم يحضروا « السماع البدعي » بل كانوا يحضرون « السماع الشرعي » سماع الأنبياء ، وأتباعهم . كسماع القرآن . والله أعلم .

سئل شيخ الإسلام

عن رجل يحب السماع والرقص ، فأشار عليه رجل . فقال
هذه الآيات :

أنكروا رقصاً وقالوا حرام	فعليهم من أجل ذاك سلام
اعبد الله يا فقيه ، وصل	والزم الشرع فالسمع حرام
بل حرام عليك ، ثم حلال	عند قوم أحوالهم لا نلام
مثل قوم صفوا وبان لهم من	جانب الطور جذوة وكلام
فاذا قوبل السماع بلهو	فحرام على الجميع حرام

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . هذا الشعر يتضمن منكراً من
القول وزوراً ؛ بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة ، وآخره يفتح باب
الزندقة والإلحاد ، والمخالفة للحقيقة الإلهية الدينية النبوية . وذلك أن
قول القائل :

مثل قوم صفوا وبان لهم من جانب الطور جذوة وكلام

يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران ، الذى نودى من جانب
الطور ، ولما رأى النار (قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا
بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) .

وهذا قول طائفة من الناس ، يسلكون طريق الرياضة والتصفية ،
ويظنون أنهم بذلك يصلون إلى أن يخاطبهم الله ، كما خاطب موسى بن
عمران ، وهؤلاء ثلاثة أصناف :

« صنف » يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خوطب به موسى بن
عمران . كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد ، القائلين
بأن الوجود واحد . كصاحب « الفصوص » وأمثاله .

فإن هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الأنبياء ، وأن الخطاب الذى
يحصل لهم من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد
عليهم الصلاة والسلام ، ومعلوم أن هذا الكفر أعظم من كفر اليهود
والنصارى ، الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم ، لكن يؤمنون ببعض
الأنبياء ، ويكفرون ببعض .

و « النوع الثانى » من يقول إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن
عمران ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة ، الذين

يقولون : إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقل الفعال ،
ويقولون : إن النبوة مكتسبة .

و « النوع الثالث » : الذين يقولون : إن موسى أفضل ، لكن
صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذي سمعه موسى ؛ ولكن موسى
مقصوداً بالتكليم دون هذا ، كما يوجد هذا في أخبار صاحب « مشكاة
الأنوار » ، وكذلك سلك مسلكه صاحب « خلع النعلين » ، وأمثالهما .

وأما قوله في أول الشعر لمن يخاطبه : « الزم الشرع يافقيه
وصل » . يشعر بأنك أنت تبع الشرع ، وأما نحن فلنا إلى الله
طريق غير الشرع ، ومن ادعى أن له طريقاً إلى الله يوصله إلى رضوان
الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التي بعث الله بها رسوله ، فإنه أيضاً
كافر ، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه : كطائفة أسقطوا التكليف ،
وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة الرسل .

و « طائفة » يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة
محمد صلى الله عليه وسلم كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ، وجهل
هؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم
رسول إلى كل أحد ظاهراً وباطناً ، مع أن قضية الخضر لم تخالف
شريعة موسى ؛ بل وافقتها ، ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى
علمها ، فلما علمها تبين أن الأفعال توافق شريعته لا تخالفها .

وسئل

عن الذين يعملون النار والإشارات مثل النبل والزعفران .
وغير ذلك ؟ .

فأجاب : أما هؤلاء الذين يظهرون « الإشارات » كالنبل والزعفران
والمسك ، والنار ، والجبّة . فليسوا من أولياء الله الصالحين ؛ بل هم من
أحزاب الشياطين ، وأحوالهم شيطانية ليست من كرامات الصالحين ،
وهم يفسدون العقول ، والأديان ، والأعراض ، والنساء ، والصبيان .
ولا يحسن الظن بهم إلا جاهل عظيم الجمالة ، أو عدو لله ورسوله ،
فإنهم من جنس التتر المحاريين لله ورسوله . والله أعلم .

سئل

عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته ، وإن في بلده شيخا أعطاه إجازة ، وبقي يأكل الثعابين والعقارب ، ونزل عن فلاحته ، ويطلب رزقة . فهل تجوز الصدقة عليه أم لا ؟؟.

فأجاب : الحمد لله . أكل الحبائث ، وأكل الحيات والعقارب حرام بإجماع المسلمين . فمن أكلها مستحلا لذلك فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل . ومن اعتقد التحريم وأكلها فإنه فاسق عاص لله ورسوله فكيف يكون رجلا صالحاً؟! ولو ذكى الحية لكان أكلها بعد ذلك حرام عند جماهير العلماء ؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الحية ، والعقرب ، والحدأة ، والفأرة ، والكلب العقور » .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ذلك في الحل والحرم ، وسماهن فواسق ؛ لأنهن يفسقن : أي يخرجن على الناس ، ويعتدين عليهم ، فلا يمكن الاحتراز منهن ، كما لا يحترز من السباع العادية ، فيكون

عدوان هذا أعظم من عدوان كل ذي ناب من السباع ، وهن
أخبت وأحرم .

وأما الذين يأكلون ويجعلون ذلك من باب « كرامات الأولياء »
فهم أشر حالاً ممن يأكلها من الفساق ؛ لأن كرامات الأولياء لا تكون
بما نهى الله عنه ورسوله ، من أكل الجبائث ، كما لا تكون بترك
الواجبات ، وإنما هذه المخاريق التي يفعلها هؤلاء المبتدعون : من
الدخول في النار ، وأخذ الحيات ، وإخراج اللادن ، والسكر ، والدم
وماء الورد . هي نوعان :

« أحدهما » أن يفعلوا ذلك بحيل طبيعية . مثل أدهان معروفة ،
يذهبون ويمشون [في النار] ، ومثل ما يشربه أحدهم مما يمنع سم الحية : مثل
أن يمسكها بعنققتها حتى لا تضره ، ومثل أن يمسك الحية المائية ، ومثل
أن يسلخ جلد الحية ويحشوه طعاماً ، وكما قتلت الحيات من أتباع
هؤلاء ؟! ومثل أن يمسح جلده بدم أخوين ؛ فإذا عرق في السماع ظهر
منه ما يشبه الدم ، ويصنع لهم أنواعاً من الحيل والمخادعات .

« النوع الثاني » وهم أعظم عندهم أحوال شيطانية تعزيمهم عند
السماع الشيطاني ، فتزل الشياطين عليهم ، كما تدخل في بدن المصروع
ويزيد أحدهم كما يزيد المصروع ، وحينئذ يباشر النار ، والحيات ،

والعقارب ، ويكون الشيطان هو الذي يفعل ذلك ، كما يفعل ذلك من
تقرن بهم الشياطين من إخوانهم ، الذين هم شر الخلق عند الناس ، من
الطائفة التي يطلبهم الناس لعلاج المصروع ، وهم من شر الخلق عند
الناس ، فإذا طلبوا تحلوا بحلية المقاتلة ، ويدخل فيهم الجن ، فيحارب
مثل الجن الداخل في المصروع ، ويسمع الناس أصواتاً ، ويرون
حجارة يرمى بها ، ولا يرون من يفعل ذلك ، ويرى الإنسى واقفاً
على رأس الرمح الطويل . وإنما الواقف هو الشيطان ، ويرى الناس
ناراً تحمى . ويضع فيها الفؤوس والمساخي ، ثم إن الإنسى يلحسها
بلسانه ، وإنما يفعل ذلك الشيطان الذي دخل فيه ، ويرى الناس
هؤلاء يباشرون الحيات والأفاعي وغير ذلك ، ويفعلون من الأمور
ماهو أبلغ مما يفعله هؤلاء المتدعون الضالون المكذبون الملبسون ،
الذين يدعون أنهم أولياء الله ، وإنما هم من أعدائه ، المضيعين
لفرائضه ، المتعدين لحدوده .

والجهال لأجل هذه الأحوال الشيطانية ، والطبيعية ، يظنونهم أولياء
الله ؛ وإنما هذه الأحوال من جنس أحوال أعداء الله الكافرين ،
والفاسقين . ولا يجوز أن يعان من هؤلاء على ترك المأمور ، ولا
فعل المحذور ، ولا إقامة مشيخة تخالف الكتاب والسنة ، ولا أن يعطي
رزقه على مشيخة يخرج بها من طاعة الله ورسوله ، وإنما يعان بالأرزاق
من قام بطاعة الله ورسوله ، ودعا إلى طاعة الله ورسوله والله أعلم .

وسئل

عن رجل منقطع في بيته لا يخرج ولا يدخل ، وبصلي في بيته ، ولا يشهد الجماعة ، وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه ، ثم إنه يخترع العياط من غير سبب ، وتجتمع عنده الرجال والنساء . فهل يسلم له حاله ؟ أو يجب الإنكار عليه ؟

فأجاب : هذه الطريقة طريقة بدعية ، مخالفة للكتاب والسنة ، ولما أجمع عليه المسلمون . والله تعالى إنما يعبد بما شرع ، لا يعبد بالبدع . قال الله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) فإن التعبد بترك الجمعة والجماعة ، بحيث يرى أن تركها أفضل من شهودها مطلقاً كفر ، يجب أن يستتاب صاحبه منه ، فإن تاب وإلا قتل . فإنه قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن لا يعبد بترك الجمعة والجماعة ، بل يعبد بفعل الجمعة والجماعة ، ومن جعل الانقطاع عن ذلك ديناً لم يكن على دين المسلمين ، بل يكون من جنس الرهبان الذين يتخلون بالصوامع والديارات ، والواحد من هؤلاء قد يحصل له بسبب الرياضة ، أو الشياطين — بتقريبه إليهم ، أو غير ذلك — نوع كشف ، وذلك لا يفيد ؛ بل هو كافر بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

والله تعالى أمر الخلق أن يعبدوه وحده لا يشركون به شيئاً ،

ويعبدوه بما شرع ، وأمر أن لا يعبدوه بغير ذلك . قال تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)
وقال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) .

فالسالك طريق الزهادة والعبادة إذا كان متبعاً للشريعة في الظاهر ،
وقصد الرياء والسمعة ، وتعظيم الناس له كان عمله باطلا لا يقبله الله .
كما ثبت في الصحيح أن الله يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ،
من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء . وهو كله للذي
أشرك » وفي الصحيح عنه أنه قال : « من سمع سمع الله به ، ومن
راءى راءى الله به » .

وإن كان خالصاً في نيته لكنه يتعبد بغير العبادات المشروعة :
مثل الذي بصمت دائماً ، أو يقوم في الشمس ، أو على السطح دائماً ،
أو يتعري من الثياب دائماً ، ويلتزم لبس الصوف ، أو لبس الليف ،
ونحوه أو يغطي وجهه ، أو يمتنع من أكل الحبز ، أو اللحم ، أو
شرب الماء ، ونحو ذلك — كانت هذه العبادات باطلة ، ومردودة ،
كما ثبت في الصحيح عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » . وفي رواية : « من
عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » وفي صحيح البخاري عن ابن
عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس فقال :
ما هذا ؟ قالوا : هذا أبو إسرائيل ، نذر الصمت ، والقيام والبروز

للشمس مع الصوم . فأمره النبي - صلى الله عليه وسلم - بالصوم وحده » لأنه عبادة يحبها الله تعالى ، [وما عداه ليس بعبادة] وإن ظنها الظان تقربه إلى الله تعالى . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في خطبته : « إن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ».

وثبت عنه في الصحيح « أن قوما من أصحابه قال أحدم : أما أنا فأصوم ، ولا أفطر ، وقال الآخر : أما أنا فأقوم ، ولا أنام ، وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء ، وقال الآخر : أما أنا فلا آكل اللحم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما بال رجال يقول أحدم : كيت وكيت ! لكنني أصوم وأفطر ، وأنام ، وأتزوج النساء ، وآكل اللحم ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » . فإذا كان هذا فيما هو جنسه عبادة ؛ فإن الصوم والصلاة جنسهما عبادة ، وترك اللحم والتزويج جائز ، لكن لما خرج في ذلك من السنة فالتزم القدر الزائد على المشروع ، والتزم هذا ترك المباح ، كما يفعل الرهبان ، تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم ممن فعل ذلك ، حيث رغب عن سنته إلى خلافها ، وقال : « لارهبانية في الإسلام » فكيف بمن يرغب عما هو من أعظم شعار الإسلام ، وهو الصلاة في الجمعة ، والجماعات ؟ !.

وقد روى عن ابن عباس أنهم سألوه غير مرة : عمن يصوم

النهار ، ويقوم الليل ، ولا يشهد جمعة ، ولا جماعة . فقال : « هو في النار » . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليطنعن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » وقال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً من غير عذر طبع الله على قلبه » وفي الصحيح والسنن : « إن أعمى قال : يارسول الله ! إن لي قائداً لا يلائمني ، فهل تجد لي رخصة أن أصلي في بيتي قال : هل تسمع النداء ؟ قال : نعم ، قال : فأجب » . وفي رواية قال : « لا أجد لك رخصة » .

و « الجمعة » فريضة باتفاق الأئمة .

و « الجماعة » واجبة أيضاً ، عند كثير من العلماء ، بل عند أكثر السلف ، وهل هي شرط في صحة الصلاة على قولين :

أقواها كما في سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سمع النداء فلم يجب من غير عذر فلا صلاة له » .

وعند طائفة من العلماء : أنها واجبة على الكفاية .

و « أحد الأقوال » أنها سنة مؤكدة ، ولا نزاع بين العلماء أن صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته وحده خمساً وعشرين ضعفاً ،

كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم . ولا نزاع بينهم أن من جعل صلاته وحده أفضل من صلاته في جماعة فإنه ضال مبتدع ، مخالف لدين المسلمين .

وهذه البدع يذم أصحابها ، ويعرف أن الله لا يتقبلها ، وإن كان قصدهم بها العبادة ، كما أنه لا يقبل عبادة الرهبان ، ونحوهم ممن يجتهدون في الزهد والعبادة لأنهم لم يعبدوه بما شرع ؛ بل ببدعة ابتدعوها ، كما قال : (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) فإن المتعبد بهذه البدع قصده أن يعظم ويزار ، وهذا عمله ليس خالصاً لله ، ولا صواباً على السنة ؛ بل هو كما يقال : زغل ، وناقص ، بمنزلة لحم خنزير ميت ؛ حرام من وجهين .

والواجب على كل مسلم التزام عبادة الله وحده لا شريك له ، وطاعة رسوله ، والأمر بذلك لكل أحد ، والهي عن ضد ذلك لكل أحد ، والإنكار على من يخرج عن ذلك ، ولو طار في الهواء ، ومشى على الماء ، وليس تحت أديم السماء أحد يقر على خلاف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ بل إن كان مقرأً بالإسلام ألزمه بطاعة الرسول ، واتباع سنته الواجبة ، وشريعته الهادية ، وإن كان غير مقر بالإسلام كان كافراً ، ولو كان له من الزهد والرهبان ماذا عسى أن يكون

والكافر إن كان من أهل الذمة فله حكم أمثاله ، وإن كان من أهل الحرب فله حكم أمثاله ، ويجب الإنكار على هذا المبتدع وأمثاله بحسن قصد ، بحيث يكون المقصود طاعة الله ورسوله ؛ لا اتباع هوى ، ولا منافسة ولا غير ذلك . قال الله تعالى : (وَقَلِيلٌ مِّنْهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) .

فالمقصود أن يكون الدين كله لله ، ولا دين إلا ما شرعه الله تعالى على ألسن رسله . وفي الصحيحين « أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : يارسول الله ! الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاقل حمية ، ويقاقل رياء . فأبي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله » فيكون المقصود علو كلمة الله ، وظهور دين الله . وأن يعلم المسلمون كلهم إنما عليه المبتدعون المراءون ليس من الدين ، ولا من فعل عباد الله الصالحين ؛ بل من فعل أهل الجهل والضلال والإشراك بالله تعالى ، الذين يخرجون عن توحيده ، وإخلاص الدين له ، وعن طاعة رسله .

و « أصل الإسلام » : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . فمن طلب بعبادته الرياء والسمعة فلم يحقق شهادة أن لا إله إلا الله ،

ومن خرج عما أمره به الرسول من الشريعة وتعبد بالبدعة فلم يحقق شهادة أن محمداً رسول الله .

وإنما يحقق هذين « الأصلين » من لم يعبد إلا الله ، ولم يخرج عن شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي بلغها عن الله ، فإنه قال : « تركتكم على البيضاء ليلها كفهاها لا يزيع عنها إلا هالك » ، وقال : « ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا قد حدثتكم به ، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به » وقال ابن مسعود : « خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ، وخط خطوطاً عن يمينه ، وشماله ثم قال : هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه ثم قرأ : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) » .

فالعبادات والزهادات والمقالات والتورعات الخارجة عن سبيل الله — وهو الصراط المستقيم : الذي أمرنا الله أن نسأله هدايته ، وهو ما دل عليه السنة — هي سبل الشيطان ، ولو كان لأحدم من الخوارق ما كان ، فليس أحدم بأعظم من مقدمهم السجال الذي يقول للساء : أمطري فتمطر ، وللأرض أنبتى فتنبت ، وللخربة أظهري كنوزك فتخرج معه كنوز الذهب والفضة . وهو مع هذا عدو الله ، كافر بالله ، وأولياء الله هم المذكورون في قوله : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فهم المؤمنون ، والتقوى
فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، فمن ترك ما أمر الله ،
واتخذ عبادة نهى الله عنها . كيف يكون من هؤلاء ؟ ! .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي
- صلى الله عليه وسلم - يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً » الحديث .
فبين سبحانه أنه ما تقرب العبد إلى الله بمثل أداء ما افترض عليه .

والتقرب بالواجبات فقط طريق المقتصدين أصحاب اليمين ، ثم التقرب
بعد ذلك بما أحبه الله من النوافل هو طريق السابقين المقربين ،
والمحوبات هي ما أمر الله به ورسوله : أمر إيجاب ، أو أمر استحباب ،
دون ما استحبه الرجل برأيه وهواه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل شيخ الإسلام

علامة الزمان . تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحرائي — رضي الله عنه — .

عن « جماعة » يجتمعون على قصد الكبائر من القتل ، وقطع الطريق ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وغير ذلك . ثم إن شيخاً من المشايخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك ، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعاً يجتمعون فيه بهذه النية ، وهو بدف بلا صلاصل ، وغناء المغنى بشعر مباح بغير شباة ، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة ، وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات ، ويؤدي المفروضات ، ويجتنب المحرمات . فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه ، لما يترتب عليه من المصالح ؟ مع أنه لا يمكنه دعوتهم إلا بهذا ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين .

أصل جواب هذه المسألة وما أشبهها : أن يعلم أن الله بعث محمداً

— صلى الله عليه وسلم — بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً . وأنه أكمل له ولأمته الدين ، كما قال تعالى :
 (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) .
 وأنه بشر بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه ، فقال تعالى :
 (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا)
 وقال تعالى : (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا) .

وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به ،
 كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم ، كما قال تعالى :
 (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) .
 وقال تعالى : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) .

وأخبر أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الحباث . كما قال تعالى : (وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
الَّتِي الْأُمَمُ الَّتِي يُجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقد أمر الله الرسول — صلى الله عليه وسلم — بكل معروف
ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث . وثبت
عنه — صلى الله عليه وسلم — في الصحيح أنه قال : « ما بعث الله
نبياً إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر
ما يعلمه لهم » ، وثبت عن العرياض بن سارية قال : « وعظنا رسول
الله — صلى الله عليه وسلم — موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت
منها العيون . قال : فقلنا : يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودع ،
فماذا تعهد إلينا ، فقال : أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم
بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين
المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات
الأمر . فإن كل بدعة ضلالة » . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه
قال : « ما تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثكم به » .
وقال : « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي
إلا هالك » .

وشواهد هذا « الأصل العظيم الجامع » من الكتاب والسنة كثيرة وترجم عليه أهل العلم في الكتب . « كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة » كما ترجم عليه البخاري والبخاري وغيرهما ، فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالين ، وكان السلف — كمالك وغيره — : يقولون السنة كسفينه نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، وقال الزهري : كان من مضى من علمائنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجا .

إذا عرف هذا فمعلوم أننا يهdy الله به الضالين ويرشد به الغالين ويتوب به على العاصين ، لا بد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة ، وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول — صلى الله عليه وسلم — لا يكفي في ذلك ، لكان دين الرسول ناقصاً ، محتاجاً تمة . وينبغي أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب . والأعمال الفاسدة نهى الله عنها .

والعمل إذ اشتمل على مصلحة ومفسدة ، فإن الشارع حكيم . فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه ، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم بشرعه ؛ بل نهى عنه ، كما قال تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ

فِيهِمَا أَتَمُّ كَيْدٍ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) ولهذا حرمها الله تعالى بعد ذلك .

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقرباً إلى الله ، ولم يشرعه الله ورسوله ؛ فإنه لا بد أن يكون ضرره أعظم من نفعه ، وإلا فلو كان نفعه أعظم غالباً على ضرره لم يهمله الشارع ؛ فإنه - صلى الله عليه وسلم - حكيم ، لا يهمل مصالح الدين ، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين .

إذا تبين هذا فنقول للسائل : إن الشيخ المذكور قصد أن يتوب المجتبعين على الكبائر ، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البدعي . يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التي بها تتوب العصاة ، أو عاجز عنها ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية ، التي أغنام الله بها عن الطرق البدعية .

فلا يجوز أن يقال : إنه ليس في الطرق الشرعية التي بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة ، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية ، التي ليس فيها ما ذكر من الاجتماع البدعي ؛

بل السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان — وهم خير أولياء الله المتقين ، من هذه الأمة — تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية ، لا بهذه الطرق البدعية . وأمصار المسلمين وقرام قديماً وحديثاً مملوءة ممن تاب إلى الله وانتقام ، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية ، لا بهذه الطرق البدعية .

فلا يمكن أن يقال : إن العصاة لا يمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية ، بل قد يقال : إن في الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية ، عاجزاً عنها ، ليس عنده علم بالكتاب والسنة ، وما يخاطب به الناس ، ويسمعهم إياه ، مما يتوب الله عليهم ، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية . إما مع حسن القصد . إن كان له دين وإما أن يكون غرضه التروؤس عليهم ، وأخذ أموالهم بالباطل ، كما قال تعالى : (يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ) فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل ، أو عجز ، أو غرض فاسد . وإلا فمن المعلوم أن سماع القرآن هو سماع النبيين ، والعارفين ، والمؤمنين . قال تعالى في النبيين : (أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجَبَيْنَا ؕ إِذِ انزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُ الرَّحْمٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا) .

وقال تعالى في أهل المعرفة : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مَنَاعِرُ فَوَاسٍ الْحَقِّ) . وقال تعالى في حق أهل العلم : (إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشوعًا) . وقال في المؤمنين : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا) وقال تعالى : (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّصِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ) .

وبهذا السماع هدى الله العباد ، وأصلح لهم أمر المعاش والمعاد ، وبه بعث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبه أمر المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوه بإحسان . وعليه كان يجتمع السلف ، كما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ اجتمعوا أمروا رجلاً منهم أن يقرأهم يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — يقول لأبي موسى : ذكرنا ربنا ، فيقرأ أبو موسى وهم يستمعون . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ ، فجعل يستمع لقراءته . وقال : « لقد أوتي هذا زمراً »

من مزامير آل داود . » وقال : « حررت بك البارحة وأنت تقرأ
فجعلت أستمع لقراءتك ، فقال : لو علمت أنك تسمعي لحبرته لك
تحيراً . أي لحسنه لك تحسناً .

وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود : « اقرأ
علي القرآن ، فقال : اقرأ عليك القرآن وعليك أنزل ؟! فقال : إني
أحب أن أسمعه من غيري . قال : فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت
إلى هذه الآية : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى
هَؤُلَاءِ شَهِيدًا) قال لي : حسبك ، فنظرت إليه فإذا عيناه تذرفان
من البكاء » وعلى هذا السماع كان يجتمع القرون الذين أثنى عليهم
النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : « خير القرون الذين بعثت فيهم ،
ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

ولم يكن في السلف الأول سماع يجتمع عليه أهل الخير إلا هذا .
لا بالحجاز ، ولا باليمن ، ولا بالشام ، ولا بمصر ، والعراق ؛ وخراسان
والغرب . وإنما حدث السماع المبتدع بعد ذلك ، وقد مدح الله أهل
هذا السماع ، المقبلين عليه . وضم المعرضين عنه . وأخبر أنه سبب
الرحمة . فقال تعالى : (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ) . وقال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمُيَانًا) وقال تعالى : (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ

قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ) . وقال تعالى : (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) وقال تعالى : (فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَرَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) وقال تعالى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ) وقال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَصِلْهُ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمُ تُنْسَى) .

ومثل هذا في القرآن كثير يأمر الناس باتباع ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة ، ويأمرهم بسماع ذلك .

وقد شرع الله تعالى السماع للمسلمين : في المغرب ، والعشاء ، والفجر . قال تعالى : (وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) وبهذا مدح عبد الله بن رواحة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :

وفينا رسول الله يتلو كتابه

إذا انشق معروف من الفجر ساطع

بيت يجافي جنبه عن فراشه

إذ استقلت بالكافرين المضاجع

أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا

به موقنات أنما قال واقع

وأحوال أهل هذا السماع مذكورة في كتاب الله ، من وجل
القلوب ، ودمع العيون ، واقشعرار الجلود . وإنما حدث سماع الأبيات
بعد هذه القرون ، فأنكره الأئمة ، حتى قال : الشافعي — رحمه
الله — خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغير ، يزعمون
أنه يرقق القلوب ، يصدون به الناس عن القرآن . وسئل الإمام أحمد
عنه فقال : محدث ، فقل له : أجلس معهم فيه ؟ فقال : لا يجلس معهم .

والتغير هو الضرب بالقضيب على جلودهم ، من أمثل أنواع
السماع . وقد كرهه الأئمة فكيف بغيره ، والأئمة المشايخ الكبار لم
يحضروا هذا السماع المحدث ، مثل الفضيل بن عياض ، وإبراهيم بن
أدهم ، وأبي سليمان الداراني ، ومعروف الكرخي ، والسري السقطي ،
وأمثالهم . ولا أكبر الشيوخ المتأخرين : مثل الشيخ عبد القادر ،
والشيخ عدي ، والشيخ أبي مدين ، والشيخ أبي البيان ، والشيخ
أبي القاسم الحوفي ، والشيخ علي بن وهب ، والشيخ حياة ، وأمثالهم .
وطائفة من الشيوخ حضروه ثم رجعوا عنه . وسئل الجنيد عنه فقال :
من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . فبين

الجنيد أن قاصد هذا السماع صار مفتوناً ، وأما من سمع ما يناسبه بغير قصد فلا بأس .

فإن النبي إنما يتوجه إلى الاستماع ، دون السماع . ولهذا لو مر الرجل بقوم يتكلمون بكلام محرم لم يجب عليه سد أذنيه ؛ لكن ليس له أن يستمع من غير حاجة ، ولهذا لم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمر بسد أذنيه لما سمع زمارة الراعي ؛ لأنه لم يكن مستمعاً بل سامعاً .

وقول السائل وغيره : هل هو حلال ؟ أو حرام ؟ لفظ مجمل فيه تليس ، يشتهر الحكم فيه ، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه ؛ وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين :

(أحدهما) أنه هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس ، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ، وغيرها . مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو ، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله .

و (النوع الثاني) أن يفعل على وجه الديانة ، والعبادة ، وصالح القلوب ، وتجريد حب العباد لربهم ، وتزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبهم

وأن تحرك من القلوب الحشية ، والإناابة ، والحب ، ورقة القلوب ، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات ، والطاعات ، لا من جنس اللعب والمهليات .

فيجب الفرق بين سماع المتقربين ، وسماع المتلعبين ، وبين السماع الذي يفعله الناس في الأعراس ، والأفراح ، ونحو ذلك من العادات ، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلوب ، والتقرب إلى رب السموات ، فإن هذا يسأل عنه : هل هو قرينة وطاعة ؟ وهل هو طريق إلى الله ؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم ، وتحريك وجدهم لمحبتهم ، وتزكية نفوسهم ، وإزالة القسوة عن قلوبهم ، ونحو ذلك من المقاصد التي تقصد بالسماع ؟ كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع في كنائسهم على وجه العبادة والطاعة ، لا على وجه اللهو واللعب .

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال : هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التي هي : إما محرمة ؟ أو مكروهة ؟ أو مباحة ؟ قرينة وعبادة وطاعة ، وطريقة إلى الله يدعو بها إلى الله ، ويتوب العاصين ، ويرشد به الغالوتين ، ويهدي به الضالين .

ومن المعلوم أن الدين له « أصلان » فلا دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله . والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله ، وشرعوا ديناً لم يأذن به الله .

ولو سئل العالم عمن يعدو بين جبلين : هل يباح له ذلك ؟ قال :
نعم ، فإذا قيل : إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة ،
قال : إن فعله على هذا الوجه حرام منكر ، يستتاب فاعله ، فإن
تاب وإلا قتل .

ولو سئل : عن كشف الرأس ، ولبس الإزار . والرداء : أفتى
بأن هذا جائز ، فإذا قيل : إنه يفعله على وجه الإحرام . كما يحرم
الحاج . قال : إن هذا حرام منكر .

ولو سئل : عمن يقوم في الشمس . قال : هذا جائز . فإذا قيل :
إنه يفعله على وجه العبادة . قال : هذا منكر . كما روى البخاري عن
ابن عباس — رضي الله عنهما — « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
رأى رجلاً قائماً في الشمس . فقال : من هذا ؟ قالوا : هذا أبو إسرائيل
يريد أن يقوم في الشمس ، ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم ،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : مروه فليتكلم ، وليجلس ، وليستظل
وليتم صومه » : فهذا لو فعله لراحة ، أو غرض مباح لم ينه عنه ؛ لكن لما
فعله على وجه العبادة نهى عنه .

وكذلك لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت ، لم يحرم عليه
ذلك ، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة . كما كانوا يفعلون في الجاهلية :

كان أحدهم إذا أحرَم لم يدخل تحت سقف ، فهو عن ذلك ، كما قال تعالى : (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا) فين سبحانه أن هذا ليس ببر ، وإن لم يكن حراماً ، فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصياً ، مذموماً ، مبتدعاً ، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لأن العاصي يعلم أنه عاص فيتوب ، والمبتدع يحسب أن الذي يفعله طاعة فلا يتوب .

ولهذا من حضر السماع للعب واللهو لا بعده من صالح عمله ، ولا يرجو به الثواب ، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه ديناً ، وإذا نهى عنه كان كمن نهى عن دينه ، ورأى أنه قد انقطع عن الله ، وحرَم نصيبه من الله تعالى إذا تركه . فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين ، ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذه ديناً وطريقاً إلى الله تعالى أمر مباح ؛ بل من جعل هذا ديناً وطريقاً إلى الله تعالى فهو ضال ، مفتر ، مخالف لإجماع المسلمين . ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلاً متكلماً في الدين بلا علم .

فالسؤال عن مثل هذا أن يقال : هل ما يفعله هؤلاء طريق وقربة وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله أم لا ؟ وهل يثابون على ذلك أم لا ؟ وإذا لم يكن هذا قربة وطاعة وعبادة لله ، ففعلوه على أنه قربة

وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى . هل يحل لهم هذا الاعتقاد ؟
وهذا العمل على هذا الوجه ؟

وإذا كان السؤال على هذا الوجه لم يكن للعالم المتبع للرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يقول : إن هذا من القرب والطاعات ، وأنه من أنواع العبادات ، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذي يدعو به هؤلاء إليه ، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عباده : لا أمر إيجاب ، ولا أمر استحباب ، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محموداً ، ولا حسنة ، ولا طاعة ، ولا عبادة ، باتفاق المسلمين .

فمن فعل ما ليس بواجب ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع ، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب . لا سيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المحدث طريقاً يقدمونه على سماع القرآن وجداً وذوقاً . وربما قدموه عليه اعتقاداً ، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية ، وألسن لاغية ، وحركات مضطربة ، وأصوات لا تقبل عليه قلوبهم ، ولا ترتاح إليه نفوسهم ، فإذا سمعوا « المكاء » و « التصدية » أصغت القلوب ، وانصل المحبوب بالمحب ، وخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، فلا سعلة ، ولا عطاس ، ولا لفظ ، ولا صياح ، وإن قرأوا شيئاً من القرآن ، أو سمعوه كان على وجه التكلف والسخرة ، كما لا يسمع الإنسان ما لا حاجة له به ،

ولا فائدة له فيه ، حتى إذا ما سمعوا زممار الشيطان أحبوا ذلك ،
واقبلوا عليه ، وعكفت أرواحهم عليه .

فهؤلاء جند الشيطان ، وأعداء الرحمن ، وهم يظنون أنهم من
أولياء الله المتقين ، وحالهم أشبه بحال أعداء الله المنافقين ؛ فإن المؤمن
يحب ما أحبه الله تعالى ، ويبغض ما أبغض الله تعالى ، ويوالي أولياء
الله ، ويعادي أعداء الله ، وهؤلاء يحبون ما أبغض الله ، ويبغضون
ما أحب الله ، ويوالون أعداء الله ، ويعادون أولياءه ؛ ولهذا يحصل
لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من مزامير الشيطان ، وكلما بعدوا
عن الله ورسوله وطريق المؤمنين قربوا من أعداء الله ورسوله ، وجند الشيطان.

فيهم من يطير في الهواء والشيطان طائر به ، ومنهم من يصرع
الحاضرين وشياطينه تصرعهم ، وفيهم من يحضر طعاماً ، وإداماً . ويملاً
الإبريق من الهواء والشياطين فعلت ذلك . فيحسب الجاهلون أن هذه
من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هي من جنس أحوال الكهنة والسحرة
وأمثالهم من الشياطين ، ومن يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية
والشيطانية لا يشتبه عليه الحق بالباطل .

وقد بسطنا الكلام على « مسألة السماع » وذكرنا كلام المشايخ
فيه في غير هذا الموضع ، وبالله التوفيق ، والله أعلم . وصلى الله على
محمد وآله وصحبه وسلم .

قال شيخ الإسلام

رحمة الله

فصل

قد كتبت فيما تقدم : الكلام في « المكاشفات ، والمشاهدات » ،
وأنها على « ثلاثة أقسام » في الظاهر ، والباطن . وكذلك « السماع ،
والمخاطبات ، والمحادثات » ثلاثة أقسام : في الباطن والظاهر .

فإن « السامع » إما أن يسمع نفس الصوت الذي هو كلام المتكلم
الصوتي ، أو غير كلامه . كما ترى عينه ، وإما أن يسمع صدى الصوت
ورجعه كما يرى تمثاله في ماء ، أو مرآة . فهذه رؤية مقيدة ، وسماع
مقيد ، كما يقال : رأيت في المرآة ، لكن السمع يجمع بين الصورتين .

وإما أن يتمثل له : بغني كلامه في أصوات مسموعة ، كما يتمثل له
في صورة فیراها . مثل أن ينقر بيده نقرات ، أو يضرب بيده أوتاراً ،
أو يظهر أصواتاً منفصلة عنه ، يبين فيها مقصوده .

وكذلك في الباطن : إما أن يسمع في المنام ، أو في اليقظة نفس كلام المتكلم . مثل الملائكة مثلاً ، كما يرى بقلبه عين ما يكشف له في المنام ، واليقظة . وإما أن يسمع مثال كلامه في نفسه ، كما يرى مثاله في نفسه بمنزلة الرؤيا التي يكون تعبيرها عين مارؤي ، وإما أن تتمثل له المعاني في صورة كلام مسموع يحتاج إلى تعبير . كما تتمثل له الأعيان في صورة أشخاص مرئية تحتاج إلى تعبير . وهذا غالب ما يرى ، ويسمع في المنام . فإنه يحتاج إلى تأويل ، وهو بمنزلة الاستعارة ، والأمثال المضروبة . فهذا هذا . والله أعلم .

فصل

في الكون بقظة ومناماً : لما كانت الرؤية بالعين للأشياء على وجهين :

(أحدهما) رؤية العين الشيء بلا واسطة ، وهي الرؤية المطلقة . مثل رؤية الشمس ، والقمر ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنكم ترون ربكم كما ترون الشمس والقمر » وقد تنازع الناس هل الرؤية انطباع المرئي في العين ، أو لانعكاس شعاع البصر ، أو لواحده منها . على أقوال معروفة .

و (الثاني) رؤية المثال ؛ وهي الرؤية في ماء ، و مرآة ، ونحوها .
وهي رؤية مقيدة ، ولهذا قال الفقهاء لو حلف لا رأيت زيداً ؛ فرأى
صورته في ماء ، أو مرآة ، لم يحنث ؛ لأن ذلك ليس هو المفهوم
من مطلق الرؤية ، وهذا في الرؤية . كسماع الصدى في السمع ، فإذا
أراد الإنسان أن يرى ما يمر وراه من الناس والدواب نظر في المرآة
التي تواجهه ، فتجلى له فيها حقائق ما وراه ، فمن هذه الرؤيا قد
يرى بيان الحقيقة ، وقد تتمثل له الحقيقة بمثال يحتاج إلى تحقيق . كما
تمثل جبريل في صورة البشر ، وهكذا القلب من شأنه أن يبصر ،
فإن بصره هو البصر ، وعماء هو العمى . كما قال تعالى : (فَإِنَّهَا
لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

فتارة يرى الشيء نفسه إذا كشف له عنه ، وتارة يراه متمثلاً في
قلبه الذي هو مرآته ، والقلب هو الرائي أيضاً . وهذا يكون يقظة ،
ويكون مناماً ، كالرجل يرى الشيء في المنام ، ثم يكون إياه في اليقظة
من غير تغير .

والقلب « حال ثالثة » كما للعين نظر في المنام ؛ وهي التي تقع لغالب
الخلق . أن يرى الرؤيا مثلاً مضروباً للحقيقة ، لا يضبط رؤية الحقيقة
بنفسها ، ولا بواسطة مرآة قلبه . ولكن يرى ماله تعبير فيعتبر [به] ،
و « عبارة الرؤيا » هو العبور من الشيء إلى مثاله ، ونظيره ، وهو

حقيقة المقايسة والاعتبار : فإن إدراك الشيء بالقياس والاعتبار الذي ألفه الإنسان واعتاده أيسر من إدراك شيء على البديهة من غير مثال معروف .

ثم المرئي في هذا الوجه : في هذه الحال ، وفي الحال التي قبلها هو موجود في قلب الإنسان ونفسه ، وإن كان مثلاً للحقيقة وواسطة لها .

والمرئي في الوجه الأول : هو عين الموجود في الخارج لا مرئي في القلب ، ومن العامة المتفلسفة من يزعم : أن ما يسمعه الأنبياء من الكلام ، ويرونه من الملائكة ، إنما وجوده في قلوبهم ، وذلك مبلغ هؤلاء من العلم : لأن ذلك هو غاية ما وجدوه ورأوه من أبناء جنسهم ، فظنوا أن ليس وراء ذلك غاية .

وقد يعارضهم من يتوهم أن ما يسمع ويرى لا يكون في نفس الإنسان ، بل جميعه من الخارج . وكلاهما خطأ : بل منه ما يكون في نفس الإنسان : مثل ما يراه ويسمعه في المنام ، إما مثلاً لا تعبير له ، أو له تعبير .

ومنه ما يكون في الخارج : مثل رؤية مريم للرسول ، إذ تمثل لها

بشراً سوياً ، ورؤية الصحابة لجبريل في صورة الأعرابي .

فقد ظهر أن رؤية الحقائق بالعين تطابق لرؤياها بالقلب ، كل منها « ثلاثة أقسام » إدراك الموجود في الخارج بعينه ، وإدراكه بواسطة تمثله في مرآة باطنة أو ظاهرة ، وإدراكه متمثلاً في غير صورته ، إما باطناً في القلب ، وإما ظاهراً في العين . والله سبحانه أعلم .

فالقياص في الحسيات ، كالقياص في العقليات ، وهذا الذي كتبه في المكاشفات يجيء مثله في المحاطبات ، فإن البصر والسمع يظهران ما يتلوه .

سئل شيخ الإسلام

عمن يقول : إن بعض المشايخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب ، وينشق السقف والحيطان ، وتنزل الملائكة ترقص معهم ، أو عليهم . وفيهم من يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر معهم . فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد ؟ وماهي صفة رجال الغيب ؟ وهل يكون للتار خفراء ولهم حال كحال خفراء أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أم لا ؟ .

فأجاب : وأما من زعم : أن الملائكة أو الأنبياء تحضر « سماع المكاء والتصدية » محبة ورغبة فيه فهو كاذب مفتر ؛ بل إنما تحضره الشياطين ، وهي التي تنزل عليهم ، وتتفخ فيهم . كما روى الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم : « أن الشيطان قال : يارب اجعل لي بيتاً . قال : بيتك الحمام . قال اجعل لي قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال : يارب اجعل لي مؤذناً . قال : مؤذذك الزمار » وقد قال الله تعالى في كتابه مخاطباً للشيطان : (وَأَسْتَفْزِزُ مَنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بَصَوْتِكَ) وقد فسر ذلك طائفة من

السلف بصوت الغناء ، وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما نهيت عن صوتين أحقن فاجرين : صوت لهو ، ولعب ، ومزامير الشيطان ، وصوت لطم خدود أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية » كقولهم : والههفاء ! واكبداه ! وانصيراه !

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماوات الجاهلية : ذات المكاء ، والتصدية . وكيف بكر الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني ، حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين ، ورأى بعض المشايخ المكاشفين أن شيطانه قد احتمله حتى رقص به ، فلما صرخ بشيطانه هرب ، وسقط ذلك الرجل .

وهذه الأمور لها أسرار ، وحقائق لا يشهدها ؛ إلا أهل البصائر الإيمانية ، والمشاهد الإيقانية ؛ ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة ، وأعرض عن سبيل المبتدعة ، فقد حصل له الهدى ، وخير الدنيا والآخرة . وإن لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادي ، فإنه يصل إلى مقصوده ، ويجد الزاد والماء في موطنه ، وإن لم يعرف كيف يحصل ذلك وسببه . ومن سلك خلف غير الدليل

الهادي : كان ضالاً عن الطريق . فيما أن يهلك ، وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق .

و « الدليل الهادي » هو الرسول الذي بعثه الله إلى الناس بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، وهادياً إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له مافى السموات ومافى الأرض .

وآثار الشيطان تظهر في أهل السماع الجاهلي : مثل الإزباد ، والإرغاء ، والصراخات المنكرة ، ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان ، ولذلك يجدون في نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت : إما وجد في الهوى المذموم ، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم ، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم ، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية ، التي تعترى أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها ؛ فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة ، فيصدم عن ذكر الله وعن الصلاة ، وينمغ قلوبهم حلاوة القرآن ، وفهم معانيه ، واتباعه فيصيرون مضارعين للذين يشتركون لهو الحديث ليزلوا عن سبيل الله . ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، حتى يقتل بعضهم بعضاً بأحواله الفاسدة الشيطانية . كما يقتل العائن من أصابه بعينه .

ولهذا قال من قال من العلماء : إن هؤلاء يجب عليهم القود والدية

والقصاص ، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة : لأنهم ظالمون ، وهم إنما يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة . كما يغتبط الظلمة المسلمون .

ومن هذا الجنس حال خفراء الكافرين ، والمبتدعين والظالمين ، فإنهم قد يكون لهم زهد وعبادة وهمة ، كما يكون للمشركين ، وأهل الكتاب ، وكما كان للخوارج المارقين الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما لقيتموهم فاقتلوهم ، فإن في قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » .

وقد يكون لهم مع ذلك أحوال باطنة ، كما يكون لهم ملكة ظاهرة ، فإن سلطان الباطن معناه السلطان الظاهر ، ولا يكون من أولياء الله إلا من كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون . وما فعلوه من الإعانة على الظلم فهم يستحقون العقاب عليه بقدر الذنب ، وباب القدرة ، والتمكن باطناً وظاهراً ليس مستلزماً لولاية الله تعالى ، بل قد يكون ولي الله متمكناً ذا سلطان ، وقد يكون مستضعفاً إلى أن ينصره الله ، وقد يكون مسلطاً إلى أن ينتقم الله منه ، فخفراء التتار في الباطن من جنس التتار في الظاهر . هؤلاء في العباد بمنزلة هؤلاء في الأجناد .

وأما الغلبة فإن الله تعالى قد يبدل الكافرين على المؤمنين تارة ، كما يبدل المؤمنين على الكافرين . كما كان يكون لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مع عدوم ، لكن العاقبة للمتقين ؛ فإن الله يقول : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

وإذا كان في المسلمين ضعف ، وكان عدوم مستظهِراً عليهم كان ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم ؛ إما لتفريطهم في أداء الواجبات باطناً وظاهراً ، وإما لعدوانهم بتعدي الحدود باطناً وظاهراً . قال الله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) وقال تعالى : (أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) وقال تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) .

وسئل

عن النساء اللاتي يتعممن بالعبائم الكبار ، لا يرين الجنة ، ولا يشمن رائحتها . وقد روى في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة » .

فأجاب : قد ثبت : في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما بعد : نساء كلسيات عاريات ، مائلات مميلات ، على رؤوسهن مثل أسنمة البخت ، لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها . ورجال معهم سياط مثل أذنان البقر ، يضربون بها عباد الله » ومن زعم أن هذا الحديث ليس بصحيح بما فيه من الوعيد الشديد ، فإنه جاهل ضال عن الشرع [يستحق العقوبة التي] تردعه ، وأمثاله من الجهال الذين يعترضون على الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأحاديث الصحيحة في « الوعيد » كثيرة مثل قوله : « من قتل

نفساً معاهدة بغير حقها لم يجد رائحة الجنة ، وريحها يوجد من مسيرة أربعين خريفاً » ومثل قوله الذي في الصحيح : « لا يدخل الجنة من في قلبه ذرة من كبر . قيل : يا رسول الله ! الرجل يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ، أفن الكبر ذاك ؟ فقال : لا ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس » . و « بطر الحق » جحده ، و « غمط الناس » احتقارهم ، وازدراؤهم . ومثل قوله في الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك كذاب ، وفقير مختال » .

وفي القرآن من آيات الوعيد ما شاء الله ، كقوله : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِهِمْ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) وكما في قوله : (لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) وقوله في الفرائض : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) .

وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين ، أن « الوعيد » في الكتاب والسنة لأهل الكبار موجود ، ولكن الوعيد الموجود في الكتاب والسنة قد بين الله في كتابه وسنة رسوله — صلى الله عليه وسلم — أنه لا يلحق التائب بقوله : (قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) أي لمن تاب . وقال في

الآية الأخرى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ) فهذا في حق من لم يتب ، فالشرك لا يغفر ، وما دون الشرك إن شاء الله غفره ، وإن شاء عاقب عليه .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا غم ، ولا حزن ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياها » ولهذا لما نزل قوله : (مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ) قال أبو بكر : يا رسول الله ! قد جاءت قاصمة الظهر ، وأبنا لم يعمل سوءاً ؟ فقال : « يا أبا بكر ! أأنت تنصب ؟ أأنت تحزن ؟ أأنت تصيبك اللأوى ؟ فذلك مما تجزون به » فالمصائب في الدنيا يكفر الله بها من خطايا المؤمن مابه يكفر ، وكذلك الحسنات التي يفعلها . قال الله تعالى : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، كفارات لما بينهن إذا اجتنبت الكبار » فالله تعالى لا يظلم

عبدہ شیئاً . كما قال : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

فالوعيد يلتقي عنه : إما بتوبة ، وإما بحسنات يفعلها تكافئ سيئاته ، وإما بمصائب يكفر الله بها خطاياها ، وإما بغير ذلك وكما أن أحاديث الوعيد تُقدّم وكذلك أحاديث الوعد . فقد يقول : لا إله إلا الله ، ويحمد وجوب الصلاة ، والزكاة ، فهذا كافر يجب قتله ، وقد يكون من أهل الكبار المستوجبين للنار .

وهذه « مسألة الوعد ، والوعيد » من أكبر مسائل العلم . وقد بسطناها في مواضع ؛ ولكن كتبنا هنا ما تسع الورقة .

وسئل

عن الذنوب الكبائر المذكورة في القرآن ، والحديث . هل لها حد تعرف به ؟ وهل قول من قال : إنها سبع ، أو سبعة عشر ، صحيح ؟ أو قول من قال : إنها ما انفقت فيها الشرائع — أغنى على تحريمها ؟ — أو إنها ما تسد باب المعرفة بالله ؟ أو إنها ما تذهب الأموال والأبدان ؟ أو إنها إنما سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلى مادونها ؟ أو إنها لا تعلم أصلاً ، وأبهمت كλίلة القدر ؟ أو ما يحكى بعضهم أنها إلى التسعين أقرب ، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ، أو أنها مارتب عليها حد . أو ما توعدها عليها بالنار ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس ، وذكره أبو عبيد ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهما وهو : أن الصغيرة مادون الحدين : حد الدنيا ، وحد الآخرة . وهو معنى قول من قال : ما ليس فيها حد في الدنيا . وهو معنى قول القائل : كل ذنب ختم بلغة ، أو غضب ، أو نار ، فهو من الكبائر .

ومعنى قول القائل : وليس فيها حد في الدنيا ، ولا وعيد في

الآخرة ، أي « وعيد خاص » كالوعيد بالنار ، والغضب ، واللغة .
 وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة . كالعقوبة الخاصة في الدنيا .
 فكما أنه يفرق في العقوبات المشروعة للناس بين العقوبات المقدرة بالقطع ،
 والقتل ، وجلد مائة ، أو ثمانين ، وبين العقوبات التي ليست بمقدرة :
 وهي « التهجير » فكذلك يفرق في العقوبات التي يعزر الله بها العباد
 — في غير أمر العباد بها — بين العقوبات المقدرة : كالغضب ،
 واللغة ، والنار . وبين العقوبات المطلقة .

وهذا « الضابط » يسلم من القوادح الواردة على غيره ؛ فإنه
 يدخل كل ما ثبت في النص أنه كبيرة : كالشرك ، والقتل ، والزنا ،
 والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وغير ذلك من الكبائر
 التي فيها عقوبات مقدرة مشروعة ، وكالفرار من الزحف ، وأكل مال
 اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمين الغموس ، وشهادة
 الزور ؛ فإن هذه الذنوب وأمثالها فيها وعيد خاص ، كما قال في الفرار
 من الزحف : (وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ
 فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

وقال : (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا
 وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) . وقال : (وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ

سُوِّ الدَّارِ) وقال : (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا

أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ) .

وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ

لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وكذلك كل ذنب توعده صاحبه بأنه لا يدخل الجنة ، ولا يشم رائحة الجنة ، وقيل فيه : من فعله فليس منا ، وأن صاحبه آثم . فهذه كلها من الكبائر . كقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة قاطع » وقوله : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » وقوله : « من غشنا فليس منا » . وقوله : « من حمل علينا السلاح فليس منا » . وقوله : « لا يزني الزاني حين يزني ، وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » .

وذلك لأن نفي الإيمان ، وكونه ليس من المؤمنين ، ليس المراد به ما يقوله المرجئة : إنه ليس من خيارنا ؛ فإنه لو ترك ذلك لم يلزم أن يكون من خيارم ، وليس المراد به ما يقوله الخوارج : إنه صار كافراً . ولا ما يقوله المعتزلة : من أنه لم يبق معه من الإيمان شيء ، بل هو

مستحق للخلود في النار لا يخرج منها . فهذه كلها أقوال باطلة ، قد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع .

ولكن المؤمن المطلق في باب الوعد والوعيد ، وهو المستحق لدخول الجنة بلا عقاب ، هو المؤدي للفرائض ، المجتنب المحارم ، وهؤلاء هم المؤمنون عند الإطلاق ، فمن فعل هذه الكبائر لم يكن من هؤلاء المؤمنين ، إذ هو متعرض للعقوبة على تلك الكبيرة ، وهذا معنى قول من قال : أراد به نفي حقيقة الإيمان ، أو نفي كمال الإيمان ، فإنهم لم يريدوا نفي الكمال المستحب ، فإن ترك الكمال المستحب لا يوجب الذم والوعيد ، والفقهاء يقولون : الغسل ينقسم إلى : كامل ، ومجزئ . ثم من عدل عن الغسل الكامل إلى المجزئ لم يكن مذموماً .

فمن أراد بقوله « نفي كمال الإيمان » أنه نفي الكمال المستحب ، فقد غلط . وهو يشبه قول المرجئة ، ولكن يقتضي نفي الكمال الواجب . وهذا مطرد في سائر ما نفاه الله ورسوله : مثل قوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا — إلى قوله — أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا

ومثل الحديث المأثور : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » ومثل قوله صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة إلا بأَمِّ

القرآن » وأمثال ذلك . فإنه لا ينفي مسمى الاسم إلا لاتقاء بعض ما يجب في ذلك ؛ لا لاتقاء بعض مستجاباته ، فيفيد هذا الكلام أن من فعل ذلك فقد ترك الواجب الذي لا يتم الإيمان الواجب إلا به ، وإن كان معه بعض الإيمان ، فإن الإيمان يتبعض ويتفاضل . كما قال صلى الله عليه وسلم : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان » .

و (المقصود هنا) أن نفي الإيمان والجنة ، أو كونه من المؤمنين ، لا يكون إلا عن كبيرة . أما الصغائر فلا تنفي هذا الاسم والحكم عن صاحبها بمجردا . فيعرف أن هذا النفي لا يكون لترك مستحب ، ولا لفعل صغيرة ، بل لفعل كبيرة .

وإنما قلنا : إن هذا الضابط أولى من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه :

(أحدها) : أنه المأثور عن السلف ، بخلاف تلك الضوابط ؛ فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والأئمة ، وإنما قالها بعض من تكلم في شيء من الكلام ، أو التصوف بغير دليل شرعي . وأما من قال من السلف : إنها إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ، فهذا لا يخالف ما ذكرناه . وستكلم عليها إن شاء الله واحداً واحداً .

(الثاني) أن الله قال : (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا) فقد وعد مجتنب الكبائر بتكفير السيئات ، واستحقاق الوعد الكريم . وكل من وعد بغضب الله أو لعنته ، أو نار أو حرمان جنة ، أو ما يقتضى ذلك : فإنه خارج عن هذا الوعد ، فلا يكون من مجتنب الكبائر . وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد ، لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتنب الكبائر ، إذ لو كان كذلك لم يكن له ذنب يستحق أن يعاقب عليه ، والمستحق أن يقام عليه الحد له ذنب يستحق العقوبة عليه .

(الثالث) أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله في الذنوب ؛ فهو حد يتلقى من خطاب الشارع ، وما سوى ذلك ليس متلقى من كلام الله ورسوله ؛ بل هو قول رأي القائل وذوقه من غير دليل شرعي ، والرأي والذوق بدون دليل شرعي لا يجوز .

(الرابع) أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر ، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر ؛ لأن تلك الصفات لا دليل عليها ، لأن الفرق بين ما انفقت فيه الشرائع واختلفت لا يعلم إن لم يمكن وجود عالم بتلك الشرائع على وجهها ، وهذا غير معلوم لنا .

وكذلك « ما يسد باب المعرفة » هو من الأمور النسبية والإضافية ،
فقد يسد باب المعرفة عن زيد مالا يسد عن عمرو ، وليس لذلك
حد محدود .

(الخامس) أن تلك الأقوال فاسدة . فقول من قال : إنها
ما اتفقت الشرائع على تحريمه ، دون ما اختلفت فيه . يوجب أن تكون
الحبة من مال اليتيم ، ومن السرقة ، والحيانة ، والكذبة الواحدة ،
وبعض الإساءات الخفية ، ونحو ذلك كبيرة . وأن يكون الفرار من
الزحف ليس من الكبائر ؛ إذ الجهاد لم يجب في كل شريعة ، وكذلك
يقتضي أن يكون الزوج بالمحرمات بالرضاعة والصهر وغيرها ليس من
الكبائر ؛ لأنه مما لم تتفق عليه الشرائع . وكذلك إمساك المرأة بعد
الطلاق الثلاث ، ووطؤها بعد ذلك . مع اعتقاد التحريم .

وكذلك من قال : إنها مانسة باب المعرفة ، أو ذهاب النفوس
والأموال ؛ يوجب أن يكون القليل من الغضب والحيانة كبيرة . وأن
يكون عقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم ، وشرب الخمر ، وأكل الميتة ،
ولحم الخنزير ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ليس
من الكبائر .

ومن قال : إنها سميت كبائر بالنسبة إلى مادونها ، وأن ما عصى الله

به فهو كبيرة ، فإنه يوجب أن لا تكون الذنوب في نفسها تنقسم إلى
كبائر وصغائر . وهذا خلاف القرآن ، فإن الله قال : (الَّذِينَ
يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ) وقال : (وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ
الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) وقال : (إِنْ تَحْتَنِبُوا كَبَائِرَ
مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) وقال : (مَا لِهَذَا لَكُمْ)
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) وقال : (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ)
والأحاديث كثيرة في الذنوب الكبائر .

ومن قال : هي سبعة عشر ، فهو قول بلا دليل .

ومن قال : إنها مبهمة ، أو غير معلومة . فإنما أخبر عن نفسه
أنه لا يعلمها .

ومن قال : إنه ما توعده عليه بالنار ، قد يقال : إن فيه تقصيراً
إذ الوعيد قد يكون بالنار ، وقد يكون غيرها ، وقد يقال : إن كل
وعيد فلا بد أن يستلزم الوعيد بالنار .

وأما من قال : إنها كل ذنب فيه وعيد ، فهذا يندرج فيما ذكره
السلف ؛ فإن كل ذنب فيه حد في الدنيا ففيه وعيد من غير عكس ،
فإن الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، وقذف المحصنات ، ونحو ذلك
فيها وعيد . كمن قال : إن الكبيرة ما فيها وعيد . والله أعلم .

سئل رضى الله عنه

عن شرب الخمر ، وفعل الفاحشة ، أيها أعظم إثماً عند الله ؟
أم هما مستويان ؟ وما هي الكبائر التى قال عز وجل فيها : (إِن
تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ
كَرِيمًا) ؟ فما هي هذه الكبائر ، وما هي السيئات ؟

فأجاب : رضى الله عنه ، الحمد لله .

«الكبائر» هي ما فيها حد في الدنيا ، أو في الآخرة : كالزنا ،
والسرقة ، والقذف التى فيها حدود في الدنيا . وكالذنوب التى فيها حدود
في الآخرة ، وهو الوعيد الخاص . مثل الذنب الذى فيه غضب الله ،
ولعنته ، أو جهنم ؛ ومنع الجنة ، كالسحر ، واليمين الغموس ، والفرار
من الزحف ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وشرب الخمر ، ونحو
ذلك . هكذا روي عن ابن عباس ، وسفيان بن عيينة ، وأحمد بن
حنبل ، وغيرهم من العلماء . قال تعالى : (إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ
عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا) وقال تعالى :

(الَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّغَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ) .

وقال تعالى : (وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ)

وقال تعالى (وَيَقُولُونَ بَلْ نَكْنَلْنَاهُ مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

أَحْصَاهَا) ، وقال تعالى : (وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ) .

و (أكبر الكبائر) الإشراف بالله ، ثم قتل النفس ، ثم الزنا .

كما قال تعالى : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) الآية . والزنا أعظم من

شرب الخمر ، إذا استويا في القدر . مثل من زنى مرة ، ويشرب الخمر

مرة ، فأما إذا قدر أن رجلاً زنا مرة ، وآخر مدمن على شرب

الخمر ، فهذا قد يكون أعظم من ذاك . كما أنه لو زنا مرة وتاب كان

خيراً من المصر على شرب الخمر . وكذلك شارب الخمر إذا دعا غيره

فيكون عليه إثم شربه وعليه قسط من إثم الذين دعاهم إلى الشرب .

وكذلك إذا اقترن بالشرب سماع المزامير ، والشرب على بعض الصور

الحرمة ، ونحو ذلك فهذا مما يتغلظ فيه الشرب .

والذنب يتغلظ بتكراره ، وبالإصرار عليه ، وبما يقترن به من سيئات

آخر . وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنى وهو خائف من الله ، وجل من

عذابه ، والشارب يشرب لاهياً غافلاً لا يراقب الله . كان ذنبه أعظم

من هذا الوجه . فقد يقترن بالذنوب ما يخففها ، وقد يقترن بها

ما يغلظها . كما أن الحسنات قد يقترن بها ما يعظمها ، وقد يقترن بها ما يصغرها . فكما أن الحسنات أجناس متفاضلة ، وقد يكون المفضل في كثير من المواضع أفضل مما جنسه فاضل . فكذلك السيئات .

فالصلاة أفضل من القراءة ، والقراءة أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ؛ مع أن القراءة والذكر والدعاء بعد الفجر وبعد العصر أفضل من تحري صلاة التطوع في ذلك ، وكذلك التسبيح في الركوع والسجود أفضل من قراءة القرآن فيه ، وقد يكون بعض الناس انتفاعه بالذكر والدعاء أعظم من انتفاعه بالقراءة ، فيكون أفضل في حقه . فهكذا السيئات . وإن كان القتل أعظم من الزنا ، والزنا أعظم من الشرب . فقد يقترن بالشرب من المغلظات ما يصير به أغلظ من بعض ضرر الزنا .

وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة ، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها : تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا ، وهذا أعظم من هذا . والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها . كما في حديث صاحب البطاقة الذي رجعت بطاقته التي فيها : « لا إله إلا الله » بالسجلات التي فيها ذنوبه . وكما في حديث البغي التي سقت كلباً بموقها ، فغفر الله لها . وكذلك في السيئات . والله أعلم .

كتبه ابن تيمية

سئل الشيخ رحمه الله

عن رجل مدمن على المحرمات ، وهو مواظب على الصلوات الخمس ،
وبصلي على محمد مائة مرة كل يوم . ويقول : سبحان الله ، والحمد لله ،
ولا إله إلا الله كل يوم مائة مرة ، فهل يكفر ذلك بالصلاة
والاستغفار ؟

فأجاب : - قال الله تعالى : (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ *
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) فمن كان مؤمناً وعمل عملاً صالحاً لوجه
الله تعالى ، فإن الله لا يظلمه . بل يثيبه عليه .

وأما ما يفعله من المحرم اليسير فيستحق عليه العقوبة ، ويرجى له
من الله التوبة . كما قال الله تعالى : (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا
صَالِحًا وَآخَرًا سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) وإن مات ولم يتب فهذا
أمره إلى الله . هو أعلم بمقدار حسناته وسيئاته . لا يشهد له بجنة ولا نار
بخلاف الخوارج والمعتزلة فإنهم يقولون : إنه من فعل كبيرة أحبطت جميع
حسناته ، وأهل السنة والجماعة لا يقولون بهذا الإحباط . بل أهل الكبار
معه حسنات وسيئات ، وأمرهم إلى الله تعالى .

وقوله تعالى : (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) أي من اتقاه في ذلك العمل ؛ بأن يكون عملاً صالحاً خالصاً لوجه الله تعالى ، وأن يكون موافقاً للسنة . كما قال تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

وكان عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وأهل الوعيد [يقولون] لا يتقبل العمل إلا من اتقاه بترك جميع الكبائر . وهذا خلاف ما جاء به الكتاب والسنة في « قصة حمار » الذي كان يشرب الخمر . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه يحب الله ورسوله » وكما في أحاديث الشفاعة ، وإخراج أهل الكبائر من النار . حتى يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان . فقد قال الله تعالى : (فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ) الآية .

ومع هذا فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » . وقال : « من شرب الخمر في الدنيا ولم يتب منها حرمها في الآخرة » وقال : « لعن الله الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وبائعها ، ومشتريها ، وحاملها ، والحاملة إليه ، وشاربها ، وساقها وآكل ثمنها » .

وقال أيضا سبحانه الإسلام رحمه الله

فصل

وكل من تاب من أي ذنب كان فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى :

(قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) . فقد أخبر الله في هذه الآية أنه يغفر الذنوب : أي لمن تاب .

وقد قال في الأخرى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وهذا في حق من لم يتب ، فالشرك لا يغفره الله ، وما دون الشرك أمره إلى الله ، إن شاء عاقب عليه ، وإن شاء عفا عنه .

ومن الشرك أن يدعو العبد غير الله ، كمن يستغيث في المخاوف

والأمراض والفاقات بالأموات ، والغائبين . فيقول : ياسدي الشيخ فلان !
لشيخ ميت أو غائب ، فيستغيث به ، ويستوصيه ، ويطلب منه ما
يطلب من الله من النصر والعافية ؛ فإن هذا من الشرك الذي حرمه
الله ورسوله ، باتفاق المسلمين .

وهؤلاء المشركون قد يتمثل لأحدم صورة الشيخ الذي استغاث
به . فيظن أنه الشيخ ، أو ملك جاء على صورته ، وإنما هو شيطان
تمثل له ليضله ويغويه لما دعا غير الله ؛ كما كان نصيب المشركين
الذين يعبدون الأصنام تخاطبهم الشياطين ، وتترأى لهم ، وتخبرهم
بعض الأمور الغائبة ، وإن كان فيما يخبرون به من الكذب ما يبين
أنهم شياطين . قال تعالى : (هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ
كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)
وهؤلاء كثيرون في المشركين : من الهند ،
والترك ، والحبشة . وفي المتشبهين بهم من الضلال المنتسبين إلى الإسلام .
كأهل الإشارات الذين يظهرون إشارات الدم ، والزعفران ، واللاذن ،
ويدعون أنهم يغيرون التراب ، أو غيره . فيجعلونه كذلك ، ومنهم من
يدخل النار ، وبأكل الحيات ، ومنهم من بصرخ في بعض الناس
فيمرض ، أو يموت .

وهذه الأحوال تعرض لهم عند فعل ما يأمر به الشيطان . مثل
السماع البدعي . سماع المكاء ، والتصدية ، وغير ذلك ؛ فإن الذين

يتخذون ذلك قرينة ودينا تتحرك به قلوبهم ، ويحصل لهم عنده من الوجل والصياح ما تنزل معه الشياطين ، كما يدخل الشيطان في بدن المصروع ؛ ولهذا يزيد أحدهم كإزباد المصروع ، ويصبح كصياحه . وذلك صياح الشياطين على ألسنتهم ؛ ولهذا لا يدري أحد ماجرى منه ، حتى يفيق ، ويتكلم الشيطان على لسان أحدهم بكلام لا يعرفه الإنسان ، ويدخل أحدهم النار ، وقد لبسه الشيطان ويحصل ذلك لقوم من النصارى بالمغرب ، وغيرهم . تلبسهم الشياطين ، فيحصل لهم مثل ذلك .

فهؤلاء المبتدعون المخالفون للكتاب والسنة أحوالهم ليست من كرامات الصالحين ؛ فإن كرامات الصالحين إنما تكون لأولياء الله المتقين ؛ الذين قال الله فيهم : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وهم الذين يتقربون إلى الله بالفرائض التي فرضها عليهم ، ثم بالنوافل التي ندهم إليها . كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ، وما تقرب إلى عبدي بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ؛ فبى يسمع ، وبى يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشي ، ولئن سألتني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن

يكره الموت وأكره مساوته ولا بد له منه .

ولهذا قال أهل العلم والدين — كأبي يزيد البسطامي وغيره — :
لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ، أو يمشي على الماء فلا تغفروا به حتى
تنظروا وقوفه عند الأمر والهي . وقال الشافعي : لو رأيتم صاحب
بدعة يطير في الهواء ، فلا تغفروا به .

فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله ، وسنة رسوله ، كما قال
تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)
وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين ، وأولياء الله المتقين ،
وحزب الله المفلحين .

وأما أهل الشرك والبدع والفجور فأحوالهم من جنس أحوال
« مسيلمة الكذاب » و « الأسود العنسي » الذين ادعيا النبوة في
آخر أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان لكل منها شياطين
تخبره وتعينه .

وكان « العنسي » قد استولى على أرض اليمن في حياة النبي صلى
الله عليه وسلم ، ثم قتله الله على أيدي عباده المؤمنين ، وكان قد
طلب من أبي مسلم الخولاني أن يتابعه فامتنع ، فألقاه في النار فجعلها الله

عليه برداً وسلاماً ، كما جرى لإبراهيم الخليل صلوات الله عليه ، وذلك مع صلاته وذكره ودعائه لله مع سكينته ووقار . وهؤلاء أصحاب الأحوال الشيطانية ، لا تصير النار عليهم برداً وسلاماً . بل قد يطفونها كما يطفئها الناس ، وذلك في حال اختلاط عقولهم ، وهيج شياطينهم ، وارتفاع أصواتهم ، هذا إن كان لأحدهم حال شيطاني .

وإلا فكثير منهم لا يحصل له ذلك ؛ بل يدخل في نوع من المكر والمحال فيتخذ حجر الطلق ، أو دهن الضفادع ، وأنواعاً من الأدوية . كما يصنعون من جنس ما تصنعه المشعبدون ، إخفاء اللادن ، والسكر في بد أحدهم ، فإنهم نوعان : خاصتهم أهل حال شيطاني ، وعامتهم أهل محال بهتاني .

وهؤلاء لا يعطى أحدهم من الزكاة حتى يتوب ، ويلتزم ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، ويكون مع ذلك من مستحقي الزكاة المذكورين في قوله تعالى : (إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهِمُ وَالْمَوْلَفَةَ فُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ) .

فأما من كان غنياً ليس من هذه الأصناف ، فلا يعطى من الزكاة لا سيما إذا كان مع غناه من شيوخ الضلال ، مثل شيوخ المضلين الأغنياء ،

الذين ليسوا من الأصناف الثمانية ؛ فإن هؤلاء لا يجوز أن يعطوا من الزكاة بإجماع المسلمين . وهؤلاء إذا قالوا للإنسان : تعطينا وإلا فأني أنلك في نفسك ، فإنه قد تعينهم شياطين على إضرار بعض الناس بقضاء الله وقدره ، لكن هذا يكون لمن هو خارج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل أهل الفجور والبدع الذين لا يصلون الصلوات الخمس ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، فهؤلاء قد تسلط عليهم بعض هؤلاء بذنوبهم وخطاياهم .

وأما الذين يفعلون ما أمر الله به ورسوله من الصلوات الخمس ، وغيرها ، ويخلصون دينهم لله ، فلا يدعون إلا الله ، ولا يعبدون غيره ولا يندرون إلا الله ، ويحرمون ما حرم الله ورسوله ؛ فهؤلاء جند الله الغالبون ، وحزب الله المفلحون ، فإنه يؤيدهم وينصرهم . وهؤلاء يهزمون شياطين أولئك الضالين ، فلا يستطيعون مع شهود هؤلاء ، واستغاثتهم بالله ، أن يفعلوا شيئاً من تلك الأحوال الشيطانية ، بل تهرب منهم تلك الشياطين . وهؤلاء معترفون بذلك . يقولون : أحوالنا ما تنفذ قدام أهل الكتاب والسنة ، وإنما تنفذ قدام من لا يكون كذلك من الأعراب والترك والعامة وغيرهم .

فهؤلاء من أهل الضلال والغي الذين يجب نهيمهم ، واستأبنتهم ، ومنعهم من طاعة الشيطان والشرك ، والبدع ، والفجور ، وأمرهم بما

أمر الله به ورسوله ، واتباع الكتاب والسنة .

ولا يجوز للمؤمن أن يخافهم فإن الله تعالى يقول في كتابه :
(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا
اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِثْيَاءَهُمْ نَبَأٌ مِنْ آلِ عِيسَىٰ
الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ بِهِ الرُّوحَ الْقُدُسَ عَلَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ سُوَّىٰ فَكَفَرُوا بِهِ فَتَقَدَّرَ أَنْ يُقْرَبَ لَهُمْ
عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ كَذَّابًا فَاصْبِرْ لَهُمْ صَبْرًا شَدِيدًا إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
غَدِيرٌ) وقال تعالى : (إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَآتِيَنَّكُمْ نِعْمَتِي وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَأَذْكُرُوا لِي آيَاتِي الَّتِي لَا تَنْكُرُونِ) .

وقال أيضا تسبح الإسلام رحمه الله

رب يسر وأعن يا كريم .

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

فصل

في أن التوبة والاستغفار يكون من ترك الواجبات وفعل المحرمات .

و «الأول» يخفى على كثير من الناس . قال تعالى : (فَاصْبِرْ) وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَاسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ) وقال تعالى : (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) . وقال تعالى : (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

وقال : (أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُرْمَنُهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِيعْكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) .
ومثل هذا في القرآن كثير .

فنقول : التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ، ومن فعل محذور ؛ فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب . وترك « الإيمان » و « التوحيد » و « الفرائض » التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب ، عند كل أحد . بل هي أعظم الصنفين . كما قد بسطناه فيما كتبناه من « القواعد » قبل ذهابي إلى مصر .

فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات ، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد ، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ، ولو فعل ما فعل . ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلداً ، ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة : كالزهاد والعباد من المشركين ، وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند ، وعباد النصارى ؛ وغيرهم ؛ فإنهم لا يقتلون ، ولا يزنون ، ولا يظلمون الناس ؛ لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه .

ولكن يقال : ترك الإيمان والتوحيد الواجب ، إنما يكون مع الاشتغال بضده ، وضده إذا كان كفراً فهم يعاقبون على الكفر ، وهو

من باب المنهى عنه ، وإن كان ضده من جنس للبسات كالاغتغال
بأهواء النفس ولذاتها ، من الأكل والشرب ، والرئاسة وغير ذلك
عن الإيمان الواجب . فالعقوبة هنا لأجل ترك الإيمان ؛ لا لأجل ترك
هذا الجنس .

وقد يقال : كل من ترك الإيمان والتوحيد فلا يتركه إلا إلى كفر
وشرك ؛ فإن النفس لا بد لها من إله تعبد ، فمن لم يعبد الرحمن عبد
الشیطان . فيقال : عبادة الشيطان جنس عام ، وهذا إذا أمره أن
يشغل بما هو مانع له من الإيمان والتوحيد ، يقال : عبده . كما أن من
أطاع الشيطان فقد عبده ، ولكن عبادة دون عبادة .

والناس « نوعان » طلاب دين ، وطلاب دنیا . فهو بأمر طلاب
الدين بالشرك والبدعة ، كعباد المشرکین ، وأهل الكتاب ، وبأمر
طلاب الدنيا بالشهوات البدنية . وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه
وسلم : « إن أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم
ومضلات الفتن »

ولهذا قال الحسن البصري لما ذكر الحديث « لكل عامل شرة ،
ولكل شرة فترة ، فإن صاحبها سد وقارب فارجوه ، وإن أشير إليه
بالأصابع فلا تعدوه . فقالوا : أنت إذا مررت في السوق أشار إليك

الناس . فقال : إنه لم يعن هذا ، وإنما أراد المبتدع في دينه ،
والفاجر في دنياه .

وقد بسطت الكلام على « النوعين » في مواضع . كما ذكرنا في
« اقتضاء الصراط المستقيم » الكلام على قوله تعالى : (فَأَسْمَتُوهَا
بِخَالِقِهَا فَأَسْمَتْنَاهُمْ بِخَالِقِكُمْ كَمَا أَسْمَتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَالِقِهَا وَخَضَمْتُ
كَالَّذِي خَاضُوا) وبسط هذا له موضع آخر .

فإن ترك الواجب وفعل المحرم متلازمان ؛ ولهذا كان من فعل
ما نهى عنه يقال : إنه عصى الأمر . ولو قال لها : إن عصيت أمري
فأنت طالق . فنهاها فعصته ، ففيه وجهان :

أصحهما أنها تطلق ، وبعض الفقهاء يعلل ذلك بأن هذا يعد في
العرف عاصيا ، ويجعلون هذا في الأصل نوعين .

والتحقيق أن كل نهى ففيه طلب واستدعاء لما يقصده الناهي .
فهو أمر ، فالأمر يتناول هذا وهذا . ومنه قول الخضر لموسى : (إِنَّكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا *) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ
صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) . وقال له :

(فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) .
فقوله :

(فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا) ؟ قد تناوله قوله :
 (وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا) . ومنه قول موسى لأخيه : (مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ
 ضَلُّوا * أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي) وموسى قال له : (أَخْلَفَنِي فِي
 قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ) نهى . وهو لومه على أنه لم
 يتبعه ، وقال : أف عصيت أمري ؟ وعباد العجل كانوا مفسدين . وقد
 جعل هذا كله أمراً .

وكذلك قوله : (مَلِكِكُمْ غِلَاطُ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
 يُؤْمَرُونَ) فهم لا يعصونه إذا نهام ، وقوله عن الرسول :
 (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
 فمن ركب ما نهى عنه فقد خالف أمره ، وقال تعالى : (وَعَصَى
 آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) وإنما كان فعلاً منبهاً عنه . وقوله : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ
 وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)
 هو يتناول ما نهى عنه ، أقوى مما يتناول ما أمر به ، فإنه قال في
 الحديث الصحيح : « إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه . وإذا أمرتكم بأمر
 فأتوا منه ما استطعتم » .

وقوله : (يَوْمَ يَذُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْآرْضُ)
 فالمعصية مخالفة الأمر ومخالف الهي عاص ؛ فإنه مخالف الأمر ،
 وفاعل المحذور قد يكون أظهر معصية من تارك المأمور .

و « بالجملة » فيها متلازمان . كل من أمر بشيء فقد نهى عن فعل ضده ، ومن نهى عن فعل فقد أمر بفعل ضده ، كما بسط في موضعه ؛ ولكن لفظ « الأمر » بعم النوعين ، واللفظ العام قد يخص أحد نوعيه باسم ، ويبقى الاسم العام للنوع الآخر ، فلفظ الأمر عام لكن خصوا أحد النوعين بلفظ النهي ، فإذا قرن النهي بالأمر كان المراد به أحد النوعين ، لا العموم .

فصل

و « المقصود » أن الاستغفار والتوبة يكونان من كلا النوعين ، و « أيضا » فالاستغفار والتوبة مما فعله وتركه في حال الجهل قبل أن يعلم أن هذا قبيح من السيئات ، وقبل أن يرسل إليه رسول ، وقبل أن تقوم عليه الحجة ، فإنه سبحانه قال : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

وقد قال طائفة من أهل الكلام والرأي : إن هذا في الواجبات الشرعية غير العقلية . كما يقوله من يقوله من المعتزلة وغيرهم : من أصحاب أبي حنيفة ، وغيرهم : مثل أبي الخطاب وغيره على أن الآية عامة : لا يعذب الله أحداً إلا بعد رسول .

وفيها دليل على أنه لا يعذب إلا بذنب ، خلافاً لما يقوله « المجبرة »
أتباع جهم : أنه تعالى يعذب بلا ذنب ، وقد تبعه طائفة تنسب إلى
السنة : كالأشعري وغيره ، وهو قول القاضي أبي يعلى وغيره ، وقالوا :
إن الله يجوز أن يعذب الأطفال في الآخرة عذاباً لا نهاية له من غير ذنب
فعلوه ، وهؤلاء يحتجون بالآية على إبطال قول من يقول : إن العقل
يوجب عذاب من لم يفعل ، والآية حجة عليهم أيضاً حيث يجوزون
العذاب بلا ذنب ، فهي حجة على الطائفتين .

ولها نظائر في القرآن كقوله : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي
أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) . وقوله تعالى : (لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ
عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) . وقوله : (كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلْغَيَاتِكُمُ النَّذِيرُ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
كَبِيرٍ) . وما فعلوه
قبل مجيء الرسل كان سيئاً وقيحاً وشرّاً ؛ لكن لا تقوم عليهم الحجة
إلا بالرسول . هذا قول الجمهور .

وقيل : إنه لا يكون قبيحاً إلا بالنهي ، وهو قول من لا يثبت حسناً ولا قبيحاً
إلا بالأمر والنهي . كقول جهم والأشعري ومن تابعه من المنتسبين إلى السنة .
وأصحاب مالك والشافعي وأحمد : كالقاضي أبي يعلى ، وأبي الوليد الباجي ، وأبي
المعالى الجويني وغيرهم ، والجمهور من السلف والخلف على أن ما كانوا فيه قبل

مجىء الرسول من الشرك والجاهلية شيئاً قبيحاً ، وكان شراً . لكن لا يستحقون العذاب إلا بعد مجىء الرسول ؛ ولهذا كان للناس فى الشرك والظلم والكذب والفواحش ونحو ذلك « ثلاثة أقوال » :

قيل : إن قبحها معلوم بالعقل ، وأنهم يستحقون العذاب على ذلك فى الآخرة ، وإن لم يأتهم الرسول ، كما يقوله المعتزلة ، وكثير من أصحاب أبي حنيفة ، وحكوه عن أبي حنيفة نفسه ، وهو قول أبي الخطاب ، وغيره .

و « قيل » : لا قبح ، ولا حسن ، ولا شر فيها قبل الخطاب ، وإنما القبيح ما قيل فيه لا تفعل ؛ والحسن ما قيل فيه افعل ، أو ما أذن فى فعله . كما تقوله الأشعرية ، ومن وافقهم ، من الطوائف الثلاثة .

وقيل إن ذلك سيئ ، وشر ، وقبيح ، قبل مجىء الرسول ؛ لكن العقوبة إنما تستحق بمجىء الرسول . وعلى هذا عامة السلف ، وأكثر المسلمين ، وعليه يدل الكتاب والسنة . فإن فيها بيان أن ما عليه الكفار هو شر وقبيح ، وسيئ قبل الرسل ، وإن كانوا لا يستحقون العقوبة إلا بالرسول . وفى الصحيح أن حذيفة قال : « يا رسول الله ! إنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر . قال : نعم ، دعاة على أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها » .

فصل

وقد أخبر الله تعالى عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتيهم الرسول . كقوله لموسى : (اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ تَرَكَّىٰ * وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخَسَّىٰ) .
وقال : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدِيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ) .
فهذا خبر عن حاله قبل أن يولد موسى ، وحين كان صغيراً قبل أن يأتيه برسالة ، أنه كان طاغياً مفسداً .

وقال تعالى : (وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ * إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ) .
وهو فرعون ، فهو إذ ذاك عدو لله ، ولم يكن جاءته الرسالة بعد .

فصل

و « أيضاً » أمر الله الناس أن يتوبوا ويستغفروا مما فعلوه ، فلو كان كالمباح المستوى الطرفين والمغفور عنه وكفعل الصيان والمجانين ، ما أمر بالاستغفار والتوبة ، فلم أنه كان من السيئات القبيحة ، لكن الله لا يعاقب إلا بعد إقامة الحجة ، وهذا كقوله تعالى : (الرِّكَتَبُ أَهْكَمْتُ ءَايَنَّهُ ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ * أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ) .

وقوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدًا فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) وقال : (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ) .
فدل على أنها كانت ذنوباً قبل إنذاره بإيام .

وقال عن هود : (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ

مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَنْقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ
 أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَنْقُومُ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا
 إِلَيْهِ) فأخبر في أول خطابه أنهم مفترون . بأكثر
 الذي كانوا عليه ، كما قال لهم في الآية الأخرى : (أَتَجِدُونَنِي فِي
 أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطَانٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) .

وكذلك قال صالح : (يَنْقُومُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ
 الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) .

وكذلك قال لوط لقومه : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ
 الْعَالَمِينَ) . فدل على أنها كانت فاحشة عندكم قبل أن ينهام .
 بخلاف قول من يقول : ما كانت فاحشة ، ولا قبيحة ، ولا سيئة حتى
 ينهام عنها ؛ ولهذا قال لهم : (أَيَنْتَكُمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ
 وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ) . وهذا خطاب لمن يعرفون قبح ما
 يفعلون ، ولكن أنذرهم بالعذاب .

وكذلك قول شعيب : (أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ عَادُونَ) . بين أن ما فعلوه

كان بخسالمهم أشياءهم ، وأنهم كانوا عاين في الأرض مفسدين قبل أن ينهاتهم ؛ بخلاف قول « المجبرة » أن ظلمهم ما كان سيئة ، إلا لما نهام ، وأنه قبل النهي كان بمنزلة سائر الأفعال من الأكل والشرب ، وغير ذلك . كما يقولون في سائر ما نهت عنه الرسل من الشرك والظلم والفواحش .

وهكذا إبراهيم الخليل قال : (وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِ بِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا)
فهذا توبيخ على فعله قبل النهي ، وقال أيضاً :
(وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) . فأخبر أنهم يخلقون إفكاً قبل النهي .

وكذلك قول الخليل لقومه أيضاً : (مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَفِئْكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ — إلى قوله — أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) .
فهذا كله يبين قبح ما كانوا عليه قبل النهي ، وقبل إنكاره عليهم ، ولهذا استفهم استفهام منكر ، فقال :
(أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) أي وخلق ما تنحتون . فكيف يجوز أن تعبدوا ما تصنعونه بأيديكم ؟ وتدعون رب العالمين .

فلولا أن حسن التوحيد ، وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وقبح الشرك ثابت في نفس الأمر ، معلوم بالعقل ، لم يخاطبهم بهذا إذ كانوا لم يفعلوا شيئاً يذمون عليه ، بل كان فعلهم كأكلهم وشربهم ، وإنما كان قبيحاً بالنهي ، ومعنى قبحه كونه منهيّاً عنه ، لا لمعنى فيه ؛ كما تقوله المجبرة .

و « أيضاً » في القرآن في مواضع كثيرة يبين لهم قبح ما هم عليه من الشرك وغيره بالأدلة العقلية ، ويضرب لهم الأمثال ، كقوله تعالى :
 (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) .
 وقوله : (أَفَلَا نُنْقِطُ) وقوله : (فَأَنِّي تُسْحَرُونَ)
 فهذا يقتضي أن اعترافهم بأن الله هو الخالق يوجب انتهاءهم عن عبادتها ، وأن عبادتها من القبائح المذمومة ؛ ولكن هؤلاء يظنون أن الشرك هو اعتقاد أن ثم خالق آخر ، وهذا باطل ؛ بل الشرك عبادة غير الله ، وإن اعترف المشرك بأنه مخلوق .

وقوله : إنه كله لله ، كذب مفترى (١) وإن قال : إنه مخلوق . ومثل هذا كثير في القرآن . كقوله : (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا)

(١) كذا بالاصل .

أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلِّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ
لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ)

وهذا في جملة بعد جملة يقول : (أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ)

إنكاراً عليهم أن يعبدوا غير الله ، ويتخذوه إلهاً مع اعترافهم
بأن هذا لم يفعله إله غير الله ، وإنما فعله هو وحده .

وقوله (أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ) جواب الاستفهام ، أيُّ إله مع الله
[موجود ؟] وهذا غلط ، فإنهم يجعلون مع الله آلهة ويشهدون بذلك ؛
لكن ما كانوا يقولون : إنهم فعلوا ذلك . والتقرير إنما يكون لما يقرون
به ، وهم مقرون بأنهم لم يفعلوا . لا يقرون بأنه لم يكن معه إله . قال
تعالى : (أَيْنَكُم مَّنْ شَهِدُونَ أَن مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي
بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ) .

وقد قال سبحانه : (وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ
بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) . وقال : (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) .
وقال : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا
إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا غَفُورٌ رَّحِيمٌ) .

فهذا وإن كان قال الصحابة والتابعون إن كل عاص فهو جاهل .
كما قد بسط في موضع آخر ، فهو متناول لمن يكون علم التحريم أيضاً .

فدل على أنه يكون عاملاً سوءاً ، وإن كان لم يسمع الخطاب المين
المنهى عنه ، وأنه يتوب من ذلك فيغفر الله له ويرحمه ، وإن كان
لا يستحق العقاب إلا بعد بلوغ الخطاب ، وقيام الحجة .

وإذا كانت التوبة والاستغفار تكون من ترك الواجبات ، وتكون
مما لم يكن علم أنه ذنب ، تبين كثرة ما يدخل في التوبة والاستغفار ،
فإن كثيراً من الناس إذا ذكرت التوبة والاستغفار يستشعر قبائح قد فعلها
فعلم بالعلم العام أنها قبيحة : كالفاحشة ، والظلم الظاهر . فأما ما قد يتخذ
ديناً فلا يعلم أنه ذنب ، إلا من علم أنه باطل . كدين المشركين ، وأهل
الكتاب المبدل ، فإنه مما تجب التوبة والاستغفار منه ، وأهله يحسبون
أنهم على هدى . وكذلك البدع كلها .

ولهذا قال طائفة من السلف — منهم الثوري — : البدعة أحب
إلى إبليس من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها .
وهذا معنى ما روى عن طائفة أنهم قالوا : إن الله حجر التوبة على كل
صاحب بدعة ، بمعنى أنه لا يتوب منها ؛ لأنه يحسب أنه على هدى ،
ولو تاب لتاب عليه ، كما يتوب على الكافر . ومن قال : إنه لا يقبل

توبة مبتدع مطلقاً فقد غلط غلطاً منكراً . ومن قال : ما أذن الله لصاحب بدعة في توبة . فمعناه مادام مبتدعا يراها حسنة لا يتوب منها ، فأما إذا أراه الله أنها قبيحة فإنه يتوب منها . كما يرى الكافر أنه على ضلال ، والا فمعلوم أن كثيراً ممن كان على بدعة تبين له ضلالها ، وتاب الله عليه منها . وهؤلاء لا يحصيهم إلا الله .

و « الخوارج » لما أرسل إليهم ابن عباس فناظرهم ، رجع منهم نصفهم ، أو نحوه ، وتابوا ، وتاب منهم آخرون على يد عمر بن عبد العزيز وغيره ، منهم من سمع العلم فتاب ، وهذا كثير ، فهذا القسم الذي لا يعلم فاعلوه قبحه قسم كثير من أهل القبلة ، وهو في غيرم عام ، وكذلك ما يترك الإنسان من واجبات لا يعلم وجوبها كثيرة جداً ، ثم إذا علم ما كان قد تركه من الحسنات من التوحيد والإيمان ، وما كان مأموراً بالتوبة منه ، والاستغفار مما كان سيئة ، والتائب يتوب مما تركه ، وضيعه ، وفرط فيه ، من حقوق الله تعالى ، كما يتوب مما فعله من السيئات ، وإن كان قد فعل هذا وترك هذا قبل الرسالة ، فبالرسالة يستحق العقاب على ترك هذا وفعل هذا . والا فكونه كان فاعلاً للسيئات المذمومة ، وتاركاً للحسنات التي ينم تاركها كان تائباً قبل ذلك كما تقدم . وذكرنا « القولين » قول من نفى الذم والعقاب ، وقول من أثبت الذم والعقاب .

فإن قيل : إذا لم يكن معاقباً عليها ، فلا معنى لقبها . قيل بل فيه معنيان :

(أحدهما) أنه سبب للعقاب ، لكن هو متوقف على الشرط ، وهو الحجة ، قال تعالى : (وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) فلولاً إنقاذه لسقوطها ، ومن كان واقفاً على شفير فهلك ، فهلاكه موقوف على سقوطه ، بخلاف ما إذا بان وبعد عن ذلك ، فقد بعد عن الهلاك . فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب .

(الثاني) أنهم مذمومون ، منقوصون ، معيرون . فدرجتهم منخفضة بذلك ، ولا بد . ولو قدر أنهم لم يعذبوا لا يستحقون ما يستحقه السليم من ذلك من كرامته أيضاً ، وثوابه . فهذه عقوبة بحرمان خير ، وهي أحد نوعي العقوبة . وهذا وإن كان حاصلًا لكل من ترك مستحباً فإنه يفوته خيره ، ففرق بين ما يفوته ما لم يحصل له ، وبين ما ينقص ما عنده . وهذا كلام عام فيما لم يعاقب عليه من الذنوب .

وأما من لم يرسل إليه رسول في الدنيا : فقد رويت آثار أنهم يرسل إليهم رسول في عرصات القيامة ، كما قد بسط في مواضع .

وقد تنازع الناس في « الوجوب والتحريم » هل يتحقق بدون العقاب

على الترك ؟ على قولين . قيل : لا يتحقق ؛ فإنه إذا لم يعاقب كان كالمباح ، وقيل : يتحقق ؛ فإنه لا بد أن يذم وإن لم يعاقب .

وتحقيق الأمر أن العقاب « نوعان » نوع بالآلام . فهذا قد يسقط بكثرة الحسنات ، ونوع بنقص الدرجة ، وحرمان ما كان يستحقه . فهذا يحصل إذا لم يحصل الأول . والله تعالى يكفر سيئات المسيء ، كما قال تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا) فيكفرها تارة بالمصائب ، فتبقى درجة صاحبها كما كانت ، وقد تصير درجته أعلى ، ويكفرها بالطاعات ، ومن لم يأت بتلك السيئات أعلى درجة . فيحرم صاحب السيئات ما يسقط بازائها من طاعته ، وهذا مما يتوب منه من أراد ألا يخسر ومن فرط في مستحبات فإنه يتوب أيضاً ؛ ليحصل له موجبها . فالتوبة تتناول هؤلاء كلهم . وتوبة الإنسان من حسناته على أوجه :

(أحدها) أن يتوب ويستغفر من تقصيره فيها .

و (الثاني) أن يتوب مما كان يظنه حسنات ، ولم يكن كحال أهل البدع .

و (الثالث) يتوب من إعجابه ورؤيته أنه فعلها ، وأنها حصلت

بقوته ، وينسى فضل الله وإحسانه ، وأنه هو المنعم بها ، وهذه توبة من فعل مذموم ، وترك مأمور .

ولهذا قيل : تخلص الأعمال مما يفسدها أشد على العاملين من طول الاجتهاد . وهذا مما يبين احتياج الناس إلى التوبة دائماً . ولهذا قيل : هي مقام يستصعبه العبد من أول ما يدخل فيه إلى آخر عمره ، ولا بد منه لجميع الخلق ؛ فجميع الخلق عليهم أن يتوبوا وأن يستدعوا التوبة . قال تعالى : (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) . فغاية كل مؤمن التوبة . وقد

قال الله لأفضل الأنبياء ، وأفضل الخلق بعد الأنبياء ، وهم السابقون الأولون : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) . ومن أواخر ما أنزل الله قوله : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

وقد ثبت في الصحيحين أنه كان يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك . اللهم اغفر لي بتأول القرآن » . وفي لفظ لمسلم عن عائشة قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثّر

أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَسْتَغْفِرُكَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ . قَالَتْ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَرَأَيْكَ تَكَثَّرَ مِنْ قَوْلِكَ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ ، وَبِحَمْدِكَ ، أَسْتَغْفِرُكَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ . فَقَالَ : أَخْبِرْنِي رَبِّي أَنَّى سَأَرَى عِلَامَةً فِي أُمِّي . فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرَتْ مِنْ قَوْلٍ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ، أَسْتَغْفِرُكَ ، وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ، فَقَدْ رَأَيْتَهَا : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ) وَالْفَتْحُ (فَتَحَ مَكَّةَ) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) .

وأمره سبحانه له بالتسبيح بحمده والاستغفار في هذه الحال لا يقتضي أنه لا يشرع في غيرها ، أو لا يؤمر به غيره . بل يقتضي أن هذا سبب لما أمر به ، وإن كان مأموراً به في مواضع آخر . كما يؤمر الإنسان بالحمد والشكر على نعمه ، وإن كان مأموراً بالشكر عليها ، وكما يؤمر بالتوبة من ذنب وإن كان مأموراً بالتوبة من غيره ؛ لكن هو أمر أن يختم عمله بهذا فغيره أحوج إلى هذا منه ، وقد يحتاج العبد إلى هذا في غير هذه الحال ، كما يحتاج إلى التوبة ، فهو محتاج إلى التوبة والاستغفار مطلقاً ، كما ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستغفر عقب الصلاة ثلاثاً . قال تعالى : (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) . قاموا الليل ثم جلسوا وقت السحر يستغفرون .

وقد ختم الله « سورة المزمل » وفيها قيام الليل بقوله : (وَأَسْتَغْفِرُوا)

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ () كما ختم بذلك « سورة المدثر » بقوله : (هُوَ
 أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ) فهو سبحانه أهل التقوى ، ولم يقل سبحانه
 أهل للتقوى . بل قال : (أَهْلُ التَّقْوَى) فهو وحده أهل أن يتقى ،
 فيعبد دون ما سواه ، ولا يستحق غيره أن يتقى ، كما قال : (وَلَكُمَا فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَغْفِرَ اللَّهُ لَنَقُورَ) وقال :
 (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) وهو
 أهل المغفرة ، ولا يغفر الذنوب غيره ، كما قال تعالى : (وَمَنْ يَعْفُرْ
 الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ)

وفي غير حديث يقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يغفر
 الذنوب إلا أنت » فهو سبحانه أهل التقوى ، وأهل المغفرة ، وقد
 جمع الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضع ، كقوله سبحانه :
 (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لَدَيْكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ)
 فالمؤمنون يستغفرون مما كانوا تاركيه قبل الإسلام من توحيد الله ،
 وعبادته ، وإن كان ذلك لم يأتهم به رسول بعد ، كما تقدم ، والرسول
 يستغفر من ترك ما كان تاركه كما قال فيه : (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
 وَلَا الْإِيمَانُ) وإن كان ذلك لم يكن عليه عقاب ، والمؤمن إذا
 تبين له أنه ضيع حق قرابته أو غيره استغفر الله من ذلك ، وتاب .
 وكذلك إذا تبين له أن بعض ما يفعله هو مذموم .

فصل

و « أَيْضاً » ، فما يستغفر ويتاب منه ما في النفس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عذب . قال تعالى : (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْفُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ) فهو يغفر لمن يرجع عما في نفسه ، فلم يتكلم به ، ولم يعمل : كالذي هم بالسيئة ولم يعملها ، وإن تركها لله كتبت له حسنة . وهذا مما يستغفر منه ويتوب : فإن الاستغفار والتوبة من كل ما كان سبباً للذم والعقاب ، وإن كان لم يحصل العقاب ، ولا الذم . فإنه يفضي إليه ، فيتوب من ذلك : أي يرجع عنه ، حتى لا يفضي إلى شر ، فيستغفر الله منه . أي يطلب منه أن يغفر له ، فلا يشقيه به : فإنه وإن لم يعاقب عليه فقد ينقص به . فالذي يهم بالسيئات وإن كان لا يكتب عليه سيئة : لكنه اشتغل بها عما كان ينفعه ، فينقص بها عما لم يفعلها ، واشتغل بما ينفعه عنها .

وقد بسطنا في غير هذا الموضع : أن فعل الإنسان وقوله - إما له وإما عليه - لا يخلو من هذا أو هذا . فهو يستغفر الله ويتوب مما

عليه . وقد يظن ظنون سوء باطلة ، وإن لم يتكلم بها ، فإذا تبين له فيها استغفر الله وتاب .

وظلمه لنفسه يكون بترك واجب كما يكون بفعل محرم . فقوله تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ) من عطف العام على الخاص ، وكذلك قوله : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وقد قيل : في قوله تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) قيل : الفاحشة الزنا ، وقيل : كل كبيرة ، وظلم النفس المذكور معها . قيل : هو فاحشة أيضاً . وقيل : هي الصغار . وهذا بوافق قول من قال : الفاحشة هي الكبيرة ، فيكون الكلام قد تناول الكبيرة والصغيرة ، ومن قال : الفاحشة الزنا ، يقول : ظلم النفس يدخل فيه سائر المحرمات ، وقيل : الفاحشة الزنا ، وظلم النفس مادونه من اللمس والقبلة والمعانقة ، وقيل : هذا هو الفاحشة ، وظلم النفس المعاصي ، وقيل الفاحشة فعل وظلم النفس قول .

والتحقيق أن « ظلم النفس » جنس عام يتناول كل ذنب ، وفي الصحيحين أن أبا بكر قال : يارسول الله ! علمني دعاءً أدعوه به في صلاتي فقال : « قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم »

وفي صحيح مسلم وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في استفتاحه : « اللهم أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي : فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت . »

وقد قال أبو البشر وزوجته : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) . وقال موسى : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي) وقال ذوالنون « يونس » : (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) . وقالت بلقيس : (رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم " وقد قال عن أهل القرى المعذيين : (وَمَا ظَلَمْتُهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) . وأما قوله : (أَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) فقد قيل : إن الذنوب هي الصغائر ، والإسراف هو الكبائر .

و « التحقيق » أن « الذنوب » اسم جنس ، و « الإسراف » تعدى الحد ، ومجازة القصد ، كما في لفظ الإثم والعدوان فالذنوب كالإثم ،

والإسراف كالعدوان ، كما في قوله : (عَزَبَاغٌ وَلَا عَاكِ) ومجاوزة قدر الحاجة ، فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله . فهذا كله ذنب ، كالذي يرضى لنفسه ، ويغضب لنفسه ، فهو متبع لهواه ، و « الإسراف » كالذي يغضب لله ، فيعاقب بأكثر مما أمر الله . والآية في سياق قتال المشركين ، وما أصابهم يوم أحد .

وقد أخبر عن قبلهم بقوله : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) (وقد قيل على الصحيح ، المراد به النبي صلى الله عليه وسلم وان لم يقتل في معركة فقد قتل أنبياء كثيرون ، (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا) الآية . فجمعوا بين الصبر والاستغفار ، وهذا هو المأمور به في المصائب ، الصبر عليها ، والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها .

والقتال كثيراً ما يقاتل الإنسان فيه لغير الله ، كالذي يقاتل شجاعة و يقاتل حمية ، و يقاتل رياء . فهذا كله ذنوب ، والذي يقاتل لله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل ، ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به ، قال الله تعالى : (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّهُ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي

الْقَتْلُ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) وقال : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) . وقال : (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)
فالإسراف مجاوزة الحد .

هذا آخر ما كتبه هنا . والله سبحانه وتعالى أعلم . والحمد لله
رب العالمين .

وقال شيخ الإسلام

أحمد بن تيمية - رحمه الله

الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه . إلى الفعل المحبوب ، من العمل الناقص إلى العمل التام ، ويرفع العبد من المقام الأدنى إلى الأعلى منه ، والأكمل ؛ فإن العابد لله ، والعارف بالله ، في كل يوم ، بل في كل ساعة ، بل في كل لحظة ، يزداد علماً بالله . وبصيرة في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه ، وشرابه ، ونومه ، ويقظته ، وقوله ، وفعله ، ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية ، واعطائها حقها ، فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار ؛ بل هو مضطر إليه دائماً في الأقوال والأحوال ، في الغوائب والمشاهد ، لما فيه من المصالح ، وجلب الخيرات ، ودفع المضرات ، وطلب الزيادة في القوة في الأعمال القلبية والبدنية اليقينية الإيمانية .

وقد ثبتت : دائرة الاستغفار بين أهل التوحيد ، واقتربها بشهادة أن لا إله إلا الله ، من أولهم إلى آخرهم ، ومن آخرهم إلى

أولهم ، ومن الأعلى إلى الأدنى . وشمول دائرة التوحيد والاستغفار
للخلق كلهم ، وهم فيها درجات عند الله ، ولكل عامل مقام معلوم .
فشهادة أن لا إله إلا الله بصدق وبقين تذهب الشرك كله ، دقه وجله
خطأه وعمده ، أوله وآخره ؛ سره وعلايته ، وتأتى على جميع صفاته
وخصايه ودقائقه .

والاستغفار يمحو ما بقي من عثراته ، ويمحو الذنب الذي هو من
شعب الشرك ، فإن الذنوب كلها من شعب الشرك . فالتوحيد يذهب
أصل الشرك ، والاستغفار يمحو فروعه ، فأبلغ الثناء قول : لا إله إلا
الله ، وأبلغ الدعاء قول : أستغفر الله . فأمره بالتوحيد والاستغفار
لنفسه ، ولأخوانه ، من المؤمنين .

وقال : إياك والنظر في كتب أهل الفلسفة الذين يزعمون فيها أنه
كلما قوى نور الحق وبرهانه في القلوب خفي عن المعرفة ، كما يهر ضوء
الشمس [عيون] الخفافيش بالهار .

فاحذر مثل هؤلاء وعليك بصحبة أتباع الرسل المؤيدين بنور الهدى
وبراهين الإيمان ، أصحاب البصائر في الشهات والشهوات ، الفارقين بين
الواردات الرحمانية والشيطنانية ، العاملين العاملين (أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وقال : التوبة من أعظم الحسنات ، والحسنات كلها مشروط فيها الإخلاص لله ، وموافقة أمره باتباع رسوله ، والاستغفار من أكبر الحسنات ، وبابه واسع . فمن أحس بتقصير في قوله ، أو عمله ، أو حاله ، أو رزقه ، أو تقلب قلب : فعليه بالتوحيد ، والاستغفار ، ففيها الشفاء إذا كانا بصدق وإخلاص .

وكذلك إذا وجد العبد تقصيراً في حقوق القرابة ، والأهل والأولاد ، والجيران ، والإخوان . فعليه بالدعاء لهم ، والاستغفار . قال حذيفة بن اليمان للنبي صلى الله عليه وسلم : إن لي لساناً ذرباً على أهلي . فقال له : « أين أنت من الاستغفار ؟ إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وسئل رحمه الله

عن قوله : « ما أصر من استغفر ، وإن عاد في اليوم والليلة سبعين مرة » . هل المراد ذكر الاستغفار باللفظ ؟ أو أنه إذا استغفر بنوى بالقلب أن لا يعود إلى الذنب ؟ وهل إذا تاب من الذنب وعزم بالقلب أن لا يعود إليه ، وأقام مدة ثم وقع فيه أف يكون ذلك الذنب القديم يضاف إلى الثاني ؟ أو يكون مغفوراً بالتوبة المتقدمة ؟ وهل التائب من شرب الخمر ، ولبس الحرير يشربه في الآخرة ؟ ويلبس الحرير في الآخرة ؟ والتوبة النصوح ما شرطها ؟ .

فأجاب : الحمد لله .

بل المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان ، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، كما في الحديث الآخر : « لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » فإذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة ، وإذا تاب منها غفرت . قال تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ) الآية .

وإذا تاب توبة صحيحة غفرت ذنوبه ، فإن عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب أيضاً . وإذا تاب قبل الله توبته أيضاً .

وقد تنازع العلماء في التائب من الكفر . إذا ارتد بعد إسلامه ، ثم تاب بعد الردة وأسلم . هل يعود عمله الأول ؟ على « قولين » منهاها أن الردة هل تحبط العمل مطلقاً ، أو تحبطه بشرط الموت عليها .

فذهب أبي حنيفة ومالك أنها تحبطه مطلقاً . ومذهب الشافعي أنها تحبطه بشرط الموت عليها .

والردة ضد التوبة ، وليس من السيئات ما يمحو جميع الحسنات إلا الردة ، وقد قال تعالى : (تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا) قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (تَوْبَةً نَّصُوحًا) ، أن يتوب ثم لا يعود ، فهذه التوبة الواجبة التامة .

ومن تاب من شرب الخمر ، ولبس الحرير ، فإنه يلبس ذلك في الآخرة ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من شرب الخمر ثم لم يتب منها حرمها » وقد ذهب بعض الناس كبعض أصحاب أحمد : إلى أنه لا يشربها مطلقاً ، وقد أخطئوا الصواب . الذي عليه جمهور المسلمين .

وسئل

عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم . هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام ؟

فأجاب : — إذا أسلم باطناً وظاهراً غفر له الكفر الذي تاب منه بالإسلام بلا نزاع ، وأما الذنوب التي لم يتب منها مثل : أن يكون مصرأً على ذنب ، أو ظلم ، أو فاحشة ، ولم يتب منها بالإسلام . فقد قال بعض الناس : إنه يغفر له بالإسلام . والصحيح : أنه إنما يغفر له ما تاب منه . كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قيل : « أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ فقال : من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية . ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » .

و « حسن الإسلام » أن يلتزم فعل ما أمر الله به ، وترك ما نهى عنه . وهذا معنى التوبة العامة ، فمن أسلم هذا الإسلام غفرت ذنوبه كلها .

وهكذا كان إسلام السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث

الصحيح لعمر بن العاص : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله » فإن اللام لتعريف العهد ، والإسلام المعهود بينهم كان الإسلام الحسن .

وقوله : « ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » أي : إذا أصر على ما كان يعمل به من الذنوب فإنه يؤخذ بالأول والآخر . وهذا موجب النصوص والعدل ، فإن من تاب من ذنب غفر له ذلك الذنب ، ولم يجب أن يغفر له غيره .

والمسلم تائب من الكفر ، كما قال تعالى : (فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) وقوله : (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ) أي إذا انتهوا عما نهوا عنه غفر لهم ما قد سلف .

فالانتهاء عن الذنب هو التوبة منه . من انتهى عن ذنب غفر له ما سلف منه . وأما من لم ينته عن ذنب فلا يجب أن يغفر له ما سلف لانتهائه عن ذنب آخر . والله أعلم .

آخر المجلد الحادي عشر

فهرس المجلد الحادي عشر

صفحة	الموضوع
• ٢٤ -	« الصوفية والفقراء »
٥	سئل عن الصوفية وأنهم أقسام والفقراء أقسام فما صفة كل قسم وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه
٥ - ٧	١٦ متى اشتهر لفظ الصوفية ، النزاع فى المعنى الذى أضيف إليه الصوفى
٦ - ١٠	١٦ أول من بنى دويرة الصوفية ، وجد من بعض الصوفية الزيادة فى العبادة عند سماع القرآن ، مأخذ المنكرين عليهم ، أحوال الصحابة عند سماع القرآن أكمل
٩ - ١٦	مراتب الناس عند السماع ، متى يكون السكران بالسماع أو غيره معذورا ؟ حال محمد أكمل من حال موسى عند سماع كلام الله
١٦ ، ١٧	التصوف وسيرة الصوفى وأخلاقه ، ليس بعد الأنبياء أفضل ممن الصوفى عندهم ، التحقيق فى ذلك
١٧ ، ١٩	نزاع الناس فيهم وفى طريقتهم ، والصواب فى ذلك ، وحال من انتسب إليهم
١٨ - ٢٠	الصوفية - فيما بعد - ثلاثة أصناف
٢٠ - ٢٢	الفقر والفقير فى الكتاب والسنة وفى اصطلاح بعض الناس نزاع الناس فى الفقير الصابر والغنى الشاكر أيهما أفضل ؟
٢٢ ، ٢٣	أيما أفضل الفقير أو الصوفى ؟
٢٤	أولياء الله صنفان
٢٥ - ٣٧	« مسألة فى الفقر والتصوف »
٢٦ ، ٢٧	يجب أن يتبّع ما دلت عليه ألفاظ الكتاب والسنة ، الصراط المستقيم يشتمل على علم وعمل

الموضوع	صفحة
كثير من المنتسبين إلى فقه أو فقر أو تصوف أو زهد وعبادة يسلك أو يدعو إلى أحدهما دون الآخر	٢٧
ما يراد بلفظ الفقر والفقر في الكتاب والسنة وكلام السلف وعند كثير من المتأخرين ، الزهد المشروع	٢٨ ، ٢٩
سبب تسمية الزهاد صوفية وفقراء ، أقسام الناس في العبادة والاستعانة وفي التقوى والصبر ، ذكر الصبر والتقوى ، والصبر مقرونا بالأعمال الصالحة ، ومقرونا بالترجمة	٢٨ - ٣٦
« سئل عن أهل الصفة كم كانوا وهل كانوا بمكة أو بالمدينة »	٣٧ - ٧١
٥٤ ، ٤١ - ٣٨ الصفة التي ينسب إليها بعض أصحاب الرسول ، قصة الهجرة ، أصناف الناس قبل الهجرة وبعدها	
جملة من آوى إلى الصفة ، من ذكر تاريخ أهل الصفة وجمع أخبارهم	٤١
أبو عبد الرحمن السلمي وأمثاله وما يروى من الآثار وانتصاره للصوفية	٤٢ ، ٤٣
فصل أهل الصفة كانوا من مستحقي الصدقة والفاء ، اكتسابهم ، استعفافهم عن المسألة ، ما يجوز من المسألة	٤٤ - ٤٦
فصل وأما من قال إن أهل الصفة قاتلوا المؤمنين مع المشركين ، غزوات الرسول ،	٤٧ - ٥٦
أصل الإسلام الشهادتان ، توحيد الربوبية قد أقر به المشركون	٥٠ - ٥٥
حكم من يسوغ الخروج عن الشريعة المحمدية ويحتج ٠٠٠ كل مخالف للدين والشرع والسنة يموه باطله ويزخرفه	٥٢ - ٥٥
فصل تفضيل أهل الصفة على العشرة وغيرهم خطأ وضلال	٥٦ ، ٥٧
فصل الاحتجاج لسماع القصائد الربانية بكف أو دف أو قضيب أو كان معه شبابة ، إذا اجتمع الصحابة أمروا قارئاً يقرأ	٥٧ - ٥٩
فصل وأما قوله واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغفلة والعشى فهي عامة إلخ	٥٩ - ٦٠
فصل وأما الحديث المروى « ما من جماعة يجتمعون إلا وفيهم ولى لله	٦٠
٦٦ ، ٦٧ فصل وأولياء الله قسمان ، الولي ، وهل من شرطه أن يكون معصوما ، السور التي ذكر فيها أولياء الله	٦٢ ، ٦٦
هل من علم الله أنه يرتد بعد إيمانه يكون في حال إيمانه ولياً لله ؟ وهل الإيمان الذي يعقبه الكفر إيمان صحيح ثم يبطل ؟ قد	٦٢ - ٦٥

الموضوع	صفحة
يعلم خواص الناس بكشفه عاقبة أقوام كل محدث أو ملهم يحتاج إلى عرض ما يأتيه على الكتاب والسنة دليل ذلك آية (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا ...) هل في قراءة (ولا محدث) فصل الفقراء الذين ذكرهم الله في كتابه صنفان ، الأغنياء نوعان ، سبب سبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة الفقير في اصطلاح المتأخرين ، وهل هو أفضل من الصوفى « سئل عن قوم يقولون إن النبي جاء إلى باب أهل الصفة فاستأذن فقالوا من أنت قال أنا محمد قالوا ما له عندنا موضع . فرجع فاستأذن ثانية وقال أنا محمد مسكين فأذنوا له ... » « سئل عن قوم يروون أحاديث لا سند لها : منها « أنا من الله والمؤمنون منى يتسمون بالأهوية منه إلخ » المحفوظ قوله لعلى : « أنت منى وأنا منك » ولا يدل على الحلول والاتحاد ما يصح عن بعض الشيوخ فى ذلك له معان صحيحة أو صدر عنهم فى حال الإغماء الأحوال الصحيحة ما فى حديث « من عادى لى ولينا إلخ » « ومريض فلم تعدنى إلخ » حديث عمر أنه كان كالزنجى بين النبى وبين أبى بكر كذب ، ما اختص به أبو بكر من القرب إلى الرسول وفهمه لمقاصده قوله إن أهل الصفة كانوا قبل المبعث مهتدين وأنهم تخلفوا عنه فى الجهاد عدد أهل الصفة ، قوله إنهم عرفوا ما أوحاه الله إلى نبيه ليلة المعراج « سئل عن الفتوة المصطلح عليها »	٦٥ ، ٦٦ ٦٨ ٧٠ ٧١ ، ٧٢ ٧٢ — ٨٢ ٧٣ — ٧٧ ٧٤ ، ٧٥ ٧٥ — ٧٧ ٧٧ — ٧٩ ٧٩ ، ٨٠ ٨١ ٨٢ — ٨٥

الموضوع	صفحة
الفتوة ، إسنادها ، أصلها ، وشروطها	٨٢ - ٨٤
الفتى فى اللغة وفى كلام بعض المشايخ	٨٣ ، ٨٤
« سئل عن جماعة يجتمعون فى مجلس ويلبسون لشخص منهم لباس الفتوة إلخ »	٨٥ - ١٠٣
لباس الفتوة باطل ولا يصح عن الرسول ولا عن السلف ، وكذلك لباس الخرقه	٨٧ ، ٨٨
فصل فى حكم الشروط التى تشترطها شيوخ الفتوة	٨٩ ، ٩٠
لفظ الفتى فى اللغة ، تسمية مكارم الأخلاق فتوة	٩١
حكم تسمية بعضهم بعضا برؤوس الأحزاب والزعماء	٩٢ ، ٩٣
هل تسميتهم للمجلس الذى يجلسون فيه « دسكرة » محمود أم منموم ، وهل يجب على ولى الأمر الإنكار عليهم	٩٤
فصل الرسول خلق مما يخلق منه البشر لا من نور ، فضل صالح بنى آدم على الملائكة	٩٤ - ٩٦
الجواب عن حديث (لولاك ما خلق الله عرشا ولا كرسيًا إلخ) هل خلق الله المخلوقات من أجل بنى آدم أم له فيها حكم أخرى ؟ النهى عن الغلو والإشراك بالمخلوقات	٩٦ - ٩٩
النبى آخى بين المهاجرين والأنصار ، هل يتوارث بالمؤاخاة ؟	٩٩ ، ١٠٠
لم يؤاخ النبى بين مهاجرى ومهاجرى ولم يؤاخ عليا	١٠٠
عقد الأخوة فى زماننا ، الشروط التى يلتزمها كثير من الناس فى السماع وغيره	١٠٠ ، ١٠١
« وقال فصل والشيخ عدي بن مسافر »	١٠٣ - ١٠٦
ديانة الرجل وعقيدته ، ونسبه ، وحال أتباعه ، سند الخرقه وإضافة ذلك إلى الرسول أو عمر باطله	١٠٣
« سئل هل تخلل أبو بكر بالعبادة وتخللت الملائكة لأجله بالعبادة »	١٠٦
« سئل عمن يقول حب الدنيا رأس كل خطيئة »	١٠٧ ، ١٠٨

١٠٧ ، ١٠٨ لا يصح هذا عن النبي ، حرص الرجل على المال والشرف يوجب فساد الدين ، مجرد حب المال مع فعل المأمور وترك المحظور لا يوجب عقابا ، وكذلك جمعه إذا قام بالواجب فيه ، إخراج فضول المال والاقتصار على الكفاية أفضل

١٠٩ - ١١٦ « سئل عما يذكر من قولهم اتخذوا مع الفقراء أيادي ، وقول عمر وكنت كالزنجي بينها ، وقول بعض الناس لبعض نحن في بركة هذا الشيخ المدفون »

١٠٩ ، ١١٠ حديث عمر كذب ، بيان بطلانه واستغلال الملاحدة والزنادقة له ، ومثله ما روى عن عمر أنه تزوج امرأة أبي بكر ليعرف حاله في الباطن ١١١ ، ١١٢ « اتخذوا مع الفقراء أيادي فإنهم لهم في الآخرة دولة وأى دولة ؟ » كذب ، الفقراء الذين أمر الله بالإحسان إليهم ١١١ ، ١١٢ من طلب بصدقته الدعاء أو الثناء ضعف الثواب ١١٣ - ١١٥ فصل وأما قول القائل نحن في بركة فلان ، أو من وقت حلوله عندنا حلت البركة : فهو صحيح باعتبار باطل باعتبار

١١٦ - ١١٩ « سئل عن رجل متصوف قال لإنسان فقراء الأسواق إلخ »

١١٦ - ١١٨ حديث « من رآني آمن بي » و « الفقر فقرى وبه أفتخر » كذب ، معنى ذلك ١١٦ ، ١١٧ قوله آمنت بالفقر والفقر هو الله

١١٩ - ١٢٢ « سئل عن قال الفقير والغني لا يفضل أحدهما صاحبه إلا بالتقوى إلخ »

١١٩ - ١٢١ النزاع في الغني الشاكر والفقر الصابر أيهما أفضل ، التحقيق في ذلك ، دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء لا يقتضى أن يكونوا أرفع درجة

١٢٢ - ١٣٣ « وقال : فصل كثر تنازع الناس أيما أفضل : الفقير الصابر أو الغني الشاكر ؟ »

١٢٢ - ١٢٦ الأقوال في هذه المسألة ثلاثة ، هل الأفضل حالة الفقر أو الغنى ، الناس - حتى الأنبياء السابقون - ثلاثة أصناف غنى وفقير وواجد الكفاية

١٢٥ - ١٢٨ الرسول وخلفاؤه لا يفضلون الأغنياء على الفقراء ولا العكس ، من كان يميل إلى أحد الصنفين من العلماء

١٢٧ - ١٣٢ سبب دخول الفقراء الجنة قبل الأغنياء وورود فقراء المهاجرين على الحوض قبل غيرهم وكون أهل الرئاسة والشرف أبعد عن الانقياد إلى العبادة من الفقراء

١٢٨ - ١٣٠ ما روى « أن ابن عوف يدخل الجنة حبوا » لا أصل له ، يغلب الكبير على أهل الغنى وقد يستكبر الفقير
١٣١ اختيار النبي أن يكون عبدا رسولا

١٣٣ ، ١٣٤ « سئل عن الحمد والشكر هل معناها واحد ؟ وعلى أي شيء يكون الحمد والشكر ؟ »

١٣٥ - ١٥٦ « تلخيص مناظرة جرت بين المؤلف وبين ابن المرحل في الحمد والشكر هل الشكر يكون بالاعتقاد أو به بالقول والعمل »

١٣٧ قد يقول بعض المصنفين مذهب الشافعي أو غيره كذا ويكون منصوبه بخلافه ، عذرهم

١٣٧ - ١٤٥ هل يسمى الفاسق كافرا للنعمة ومنافقا ، النفاق قسمان

١٤١ - ١٤٥ بحث في الأسماء المتواطئة والمشاركة والمشككة وأمثلة لذلك

١٤٦ - ١٥٦ ما بين الحمد والشكر من العموم والخصوص ومتعلقهما

١٤٦ - ١٥٠ الصفات النسبية والإضافية والصفات الثبوتية

١٥٤ ، ١٥٥ هل أسماء العقود والعبادات منقولة أم باقية على مسمياتها ؟

١٥٦ - ٣١١ « الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان »

- ١٥٦ - ١٥٩ ، ١٦٣ - ١٦٥ أولياء الله وأولياء الشيطان ؟
- ١٥٩ - ١٦٧ فصل يجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء ، الولاية .
- ١٦١ - ١٦٣ أفضل أولياء الله أنبياءؤه ، أفضل الأنبياء والرسل ، من فضائل نبينا وأمته
- ١٦٣ - ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ادعى بعض المنافقين أنهم أولياء الله كما ادعى مشركو العرب أنهم أولياؤه لسكناهم مكة ، عموم رسالة نبينا ، من زعم أن أهل الصفة مستغنون عن رسالته أو أنه أوحى إليهم ما أوحى إليه ليلة الإسراء ؟ الصفة ، ومن نزلها
- ١٦٧ ، ١٦٨ لم يصح عن النبي شيء في عدد الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب ، ما روى في الأبدال وأنهم بالشام
- ١٦٨ ما روى أن النبي تواجد لما أنشد ، أو أنه مزق ثوبه إلخ وأن عمر كان كالزنجى إلخ كله من الأكاذيب
- ١٦٩ - ١٧١ لا بد في الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن الرسالة ختمت بمحمد وأنه رسول إلى الثقلين ، حكم من اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى الله من غير متابعة
- ١٧١ ، ١٧٢ حكماء اليونان مشركون ، أرسطو ليس وزيرا لدى القرنين
- ١٧٣ بعض المشركين لهم اجتهاد في العلم والزهد والعبادة من غير اتباع للرسل فلذلك تقترون بهم الشياطين ويخبرون الناس ببعض المغيبات
- ١٧٣ - ١٧٥ فصل ومن الناس من يكون فيه إيمان وشعبة من نفاق فيكون له من ولاية الله بحسب ذلك
- ١٧٦ ، ١٧٧ فصل أولياء الله على طبقتين سابقون مقربون وأصحاب يمين مقتصدون
- ١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٠ تفسير آيات من (الواقعة) و (الإنسان) و (المطففين)
- ١٧٩ ، ١٨٠ عمل المقرئين وعمل أصحاب اليمين
- ١٨٠ - ١٨٢ انقسم الأنبياء إلى عبد رسول ونبي ملك ، أفضل القسمين
- ١٨١ ، ١٨٢ الأموال الشرعية تضاف إلى الله والرسول ، مصرف هذه الأموال ، كيفية قسمة الخمس
- ١٨٢ فصل وقد ذكر الله أولياءه في سورة فاطر وقسمهم من هــ الأئمة إلى ثلاثة أقسام
- ١٨٢ - ١٨٤ تفسير آيات من سورة فاطر
- ١٨٤ ، ١٨٥ دخول كثير من أهل الكبائر النار وخروجهم منها بالشفاعة متواتر ، تأول المعتزلة والمرجئة للآية ، فساد قول الطائفتين

- ١٨٦ ، ١٨٧ فصل أولياء الله هم المتقون ، تفاضل الناس فى ولاية الله ، أصل الإيمان والتقوى هو الإيمان برسلى الله ، وأصل الكفر والنفاق هو الكفر بالرسلى وبما جاءوا به
- ١٨٧ - ١٨٩ فصل من الناس من يؤمن بالرسلى إيماناً مجملاً ولم يبلغه بعض ما جاءوا به فلا يعذب على تركه لكنه يفوته كمال ولاية الله
- ١٨٨ - ١٩٠ الجنة درجات ، والناس يتفاضلون فيها
- ١٩٠ - ١٩٢ فصل أولياء الله أهل الإيمان والتقوى ، لا يكون أحد من الكفار والمنافقين ولا من الصبيان والمجانين ولياً لله ، ولا يجوز أن تعتقد فيهم الولاية وإن كان لبعضهم مكاشفات وتصرفات شيطانية
- ١٩٣ من كان يغيب عقله ويفيق أثيب على عمله فى حال إفاقتة
- ١٩٤ ، ١٩٥ ليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من لباس أو حلق شعره أو تقصيره أو ظفره ، يوجد الأولياء فى جميع أصناف الأمة . . .
- ١٩٥ كان السلف يسمون أهل العلم والدين القراء ، ثم حلت اسم الصوفية والفقراء ، اسم الصوفية نسبة إلى لباس الصوف وقيل . . .
- ١٩٥ - ١٩٧ اسم الفقراء يراد به أهل السلوك فى العرف الحادث ، ويراد به فى الشرع الفقر من المال والفقر إلى الله
- ١٩٥ ، ١٩٦ أيما أفضل مسمى الفقير أو مسمى الصوفى ، وأيما أفضل الغنى الشاكر أو الفقير الصابر
- ١٩٧ - ٢٠٠ الجهاد أفضل ما تطوع به الإنسان
- ٢٠٠ الصمت الدائم والامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء بدعة
- ٢٠١ - ٢١٨ فصل يجب على أولياء الله الاعتصام بالكتاب والسنة وليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع فى قلبه
- ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ - ٢١٨ الناس فى اتباع الأولياء فيما يقولون ويفعلون ثلاثة أصناف
- ٢٠٥ ، ٢٠٦ أفضل المحدثين عمر وكان يوافق القرآن تارة ويخالفه أخرى ، لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات
- ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ الذى تجب طاعته وتصديقه مطلقاً هو الرسول ، قد يخطئ المجتهد فيغفر له ويؤجر
- ٢١٠ كلام المشايخ فى وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة فى العلم والعمل
- ٢١٣ - ٢١٨ عمدة هؤلاء فى كون الشخص ولياً لله ، الصفات التى بها يعرف الولى من غيره
- ٢١٨ ، ٢١٩ فصل الحقيقة حقيقة الدين وهى ما اتفق عليها الأنبياء ، التنوع فى الشرعة والمنهاج ، تفسير الشرعة والمنهاج

- ٢٢١ فصل أجمع السلف والأولياء على أن الأنبياء أفضل من الأولياء
- ٢٢١ - ٢٢٣ السعداء أربع مراتب ، أفضل الأمم ، وأفضل قرون هذه الأمة
- ٢٢٢ ، ٢٢٣ السابقون الأولون أفضل من سائر الأصحاب ، أفضل السابقين ، أفضل هذه الأمة
- ٢٢٣ أفضل أولياء الله ، زعم طائفة أن خاتم الأولياء أفضل الأولياء ، أول من تكلم بخاتم الأولياء الحكيم الترمذى
- ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ - ٢٥١ زعم ابن عربى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، تليسه على الناس ٠٠٠ وبيان حقيقة مذهبه ومذهب أتباعه ، خاتم الأنبياء أفضل الأنبياء والأولياء
- ٢٢٥ ، ٢٢٦ لا يكون أحد وليا إلا باتباع الرسل
- ٢٢٥ ، ٢٢٦ من قال أنا محتاج إلى محمد فى علم النباطن دون الظاهر فهو أكفر من اليهود والنصارى
- ٢٢٧ - ٢٢٨ مذهب المتفلسفة - أرسطو وأتباعه وابن سينا وأمثاله - فى الله وصفاته وفى الأفلاك والنبوت والملائكة والجن ، حكم هؤلاء ، علمهم الرد عليهم ، عباداتهم
- ٢٣٠ - ٢٣٢ حديث موضوع ذكروه فى انقل غلطهم فى لفظه ومعناه
- ٢٣٥ ، ٢٣٦ مذهب فرعون والفرق بينه وبين مذهب أهل الوحدة
- ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ خيار مشايخ الصوفية ٠٠٠ لا يقولون بالوحدة
- ٢٤٢ المطلق بشرط والمطلق لا بشرط
- ٢٤٨ - ٢٥٠ المعية ، انقسامها إلى عامة وخاصة ، تفسير آياتها ومذهب السلف فى ذلك
- ٢٥١ - ٢٥٧ فصل تشبه على كثير من الناس الحقائق الكونية بالحقائق الشرعية ، عموم خلق الله لكل شيء ، مما أمر الله به التوحيد ونهى عن الشرك ، أمر بالعدل والاحسان ٠٠٠ والتوبة والاستغفار
- ٢٥٧ ، ٢٥٨ لا حجة فى القدر لأهل الذنوب
- ٢٥٨ - ٢٦٠ احتجاج آدم وموسى ضل فيه طائفتان
- ٢٦٢ - ٢٦٥ لا يفرق كثير من الناس بين الحقيقة الكونية والحقيقة الشرعية كما لا يفرق بين الشرع المنزل والشرع المبدل ويحتج بقصة الخضر
- ٢٦٥ - ٢٧١ فصل فى الفرق بين الإرادة والأمر والقضاء والإذن والتحرير والبعث والإرسال والجعل الكونى والشرعى
- ٢٧١ - ٢٧٥ ، ٢٨٧ - ٢٩٠ ، ٣٠٢ مجامع الفروق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان
- ٢٧٥ - ٢٨٢ سبب حصول الكرامات للأولياء ، من معجزات الرسول ، كرامات حصلت للأصحاب والتابعين والصالحين

- ٢٨٣ قد تكون الكرامات بحسب حاجة الشخص ، لا يفضل من تحصل له كرامة مطلقا على من لم تحصل له
- ٢٨٣ - ٢٨٥ الشياطين تخبر الكهان والمنتئين ببعض المغيبات وتعينهم على بعض الأمور ، أو تحضر لهم ما يشتهون
- ٢٨٥ - ٢٨٧ متى تنصرف عنهم الشياطين
- ٢٩٠ - ٢٩٣ الحكمة فى النهى عن اتخاذ القبور مساجد وبناء المساجد عليها والنهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها
- ٢٩٢ - ٢٩٤ قد تعين الشياطين عابديها وتخاطبهم ، وتأتوى إلى المغارات والجبال فيظنها بعض الناس رجال الغيب أو الأبدال
- ٢٩٤ ، ٢٩٥ الناس فى خوارق العادات على ثلاثة أقسام
- ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ - ٣١٠ سماع الغناء والملاهى مما يقوى الأحوال الشيطانية ، المكاء والتصدية ، ما يبطل الأحوال الشيطانية ، من تلاعب الشيطان بالانسان
- ٢٩٦ - ٢٩٨ سماع الرسول والصحابة ، السماع المحدث
- ٢٩٨ - ٣٠١ أنواع الخوارق ، قد ترتفع درجة الرجل عند الله ، وقد تنقص بسبب الخوارق
- ٣٠٣ فصل ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمدا إلى جميع الإنس والجن
- ٣٠٣ - ٣١٠ سماع الجن للقرآن وإيمانهم به واجتماعهم بالنبي ، والإنس مع الجن على أحوال
- ٣٠٦ ، ٣٠٧ هل يدخل كافرهم النار ومؤمنهم الجنة

٣١١ - ٣٦٢ « قاعدة فى المعجزات والكرامات »

- ٣١١ ، ٣١٢ المعجزة ، من فرق بين المعجزة والكرامة
- ٣١٢ ، ٣١٣ صفات الكمال ترجع إلى العلم والقدرة والغنى ولا تصلح على الكمال إلا لله
- ٣١٣ ، ٣١٤ قد ينال العبد من الثلاثة بقدر ما يعطيه الله ، أمثله لذلك
- ٣١٥ - ٣١٨ جمع الله لنبينا أنواع المعجزات والخوارق ، من معجزات الأنبياء وغيرهم
- ٣١٩ - ٣٢١ الخارق ثلاثة أنواع محمود فى الدين ومذموم ومباح
- ٣٢٢ - ٣٣٥ فصل كلمات الله نوعان : كونية ودينية ، الكونية هى التى استعاذ بها النبي الكشف والقدرة فى النوعين
- ٣٢٣ عدم الخوارق لا ينقص رتبة المسلم عند الله بل قد يزيدها
- ٣٢٣ - ٣٢٩ أقسام الخوارق ثلاثة إما أن يتعلق بالعلم والقدرة أو بالدين فقط

- أو الكون فقط ما أعطى الرسول وخواص أمته
 ٣٢٧ - ٣٣٥ فصل أفضل الأقسام ما يتعلق بالدين من وجوه ، سبب قسلة
 الخوازيق للصحابه وكثرتها لمن بعدهم
- ٣٣٥ ، ٣٣٧ العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة ، الدين نوعان : أمور
 خبرية اعتقادية وأمر طلبية عملية ، موضوع الأول وما يسمى به
 وموضوع الثانى ، قد يدخل بعض الأمر والنهى فى القسم الأول ،
 ما اتفق عليه المسلمون
- ٣٣٧ ، ٣٣٨ الطرق الموصلة إلى القسمين وما تنازعوا فيه منها
- ٣٣٩ ، ٣٤٠ طرق الأحكام الشرعية المتفق عليها والمختلف فيها (١) الكتاب
 (٢) السنة التى لا تخالف ظاهر القرآن أو تخالفه
- ٣٤٠ ، ٣٤١ (٣) السنن المتواترة (٤) الإجماع (٥) انقياس على النص والإجماع
 (٦) الاستصحاب (٧) المصالح المرسلة
- ٣٤٣ - ٣٤٧ كثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا مصالح فاستعملوها ولم تكن
 كذلك ، لم تهمل الشريعة مصلحة قط
- ٣٤٤ - ٣٤٦ الاستحسان ، والاستقبح
- ٣٤٦ - ٣٥٨ ما يختلف فيه الناس من الحسن والقبح العقلى
- ٣٤٨ ، ٣٤٩ ما نهى الله عنه فهو باطل لا يشتمل على منفعة خالصة أو راجحة ،
 ما وصف بالإحباط والبطلان فى آيات معنى الباطل والصحيح من
 العقود والاعتقادات والمقالات
- ٣٥٠ ، ٣٥١ كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل ، معنى « ألاكل شيء ما خلا
 الله باطل » (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)
- ٣٥١ - ٣٥٦ ما اختلف فيه من التحسين والتقبيح من أفعال الله وهل ما حسن
 من المخلوق حسن منه وما قبح من المخلوق قبح منه ؟ ، بيان هذه
 الاشكالات بمقدمات (١) (٢) (٣) (٤) (٥)
- ٣٥٦ ، ٣٥٧ إن قيل تقسيم الإرادة لا يعرف فى حق المخلوق وأما الإرادة والمحبة
 فقد يعرف فى حقنا
- ٣٥٧ - ٣٦٢ إن قيل المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب
 والمحبوب إلخ والبغض لا يكون إلا عن منافرة إلخ بخلاف الإرادة :
 فالجواب من وجهين
- ٣٥٩ - ٣٦٢ هل يقال هو مفتقر إلى صفاته وذاته أو نفسه ؟
- ٣٥٩ - ٣٦٢ اشتمال النصوص على التقديس وإثبات الكمال لله

٣٦٣ - ٣٧٣ « وقال فصل تكلم طائفة من الصوفية في خاتم الأولياء وعظموا أمره »

٣٦٣ ، ٣٦٤ غلط في ذلك الحكيم الترمذى ، من خاتم الأولياء ؟ وهل هو أفضل من النبي

٣٦٣ ، ٣٦٤ المتفلسفة يفضلون الفيلسوف على النبي ، طوائف تفضل مشايخها وأئمتها ، بطلان ذلك

٣٦٤ ، ٣٦٥ لم تكن مريم نبية ، مبدأ الغلو في المخلوق كان من النصارى
٣٦٥ ، ٣٦٦ تسمية شخص بخاتم الأولياء باطلة ، آخر أولياء الله ، ليس آخرهم أفضلهم ، أفضل الأولياء من هذه الأمة

٣٦٦ - ٣٧٣ هل يكون من المتأخرين من هو أفضل أو أعلم أو أحكم من الصحابة، شبهة وأدلة من زعم ذلك

٣٦٨ - ٣٧٣ من زعم أن العالم يكبر وينمو كالصبي والنبات هل كل من تقدم أفضل ممن تأخر أو بالعكس ؟

٣٧١ ، ٣٧٢ معنى « له أجر خمسين منكم » « أمتى كالغيث لا يدرى أوله خير أم آخره » « أعجب الناس إيماناً قوم يؤمنون بالورق المعلق »

٣٧٣ - ٣٧٧ « وقال فصل تكلم الحكيم الترمذى في كتاب ختم الولاية بكلام مردود فقال »

٣٧٧ - ٣٨١ « وقال فصل قال القاضي ومثبتو النبوات حصل لهم

المعرفة بالله بثبوت النبوة من غير نظر ولا استدلال »

٣٨١ ، ٣٨٢ « سئل أيما أولى معالجة ما يكره الله في قلبك أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة »

٣٨٣ - ٣٩٤ « سئل عن قوله « زدنى فيك تحيراً إلخ »

٣٨٤ - ٣٨٦ من الأحاديث المكذوبة ، معناه ، ذم الحيرة ، من مدحها ؟

مدح العلم والهدى
 ٣٨٦ ، ٣٨٧ مراد من قال أول المعرفة وآخرها الحيرة ، وقوله الحيرة على معنيين
 ٣٨٧ - ٣٩٠ وقول الآخر الحيرة نازلة تنزل بقلوب العارفين بين اليأس والطمع إلخ
 ٣٩١ قول الآخر متى أصل إلى طريق الراجين وأنا مقيم فى حيرة المتحيرين
 ٣٩١ وقول محمد بن الفضل العارف كلما انتقل من حال إلى حال
 استقبلته الدهشة والحيرة ، وقوله : أعرف الناس بالله
 أشدهم فيه تحيرا

٣٩١ - ٣٩٣ مما نقل عن الجنيد : « انتهى عقل العقلاء إلى الحيرة » وما نقل عن
 ذى النون فى هذا الباب

٣٩٤ « سئل عن رجل يحب رجلا عالما فإذا التقيا ثم افترقا

حصل لذلك الرجل شبه الغشي من أجل الفراق إلخ » .

٣٩٥ - ٤٠١ « وسئل ما الحكمة فى أن المشتغلين بالذكر والفكر إلخ

يحصل لهم من الكرامات ما لا يحصل للمشتغلين

بالعلم إلخ »

٣٩٦ من أوتى العلم والإيمان أرفع درجة من الذين أوتوا الإيمان فقط
 ٣٩٦ - ٣٩٨ العلم ثلاثة أقسام ، قد يحفظ العلم من لا يفهم أولا يتميز فى إيمانه
 عمن فهمه ، قد يحفظه من لا يؤمن به

٣٩٨ شرح حديث مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن
 ٣٩٨ ، ٣٩٩ ليس كل علم أورث كرامة أفضل من علم لم يورثها
 ٣٩٩ ، ٤٠٠ تفضيل العلم على العمل قد يكون مطلقا وقد يكون مقيدا، أمثلة لذلك

٤٠١ - ٤٣٣ « سئل عن قوم داوموا على الرياضة فرأوا أنهم قد تجوهروا

وسقط عنهم الأمر والنهي »

٤٠١ - ٤٠٣ هؤلاء أكفر أهل الأرض وهم عابدون للشيطان كفرعون
 ٤٠٣ - ٤٠٥ قد يزعم بعضهم سقوط بعض الواجبات وحل بعض المحرمات
 للنخاوص ، يعذر الجاهل بذلك

- ٤٠٣ - ٤٠٥ قصة الذين شربوا الخمر من الصحابة وتناولوا الآية
 ٤٠٥ - ٤٠٨ حكم من جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة أو تحريم
 المحرمات أو جحد حل المباحات أو لم يعلم بذلك
 ٤٠٦ هل يجب قضاء الصلاة على من أسلم بدار حرب لم يعلم وجوبها ...
 ٤٠٦ - ٤١٣ هل يثبت حكم الخطاب في حق المكلف قبل التمكن من سماعه
 وهل يأنم
 ٤٠٧ ، ٤٠٨ حديث « يأتى على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة إلخ »
 الذى أمر أن يحرقه أهله ، شك عائشة فى خروج النبى — من
 مضجعه إلى البقيع
 ٤١٣ وأما قول السائل هل يصدر ذلك عن فى قلبه خضوع للنبى ؟
 ٤١٤ ، ٤١٥ معنى قول السائل قد تجوهروا ، وقوله حاصل النبوة يرجع
 إلى الحكمة والمصلحة
 ٤١٥ - ٤١٧ قولهم المراد بالنبوة ضبط العوام ولسنا من العوام
 ٤١٥ - ٤١٧ فوائد العقوبات السلطانية
 ٤١٧ - ٤٣٢ سقوط احتجاجهم بقوله (وَأَعْبُدْكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ) ، معنى الآية
 ٤٣٢ احتجاجهم بقصة الخضر على أنه كان شاهدا للحقيقة الكونية وأن من
 الأولياء من يجوز له الخروج عن شريعته
 ٤٣٠ ، ٤٣١ لفظ الشرع يطلق على ثلاثة معان

٤٣٣ - ٤٤٥ « سئل عن الحديث المروي في الأبدال إلخ »

- ٤٣٣ - ٤٤١ ليس اسم الغوث والأوتاد الأربعة والأقطاب السبعة والأبدال
 الأربعين والنجباء الثلاثمائة موجود فى الكتاب ولا فى السنة ولا فى
 كلام السلف والمشايخ المقبولين وحصروهم باطل
 ٤٣٤ ، ٤٣٥ فى هذه الأمة من يحرف ويلبس الحق بالباطل والعلم يميز ذلك
 ٤٣٧ - ٤٣٩ ، ٤٤٢ لفظ الغوث والغيث لا يستحقه إلا الله ونسبته إلى غيره شرك
 ٤٤٠ - ٤٤٣ لفظ الأوتاد والقطب والبدل يوجد فى كلام بعضهم ويريد به ...
 ٤٤١ حديث الأبدال وأنهم بالشام
 ٤٤٣ ، ٤٤٤ ليس فى أولياء الله من هو غائب الجسد دائما عن الأبصار ، كذب
 من زعم ذلك فى على أو محمد بن الحنفية ومحمد بن الحسن والحاكم
 والأبدال الأربعين
 ٤٤٤ لفظ خاتم الأولياء باطل ، من ذكره وانتحل

٤٤٥ - ٤٧٦ « مناظرة ابن تيمية لدجاللة البطائحية »

- ٤٤٥ - ٤٤٧ متى وقعت المناظرة ، حقيقة حال البطائحية وطريقهم وطريق أحمد الرفاعي وحاله
- ٤٤٧ - ٤٤٩ مخاريقهم تروج على من لم يكن خبيرا بها ،
- ٤٤٩ - ٤٥١ نهيه لهم عن اتخاذهم لباس الحديد أو غيره من المباحات دينا وقربة
- ٤٥١ حكم اليهود على التزام طريقة شيخ معين أو على أمور مبتدعة ، وهل فيها كفارة ؟
- ٤٥٢ - ٤٧٥ فصل فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة لكن مع إصرارهم ، مبدأ المناظرة وكيف جرت على يد الأمير
- ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٥ - ٤٦٧ زعمهم أن لهم أحوالا يدخلون بها النار وأن أهل الشرع لا يقدرون على ذلك ، طلب الشيخ أن يدخل معهم النار بشرط غسل أجسامهم
- ٤٦٢ ، ٤٦٣ لبس الأطواق
- ٤٦٦ ، ٤٦٩ الأحوال الشيطانية لا تدل على الولاية ، هؤلاء منهم من لا يصلي أو يتكلم في صلاته ويدعو أحمد
- ٤٧١ - ٤٧٤ البدع

٤٧٦ - ٤٩٢ « سئل عن المرشدة كيف كان أصلها وتأليفها وهل تجوز قراءتها ؟ »

- ٤٧٦ - ٤٧٨ وضع المرشدة ابن التومرت ، علمه وزهده ، نشر مذهبه في المغرب دعوته إلى الدين بالمخاريق
- ٤٧٨ - ٤٨٦ محنة الإمام أحمد وأئمة السنة ، مذهب أهل السنة في صفات الله ، الرسل وصفت الله بإثبات مفصل ونفى مجمل ، مذهب الجهمية والفلاسفة بالعكس
- ٤٨٥ - ٤٨٧ صاحب المرشدة من نفاة الصفات ويسمى أصحابه الموحدين اتباعا للمعتزلة ونحوهم ، التوحيد
- ٤٨٨ ، ٤٨٩ ويقول أيضا إن الله لا يقدر على غير ما فعل ، مذهب المسلمين في قدرة الله
- ٤٩٠ ، ٤٩١ ليس لأحد أن يضع عقيدة ولا عبادة من عنده

- ٤٩٢ سئل عن قراءة « المرشدة » هل تجب أو لا تجوز
- ٤٩٣ - ٥٣٠ « سئل عن قوم منتسبين إلى المشايخ إلخ »
- ٤٩٤ - ٤٩٦ ليس كشف الرؤوس وتفتيل الشعر وحمل الحيات من شععار الصالحين ، ابتدع هذا من انتسب إلى الرفاعي ، وهم نوعان أهل حال إبليسي وأهل محال تلبيسي
- ٤٩٧ - ٥٠٠ فصل وأما ما ذكروا من غلوهم في الشيوخ ، حال الشيوخ المقتدى بهم في الدين ، وطريقتهم ، وخيارهم
- ٤٩٩ - ٥٠٢ الاستغاثة بالشيوخ والسجود لهم هو الشرك الأكبر ، بعد الصحابة عن وسائل الشرك وذرائعه
- ٥٠٢ ، ٥٠٣ من يزعم أن انسجود إلى الشيخ سجود لله ، السجدتان بعبد الوتر بدعة
- ٥٠٣ ، ٥٠٤ فصل وأما فساد الأولاد بحيث يعلمه انشحاذاة ويمنعه من الكسب ، أو يخرجهم مكشوف الشعر ، ما يجب أن يعلمه المسلمون أولادهم
- ٥٠٤ ، ٥٠٥ فصل وأما النذر للموتى أو لقبورهم أو المقيمين عندها فهو شرك
- ٥٠٥ فصل فأما مؤاخاة الرجال النساء الأجانب وخلوهم بهن ونظرهم إلى الزينة الباطنة فهو حرام ، من اتخذ ذلك ديناً ؟
- ٥٠٦ فصل وأما التحلف بغير الله من الملائكة والأنبياء والمشايخ والملوك وغيرهم فهو منهى عنه ، الحلف
- ٥٠٦ - ٥٠٩ فصل وأما قول القائل لمن أنكر على ذلك : أنت شرعى ، لفظ الشرع فى عرف الناس له ثلاث معان ، الحقيقة الكونية ، الحقيقة البدعية ، الحقيقة الدينية
- ٥١٠ فصل فى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
- ٥١٠ ، ٥١١ فصل لباس الخرقه ليس له أصل شرعى ، أول من ابتدعه واستدل بحديثين
- ٥١١ - ٥١٤ انتساب الطائفة إلى شيخ معين والموالاة على متابعتة
- ٥١٣ فصل وأما قول القائل أنت للشيخ فلان وهو شيخك فى الدنيا والآخرة
- ٥١٣ ، ٥١٤ قول القائل لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفع الله به
- ٥١٥ - ٥١٧ فصل وأما قول القائل ان الله يرضى لرضا المشايخ ويفضبه لفضبهم
- ٥١٧ - ٥٢٠ فصل وأما قوله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب ، من يشهد له بالجنة ؟ هل يشهد لكل المشايخ بالجنة ويطلب الحشر معهم ؟
- ٥٢٠ ، ٥٢١ من أحب شخصاً لما أظهر من الخير أثيب. ولو كان باطنه بالعكس بخلاف من أحبه لهواه

- ٥٢١ - ٥٢٦ الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله ، الدين واحد وإن تنوعت
الشرعة ، لا يقبل من أحد بلغته دعوة محمد إلا الدين الذي بعث به
٥٢٤ ، ٥٢٥ ما اشتملت عليه الفاتحة من توحيد العبادة
٥٢٦ - ٥٣٠ المشركون يشبهون الخالق بال مخلوق ويستغيثون بالمخلوق ويعبونه
ويطلبونه الشفاعة
٥٢٩ ، ٥٣٠ تفسير (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي) الآية

٥٣١ - ٥٣٧ « سئل عن جماعة اجتمعوا على أمور من الفساد »

- ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ حكم السماعات المشتعلة على الفناء والصفارات
والدفوف ، متى حدث ذلك في الأمة
٥٣٢ - ٥٣٤ سماع الأنبياء والصالحين ، معنى « ليس منا من لم يتغن بالقرآن »
٥٣٤ الاستماع إلى القصائد الملحنة لم يحضره كبار المشايخ وحضره
بعضهم ثم تاب منه
٥٣٥ ، ٥٣٦ إقامة السماع لأجل اللهو واللعب ، المعازف ، حكم إتلافها

٥٣٧ ، ٥٣٨ « سئل عنم يواخي النسوان ويظهر شيئاً من جنس
الشعبذة »

٥٣٩ - ٥٤٢ « سئل عن جماعة اجتمعوا على أمور متنوعة من الفساد
إلخ وإذا ألزموا بالصلاة يقومون ويقولون خرجنا من
الحفرة ووقفنا بالباب »

٥٣٩ - ٥٤١ من جعل كمال التحقيق الخروج من التكليف

٥٤٢ - ٥٥٧ « سئل عما أحدثه الفقراء المجردون والمطوعون من
صحبة الشباب »

- ٥٤٢ - ٥٤٦ التحذير من صحبة مردان ، وما فعل الله بقوم لوط ، حكم اللوطية
ومقدماتها ، واستحلال ذلك ، واتخاذها ديناً
٥٤٦ - ٥٥١ النظر إلى المرأة الأجنبية والخلوة بها ، الماجريات ، القضاء بالقسط ،

- العفو عن الظالم ، وأمر الحاكم بذلك ، إذا كان الذنب لحق الله
اشتترطت فيه التوبة وهل يشترط مع ذلك إصلاح العمل ؟
٥٥١ ، ٥٥٢ بم كان الرسول وخلفاؤه يسوسون الناس ، أولو الأمر ، قوام
الدين بالكتاب والحديد
- ٥٥٢ ، ٥٥٣ إذا كان ولاية الحرب عاجزين عن إقامة المنتسبين إلى الطريق
٥٥٢ - ٥٥٤ إخراج الصدقة للتطهر من الذنب حسن ، هل من جملة التوبة
صناعة الطعام والدعوة إليه
- ٥٥٤ إخراج بعض المال على وجه الشكر ، اتخاذ لباس مخصوص من أجله
٥٥٤ - ٥٥٦ كشف الرؤوس والانحناء ، لبس الصوف وترقيع الثوب
- ٥٥٧ - ٥٨٧ « سئل عن سماع الصالحين وسماع القصائد الملحنة »
- ٥٥٧ - ٥٦٢ السماع الذي شرعه الله لعباده وأمر بالاعتصام به وكان السلف
وأتباعهم يجتمعون عليه هو سماع آيات الله ، ذم المعرضين عنه
٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٦ سماع المكاء والتصدية هو سماع المشركين ، المكاء
والتصدية ، من نسب إلى النبي سماع شيء منه أو أنه تواجد
عليه فقد كذب
- ٥٦٣ ، ٥٦٤ من زعم أن الفقراء تواجدوا وخرقوا ثيابهم لما بشروا بسبقهم الأغنياء
إلى الجنة وأن جبريل أخذ من ذلك خرقة فعلقها بالعرش كذب
- ٥٦٥ - ٥٦٩ ، ٥٧٦ لم يشرع الاجتماع على استماع الآيات الملحنة مع الضرب
واتخاذ ذلك ديناً ، ولم يبيح الخروج عن متابعة الرسول ، أنواع
اللهو التي رخص فيها الرسول للنساء ، غلط من شبه هذا
القسم بما قبله
- ٥٦٥ - ٥٦٧ سبب تسمية السلف للمغنين وأهل الدف مخنثين ، ماذا فعل
الرسول لما سمع صوت المغنية والمزمار
- ٥٦٩ ، ٥٧٠ لم يكن في القرون المفضلة من يجتمع على السماع المحدث بل أنكره
من أدركه منهم كالشافعي وأحمد ومن حضره من الشيوخ
تركه وعاب أهله
- ٥٧٠ ، ٥٧١ ممن رغب في هذا السماع ودعا إليه : ابن الراوندي والفارابي وابن
سينا اتباعاً لأسلافه
- ٥٧١ ابن سينا ركب فلسفته من كلام اليونان والجهمية والصوفية وسلك
طريق الإسماعيلية ، دين أصحابه « رسائل إخوان الصفا »
- ٥٧١ ، ٥٧٢ بعض الفلاسفة رغب في الغناء وزعم أن النفوس تزكو وترتاض به

- وتنهذب به الأخلاق بخلاف الحنفاء ، من حضره من الشيوخ لم يعلم غائلته
 ٥٧٣ - ٥٧٦ ما في الغنا من الضرر والمفاسد وقد يجعل لصاحبه أحـوالا شيطانية ، التغبير
 ٥٧٦ - ٥٧٨ حكم الغنا وآلات اللهو ، المعازف وما يرويه أبو عبد الرحمن السلمي ومحمد بن طاهر وغيرهما
 ٥٧٩ ، ٥٨٠ ما روى في فضائل صلوات الأيام والليالي والفيضة رجب والنصف من شعبان
 ٥٨٠ - ٥٨٢ طريقة من جمع الأحاديث في الزهد والرقائق، خير ما صنف في ذلك
 ٥٨١ مما كذب على جعفر « رسائل إخوان الصفا » ٠٠٠ هذه الرسائل صنفت على مذهب الإسماعيلية ، حقيقة مذهبهم
 ٥٨٢ ، ٥٨٣ كتاب الله وسنة رسوله الثابتة وما عليه الصحابة هو المميز بين الحق والباطل من المنقولات والمعقولات والأذواق والخوارق ٠٠٠
 ٥٨٣ - ٥٨٦ جماع الدين أن لا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع ، كلام العلماء في ذلك

٥٨٧ - ٦٠٣ « سئل عن السماع »

- ٥٨٧ - ٥٩٠ السماع الذي أمر الله به ورسوله واتفق عليه السلف ومشايخ الطريق ومدحوه وذموا المعرض عنه
 ٥٩١ آثار هذا السماع في الصحابة ثلاثة : خشوع القلب ، ودموع العين ، واقتشعرار الجلد
 ٥٩١ وجد بعدهم في التابعين ثلاثة آثار : الاضطراب والاختلاج والإغماء ، سبب ذلك ، وهل هو محمود أو مذموم ؟
 ٥٩١ - ٥٩٧ سماع التشديد المجرد أو مع التصفيق على وجه القربة بدعة ، أنكره الأئمة وتاب من حضره من خيار المشايخ ، الحكمة في عدم شرعيته
 ٥٩٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ حكم من حضر هذا السماع من المشايخ الصالحين وما اشترطوا له
 ٥٩٨ ليس للعالم شرعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التي بعث الله بهانيه
 ٥٩٨ غلط من ظن أن النبي والصحابة والتابعين حضروا هذا السماع والغناء والتصفيق ، وأن النبي تواجد لما أنشد : « قد لسمعت ٠٠٠٠٠
 ٥٩٩ حكم اتخاذ الرقص والدف عبادة ، عبادة المسلمين الركوع والسجود
 ٦٠٠ حث الفضيل على الإخلاص واتباع السنة واجتناب البدع فـى العبادات والأحوال

- ٦٠١ ، ٦٠٢ قول القائل : السماع شبكة يصاد بها العوام
- ٦٠٣ « سئل عن قال : السماع على الناس حرام ، وعلي حلال هل يفسق ؟ »
- ٦٠٤ « سئل عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف ثم يسجد بعضهم لبعض »
- ٦٠٥ - ٦٠٨ « سئل عن رجل يحب السماع والرقص ، فأشار عليه رجل فقال هذه الآيات »
- ٦٠٦ ، ٦٠٧ هؤلاء يزعمون أن الله يخاطبهم كما خاطب موسى وهم ثلاثة أصناف
٦٠٧ قوله : الزم الشرع يا فقيه وصل ،
- ٦٠٨ « سئل عن الذين يعملون النار والإشارات مثل التبل والزعفران »
- ٦٠٩ - ٦١٢ « سئل عن رجل فلاح لم يعلم دينه ولا صلاته وأن في بلده شيخا أعطاه إجازة فجعل يأكل الثعابين »
- ٦٠٩ - ٦١١ أكل الخبائث والحيات والعقارب حرام ، هذه المخاريق نوعان : حيلة طبيعية ، أو أحوال شيطانية
- ٦١٢ - ٦٢٠ « سئل عن رجل منقطع في بيته وإذا خرج إلى الجمعة يخرج مغطى الوجه ويخترع العياط إلخ فهل يسلم له حاله ؟ »
- ٦١٢ - ٦١٦ هذه الطريقة بدعية ، الرياء يبطل العمل ، الاتباع شرط في صحة العبادات ، معنى حديث الرهط الذين أرادوا التبتل

٦١٥ - ٦١٩ حكم تارك الجمعة أو الجماعة ، أصل دين الإسلام الشهادتان ، من حقق الأصلين ؟

٦٢٠ - ٦٣٦ « سئل عن جماعة يجتمعون على قصد الكبار فأراد بعض المشايخ أن يمنعهم عن ذلك بأن أقام لهم سماعا إلخ فتاب منهم جماعة فهل يباح هذا السماع إلخ »

٦٢٠ - ٦٢٤ قد أكمل الله لأمته الدين وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه إلى ما بعث به الرسول ، وقد أمر بكل معروف ونهى عن كل منكر ، كل ما لم يشرعه الله فضرره أكبر من نفعه أو لا نفع فيه ؟
٦٢٤ - ٦٢٧ عمل هذا الشيخ يدل على جهله أو عجزه عن الطرق الشرعية الستى تتوب بها العصاة ، هدى الله العباد بالسماع الشرعى
٦٢٩ كره الأئمة ومشايخ الصوفية السماع المحدث
٦٣٠ - ٦٣٥ حكم السماع إذا أقيم على وجه اللهو أو على وجه التدبير

٦٣٦ ، ٦٣٧ « وقال فصل المكاشفات والمشاهدات والسماع والمحاطبات والمحدثات ثلاثة أقسام »

٦٣٧ « وقال فصل في الكون بقظة ومناما »

٦٣٧ ، ٦٣٨ الرؤية بالعين للأشياء على وجهين
٦٣٨ ، ٦٣٩ للقلب حال ثالثة كما للعين نظر فى المنام ، تعبير الرؤيا
٦٤١ - ٦٤٦ « سئل عمن يقول إن بعض المشايخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب إلخ »

٦٤١ - ٦٤٥ من زعم أن الملائكة أو الأنبياء تحضر سماع المكاء والتصديده فهو كاذب وإنما تحضره الشياطين وتظهر آثارهم على أهل هذا السماع ، هل يجب القود على من قتل شخصا بحاله الشيطانية ؟

٦٤٦ - ٦٥٠ « سئل عن النساء اللاتي يتعمن بالعمائم الكبار لا يرين

الجنة ولا يشمن رأتحتها وقد روي في الحديث من
قال لا إله إلا الله دخل الجنة »

٦٤٦ - ٦٤٩ الجمع بين نصوص الوعيد ونصوص الوعد

٦٥٠ - ٦٥٨ « سئل عن الكبائر هل لها حد تعرف به وعن الصحيح
من الأقوال فيها »

٦٥٠ ، ٦٥٤ - ٦٥٧ أحسن الأقوال في حد الصغيرة والكبيرة ودليله وجوه ،
فساد الأقوال الأخرى

٦٥٠ - ٦٥٢ معنى قول القائل الصغيرة ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة
٦٥٢ - ٦٥٤ نفى الإيمان أو دخول الجنة لا يكون إلا عن كبيرة

٦٥٨ - ٦٦٠ « سئل عن شرب الخمر وفعل الفاحشة أيهما أعظم؟ وما هي
الكبائر؟ الخ »

٦٥٨ - ٦٦٠ الكبائر ، أكبرها الزنا أعظم من شرب الخمر ، يتغلظ الذنب بتكراره
وبالإصرار عليه وبما يقترب به من سيئات ، تتفاضل الحسنات أيضا

٦٦١ ، ٦٦٢ « سئل عن رجل مدمن على المحرمات فهل يكفر ذلك
بالصلاة أو الاستغفار؟ »

٦٦٣ - ٦٧٠ « وقال فصل وكل من تاب من أي ذنب فإن الله يتوب
عليه »

٦٦٣ - ٦٦٥ الشرك لا يغفر ، وما دونه تحت المشيئة ، من أنواع الشرك قد يتمثل
الشيطان للمشرك في صورة ممن يدعوه إلخ ، وقد يحصل له
حال شيطاني

٦٦٥ - ٦٦٩ الفرق بين كرامات الأولياء وخوارق أولياء الشيطان

٦٧٠ - ٦٩٦ « وقال فصل في أن التوبة والاستغفار يكون من ترك

الواجبات وفعل المحرمات »

- ٦٧١ ، ٦٧٢ جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات ، من لم يسأت بالإيمان والتوحيد فهو مخلد في النار
- ٦٧٢ ، ٦٧٣ يأمر الشيطان طلاب الدين بالشرك والبدعة ، ويأمر طلاب الدنيا بالشهوات البدنية
- ٦٧٣ - ٦٧٥ الأمر بالشئ نهى عن ضده ، والنهى عن الشئ أمر بضده ، ولفظ الأمر يعم النوعين
- ٦٧٥ فصل ويستغفر العبد ويتوب مما فعله وتركه في حال الجهل
- ٦٧٥ بطلان قول من زعم أن الله يعذب بلا ذنب أو يعذب من لا يعقل
- ٦٧٦ - ٦٧٨ هل يكون الفعل قبيحا - كالشرك والظلم والكذب والفواحش - قبيحا قبل النهي عنه ، وهل يعاقب من لم تقم عليه الحجة
- ٦٧٨ فصل وقد أخبر الله عن قبح أعمال الكفار قبل أن يأتهم الرسول
- ٦٧٩ - ٦٨٢ فصل أمر الله الناس أن يتوبوا مما فعلوا من السيئات وأن ذلك عندهم قبيح مثل النهي عنه
- ٦٨٢ - ٦٨٤ الأدلة العقلية القرآنية بينت قبح ما كانوا عليه من الشرك وغيره ، تفسير (أَلَا مَعَ اللَّهِ)
- ٦٨٤ ، ٦٨٥ صاحب البدعة لا يتوب منها غالبا ولو تاب تيب عليه
- ٦٨٥ قد يترك كثير من الناس واجبات لا يعلم وجوبها ، وقد يفعل أشياء لا يعلم قبحها
- ٦٨٦ فإن قيل إذا لم يكن معاقبا عليها فلا معنى لقبحها ؟ قيل فيه معنيان
- ٦٨٦ ، ٦٨٧ هل يتحقق الوجوب والتحريم بدون عقاب على الترك ؟
- ٦٨٧ ، ٦٨٨ يتوب من فرط في المستحبات ، توبة الإنسان من حسناته على أوجه ١ ، ٢ ، ٣
- ٦٨٨ ، ٦٨٩ التوبة غاية كل مؤمن حتى أفضل الأنبياء أمر أن يختم عمله بها ، تفسير : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة »
- ٦٩٠ - ٦٩٥ فصل مما يستغفر ويتاب منه ما في النفس من الأمور التي لو قالها أو فعلها عذب
- ٦٩٠ - ٦٩٥ تفسير (وَإِنْ تَبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ) الآية ، (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) الآية و (رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا) الآية و (وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ) الآية

الموضوع	صفحة
« وقال : الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب ويرفعه من المقام الأدنى إلى الأعلى ، التوحيد يذهب الشرك والاستغفار يمحو فروعه وهي الذنوب	٦٩٦ ، ٦٩٧
أبلغ الثناء وأفضل الدعاء ، الحسنات مشروط فيها الاتباع	٦٩٨ ، ٦٩٧
إذا وجد من العبد تقصير في حقوق القرابة والجيران والإخوان فعليه بالدعاء والاستغفار لهم	٦٩٨

٦٩٩ - ٧٠١ « وسئل عن قوله : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم واللييلة سبعين مرة »

المراد الاستغفار بالقلب مع اللسان ، التوبة الصحيحة توجب مغفرة الذنوب ، إذا عاد إلى الذنب فعليه أن يتوب	٧٠٠ ، ٦٩٩
هل يعود العمل إلى التائب من الكفر إذا ارتد ثم تاب وأسلم	٧٠٠
الردة تمحو جميع الحسنات ، من تاب مسن شرب الخمر ولبس الحرير لبس ذلك في الآخرة	٧٠٠

٧٠١ ، ٧٠٢ « سئل عن اليهودي أو النصراني إذا أسلم هل يبقى عليه ذنب بعد الإسلام ؟

٧٠١ ، ٧٠٢ معنى حديث : « أسلمت على ما أسلفت من خير » و « من أحسن في الإسلام لم يؤخذ بما عمله في الجاهلية - إلخ »	